الدكتور رياض عصمت
وزير الثقافة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إنكار الذات

للحياة وجهان: أخذ وعطاء. كثير من البشر ينسون العطاء، ولا يفكرون إلا بالأخذ، خاصة مع احتدام الحاجة الاقتصادية وسط تضخم مادي متفاقم عاماً إثر عام. وكثير من البشر ينسى أن لذَّة العطاء تماثل، إن لم تفق، لذة الأخذ. فسواء كان الكسب مالاً أو جاهاً أو شهرة، فإنَّ ما يذكر الإنسان به بعد رحيله عن هذه الدنيا الفانية هو مقدار ما أفاد به الآخرين. كتب جان بول سارتر قبل حوالي نصف قرن

ما معناه: «الوجود الإنساني مليء، لكن الفعل الإنساني هو وحده ما يمنحه معنى.» قصد فيلسوف الوجودية في القرن العشرين أن البشر يتواجدون، ويعيشون، فلا ينقص الوجود شيئاً بغياب أحد، ولكن الدور الذي يضفيه امروٌ معين هو ما يمنح حياته تلك مغزى وقيمة، وبالتالي توصل سارتر إلى ضرورة الانتماء -وهو أمرٌ يختلف عن الانضواء- إذ إنه يعبر عن تكامل «الحرية» و«المسؤولية» معاً. لذلك، كان خير دفاع عن الوجودية هو عنوان المحاضرة، ومن ثم الكتاب، اللذين طلع بهما سارتر: «الوجودية مذهب إنساني». بدورها، سعت رفيقة دربه سيمون دوبوفوار لتأكيد إنسانية الوجودية. وحاول الاثنان تقريبها ما أمكن من الماركسية، لولا أن زميلهما الأكثر شباباً ألبير كامو أعلن انشقاقه، وتمرده ضد الانضواء الذي يلغي الفردية. لكن العطاء، الأمر الذي لم يختلف عليه أحد، ظل السمة التي طالبت به الوجودية، مثلما طالبت الأديان السماوية وعديد من الفلسفات والمذاهب في شتى بقاع الأرض.

التأميم في الاشتراكية هو عطاء، إنما بقانون تفرضه السلطة لتحقيق العدالة الاجتماعية بين الطبقات، وتمنع الاستغلال. أما الصدقة في الإسلام فهي أنموذج عن العطاء باختيار ناجم عن عقيدة تكرس القيم السامية والتكافل الاجتماعي وفعل الخير بين البشر. أما المسيحية فتدعو للعطاء عبر مؤسساتها، وإن كانت الحروب الصليبية التي شنت باسمها اعتمدت الأخذ، لا العطاء. بين الإرغام القسري والرغبة الذاتية مسافة.. وتنويعات. لكننا نودّ التوقف عند أنموذج فريد للعطاء، هو أنموذج الروائي الروسي الشهير ليو تولستوي. كان تولستوي ابن الطبقة الإقطاعية، يمتلك أراضٍ شاسعة، ويتحكم بأرزاق عديد من الفلاحين وأسرهم، ممّن يعيشون ويعملون على أراضيه الشاسعة. لكن تولستوي، الأديب والإنسان، نضج إنسانيّاً عبر السنين، فاتصف بمزيد من الزهد، إلى حدّ أنّه وهب أراضيه وأملاكه للفلاحين، واكتفى بما يوفر له حياة مقبولة فحسب. إنه سلوك نادر لعبقرية أدبية أنتجت «الحرب والسلام» و«آنا كارنينا»، وسواهما من الروائع الروائية.

إحدى أبرز مشكلات التربية المعاصرة، سواء في البلدان الرأسمالية، أو تلك التي

كانت ذات يوم اشتراكية، أو في بلدان العالم الثالث التي يعاني أبناؤها من بطالة مقنعة، أو تضاؤل لفرص الشباب في الحصول على دخل يؤمن لقمة العيش الكريمة وبناء أسرة، فإنه من الصعب إقناع الأجيال بأهمية العطاء. لكن هذه الصعوبة يجب ألا تجعلنا نستسلم للخطأ، ونقبل بتكريس قيم سلبية للأخذ، بل للجشع والتكالب على الأخذ والكسب المتزايد، من دون التفكير بالعطاء. والحق يقال، كان في الأنموذجين الاقتصاديين العالميين -الرأسمالي والشيوعي- أخذ وعطاء. إنها مسألة نسبية بلا شك، ولكن الأهم هو الضمان الاجتماعي، مثل التقاعد والعلاج الصحي. كما أنها مسألة تربية وتعليم، توفر للشباب قناعات وأفكاراً تؤكد دورهم البنّاء في المجتمع، وتنافسهم بروح رياضية، وتحقيقهم لذواتهم من دون انتهاك لكيانات الآخرين. كثير من هذه القيم الإيجابية تضاءلت في البلدان الرأسمالية والشيوعية معاً، وحلت محلها قيم سلبية تغلغلت في وجدان الشباب. تجلى الأنموذج الرأسمالي للحياة في فيلم أميركي بعنوان «السعي وراء السعادة» من بطولة النجم الأسود ويل سميث وابنه، وهو فيلم إنساني مؤثر وحافل بالمأساة عن كفاح إنسان عادي لإعالة ولده وسط مجتمع لا يرحم، وتأمين وظيفة تضمن له ولطفله لقمة عيش كريمة. أما المخرج التسجيلي ذائع الصيت مايكل مور فقدّم في العام الماضي فيلم «سايكو»، وهو الذي تلا فيلمه الجريء «٩/ ١١»، وتناول فيه هذه المرة قضية التأمين الصحي في الولايات المتحدة، ومدى بؤس القوانين التي تحكمه، خاصة بالمقارنة مع دول مثل كندا وفرنسا. إنها صيحة من أجل العدل الاجتماعي، الذي يثبت مور بشجاعة نادرة أنه لا توجد منه في الولايات المتحدة إلا القشور.

أترانا نتحدث عن مفهوم شعري، وليس واقعياً؟ حتى لو كان في الأمر شيء من الحلم، لم لا؟ كما يقال: «الحلم جنين الواقع.» وهذا المفهوم الشعري عن العطاء، وإن يكن لبعض الأذهان غريباً وآفلاً، إلا أنه ممكن، وليس في حكم المستحيل. بل نضيف إنه مفهوم ضروري، لأنه بغيابه لا يبقى البشر بشراً، بل يعودون لتكريس ما هو أسوأ من شريعة الغاب. لماذا أسوأ؟ لأن الوحوش تفترس طرائدها عندما تجوع فقط. ولكن

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الوحوش نادراً ما تخزن ما يزيد عن حاجتها، ولا تتنافس في جمع الأملاك، وليس بين أفراد الصنف ذاته من الحيوان طبقات. إن مصطلح «المفهوم الشعري» يتضمن الواقع حكماً، أما «المفهوم الواقعي» فلا يتضمن بالضرورة الشاعرية. ولكن العطاء يتطلب دافعاً. ترى هل على الدافع أن يكون شريعة سماوية، أم قانوناً تسنه الحكومة وتفرضه كالضريبة، أم هو محض اختيار مبعثه الشفقة والتعاطف مع ذوي الحاجة؟ في اعتقادنا، إن أهم دافع للعطاء هو «المحبة». تلك المحبة التي نجدها في كتابات أديبنا العربي/العالمي الكبير، الذي لا يخلو منزل أمريكي من كتابه «النبي»، ونعني جبران خليل جبران.

كتب جبران كثيراً وأشاد بالعطاء. ليس في «النبي» فحسب، وإنما في «الأجنحة المتكسرة» و«الأرواح المتمردة» وسواهما. إن العطاء عنده نابع من المحبة: المحبة للإنسان، للوطن، للعالم، للكون بأسره. كانت حياة جبران نفسه أمثولة لهذا العطاء، بحيث خلد في موطنه العربي وفي مهجره الأمريكي معاً. لذلك، نجد أعماله باقية في ذاكرة ووجدان الإنسانية جمعاء، بل ومسرح أو استلهم بعضها للمسرح بما فيها سيرته الذاتية، ولحنت بعض كلماته في أغنيات رائعة، وترجم بعض أدبه إلى مختلف لغات المعمورة، وقدمت مسلسلات تلفزيونية عن حياته. ومن منا لا يذكر كيف شدت فيروز بكلمات جبران، وبالأخص بمقاطع من كتابه الأشهر «النبي»، الذي ترجم إلى العربية مرات عدة، كانت أحدثها ترجمة جميل العابد، التي نشرت بشكل أنيق. ويستطيع من يقرأ أو يصغي لنصائح (المصطفى) في كتاب «النبي» أن يحس بالإيمان في العطاء، وبالتضحية وإنكار الذات. وينجح جبران بعد رحيله بزمن طويل في التأثير على النفس البشرية كي تتماهى مع الوطن ومع البؤس ومع الحاجة الإنسانية، فتهب بسخاء. إنها لذة العطاء، التي تسعد أضعافاً مضاعفة أكثر من لذة تكديس المال، أو التباهي بالنجاحات. فكلمة ثناء بعد رحيل المرء عن هذه الدنيا خيرٌ من كثير من الأمجاد الدنيوية الزائلة.

كلمة العدد

حسام الخطيب.. يقرأ فعل الزمن

د. علي القيم
رئيس التحرير

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لا أحسب أن أحداً من الأدباء والنقّاد العرب، أثروا الثقافة العربية، في القرن العشرين، ومازال، مثلما فعل الأستاذ الدكتور حسام الخطيب، هذا الإنسان الكبير، الرائع الذي تجاوز في كتاباته ودراساته ومؤلفاته وترجماته ومقالاته الأدبية والنقدية على مدى أكثر من نصف قرن، بوح المشاعر، واندمج في المناخ الوجداني والواقعي للثقافة العربية، فأمدّها بالحنين ووهج الذات، فكتب عن الوطن

الضائع، والجنة المفقودة والأحداث الجسام، ووجد المشاعر، وربط بين تجمّعات الماضي والحاضر ليصوغ منها المشاهد الفجائعيّة التي تعبّر عن أرواحنا المتعبة..

لقد توفرت لأديبنا الكبير الدكتور حسام الخطيب على مدى إبداعاته الكثيرة دلالات ورؤى ورموز ومساحات واسعة المدى والأطياف سمحت له شحناتها الوجدانية، ومثيرات الشجن والحنين بالولوج في موضوعات في غاية الأهمية، مما أثرى الحراك الثقافي والأدبي، وحرك الأقلام والمشاعر الفيّاضة لتتحول إلى عناصر جمالية، ومثاقفة كونية تطفح بلَوعة الروح ولهب الذكرى، لتأخذ طريقها في النمو والتطور، وجدانياً وجمالياً وفكرياً، يناسب تطور الأحداث والمتغيرات التي نعيشها في زمن القلق المتسائل، وغياب اليقين، والافتقار إلى حل، والمريك والمرتبك، والرفض والقبول، واحتشاد القصيدة بألفاظ النهاية والحافات الأخيرة للأشياء والبشر والأفكار..

لقد استمد طلاب الجامعات والدراسات العليا، من أديبنا الكبير «حفريات المعرفة» و«الأدب المقارن» و«جمالية المثاقفة» والاستقصاءات اللامعة حول كيفية أن الأسس التاريخية للمعرفة، إمّا أن تمكّن من القول أو تمنعه، فالخطاب يعترض المسافة بين الصمت والتقرير اللفظي المنظّم.. لقد علمهم نظريات «فوكو» عن «الكلمات والأشياء» و«الرقيب والعقاب» حول الإنتاج المنظم للأقوال وتبادلها وتداولها، وما ينبغي أن يقال على وجه الدقة والتمام. وهو بذلك لا يرجع إلى الوراء، والزمن يمشي قدماً إلى الأمام، وما يفعله الإنسان لا يمكن إلغاؤه، وما لم يفعله لا يمكن العودة بالزمن لتداركه.. إنه لا يصالح، فعله كفعل الشاعر العربي الكبير أمل دنقل.. عنده تبدأ شمس الوجود في الشروق، حتى يعود زمن النهضة إلى مبتغاه:

كعنقاء قد أحرقت ريشها
لتظل الحقيقة أبهى
وترجع حلّتها في سنا الشمس أزهى
وتفرد أجنحة الغد
فوق مدائن تنهض من ذكريات الخراب.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حسام الخطيب، شاهد عصره الأمين، لقد ارتطم وعيه وخياله، بمفردات وحوادث عالمنا المرعب، وما حدث في فلسطين من نكبات كثيرة حاصرت وأرهقت وأرعبت كل عربي، فكيف بإنسان مثله صاحب إحساس ومشاعر مرهفة.. لقد عبَّر من خلال كتاباته ودراساته عن شخصية البناء الدرامي والروائي في الأدب العربي، ومدى قدرتها على تكثيف الإحساس بعوالم الحياة المختلفة، ومدى كونها الأداة الفاعلة لرؤية العالم بوصفها أنموذجاً فنياً ممثلاً للعقل الجمعي للجماعة التي ينتمي إليها الاديب والفنان والمثقف، ويعبّر من خلالها عن رؤيته للعالم، وهذا الإنسان هو أنموذج متقدم جداً لإدراك الكون والوجود.

❁ ❁ ❁

حسام الخطيب، عاش تجربة الثورة الفلسطينية، بكل أبعادها وأهدافها ومضامينها وتحولاتها، وعاش تجربة الأدب الأوروبي، في تطوره ونشأته ومذاهبه واتجاهاته النقديّة، ودرس ملامح وأشكال القصة والرواية والثقافة واللغة العربية، وتخصص في دراسة وتعليم الأدب المقارن عربياً وعالمياً، وتوقف مطولاً عند «عصارة الأيام» وفي «انتظار غودو» و«نظرية الأدب» ليحدد «رؤية العالم» في مراحل الإنجاز الروائي والأدبي في اتجاهاته المتعددة.. في أحيان كثيرة تختلط الحقائق بالأحلام والرؤى، ونسمع نفير الريح يضرب طبلة الأذن، ونسبح من دون تجديف في طوفان، ويستمر الكابوس.. الحلم هو الواقع، وهو العالم الذي اختلطت فيه كل الرموز، ويختلط الواقع بالأسطورة، وهكذا هي رؤية الكاتب والأديب في عالم الأدب المقارن، بإيقاع بانورامي واسع الأطياف والمدى حيث «تبرأت الشمس مما يحدث، فغطست في الأفق ولم تشرق ثانية، وهذا هو مفتاح الأدب عند حسام الخطيب، حيث الإحساس ببانوراميه الحدث وفجائيته معاً، ورسم ملامح وقسمات واضحة في الزمان والمكان، مما جعل كتاباته أقدر على الإقناع والإمكان والمتابعة، رغم قسوة العالم الذي نعيش فيه، وبهذا الوعي لدور الناقد، يطل علينا أديبنا الدكتور حسام الخطيب ليفسّر حركة الواقع الثقافي العربي والعالمي، وليقدّم ربطه المحكم ما بين الجمالي والاجتماعي في الفن والأدب، ويعتمد في ذلك على ذاكرة خصبة، ومعرفة متنوعة واسعة في مجالات الأدب والثقافة، ليطوف بنا في

مجالات عديدة، منجزاً كتابات نوعية تركت أثرها على أجيال من النقاد والباحثين وطلاب العلم والمعرفة في شتى أرجاء وطننا العربي الكبير.

حسام الخطيب يكسر الحدود بين أجناس المعارف المختلفة ويقدم الأدب المقارن بلبوس حديث يقرأ فعل الزمن، داخل الإنسان وخارجه، ويربط بين زمن البراءة وزمن الحكمة. وفي جميع الحالات يعرف طريقه إلى القارئ والمثقف والناقد والأديب المتخصص، وهنا تكمن أسلوبية هذا الإنسان، الذي يواجه المتاهة، ويلتقط منها صوره وكتاباته المقنعة..

ومن المعروف أن الإرادة تلعب دوراً كبيراً في تنشيط الإنسان، ودفعه إلى العمل والمثابرة، وأشهد أن إرادة الدكتور حسام الخطيب وذاكرته، لعبت دوراً كبيراً في رسم صورة جميلة ومعبرّة عن ملامح الأدب العربي والعالمي وأعلامه ومناهجه واتجاهاته، فهو مازال حتى الآن (بلا حسد) يجيد التركيز والانتباه ويعرف كيف ينشط ذاكرته بأشياء محببة إلى قلبه وإلى قلوب مستمعيه، ويبدو أن لـ(أم الأمين) زوجته الفاضلة دورها المميز في ذلك، فهي التي تقوم منذ سنوات طويلة بترتيب برامجه وكتاباته ودراساته، وتعمل بجد ونشاط على حماية جملته العصبية وتنشيط ذاكرته وإبقائها نضرة.. وأحسب أن المحاكمة والتفكير الحرّ والتجدد المعرفي، وطريقة تعامله مع اللغة، بتراكيبها وغنى مفرداتها، من أهم الأمور التي ساعدت كاتبنا الكبير على إنجاز أعماله ومؤلفاته ودراساته الكثيرة..

* * *

حسام الخطيب، كان يعلم جيداً، منذ بدايات كتاباته الأولى أن الأديب والناقد الحقيقي هو الذي يعرف ما يحاكيه.. يهتم بالحقائق وليس بالتقليد، ويرغب أن يخلف أعمالاً كثيرة كذكرى حسنة لشخصه، ويفضل أن يكون هو موضوع الثناء بدلاً من أن يؤلف قصائد الثناء..

لقد حقق ما كان يصبو إليه، وكسب المزيد من المحبة والتقدير والاحترام والشرف والفائدة، وقد استفادت من عمله ودراساته الأجيال المتلاحقة في جامعاتنا العربية، لأنه كان بحق معلماً وباحثاً وناقداً من طراز فريد.. لقد أحبه الناس لحكمته ولأنه استطاع أن يعلم طلابه، ويرتقي بهم إلى آفاق واسعة مشرعة على الآخر..

قديماً قالوا: إن اللغة الرفيعة لا تقنع المستمعين، ولكنها تدخل الطرب إلى نفوسهم، وفي كل وقت وعلى كل حال، يتغلّب الكلام المؤثر بسحره الذي يغمرنا به على غيره من الكلام الذي يهدف إلى الإقناع والإرضاء..

إن السيطرة على قناعاتنا أمر ممكن عادة، أما ما هو سام في بلاغته فأثره لا يقاوم، وقوته عنيفة تسيطر على الأفئدة.. ولا تنجم المهارة في الإبداع والنظام والترتيب في الموضوع عن أمر واحد أو اثنين، بل تأتي نتيجة لعمل شاق في بناء الموضوع بأكمله، وحين تومض شعلة البلاغة في اللحظة المناسبة يتناثر أمامها كل شيء كالصاعقة، وتتمثّل في الحال قدرة (حسام الخطيب) في كامل استعلائها، وفي بلاغتها الفطرية..

في كتاباته لا يسعى إلى زخرف المظهر وبريقه، بل يسعى وراء الجديد في التعبير عن الآراء، ويدرك أن التعابير الجميلة واللمسات السامية والتناغم الساحر تساعد على إبداع المقالة الناجحة التي تجلب السرور والبهجة، والإدراك الجمالي، الذي في كثير من الأحيان بحاجة إلى التأويل، وهو أصل القراءات ومبررها الأول والأخير، لأنه محاولة لاستعادة مناطق مجهولة داخل ذواتنا، ظلت مستعصية على التحديد المستند على الفهم النفعي للحياة، وهذه المناطق لا يمكن الإحاطة بها من خلال «حدود مألوفة» كتلك التي نستعين بها من أجل تنظيم تجربة المعيش اليومي، فمداها أوسع من ذلك، وحجمها أعمق من أن يرد إلى تدبير شأن مرئي.

التأويل في الأدب عند حسام الخطيب له ضرورته بوصفه الشرط الأساس لكل قراءة مبدعة، فالتأويل في جميع السياقات إنتاج لمعرفة جديدة مصدرها الحصيلة المترتبة على حالات التشخيص الفني، وسيقودنا هنا إلى الإمساك بمدلول نهائي تنتهي عنده كل الدلالات، والانتقال من أصل أول إلى فروع مضمرة ليس ترفاً، بل هو حاجة حقيقية مودعة في الذات الإنسانية، ولايمكن تصور الوجود الإنساني من خلال بعد واحد، وذاك هو مفعول الثقافة ودورها في ضبط حدود المعطى العام الذي تحتكم إليه مجموعة بشرية ما، فالثقافة تجزئ المضمون وتثبت في وحدات ثقافية تلك الأجزاء الواسعة من المضمون الذي نطلق عليه «الأيديولوجيا».

حسام الخطيب، اهتم أيضاً في دراساته بنقد وتفكيك مكونات الثقافة العربية من أجل فهم العناصر الفاعلة فيها، والمحركة لنظرتها لذاتها وللآخرين من حولها، وقد نجح في تسليط الضوء على مناهج نقدية، ونتاجات ثقافية، ومدارس فكرية كان لها دورها في أنظمة العقل وصور الثقافة ومؤسساتها وحقول المعرفة المتعددة، وبذلك نستطيع القول إنه اقترب من أهم قضايا الأدب العربي وما تخبئه من قيم وأنساق، وأسس لانطلاقة الأدب المقارن، واستكشاف الآخر.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كلا: لم يخرج العرب من التاريخ ولن يخرجوا منه

د. أحمد عمران الزاوي *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هو عنوان لكتاب وضعته في حوالي سبعمئة صفحة وصدر في أواخر عام ١٩٩٩م بدأته ببطاقة إهداء وتحية وفاء.

قلت في الأولى:

لأنـــه تاريخنا الذي يجب أن نعتمد فيه علـــى سوانا ولأن ما نصبوا إليه يتجاوز ما نحن عليه أهدي هذه الدراسة التفاؤلية إلى قائد المستقبل الدكتور بشار حافظ الأسد وضعت الأمة جراحها بين يديه واعتمدت في هذا الزمن

---

* أديب وباحث ومحامٍ سوري.

العمل الفني: الفنان محمد الوهيبي.

الصعب عليه وهو بما وهبته عناية الله من فكر ووجدان وبما استودع من حكمة الحكيم الأول جدير بقيادة السفينة مخترقاً بها جبال الأحداث.

وقلت في تحية الوفاء

إلى فقيد الفكر والشعر الدكتور حامد حسن

أبا سهيل إن كان القدر قد قضى أن تغادر قبل أن يطوق جيد هذا الكتاب بقلادة من قلمك البديع وفكرك السامي. فقد قضى واجب الوفاء أن تكون فاتحته تحية تهدى إليك.

أنت:

إذ حللت بنا كالضمير وكان لك الحضور الأبرز في أفكارنا.

أنت: الأديب، الشاعر، المؤرخ، البحاثة، بحر العلوم.

سوف يبقى فكرك شمساً تنشر الضوء والدفء في الأقلام الأدبية وخوالدك التي صيغت بحبات من الذهب النقي وانتظمت بعقود من اللؤلؤ سوف تبقى على الأجيال معاداً للأجيال.

بين يدي روحك العذبة وفكرك الخالد وطلعتك الشاهقة.

أنشر أبحاث هذا الكتاب التي تلاقينا على صعيد القناعة بها فكنت المشجع الأكبر على انطلاقها من دهاليز النفس لتأخذ طريقها إلى المواطن العربي لعلها تكون إحدى رؤى المستقبل لديه.

أيها القارئ:

في عام ١٩٩٢ أصدرت مكتبة مدبولي ترجمة عن الإنكليزية لكتاب الدكتور فوزي منصور بعنوان خروج العرب من التاريخ وكان الكتاب صدر بأصله الإنكليزي في سنة ١٩٩٠م.

كما روي عن الأديب الراحل سعد الله ونوس قوله: أخشى أن يكون العرب قد خرجوا من التاريخ.

فكان الكتاب والقول محرّضين لي على وضع كتابي بصيغة النفي والتحدي تحت عنوان «كلا لم يخرج العرب من التاريخ ولن يخرجوا منه».

فكلمة كلا يقول علماء اللغة تفيد النفي والتحدي والردع لقد كنت ومازلت أعتقد أن حق الأمة على أدبائها ألا يكتب الأديب العربي إلا عن العرب قبل الكتابة عن الآخرين.

فالكتابة عن الأمة العربية فرض عين على الأدباء العرب أمام هذا العدو الذي سكن في خاصرتنا وعينه تتوهج طمعاً في أرضنا وتاريخنا ولغتنا وثقافتنا.

إن القفز إلى العالمية من فوق هذه

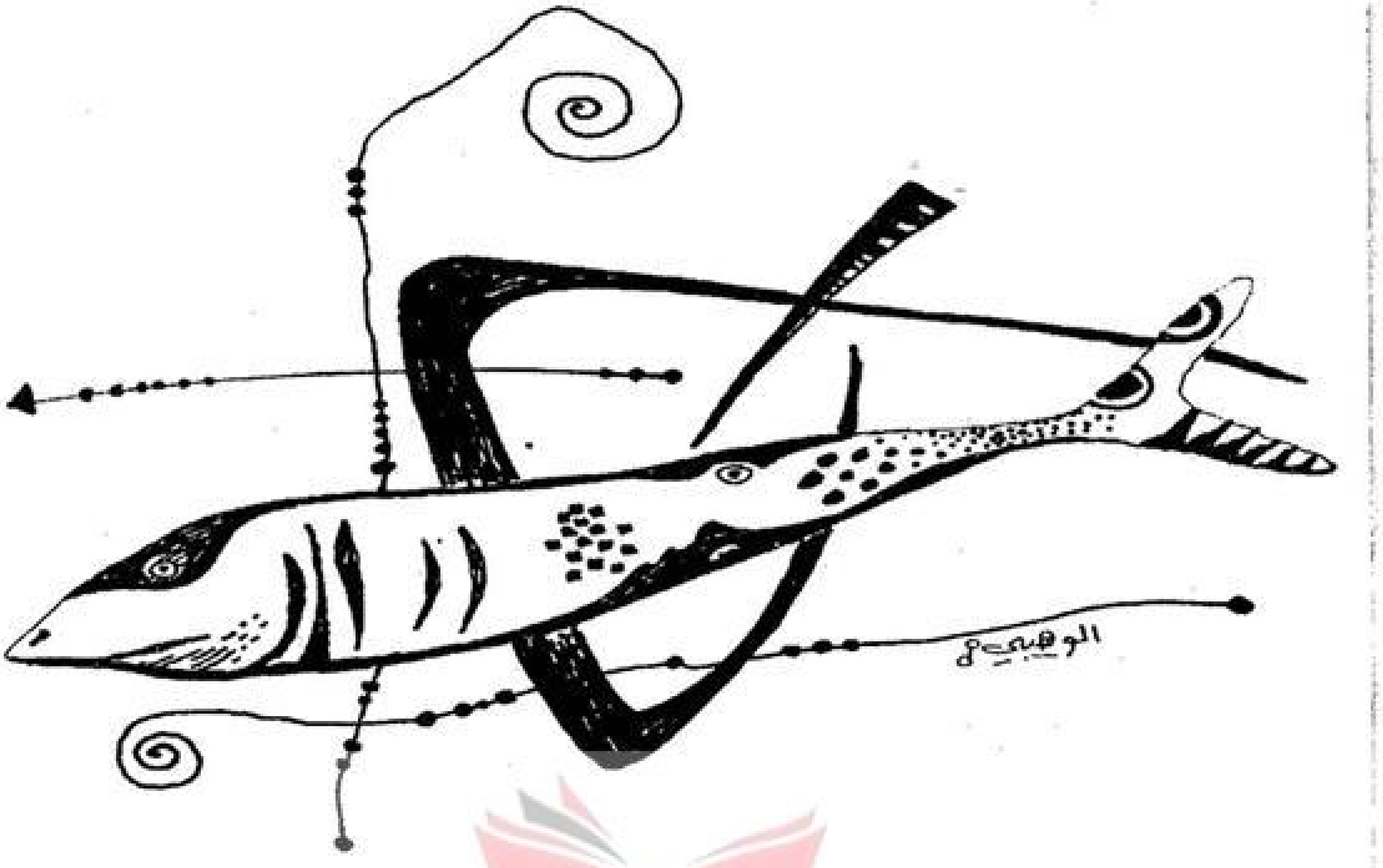

الحواجــز هو هروب من الواقــع يؤجل ولا يحسـم لأن أي عربي على هذه الأرض شاء أم أبــى صغر أم علا ولأي طائفة انتمى هو هدف مشروع لهذا العدو.

هذه المرأة التي تنظف بيتي وتغسل ثيابي لقــاء هذا الأجر الزهيد الــذي يسد غائلة الجوع وفضيحة العري كانت كما قالت ربة بيت صالحــة في يافا دفعت بهــا وبأبنائها ظــروف التشرد إلى ما هــم عليه من حالة قلت في نفسي: هل من عاصم في هذا الجو الملبد الرديء من أن تصبح زوجتي أو أختي أو ابنتي غسالة في بيت أجنبي؟

ومتى إن ظلت الكوارث القومية تتساقط علينا مثلما هي اليــوم أعلق كيس حوائجي بعصــاي على كتفي ومــن ورائي وبين يدي زوجتي وأبنائي وأحفادي ضاربين في الكون على غير هدى؟

نعيش اليوم عصر فلسطــين والعراق وكوسوفــو والبوسنة والشيشان وغزة ولبنان والجولان وتونس ومصر وليبيا واليمن ونرى علــى التلفاز كيف يلتجــئ النساء والرجال والشيوخ والأطفال إلى أعماق الأدغال هرباً من الاغتصاب والاغتيال.

البيــوت تحولــت إلى خرائــب والمزارع صارت أراضي محروقة.

القرن العشرون غادرنا فاغر الفم جاحظ العين أمام هــذه الوحشية التي تجاوزت في كفرهــا عصور ما قبــل التاريخ وهو يقول: هذا هو الإنسان في كل مكان.

إن كتاب الدكتور منصور وعبارة الأستاذ

ونوس نفختا رماد الزمن عن الجمر القومي الكائن في أعماقي وتوهج وأضاء الزوايا المظلمة ووضعني وجهاً لوجه أمام شريط من حقائق التاريخ ظلت تنير الكون ثمانية قرون.

قلت:

إن أمة تفرض عليها الظروف أن تخوض أربعة حروب خلال ربع قرن وفي كل منها زلزال عنيف فتضمّد جراحها بعد كل حرب استعداداً لما يليها دون أن تنطفئ جذوة الجهاد فيها، هي أمة لن تستطيع أية قوة أن تخرجها من التاريخ.

حرب القادسية: وحدها قضت على الوجود الفارسي في العراق.

ومعركة اليرموك: وحدها قضت على الوجود البيزنطي في سورية.

لذلك:

مطلوب من مثقف هذا الزمان أن يرفع عن الحقائق جلاميد القرون. وأن ينظفها من الأكاذيب وأن يقدّمها إلى الجيل بمنطق الجيل لكي يجابه بها طواغيت التخلف والتشقق واليأس.

مطلوب من أديب هذا الزمان أن يثبت بالنصوص أن الصلة لم تنقطع بين عرب اليوم وبين أولئك العرب الذين وضعوا حروف الحضارة الأولى ورفعوا على خط الزمن البياني مئات المنارات الباهرة بينما كان الإنسان في كل مكان يعيش في عتمة الجهل والتخلف..

إننا ننتمي إلى هذا الشرق.

بل كان هذا الشرق ينتمي إلينا فكنا النور مقابل الظلام والعلم مقابل الجهل والتقدم مقابل التخلف وحينما كان يذكر الشرق كان يعني هذه الأمة التي نحن منها. غير أن تلك الحقائق على وجاهتها لن تردم لوحدها الفارق الحضاري بيننا وبين الغرب، ولن تستطيع لوحدها أن تجعل منا أمة فاعلة في الحياة الإنسانية..

لقد غدا من الأمور الملحة أن نتحدث عن المستقبل أكثر مما نتحدث عن الماضي.

فالتطور الذي وسع الآفاق في السياسة والاقتصاد وخطط الحرب ووسائل الإعلام والثقافة والذي قرب الأبعاد وطوى الزمان وأكد أن الكرة الأرضية ليست أكثر من قرية صغيرة في هذا الكون اللامتناهي.

هذا التطور الكبير فرض اقتحام الحاضر والتدخل في تفكيره لاستشراف المستقبل إذ بمقدار العمق المعرفي للحاضر تزداد رؤية الآتي.

من سوف يسود من المتنافسين؟

من سوف يحني هامته من الأمم؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ما هـي ملامـح القوانين التـي سوف تتحكم في المجتمع؟

تلـك أولى مهمـات القـارئ الحصيف لحركة التطور.

في أواخـر ثمانينيـات القـرن الماضي تداعى القطب الشرقي فخلا الميدان وامتلكه الحصان الغربي.

ومثلما تجاوز العلم بالعلماء حدود الأرض إلى الفضـاء هكـذا تجاوز علـم الاجتماع حدود الأقاليم واتجـه بالإنسان إلى ما بعد القوميـة إلى وحدة القوميـات في السياسة والاقتصاد.

الـدول الأوروبيـة علـى مـا بينها من اختلاف اللغة والتاريخ والمصالح كانت خمس عشـرة دولة ثـم أصبحـت في ٢٠٠٤/٥/١ خمساً وعشرين دولة.

جامعة الدول الإفريقية، الدول الآسيوية الشرقية جميعها تتوحد وتتهيأ لمواجهة عقود القرن الجديد.

لقـد أدرك العـالم أن الحضـارة لم تعد تورث مثلما تورث الأعيان وأنها جمهرة من الصفات ينبغي أن تبقى على الدوام نوابض التطلع إلى الأمام.

ومثلمـا تفعـل الزواحـف يجـب على الإنسان أن يغير جلده ليستقبل الزمن القادم لأن الحية التي لا تخلع جلدها تموت.

ماذا تخبئ عقود هذا القرن في جيوبها بعد أن أثبتت النعجة دوللي.

أن التكاثـر لم يعـد مقتصراً على تلاقي الذكـر بالأنثى بل إن ملايـين الخلايا التي تدخـل في تركيب الكائـن الحي تحمل في رحمها المجهري إمكانية التخلق من جديد.

والفاكـس.. هذا المـارد العجيب الذي يستطيع أن يصلـك بأقصى الأرض قبل أن تقوم من مقامك.

وتلك المركبـات الفضائية.. التي تمخر عباب الكـون وتقف على مشـارف النجوم كاشفة أسرارها فاضحة أستارها.

ذلك جميعه جعل العقـل هو الرأسمال الحقيقي.

أليس من الواجب القومي أن نبحث عما سـوف تـؤول إليه حالنا بعـد أن يهدأ هذا الزلزال المعرفي؟

لقـد بات واضحـاً لأي منَّـا أن شعبنا وأرضنـا وتاريخنـا ولغتنـا وضعـت على المنضـدة لتجري فيهـا أقـلام التخطيط فتقضم قسمـاً من هنا وتشتـت قسماً من هناك وتقزّم الباقـي في محميات وطوائف وإمارات.. العـالم الغربي، الغربان الأوروبي والأميركي. من أقصـاه إلى أقصاه مسكون بهاجس تشويه صورة العربي.

وخاصـة العربـي المسلم فالعربي هو

الوجه الإرهابي للمسلم والمسلم هو الوجه الرجعي للعربي.

جميعنا في نظرهم مسلمين ومسيحيين نمثل الانحطاط الحضاري لقد صورونا في وسائل إعلامهم ومصنفاتهم الثقافية أمماً متعددة تعيش كل منها خصوصية عرقية وثقافية وليس من جامع بينها سوى الجهل والتخلف ويتربع على كرسي الحكم في أغلبها حاكم يلزم شعبه بالتطلع إليه على أنه بدء التكوين وأول التاريخ وأبو الزمان وأن الأزمنة التي سبقت تجليه هي انحطاط يجب أن تنظف منه ذاكرة الناس... بقوة هذا التقويم الغربي لنا وشموليته.

حرم العربي من تاريخه الحقيقي وربط بتاريخ خرافي أجوف وشخصيات تافهة لذلك:

وبعد هذا الزمن المديد الذي قضيناه في الظلمات.

ليس من حق المؤرخ العربي أن يضيق صدره إذا تدارك الباحث أو الأديب تقصيره فأعان العربي على معرفة تاريخه الحقيقي.

كما ليس للباحث والأديب أن يتنصلا من هذه المهمة الشديدة فهما أكثر أهلية من سواهما للقيام بهذا الدور.

من منّا لا يذكر الكثير أو القليل عن الأدباء والمفكرين الذين عبدت أقلامهم طرق الثورات أمثال فولتير، روسو، مونتسكيو، ديدرو، ماركس، إنجلز.

وفي مطالع القرن الماضي حينما كانت محدلة الحكم التركي تكتم الأنفاس من ينسى ما فعلته كتابات طه حسين وعلي عبد الرزاق وجبران والكواكبي والزهراوي وسلامة موسى وفرح أنطون وساطع الحصري؟.

لقد فهم أولئك الأفذاذ أن من أوليات شروط المثقف أن يكون قارئاً جيداً للتاريخ خاصة تاريخ أمته خاصة أيضاً إذا كانت تلك الأمة أمتنا العربية التي تعيش زمن التفكك زمن اللا معنى والعقل اللا معقول وغياب الإبداع.

أليس من المحزن أن الأديب العربي لا يستطيع أن يتصدى لأية مشكلة فكرية أو اقتصادية أو سياسية في قطره في حين أنه يصبح فصيح اللسان ناري القلم حينما تعرض مشاكل الأقطار الأخرى.

نعم:

كان للمكواة الجاثمة على الرأس تأثيرها في تهميش دور الأديب ولكنها لم تصبح كل شيء إلا لأن الأديب رضي أن يعيش على هامش حياة الناس.

لقد قرأنا أن (غاليلي) دفع ثمناً باهظاً

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقاء تمسكه بآرائه وخاصة كروية الأرض وكان على هذا الاسم النظيف أن ينتظر خمسمئة سنة ليرى اللجنة التي شكلها الفاتيكان تجتمع وتقرر: أن غاليلي كان على صواب وأن فاتيكان ذلك الزمان كان على خطأ.

أيها القارئ:

بعد أن تجولت طويلاً في تواريخ الأمم تحصلت لدي النتائج التالية:

١- التطور فصل فصلاً كاملاً بين ما غبر وبين ما حضر:

فحينما يكبر الجسد الاجتماعي ويتجاوز الثوب الحضاري الذي يرتديه يطمح إلى مقاس جديد ذي أبعاد تتناسب مع تطوره.

ولئن كان الرسوخ على الماضي حشراً للجسد الاجتماعي في الثوب القصير أو الضيق فإن تجاوز الحاضر قفزاً من فوق الزمن هو تطوح في المجهول ويبقى كلاهما: التجمد والتجاوز غربة عن حاجة المجتمع.

٢- ليست الحضارة من أمور الفطرة:

بل هي الجديد الذي تتطلبه الظروف مضافاً إليها التراث فإذا اختل توازن العناصر زيادة أو نقصاناً ظهر الاختلال في البنيان الحضاري الذي يبدأ بالتشقق وينتهي بالانهيار.

ومن الخطأ والظلم ألا نرى غير الهمجية فيما كان سائداً عند أجدادنا وما ذلك إلا لأن ما بين أيدينا من قيم ونظم وأخلاق هي الحفيد الشرعي لما مضى حيث اقتصر تأثيرنا فيه على تشذيبه وإكسائه ألبسة الأزمنة المتعاقبة.

٣- التطور قسم الأمم ووضع لها المقاييس الحضارية التالية:

ثمة أمم ضمن المفاهيم الحضارية القديمة.

وثمة أمم بقيت على ما قبل القديم... القديم جداً.

وثمة أمم تجاوزت كثيراً من المحطات ولكنها طويت أخيراً تحت ذراع العولمة.

ثم هنالك نمط رابع يتمثل في الولايات المتحدة الأميركية التي قفزت فوق القوانين واعتمدت العولمة اعتماداً كلياً في علاقاتها مع الأمم.

وفي شرقنا العربي تتمدد الأمة العربية على أربعة عشر مليون كم٢ ولكنها تعيش تعددية الأقاليم بقوانينها وجغرافيتها ونظمها وقواتها المسلحة فرائس سهلة الاصطياد وفخ العولمة يطبق عليها إقليماً بعد إقليم.

٤- الإرث الحضاري:

ينبغي أن يؤخذ مثلما يؤخذ الدواء كثيره مضر مثل قليله ونقصد بالكثير هو الاكتفاء

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والاستغناء به عن سواه ، كما نقصد بالقليل إهماله والتنكر له والاغتراب عنه.

إرثنا الحضاري الذي هو الأب الشرعي لحضارة الكون والذي تسرب إلى الأمم هو الذي مكن أمتنا أن تحقق وحدتنا في زمن أسطوري وهو الذي حرر بلاد الشام وبلاد وادي الرافدين ووادي النيل من أعظم إمبراطوريتين في ذلك الزمن.

في القرن السابع عشر أطلق الفيلسوف الإنكليزي جون لوك فلسفة الفكر الليبرالي وفي القرن الثامن عشر أطلق الفيلسوف الفرنسي (جان جاك روسو) صيحته المشهورة: ولد الإنسان حراً وهو في كل مكان مكبل بالأغلال.

غير أن صيحة ابن الخطاب وابن أبي طالب سبقت الفيلسوفين الغربيين حوالي عشرة قرون.

فابن الخطاب أنب السادة مستنكراً: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً وابن أبي طالب توجه إلى المظلوم نافخاً فيه روح الثورة على واقعه الرديء: لا تكن عبد غيرك وقد خلقك الله حراً.

الفيلسوفان الغربيان طرحا أطروحتين اجتماعيتين متروكتين لعوامل الزمن في حين أن صيحتي الراشدين كانتا من مسائل الفطرة فالعبث بحرية الإنسان وكرامته هو عبثٌ بفطرة الله التي خلق الناس عليها.

٥- وبالعودة إلى إرثنا الحضاري نقول:

لقد أضحى من النظريات العلمية الثابتة أن هذه المنطقة العربية التي تمددت على شاطئ الأطلسي وشواطئ البحر الأحمر والأبيض وباب المندب والمحيط الهادي والعمق الإفريقي هذه المنطقة هي مهد الحضارة الإنسانية.

أما ما سواها حتى خاتمة العصر الجليدي الأخير (سبعون قرناً قبل الميلاد) فقد كانت جغرافياً من الجليد والثلوج تمتد من الشاطئ الشمالي للمتوسط حتى مناطق القطب معدومة الحياة والنبات.

وما ذلك: إلا لأن الحياة والنبات كانا في المنطقة الدافئة التي تمتد من الشاطئ الجنوبي والشرقي للمتوسط باتجاه الجنوب والشرق حيث الدفء وتوزع الفصول.

السومريون أبدعوا أقدم حضارات التاريخ والأكاديون والبابليون وجلجامش.. وأقدم مدن التاريخ وجدت في هذه المنطقة.

تموز أعظم آلهة السوريين القدماء، عبده اليونانيون باسم أدونيس والأبجدية والكتابة بالحروف من صنع أبناء هذه الأمة ابتكرها الفينيقيون العرب الشرقيون فأخذها عنهم

الفينيقيون الغربيون ثم نقلوها إلى اليونان ومنها إلى أوروبة والعالم.

ألواح رأس شمرة أثبتت أن الكتابة بالتوراة ابتدأت في القرن الخامس قبل الميلاد واستمرت حتى القرن الثالث بعد الميلاد وقد وجدت قصصها في التراث الكنعاني وتراث بلاد ما بين النهرين حتى كلمة التوراة التي هي جمع لكلمة التورة ومعناها: الهدى والرشاد: اختُطِفَت :

دون تحفظ من المجموعات الدينية والأدبية لدى الكنعانيين.

إنَّ أوّل من كشف هذا السطو الحضاري هو العالم الإيطالي ميديكو تلميذ غاليلي الذي عاش بين ١٦٩١-١٧٥٥م حيث حدد بوضوح انتماء القصص والأساطير والمذاهب التوراتية إلى الإرث الكنعاني.

بعد هذا الاستعراض نستطيع أن نطرح التساؤل التالي:

هل كان العرب يعرفون أنهم يستردون تراثهم حينما ترجموا عن اليونانية وسواها؟

في الظن أنهم لم يكونوا يدركون هذه الحقيقة التي لم تظهر إلا بالحفريات في زمن متأخر، ولكن سرعة التلقي وموهبة النقد والقدرة على كشف أخطاء السابقين والتمكن من وضع النظريات الجديدة وتأميم العلم كان في حينه من الظواهر الإنسانية المدهشة التي لم تجد تفسيرها الإرثي إلا بعد أن أفصحت بواطن الأرض عن مكنوناتها فتبين منها أن الإنسان العربي المتأخر هو حفيد الإنسان العربي المتقدم وأنه ورث من الجينات الحضارية ما ساعده على إنجاز المعجزات الفكرية والتنظيمية.

النبي محمد (ص) الذي كان يبصر بنور الله رأى أن الوحدة السياسية تبدأ بتوحيد الاعتقاد فكان أوّل ما قام به يوم الفتح هو تحطيم الأصنام لأنها كانت تمثل مئات العقائد وبالتالي مئات الأفكار والآراء ودعا إلى الالتفاف حول عبادة الإله الأحد ومنذ أن توحدت العقيدة توحد الرأي وتوحد الصف وسادت الشريعة الواحدة والنظام الواحد.

ترى؟

هل كانت الإنسانية تطمع في أكثر طموحها غلواً إلى أكثر من خليفة يَعِسُّ على رجليه بالليل ماشياً وقد فتحت أمام جيوشه ممالك الشرق والغرب هل كانت العدالة تنتظر أكثر من خليفة يده لا يد فوقها على بيت المال المشحون بالأموال والغنائم فيزهد في هذا جميعه ويقول: يا صفراء ويا بيضاء غري غيري لقد طلقتك أيتها الدنيا ثلاثاً بثلاث.

هل كانت العدالة لتطمع بأكثر من خليفة دانت له العراقان والشام ومصر والجزيرة وهو زاهد فيها جميعاً يرقع حذاءه بيديه.

وفي أزهى عصور الديمقراطية وفي أبهر بلدان الديمقراطية في الدنيا هل رأيتم أو سمعتم عن رئيس وقف بين الناس مثلما وقف أبو بكر وقال:

أيها الناس: لقد وليت عليكم ولست خيركم أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم القوي عندي ضعيف حتى أسترد منه الحق والضعيف عندي قوي حتى أرد إليه الحق.

إن كان ما تقدم بعض صور الأخلاق والحكم فما هو نصيب العلم؟ وهل ضن العرب على الغير بعلومهم؟

يقول المؤرخون المنصفون:

إنَّ العرب هم أوَّل من وضع الأممية في العلم هم أوَّل من كسر احتكاره فالدين الجديد أكد لهم أن العلم يعلو ولا يعلى عليه وأنَّ العلماء من بين الناس هم ورثة الأنبياء وفي القيامة يوزن حبر العلماء بدماء الشهداء فيرجح حبر العالم على دم الشهيد والله جعل شهادة أولي العلم بعد الملائكة فقال في آل عمران: **«شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»**

آل عمران ١٨/٣

لذلك:

لم يحل حائل دون تحليق الفكر العربي في أجواء العلوم كافة.. وحينما كان الإمبراطور الغربي يتعلم الكتابة على لوح من الشمع كان بلاطا الخليفة في بغداد والأندلس يزدحمان بالعلماء في شتى الاختصاصات وحينما كان الإمبراطور الجرماني الكبير «أوتو» يخطب في أواسط القرن العاشر مؤكداً للناس أن تلك السنة هي سنة قدوم المسيح لكي ينتقم من أعدائه ويحبس الشيطان ألف سنة في القمقم كانت منهلات ابن سينا العلمية قد ملأت الدنيا ولم يكن آنذاك قد تجاوز العشرين من عمره.

لن أطيل..

بل سوف أقتصر: على ذكر بعض الأسماء وذكر بعض العلوم وذلك جميعه غيض من فيض وقليل من كثير ولا يغني طالب العلم عن العودة إلى المصادر والمنابع.

فالخوارزمي:

سمي بالأستاذ لتفوقه في العلوم الرياضية وضع علم الجبر ووضع أسس اللوغاريتمات حتى إن اللوغاريتمات هو تحريف لفظي لاسمه مات سنة ٢٣٢ هـ.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والبتّاني:

من بتــان، ولد في حرّان عاش في القرن الثالث الهجري قيل عنــه إنه أعظم علماء الدنيا في الفلك قاس السنة الشمسية فبلغت ٣٦٥ يوماً وخمس ساعات و ٤٦ دقيقة و٢٤ ثانية وهي أقل من الزمن الذي حققه علماء العصر بدقيقتين و ٢٧ ثانية.

البتاني:

صاحب نظرية كرويــة الأرض وحركتها حول نفسها وحول الشمس قبل كوبرنيكوس بأكثر من ستمئة عام عاش بين ٨٥٤-٩٠٩م. (١-٢)

الرازي:

ولــد في الري قــال عنــه ديورانت «هو أشهــر طبيب في أسرة الطــب الرحيم على بكرة أبيهــا» من أشهر كتبه الحاوي وهو في عشرين مجلداً ترجم إلى اللاتينية وهو أحد الكتب التسعة التي تتألف منها مكتبة الكلية الطبية في جامعة باريــس عاش بين ٢٥٠-٣١٠ هـ.

الفارابي:

من فاراب على نهر جيحون بتركيا غلب عليــه اسم المعلم الثاني لأنــه شرح نظريات أرسطــو وأضــاف عليها وقد عــد له الأب مكارثي اليسوعي ٣٨٣ كتاباً في جميع أنواع العلوم مات ٣٣٩ هـ.

ابن الهيثم:

مــات في مصــر سنــة ٤٣٠ هــ وضع كتبــاً عديــدة في الرياضيــات والطبيعيات والبصريــات والفلك والفلسفــة والإلهيات والأخــلاق والسياسة والتاريــخ والجغرافيا والمنطق والصيدلة والأدب.

البيروني:

من بيرون عاصمة خوارزم مات في غزنه سنة ٤٢٢ هـ زادت مؤلفاته على مئة وعشرين كتاباً في جميع أنواع العلوم.

المعرّي:

تنوخي مات سنة ٤٤٢هـ فيلسوف متشائم شعراً ونثراً طبقت شهرته آفاق الزمن.

ابن سينا:

مــن أفشنا قرب بخارى توفي في همذان سنــة ٤٢٨ هــ ذاع صيته وهــو في الثامنة عشــرة من عمره أحصى له الأب قنواتي في سنة ١٩٥٠م ألفــين وسبعمئة وستين عنواناً وهناك.

وإخوان الصفا: ورسائلهم الـ٥١.

وابــن رشــد وابــن حــزم الفيلسوفان القرطبيان.

وابن طفيل وابن عربي وابن خلدون.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وللمقارنة فقط أضع بالاختصار الوقائع المنتقاة التالية:

أولاً: العرب هم أوّل من رمز للمجهول بحرف س فصار يرمز إليه في الغرب بعد عدة قرون بـ x y z وهم أوّل من وضع علم المثلثات وهم أول من قسم الدائرة إلى ستين جزءاً ومسائل الحجوم اللا متناهية وقانون الجاذبية التي تنتمي إلى نيوتن هي ذات أصول عربية.

ثانياً: كان الصفر يعني عند الهنود فراغاً لا معنى له لذلك اقتصرت الأعداد عندهم على الأرقام (١-٩) فكان العرب أوّل من سمى ذلك الفراغ صفراً وأعطاه القيمة الكبرى.

فالصفر عن يمين الواحد يحوله إلى عشرة والصفران إلى مئة والثلاثة إلى ألف وهكذا إلى ما لا نهاية وقد سمي في الإيطالية زيرو وفي الفرنسية شيفر أي كناية عن المجهول وما زال هذا اللفظ يرمز إلى المجهول (شيفرة).

وصاروا يقولون بعدها هذا الصفر اللعين لا يكون شيئاً حينما يكون وحده ويفعل الأعاجيب عندما يأخذ موقعه إلى يمين الأعداد.

ثالثاً: كانت معلومات اليونانيين في الفلك والمراصد بدائية إذا قورنت بما توصل إليه العرب.

ففي بغداد ودمشق مرصدان بناهما المأمون.

وفي القاهرة عدة مراصد بناها العزيز والحاكم بأمر الله.

وفي حديقة القصر ببغداد بنى عضد الدولة مرصداً.

وفي نيسابور بنى ملكشاه السلجوقي مرصده.

وفي مراغة بنى نصير الدين الطوسي مرصداً لهولاكو الذي ألحق به مكتبة وضع فيها ٤٠٠ ألف مجلد كان نهبها من بغداد ودمشق.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

رابعاً: وفي الطب:

يمكن القول: المشافي كانت مجانية لكل الناس.

أوّل نقابة أطباء عرفتها البشرية كانت في بغداد وأوّل نقيب هو ابن التلميذ توفي سنة ١١٦٤م.

أوّل من فرق بين النقرس والروماتيزم هو الرازي.

ابن سينا اكتشف إلتهاب السحايا وإلتهاب الدماغ وإلتهاب الأضلاع والرئة وخراج الكبد وأسباب شلل الوجه والشلل

المركزي الدماغ والجمرة الخبيثة واليرقان وعدوى السل.

ابن رشد اكتشف المناعة التي كان يتركها مرض الجدري بينما ظل الرأي بعده بقرنين أن الجدري غضب من الله جزاء أعمال غير المؤمنين.

وابن مسكويه خلص الجذام من غضب الله أنه مرض حقيقي.(٢)

ظل الاعتقاد في أوروبة سائداً حتى القرن الرابع عشر أن الطاعون ينشأ من نظرات المريض ومن نظرات اليهود فكانوا يعصبون عيون المريض ويحرقون الكثير من اليهود.

وفي السرطان وجراحته يقول علي ابن العباس: وأما السرطان فأمره عجيب وشفاؤه صعب وهو حقل لم يفلح فيه الطب والتطبيب إلا نادراً لذلك عليك أن تقلع الورم من جذوره حتى لا تبقي منه بقايا أو رواسب ثم تضع في التجويف خرقة مبللة بالخمر لئلا يحصل أي تعفن أو التهاب، كان طبيب عضد الدولة البويهي ٣٢٢ هـ.

وأبو القاسم الزهراوي (٩٣٦- ١٠١٣م) أوّل من وضع طريقة لتفتيت الحصاة في المثانة.

اهتم بسل فقرات الظهر الذي سمي بعده بسبعمئة سنة وأوّل من شق القصبة الهوائية وأوّل من طبق في جراحات القسم السفلي رفع الحوض والأرجل وهي طريقة متبعة حتى الآن ومسجلة باسم الجراح الألماني «فريدريك ترند لنبورغ».

وما دمنا في هذه الفقرة تحدثنا عن الطب والأطباء العرب وبعض منجزاتهم يحسن أن نقرأ فقرات من كتاب الاعتبار لابن منقذ الذي عاش بين ١٠٩٥-١١٨٨ الذي كان أميراً وأديباً وراوية وكاتباً وشاعراً وذلك للمقارنة مع الطب في الغرب قال في الصفحات ١٣٠-١٣٨ من كتابه.

جيء بطبيب غربي لمعالجة دمل ظهر في ساق أحد الفرسان فقال للمريض أيهما أحب إليك أن تموت أو أن تعيش برجل واحدة: قال أعيش برجل واحدة فطلب رجلاً قوياً ومدد الساق على قرمة خشب وسلمه فأساً قاطعة وطلب منه أن يضرب الساق ضربة واحدة قوية ولكن الرجل لم تنقطع فقال للفارس اضربها مرة ثانية فضربها فانقطعت وسال مخ العظم فمات الرجل من ساعته.

وجيء بطبيب إلى امرأة تشكو من نشفان فقال بعد التشخيص هذه امرأة عشقها الشيطان احلقوا لها شعر رأسها ولكن الشيطان لم يغادر فسلخ جلدة الرأس حتى

وصـــلا إلى العظم وطفق يحـك بالملح حتى ماتت المريضة.

خامساً: الكتب والمكتبات:

١-ابن النديم المعروف بالوراق وضع فهرساً لأسماء الكتب المتداولة بالعربية فملأ عشرة مجلدات كاملة.

٢-فاقد الشيء لا يعطيه قالها بابا روما وهو ينظر إلى مكتبة القاهرة ومجلداتها المليون ومئتي ألف مجلد.

«البابا هو سلفستر الثاني» جلس على الكرسي البابوي سنة ٩٩٩م وهو خريج جامعة فاس.

٣-مكتبة العزيز في القاهرة احتوت على مليون وستمئة ألف مجلد.

٤-للمقارنة فقط:

لم يكن في القرن العاشر بأديرة الغرب غير ١٢ مجلداً ربطت بالسلاسل كي لا تفقد.

سادساً: حقوق الإنسان:

في أوائل القرن السابع تلا النبي محمد (ص) الآية ١٣ من سورة الحجرات «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**».

وخطب في الناس قائلاً:

«كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى».

خطبة حجة الوداع

حقوق الإنسان:

التي روعيت وحفظت واعتبرت عند العرب من حقوق الله التي لا يجوز مساسها تأخرت كثيراً في الظهور في المجتمعات الأوروبية.

بريطانيا لم تقرر التسامح مع الكاثوليك إلا منذ عام ١٨٢٦م ومع اليهود إلا منذ عام ١٨٤٢م.

والجمعية التأسيسية الفرنسية التي صدر عنها إعلان حقوق الإنسان لم تفصل الدين عن السياسة بل اكتفت بتحرير الكنيسة من سلطة البابا.

فولتير:

ألح على أن تكون الكاثوليكية هي الدين الرسمي الذي يجب أن ينتمي إليه المواطنون تحت طائلة الإعدام وروسو:

اختتم العقد الاجتماعي بضرورة النص على الهوية الدينية.

بعد حوالي اثني عشر قرناً على الخليفتين أبي بكر وعمر حيث طلب الأول: إسقاط بيعته إذا خالف قواعد العدل وطلب الثاني أن يقوّم اعوجاجه المسلمون.

خاطب إمبراطور ألمانيا شعبه في عام

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١٨٩٧ قائلاً إنني مفوض من الله لذلك أرفض أن يراقبني أحد من مخلوقات الله.

أيها القارئ:

كان ما تقدمت به هو القليل من الكثير الذي ملأ حوالي سبعمئة صفحة من كتابي وما كتبته في كتابي هو القليل من الكثير الذي ملأ الكون ثمانية قرون وأقسم أنني لم أبذل ما بذلته من جهد تفاخراً أو تحزباً بل لإزالة بعض الجلاميد التي حالت بيننا وبين الهواء والضياء.

إنه لحق لكل عربي وواجب على كل عربي أن يتعرف على جذوره الحضارية لكي يحرضها فتلد الأجيال الحضارية.

منذ ذلك الوقت منذ أن طردنا من الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا في أواخر القرن الخامس عشر عومل إنساننا وفكرنا وعلمنا ونظرياتنا بالكره والتعصب والاختفاء في غمرة تلك الأحداث استوقدوا في مدن الأندلس نيراناً عالية وعلى آلاف من صيحات الاستحسان والتشجيع كانت مؤلفات ابن سينا وابن رشد والفارابي والرازي طعاماً للنيران كذلك أحرقت النيران في بازل بسويسرة كتب الفلاسفة والأطباء العرب.

نظرية الضوء والتشريح المقارن اللتين وضعهما ابن النفيس في القرن الثالث عشر سطا عليهما سرفيتوس وهارفي بالقرن السادس عشر وأضيفتا إلى كتاب هارفي حتى اكتشف السطو الطالب المصري طهطاوي بعام ١٩٢٤م حينما كان يحضر لرسالة الدكتوراه في الطب.

إن انشغالنا بالماضي واحتقارنا لسواه حتم أن نكون من ركاب الدرجة الثالثة في قطار الحياة إن كوننا أحفاد الأجداد الذين فرضوا رايتهم وثقافتهم على أمم الأرض حتى القرن الرابع عشر لم ولن يدفع التحدي الذي ملك علينا الأجواء، وبدلاً من الانطواء على القصص الخلابة عن طرد البيزنطيين من الشام والفرس من العراق وافتتاح مصر والشمال الإفريقي والخلافة الأموية في الأندلس وعدالة الحكم العربي ومجتمعه المتعدد الذي عاش وحدة الهدف والكلمة بدلاً من هذا بل بالإضافة إليه علينا ألا ننسى أن الظروف الموضوعية تنتمي إلى زمنها دون تبعية مطلقة للماضي ودون تطلع خيالي إلى المستقبل، فبمقدار تفاعل الأمة مع الظروف الموضوعية تأثراً وتأثيراً تكون درجة وجودها الحضاري.

نعم:

نحن أول من بنى مجتمع التعدد وحواضرنا دمشق والقاهرة وبغداد ومدن الأندلس عاشت ازدهارها في ظل مجتمعات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تلاقت فيها الطوائف والأجناس فتوزعت فيه السراء والضراء على السواء.

ونعم:

نحن أوّل من قدس حقوق الإنسان واعتبرها من حقوق الله **«لا تكن عبد غيرك وقد خلقك الله حراً إن كلمة حق تقولها في وجه حاكم ظالم تعدل الصلاة».**[٤]

ولكن منذ أن صار المواطن العربي يضغط ويطوى ويقزّم خبت جذوة التطلع إلى الأمام لقد علمنا متأخرين أن الزمن لا يقف وأن نهر الحياة مستمر التدفق وهو في مسيرته يتلقى الروافد من جانبيه.

فإن جفت مياه أحدها انقطع تواصله مع النهر.

هنا يقوم ما يشبه نقطة النظام التي توقف الحوار هي:

إن الروافد التي كانت تتلقى مياهها من سواها لن تستطيع التواصل الحضاري إذا جفت مصادرها.

أما الروافد ذاتية الينابيع فإنها تستعيد تدفقها متى زالت من طريقها جلاميد الحصى والتراب.

الأمة العربية نهر حضاري ذاتي الينابيع.

وصدرها العظيم يختزن جينات الانبعاث.

هذا القول ليس تحزباً ولا تعصباً بل هو قراءة للمستقبل من خلال الماضي فالتراكمات التي جثمت على ذلك الصدر حالت بينه وبين التنفس العميق وأبقته في الزمن الجاهلي حيث الماء قليل والهواء قليل والضياء قليل.

على أننا ونرجو ألا يفسر ذلك بالتعصب فنحن في طريقنا إلى تمزيق رداء الجاهلية فما غرسته فينا الحياة من عناصر الذكاء وعمق الانتماء وعبقرية اللغة ومجد التاريخ وعدالة الأهداف قادر على أن يفجر في ذواتنا تلك الينابيع التي ظلت ثمانية قرون أغزر وأكبر الروافد التي عرفتها حضارة الإنسان.

الهوامش

١- هو الذي مرت ترجمته جزئياً.

٢- كوبرنيك - نقولا - عاش بين ١٤٧٣-١٥٤٣م- فلكي بولوني.

٣- عاش حتى عام ١٠٢٠م واسمه: حمد بن محمد بن يعقوب.

٤- من كلام علي بن أبي طالب (كرّم الله وجهه).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المقاومة الفلسطينية
وتجلياتها في قصيدة الرّفض المعاصرة

د. محمد سعيدي *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لا مـراء أنّ القضية الفلسطينيّة قد ملأت الدّنيا وشغلت النّاس، ولم نجد في العصـر الحديث قضية أثارت الشعر وانفعل بهـا الشعراء قدر ما فعلته فلسطـين بكلّ مضامينها الدّينيّة والتّاريخيّـة والجغرافية والأدبيّة، وفي كلّ صورها: في مواجهتها للطّغيان الصّهيونيّ وفي قوافل شهدائها الذّائدين عن حياضهـا وفي أطفالها الّذين تسلّحوا بالحجـارة فكانوا معجزة العصر، وفي غيرها من الصّور المشرقة.

* أستاذ في جامعة مستغانم/الجمهورية الجزائرية.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

ولم يقف شعراء الرّفض المعاصرون بمنأى عن فلسطين وهي تكابد وتصارع، بل الصّحيح أنّهم قد التزموا بقضاياها وتبنّوا انشغالات شعبها، فكانوا بحقّ شعراء ملتزمين وغيريّين بأحسن ما يكون الالتزام وبأسمى ما تكون الغيريّة. وفي هذا المقال سأحاول تبيان بعض تجليّات فلسطين ومقاومتها في شعرهم من خلال عناصر ثلاثة:

أوّلاً: القدس

ثانياً: أطفال الحجارة

ثالثاً: الموقف من السلام

أوّلا: القدس

إذا قلنا فلسطين قلنا بالضّرورة القدس: أُولَى القِبْلَتَيْنِ وثالث الحَرَمَيْنِ؛ تلك مكانة قداسة وهَيْبَة وعبادة اكتسبتها القدس من دون سائر البقاع، ولا تكاد تضاهيها رقعة في الأرض إلى جانب المسجد الحرام في مكّة المكرّمة.[1]

وليس للقدس معنى باعتبارها قطعة جغرافية محدودة الطّول والعرض، بل إنّ أهميّتها تكمن فيما تشغله في ضمير الأمّة الإسلاميّة باعتبارها الحاملة للموروث الإسلاميّ وقداسته الدّينيّة، المتمثّلة أوّلا في القِبْلَةِ الأولى للأمّة الإسلاميّة، ثم في احتوائها على المسجد الأقصى ثانيا، «وللأماكن المقدّسة في وعي الشعوب وحركتها أكثر من دلالة، فهي أحد أهم الحوافز التي يمكن استغلالها في إطار الصراع الدائم والمستمر على كسب مكانة هامة بين الشّعوب. والمُسَلَّمُ به- تاريخيا- أن الشّعوب التي تستطيع الحفاظ على أماكنها المقدسة خالية من دنس منافسيها، هي الشعوب التي تستحق أن تمتلك مقوّمات العزّة والمنعة والنفوذ».[2]

والاحتفاظ بهذه المقدّسات والدّفاع عنها؛ في أيّ أمّة من الأمم؛ يعدّ أحد مقوّمات توحدّها وسبب انصهارها في بوتقة الوحدة الدينية، «إضافة إلى ذلك فإن الأماكن المقدسة هي إحدى أبرز التعبيرات الحضارية للأمم الدينية بشكل خاص، فمعابد الرومان والفرس والعرب وغيرهم من الأمم والشعوب، كانت ترمز إلى الشكل والمستوى الحضاري الأرقى لهذه الشعوب، خاصّة في القرون السابقة على القرنين التاسع عشر والعشرين، لأنّه في هذين القرنين بدأ يبرز التعبير القومي في كثير من الأمم كبديل عن التعبير الحضاري الديني، بحيث أصبح لكل أمة رموزها من الأماكن والشخصيات والمقدسات التي تفترق فيها عن الأخرى التي تدين معها بالدين نفسه وأحيانا باللغة نفسها».[3]

فنحن المسلمين مدينون، إذن، للقدس

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بذلك الإشراق الروحيّ المشعّ في كيان الأمّة الإسلامية بقيادة الأنبياء والرسل الذين عاشوا في القدس وانتقلوا إليها، وتحرّكوا فيها، وانتهاء بالنبيّ محمد، صلّى الله عليه وسلم، ليلة الإسراء والمعراج، حيث كانت القدس منتهى الإسراء ومبتدأ المعراج.

وفي مسيرة هؤلاء الأنبياء والرّسل على أرض القدس، من الدّلالات النفسية، والخلقية، والدينية، والاجتماعية، والتاريخية، ما تجعل المسلمين أشدّ لصوقاً وأقوى علوقاً بأرضهم المقدسة. وكلّ شيء؛ من نفس ونفيس؛ يهون في سبيل تفديتها.

وإنّ أكثر ما يتجلّى الرّفض والسخط والغضب في الشعر العربيّ المعاصر عند شعراء الرّفض لمـا يتناولون في إبداعهم القضيّة الفلسطينيّة، الّتي أضحت وصمة عار وخزي في جسد الإنسانيّة قاطبة، في مطلع القرن الواحد والعشرين، حيث يتغنّى «الإنسان المتحضّر» بالحريّة وحقّ الوجود، وحريّة المعتقد وحقّ التملّك وغيرها ممّا اشتملت عليه منظومة حقوق الإنسان في المدنيّة المعاصرة. ولا شيء من ذاك يُرَى في أرض فلسطين. فقد اغتُصِبت الأرض وهُتكت الأعراض ورُمِّلت النّساء ويُتِّم الأطفال ودُمِّر الإنسان الفلسطينيّ. وبكلمة واحدة، فقد خُدِش وجه الحضارة المعاصرة في أرض فلسطين.

ولا يتوانى شعراء الرّفض أن يعلنوا سخطهم وتذمّرهم فيصرخوا في وجه أولي الأمر من الحكّام في الوطن العربيّ،

ويحمّلونهم مسؤوليّة ضياع القدس بلا مواربة. ولم تبلغ حدّة الرّفض والثّورة عند هؤلاء الشّعراء في قضيّةٍ قدر ما بلغته في قضيّة فلسطين، فاكتنز شعرهم هجاء مقذعا وسبّاً مرّاً وتجريحاً مؤلماً. تحوّلت الكلمة عندهم إلى سنان ورماح يُرمَى بها كلّ مَنْ كانت له يد في المساومة على فلسطين.

ومن هذا المنطلق، يستلهم الشاعر مصطفى الغماري قضيّة القدس، ولم يكن شعره بمعزل عنها. فهي حاضرة في جلّ دواوينه، بكلّ ملامحها: أرضاً مقدّسة، وتراباً طاهراً ومنزل الأنبياء، ورمز الفداء، وجنان الشهداء.[٤] حيث إنّه شجب الاستدمار، وبكى المنكوبين ورثى الشهداء ودعا إلى المقاومة والمواجهة والجهاد، وفضح كيد ومكر الصّهاينة بل إننا نجد الغماريّ يفرد القدس وشهداءها بديوان شعري مستقل هو ديوان «العيد والقدس والمقام» يصدره بإهداء ذي دلالات إسلامية سامية:

«مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًا وَلاَ نَصْرَانِيًا
وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا.
إِلَى نَبِيِّ اللهِ إِبْرَاهِيمَ الخَلِيلِ، الَّذِي
أَلْحَدَ اليَهُودُ فِي تَارِيخِهِ.. وَأَلْحَدُوا
فِي مَقَامِهِ المُقَدَّسِ..
وَإِلَى الشُّهَدَاءِ الشُّهُودِ الَّذِينَ قُتِلُوا
قَتْلاً ذَرِيعًا فِي صَلاَةِ الفَجْرِ وَقُرْآنِهِ..
..إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا..»[٥]

والشاعر مصطفى محمد الغماريّ شاهد عصره، ما كان ليدع حدثاً صعباً كاغتصاب القدس يعبر على مسمع منه وأمام عيانه، دون أن يحرّك فيه مشاعر الرفض والثورة والغضب.فإبداعه الشعري في شأن القضيّة الفلسطينيّة طافح بشظايا اللّهب ونيران المواجهة، إذ إنّه يواجه اليهود أهل الكيد والمكر، الّذين يحسنون الامتراء وذلك هو خلقهم. ويتقنون النّفاق وذاك هوّ دينهم. ويفقهون التلاعب بعقائد ومشاعر المستضعفين، وهذا هو دأبهم على مرّ العصور.

و«إنّ ما أُخِذَ بالقوّة لا يُستَرَدُّ إلا بالقوّة»، تلك لغة الحقيقة، لا لغة المجاز، دروسها لسعات، يفهمها الاستكبار الصهيوني فصيحة مباشرة حيث النّارُ والحديدُ والرّصاصُ.

وإنّ شعباً كشعب اليهود يعلو بمظالمه على جماجم شهداء القدس آيلٌ، لا محالة، إلى الزوال:

«يَا حَامِلَ التَّوْحِيدِ فِي دَرْبِ الأَذَى
لاَ تَأْسَ..عُقْبَى الظَّالِمِينَ دُحُورُ
قَدَرٌ وَمَا قَدَرُ السَّمَاءِ بِمُخْلِفٍ
أَنْ سَوْفَ يَكْتَسِحُ الظَّلاَمَ النُّورُ.»[٦]

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لكنّ الحريّة تؤخذ ولا تعطى، فهي ليست هبة تمنح بغير مقابل، والحياة تُنال قهراً وغِلاباً، وردُّ المظالم لا يكون إلا بتقديم قوافل من الشهداء قرباناً.

«وَمَا نَيْلُ المَطَالِبِ بِالتَّمَنِّي
وَلَكِنْ تُؤْخَذُ الدُّنْيَا غِلَابَا
وَمَا اسْتَعْصَى عَلَى قَوْمٍ مَنَالٌ
إِذَا الإِقْدَامُ كَانَ لَهُمْ رِكَابَا.»[٧]

إن تقديم الجهاد، وسيلةٌ مثلى لتحرير فلسطين. وهو ذاك ما يؤمن به الشاعر مصطفى الغماري إيماناً راسخاً، ما دامت القدس يُعبَثُ بها، فالجهاد فريضة إسلامية وضرورة واقعية:

«يُولَدُ الثَّأرُ مِنْ رُفَاتِ الشَّهِيدِ
مِثْلَمَا الجَمْرُ مُورِقًا فِي الخُمُودِ
كُنْ عَلَى الصَّبْرِ حَامِلاً جَمْرَةَ الثَّأ
رِ وَدَمْدِمْ عَلَى اليَهُودِ اليَهُودِ
لَا تَقُلْ «رُبَّمَا» وَ«لَيْتَ» فَمَا رَدَّ
عَزَاءٌ جُيُوشَ بَاغٍ كَنُودِ
إِنْ تَقُلْهَا.. فَرُبَّمَا صُلِبَ الثَّأ
رُ عَلَيْهَا.. عَلَى هَوَانِ الشُّهُودِ
لُذْ بِنَارِ الأَيَّامِ وَارْكَبْ أَوَاذِيـ
ـهَا وَرِدْ عَالَمَ الجِهَادِ المَدِيدِ
إِنَّ لِلْجُرْحِ ثَوْرَةً.. لَوْ يَعِي الدَّرْ
بُ لَمَدَّ الجِرَاحَ خُضْرَ الوُعُودِ
لَيْسَ إِلاَّ الجِرَاحُ يَا غَارَةَ اللهِ
مُرَادُ لِلْمَقْدِسِيِّ المُرِيدِ
لَيْسَ إِلاَّ يَدٌ يُطَهِّرُهَا الجُرْ
حُ فَتُزْهَى بِالأَحْمَرِ الأُمْلُودِ
....
وَاسْكُبِي الجُرْحَ يَا نُفُوسُ.. لَجُرْحٌ
فِي جِهَادٍ أَوْلَى بِهِ أَنْ تَسُودِي
يَا ضَحَايَا المَقَامِ.. مَا عُبِدَ اللهُ
بِأَهْدَى مِنَ الجِهَادِ المَجِيدِ
فَهَنِيئًا شَهَادَةَ الأَلَمِ القُدْسِ..
وَبُعْدًا لِلسَّامِرِيِّ البَعِيدِ.»[٨]

ففي هذه القصيدة تبيان سبيل النصر، والظفر بالحرية.. وسؤدد الأمّة وعظمتها تقوم على دماء قوافل من الشّهداء في ساحة الجهاد «لأنها ساحة الشّرف وهي الباب الذي يعبره المجاهدون وصولاً إلى الباب الأعظم باب الشهادة الذي كتبه الله إلى الخاصّة من عباده المقرّبين، إنّ الدّماء الّتي تبذل في ميدان الجهاد، والأرواح التي تُزهق، والجراح التي تنزف هيّ الّتي تفرض النصر وتصنعه».[٩] ولذلك يدعو الغماريّ شباب الأمّة الإسلاميّة -في هذا المقام- أن يعبدوا الله بالجهاد،[١٠] والسّعي نحو حياة العزّة أو نحو الشهادة:

«عِشْ عَزِيزًا أَوْ مُتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ
بَيْنَ طَعْنِ القَنَا وَخَفْقِ البُنُودِ.»[١١]

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كلّ ذلـك، من أجل صيانـة شرف الأمّة والأرض، الذي هـو أغلى مـن كلّ شرف وأنفس من كل نفيس، فالموت في سبيله إنما هوّ الطّريق الـذي يؤدّي بالإنسان إلى مجده وعزّتـه وكرامتـه، والذيـن يحقّقون شرف الأمّة، ويصنعون مستقبلها وسيادتها، أولئك هـم الّذين يقدّمـون أنفسهم رخيصة تحت راية الحريّة والجهاد من أجل بناء الغد وبناء الإنسان الحـرّ الكريم. إنّ شرف الشهادة لا يعادله شرف آخر فهوّ عنوان لكلّ أمّة ترفض الاستعباد والمذلّة، وهو رمز ترفعه الشّعوب المناضلة شعلة وضّاءة لا تنضب.(١٢)

ولقـد كان الشّاعر مظفـر النّواب أشدّ رفضاً وأحدّ لساناً وهوّ يُعلي صوت فلسطين الجريحـة، متّهمـا الحكومـات العربيّـة بالتّواطـؤ والخيانة، ومحمّلاً الحكّام العرب ما آلت إليـه فلسطين وأحوال الفلسطينيين من ضعف وتفرّق، حتّـى أضحى لفيف من الحـكّام متفرّجـاً على عذابـات فلسطين ونكباتها المتتاليّة بعدما كان طرفاً في المعركة، وكأنّ الأمـر لا يعنيـه الآن، فمـا كان مـن العدوّ الصّهيونيّ ومعـه حلفاؤه إلاّ الانفراد بفلسطين يقضمون أرضها ويعذّبون شعبها، وما مـن مسؤول إلاّ أولئـك الحكّام العرب أداروا ظهورهم للقضيّة الفلسطينيّة:

«يا وطني المعروض كنجمة صبح في السّوق
في العلب اللّيلية يبكون عليك
ويستكمل بعض الثوار رجولتهم
ويهزون على الطبلة والبوقْ
أولئك أعداؤك يا وطني!
من باع فلسطين سوى أعدائك أولئك يا وطني؟
من باع فلسطين وأثرى، بالله،
سوى قائمة الشحاذين على عتبات الحكام
ومائدة الدول الكبرى؟
فإذا أجن الليل،
تطق الأكواب، بأن القدس عروس عروبتنا
أهلاً أهلا..
من باع فلسطين سوى الثوار الكتبةْ؟
القدس عروس عروبتكم؟!!
فلماذا أدخلتم كل زناة الليل إلى حجرتها
ووقفتم تسترقون السمع وراء الأبواب
لصرخات بكارتها
وسحبتم كل خناجركم،
وتنافختم شرفاً
وصرختم فيها أن تسكت صوناً للعرض؟؟!!!
فما أشرفكم!
أولاد... هل تسكت مغتصبه؟ ؟!
أولاد...!
لست خجولاً حين أصارحكم بحقيقتكم
إنّ حظيرة خنزير أطهر من أطهركم
تتحرّك دكة غسل الموتى،

ARCHIVE
http://Archivebeta.sakhrit.com

أمّا أنتم

لا تهتزّ لكم قصبه!».[١٣]

ويعلو مظفّر النّواب بنبرته الشّعريّة والخطابيّة، ليعرّي الحكّام وأنظمتهم الّتي تقف حائلاً دون حقوق الفلسطينيين في الحريّة والكرامة، فيهجو ويتوعّد ويسبّ ويشتم، ذلك أنّ الأمر جَلَلٌ يتعلّق بالقدس، والتفريط في مقدّسات الأمّة والشّعوب هو تفريط في مقوّماتها العظمى؛ في استقلالها وفي حريّتها وفي أرضها؛ ومن هذا المنطلق فقد يكون شاعرنا معذوراً لمّا يصرخ في شعره بكلمات لم نألفها في قصائد غيره، وهو الشّاعر المقاتل الّذي لا يملك سوى شعره يقاتل به، ويرفعه في وجوه من يخونون الشّعوب:

«الآن أعرّيكم
في كلّ عواصم هذا الوطن العربيّ قتلتم فرحي
تعالوا نتحاكم قدّام الصحراء العربية
كي تحكم فينا
أعترف الآن أمام الصحراء،
بأني مبتذل وبذيء وحزين كهزيمتكمْ
يا شرفاء مهزومين!
ويا حكاماً مهزومين!
ويا جمهوراً مهزوماً!
ما أوسخنا! ما أوسخنا!! ما أوسخنا!! ونكابر
ما أوسخنا!
لا أستثني أحداً
هل تعترفون؟
سنصبح نحن يهود التاريخ
ونعوي في الصّحراء
بلا مأوى!
أصرخُ فيكمْ...
أصرخُ أين شهامتكمْ؟ !!
إن كنتم عرباً... بشراً... حيوانات
فالذئبة حتّى الذئبة، تحرس نطفتها
والكلبة تحرس نطفتها
والنملة تعتز بثقب الأرض
وأمّا أنتم،
فالقدس عروس عروبتكم؟!!!
أهلاً!
القدس عروس عروبتكم؟
فلماذا أدخلتم كل السيّلانات إلى حجرتها
ووقفتم تسترقون السمع وراء الأبواب
لصرخات بكارتها
وسحبتم كل خناجركمْ!
وتنافختم شرفاً!!
وتنافختمْ شرفاً!!
وصرختم فيها أن تسكت صوناً للعرض!
فأيّ قرون أنتم؟!!!
أولاد قُراد الخيل! كفاكم صخباً
خلّوها دامية في الشمس بلا قابلة
ستشهد ظفائرها، وتقيء الحمل عليكمْ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ستقيء الحمل على عزتكم

ستقيء الحمل على أصوات إذاعتكمْ

ستقيء الحمل عليكم بيتاً بيتاً،

وستغرز أصبعها في

أعينكمْ،

أنتم مغتصبيَ،

حملتم أسلحة تطلق للخلف

وتَزَيْزَنْتُمْ

ورقصتم كالدّبَبَه!».[14]

ولمّا ييئس مظفّر النّواب من الحكّام العرب لا يجد مثل التحدّي وسيلةً لرفض مثل هذا الصّمت والسّكوت أمام مآسي الفلسطينيين، فيطلب من الحكّام أن يغيّبوا أنفسهم ولو بالموت، فذلك أنفع لشعوبهم. وإلاّ سيكون الخراب الّذي يستحيل سيلاً وطوفاناً جارفاً يلتهم

الخانعين المستكينين الّذين تواطؤوا مع العدوّ أو اكتفوا بالتفرّج:

«يا أمراء الغزو

فموتوا

سيكون خراباً

سيكون خراباً ... سيكون خراباً..

سيكون خراباً

هذي الأمّة لا بدّ لها،

أن تأخذ درساً في التخريب».[15]

وأحسب أنّ هذه القصيدة كافية في التّعبير عن القضيّة الفلسطينيّة وما اعتراها من طمس لحقيقتها، وما شابها من مظالم ذوي القربى؛ وكان أشدّ مضاضة من وقع الحسام المهنّد؛[16] ثم ما لحقها من قهر وحصار وتشويه من عدوّ مغتصب.

وقد تقاربت نظرة شعراء الرّفض إلى فلسطين، إذ إنّهم حمّلوا المسؤوليّة الحكّامَ العربَ أوّلاً، فلولا سكوت بعضهم وتواطؤ بعضهم الآخر لكانت فلسطين على غير هذه الحال، ولكانت في أحسن الأحوال.

فالشّعراء: أحمد مطر ومصطفى الغماريّ ونزار قبانيّ وهارون هاشم رشيد، وغيرهم كُثُر، يمتلئ شعرهم باللّوم والعتاب والهجاء حين يتناولون فلسطين وقضيّتها. وهذا اتّجاه آخر لشعر الرّفض العربيّ المعاصر، المتّسم بالمواجهة والتّحريض على السّلوك المشين للخائنين، في الوقت الّذي يكون فيه بصدد الافتخار ببطولة أطفال الحجارة أو تصوير مأساة فلسطين ونكبتها.

ثانياً: أطفال الحجارة

لقد سطّر أطفال الحجارة أروع معالم البطولة في تاريخ الإنسانيّة المعاصر، فكانت فصول المقاومة وأزاهير الشهادة أسمى إبداعاتهم على أرض فلسطين القدس. فقد استشرفوا المستقبل بأنْ لاَ أَمْنَ ولا أمانَ مع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عدوّ اغتصب أرضهم، وهو باقٍ جاثم عليها لا يتحوّل، يقرع عليهم الأبواب ليلاً ونهاراً، يقضّ مضاجعهم ويهتك أستار الحمى عليهم. ثمّ إنّه لَمِنَ الأنفع لهم أن يشمّروا عن سواعدهم وأن يخترعوا ما يمكن اختراعه من أسلحة يصدّون بها غطرسة المُستدمِر الصّهيونيّ، خير لهم من أن يقتاتوا من فتات الموائد الغربيّة المتواطئة أصلاً مع هذا العدوّ، وخير لهم كذلك من أن يعوّلوا على ما قد تسعفهم به القمم العربيّة، الّتي لا يُرجى منها؛ في الأغلب؛ خير، فقد ألِفوا جعجعة هذه القمم بلا طحين.

وبذلك يكون الطّفل الفلسطينيّ قد تجاوز المتوقّع، فسَمَا عن كلّ الأنظمة وتخطيطاتها وتسويفاتها، واخترق الخطابات الجوفاء ورمى بها ظِهْرِيّاً، فليس الزّمن زمن تشدّق ولا الظّرف ظرف تملّق:

«يا تلاميذ غزّة...
علّمونا..
بعض ما عندكم
فنحن نسينا..
علّمونا..
بأن نكون رجالاً
فلدينا الرّجال..
صاروا عجيناً..
علّمونا..
كيف الحجارة تغدو
بين أيدي الأطفال،
كيف تغدو
دراجة الطفل، لغماً
وشريط الحرير..
يغدو كميناً..
كيف مصاصة الحليب..
إذا ما اعتقلوها
تحولت سكيناً»(١٧)

وتطلّ علينا فلسطين بانتفاضتها المباركة، فتباركها الأمّة الإسلاميّة قاطبةً ويتغنّى بها الشّعراء، بما اكتسبته من جمال وجلال كان صنيعة أطفال الحجارة، الّذين اتّخذوا من الحجارة سلاحاً فتفنّنوا في رسم لوحة الانتفاضة حتّى أضحت نابضةً بالحركة مزهوّةً بالألوان؛ رسالتهم بليغة، بل هيّ قمّة البلاغة والتّبليغ والإبلاغ إلى كلّ شعوب وأطفال الإنسانيّة، وهيّ متعدّدة المضامين بحسب ما أُرسِلت إليه، فهيّ:

إلى أولي الأمر من الغرب: إن حرمتمونا سلاحاً، فالحجارة سلاحنا تستحيل بين أيدينا سكّيناً وسيفاً ورمحاً وبندقيّة.

وإلى شعوب العالم: إنّنا شعب يأبى الضّيم والاستكانة والهوان، ولنا حقٌّ في الوجود على أرضنا، ولم نَعْتَدِ على أحد ولم نغتصبْ أرض أحَدٍ.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وإلى أطفال المعمورة: إنّ براءتنا قد اغتُصِبَتْ، فلم نلعب كما يلعب أطفال العالم، ولم نتعلّم كما تعلّموا، ولم ننعم بالحياة كما نعموا.. أليس من واجبنا أن نثور؟ أليست الثّورة هيّ مسلكنا لاسترجاع كرامتنا؟؟؟

إنّهم الأطفال المعجزة الّذين حازوا فضل ابتكار السّبل للذّود عن حياض الأمّة والأوطان، فكانت لغتهم مسموعةً ومقروءةً أمام الكبار، وأضحت مكانتهم مشعّةً في تاريخ النّضال العربي المعاصر، وقد وقف الشّعراء المعاصرون مخلّدين مآثر هؤلاء الأطفال ومتغنّين بجهادهم وتضحياتهم:

«بهروا الدنيا

وما في يدهم إلاّ الحجارة

وأضاؤوا كالقناديل،

وجاءوا كالبشارة

قاوموا...

وانفجروا...

واستشهدوا...»[18]

لقد أضاف أطفال الحجارة فصلاً من فصول الرّفض والمقاومة إلى الملحمة الجهاديّة الفلسطينيّة فزادوها إشراقاً ونصاعةً وجمالاً وقداسةً وإجلالاً. حيث اتّخذوا من الحجارة سلاحاً يقذفونه في وجه المغتصب، وما كلّوا ولا ملّوا، ولم تعجزهم تلك الدبّابات، ولم تفتر عزيمتهم تحت قاذفات الطّائرات.

لقد اكتملت على أيديهم المسيرة الجهاديّة الفلسطينيّة، فكان الطّفل الفلسطينيّ هوّ أكبر منشئيها وأعظم قائديها في أيّامنا هذه. لم يتخرّج في ثكنة عسكريّة، ولم ينتم إلى أية كتيبة حربيّة، ولم يخضع لأيّ تنظيم، قام هذا الطّفل تدعوه براءته، وتشحذ همّته فطرتُه، يذود عن وطنه المكلوم، يحدوه الأمل أن تعود له القدس يوماً كما كانت لأجداده ينعمون بخيرات أرضها ويتعبّدون في محراب مسجدها.

لقد التَفَتَ هذا الطّفل المبارك، كأرضه المباركة، يميناً ثمّ شمالاً فلم يجد سلاحاً: لا بندقيّة، لا مدفعاً، لا دبّابة، لا طائرة؛ على كثرة الأسلحة المكدّسة في مخازن ومستودعات الدول العربيّة والإسلاميّة، على مسيرة سويعات فقط وعلى بُعْدِ أمتار من فلسطين، ولكنّها أسلحة ينخرها الصّدأ ويفنيها البلى، تتحدّى كالأسود شعوب بعضها البعض، وهي في الحروب مع أعدائها نعامة.

وهذه هي أولى الدروس المستفادة من انتفاضة الأقصى المباركة الّتي وقودها الأطفال والحجارة، حيث عرّت الأنظمة العربيّة وكشفت سوءاتها أمام شعوبها.

وما كان إلاّ أن ألهِم الطّفل الفلسطينيّ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أن اتّخِذْ من حجارةِ أرضِكَ سلاحاً وارجم بـه عدوّك، تنبجسْ لك الحريّـةُ ساطعةً أو تظفر بالشّهادة حياةً وحضارةً:

«يرمي حجراً.

يبدأ وجه فلسطين

يتشكّل مثل قصيدة شعر..

يرمي الحجر الثاني

تطفو عكّا فوق الماء قصيدة شعر

يرمي الحجر الثالث

يطلع رام الله بنفسجة من ليل القهر

يرمي الحجر العاشر

حتى يظهر وجه الله..

ويظهر نور الفجر..

يرمي حجر الثورة

يرمي حتى يسقط آخر فاشستي

من فاشست العصر

يرمي..

يرمي..

يرمي..

حتى يقلع نجمة داوود

بيديه،

ويرميها في البحر..»(١٩)

وفي زمن التردّي العربي، ينتفض أطفال الحجارة، كأحسن ما يكون رجال الأمّة، لتجفيف أثر الهزيمـة، وإبطال أسطورة الوحـدة القومية. وهـم مؤمنـون بحقهم في أرضهـم. يحملون الحجـارة الّتي تمثل أسلحتهـم، كدليل علـى تعلقهم في أرضهم، وإيمانهم بحقّهـم في امتلاكها، حيث مكمن وجودهـم وحياتهـم وشرفهـم، فيختارون منهـا أسلحتهم. وما هـي إلاّ حجارة، تقوم مقام رصاص الرشاشـات وقنابل الدبابات والطائرات التي يواجهونها صباح مساء.

وهؤلاء الأطفال، إذ يكتفون بهذه الحجارة، إنما يُـبْرِزون للإنسانية كافّة انصهارَهم في أرضهم، وهم على أهبـة الاستعداد للموت من أجلها، وليسـوا تاركيها، وإن اضطرّتهم الضرورة للذّود عنها بالحجارة فقط.

كمـا أنهم يعلنـون للعرب أمّتهـم، أنّ قدرها لم يعد ذلك القدر الذي يؤهّلها لتعتليَ عرش السّيـادة، أو لتقف؛ علـى الأقلّ؛ في خـطّ المواجهة أمام عـدوٍّ يؤمن بأنْ لا بقاء إلاّ للأقوى، فيحشد جيوشاً مدجّجةً بأفتك الأسلحـة لتأكيـد فلسفتـه وتحقيقها على حساب أطفالٍ ترشدهـم براءتهم للمطالبة بأرضهم:

«اثْنَانِ ضَوْآ الطَّرِيقَ؛ الطِّفْلُ وَالحِجَارَهْ

مِنْ بَعْدِ لَيْلِ غَاسِقٍ أَهْدَابُهُ فَوَّارَهْ..

طِفْلٌ يُحَيِّي قُدْسَهُ تَحِيَّةً مِدْرَارَهْ؛

وَيَرْجُمُ التَّلْمُودَ بِالفَوَاصِلِ المِعْطَارَهْ

وَيُشْهِدُ التَّارِيخَ أَنْ لاَ يَسْتَقِيلَ دَارَهْ

وَأَنْ يَظَلَّ حَاضِرًا لَنْ يُطْفِئُوا مَنَارَهْ؛

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وَإنْ سَعَوْا بِخَيْلِهِمْ لَنْ يُدْرِكُوا قَرَارَهْ؛
أَوْ أَجْلَبُوا بِرَجْلِهِمْ فَالمَوْعِدُ الحِجَارَهْ»[20]

إنّ رسالة أطفال الحجارة، هي كذلك، رسالة تغييريّة هادفة، اجتماعياً وأخلاقياً وسياسيّاً. تهدف إلى تغيير نهج المداهنة والاجترار ولوك الألسنة، الذي تسلكه الأنظمة العربية حول القضية الفلسطينية:

«أَيُّ سِلْمٍ، يَا أَيُّهَا الطِّفْلُ لا تُخْدَعْ فَشَرُّ السَّبِيلِ
أَنْ قِيلَ: هَادُوا
لا تَكُنْ مِثْلَ مَنْ تَدَثَّرَ بِالعَارِ فَأَضْحَى شُهُودَهُ الأَنْكَادُ»[21]

كما أنّ رسالة الأطفال تسعى إلى تغيير وعي الشعوب العربية الفاتر والذابل ليتيقّظ من جديد، فتلتفّ هذه الشعوب حول قضية القدس، قضيتها المقدّسة، وتلتهب المشاعر والعواطف نحو الجهاد فيبطل الزّعم اليهودي، وتندثر مقولة «شعب الله المختار الذي لا يقهر».

وطفل الانتفاضة: في شعر الغماري؛ ليس هو ذاك الإنسان الذي يحمل مشعل الرفض ويتّخذ من الحجارة لغةً تعبيريةً عنه فحسب، بل هو التفاؤل والبشارة للغد المشرق والمستقبل الذي سيورق، وبلا ريب، حريّةً وتحرّراً من طغيان اليهود، ويدعو إلى إحياء الفعل الثوري:

«طِفْلُ وَيَشْهَدُ التَّارِيخُ أَنَّهُ البِشَارَهْ؛
بَخٍ بَخٍ يَا لِغَدٍ مُسَامِرٍ أَقْمَارَهْ
وَحَامِلٍ مِنْ سُورَةِ الفَتْحِ البَهِيجِ نَارَهْ
بَخٍ لِجُرْحٍ يَنْتَخِي فَتُورِقُ الحِجَارَهْ»[22]

والحقّ أنّ «حجر الانتفاضة قد استطاع؛ بما رافقه من فعل إنسانيّ؛ أن يفاجئ الشّعر العربيّ وأن يعيد إليه حرارة التّواصل بالواقع بعد أن كان قد هاجر إلى مناطق غير مسكونة إلاّ باللّغة وبآفاق الصّمت»،[23] والتفّ شعراء الرّفض حول طفل الحجارة يحتضنونه مع انتفاضته متسامين إلى أنبل أنواع الالتزام الشّعريّ والأدبيّ، فكان هذا الطّفل بحقّ دافعاً إلى أدبٍ ملتزم بقضايا الفلسطينيين وبهموم الأمّة قاطبةً، أدبٍ يُعلّم معنى التّضحيّة ومعنى الوطنيّة.

ثالثاً: الموقف من السلام

إنّ شعر الرّفض شعر مواقف صلبة، لا تعرف اللّين ولا التّراجع، ولا سيّما تلك المواقف الّتي تعكس ضمير الأمّة وتتبنّى مآثرها، وتنشد معالمها الحضاريّة، فلا يصحّ أن يعتريها خَوَرٌ، أو يشوبها هُزال، والمساومة في شأنها تعدّ خيانةً عظمى لأنّها تطاولت على الأوطان الّتي هي مَكْمَنُ وجود الشّعوب، ومن ضاع وطنه فقد ضاع وجوده.

ذاك ملمحٌ من ملامح موقف شعراء الرّفض تجاه «السّلام» مع الاحتلال

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الصّهيونيّ للأراضي العربيّة ولفلسطين القدس بالدرجة الأولى. إذ إنّ الاحتلال الصّهيونيّ في عرف وثقافة هؤلاء الشّعراء هو استدمارٌ واغتصابٌ وسرقةٌ وظلمٌ وما شئنا من هذه الكلمات، إذا رمنا تسمية الأشياء بأسمائها.

والسّلام مع مَنْ اغتصب الأرض وعاث فيها فساداً، وأهلك الحرث والنّسل، هو سعيٌ أشلّ، وهو ضرب من التّسليم له بأحقيّته فيما فعله من اغتصابٍ وتعذيبٍ وتنكيلٍ بالشعوب العربيّة. وجلوس العرب مع هذا المستدمر للتفاوض أو التّفاهم أو الاتّفاق على السّلم والسّلام، مَثَلُهُم كَمَثَلِ من وجد سارقاً في داره فرضيَ بالتّفاوض معه بدلاً من مقاتلته وإخراجه. إنّ العرب حكّامهم؛ بمثل هذا الصّنيع؛ قد اعترفوا وسلّموا بطبائع المغتصب اليهوديّ، وهم بجلوسهم معه يمثّلون اعترافاً له بجريرته وعوناً له على مظالمه.

وقد كان شعر الرّفض المعاصرُ أوضحَ بيان وأحدَّ من السّنان في هذه القضيّة، فلا يعرف مهادنةً ولا مساومةً. وقضيّة السّلام أجلّ من أن يُتَفاوَض حولها، وأقدس من أن يُؤْخَذَ في أمرها ويُرَدَّ؛ وفلسطين/القدس لا تزال بين براثن الاحتلال الصّهيونيّ.

وقد كان هذا هو موقف ورأي شعراء الرّفض طوال مسيرتهم الإبداعيّة. ففي آخر حوار للشّاعر أمل دنقل؛ وهو على سرير المرض الّذي ودّع الحياة فيه، يتّضح مدى إصراره على هذا النّهج الّذي سلكه فيقول: «أنا لست ضدّ استعادة الأرض بالسيّاسة، أو ما يُطلق عليه اسم المفاوضات والطّرق السّلميّة، ولا أحد من العرب الآن، حتّى أشدّ العرب تشدّداً، يرفض هذه الفكرة، ولكن «لا تصالح» الفكرة الأساسيّة فيها، أنّه لا يريد أن يصالح أخاه على دمه هو، أن يرضى بالحياة، ويرضى بالملك، في سبيل أن يستمرّ هو، بمعنى أوضح ألاّ أقايض أرضي بأحلام شعب آخر»[٢٤]

وقصيدة «لا تصالح» تعبير شعريّ سام عن موقف سياسيّ أسمى لدى أمل دنقل، والحقيقة أنّها لسان حال كلّ شعراء الرّفض المعاصرين، ناهيك عن الشّعوب العربيّة قاطبةً، حيث تعدّ هذه القصيدة بياناً بلاغيّاً وشعريّاً وسيّاسيّاً، وفاتحة فواتح شعر الرّفض العربيّ المعاصر الّذي يرفض أيّ سلام مع العدوّ، وأيّ تفاوض معه يعدّ خيانة ما دام حقّ الشّعب الفلسطينيّ مُغتصَبًا:

«لا تصالحْ!

ولو منحوك الذهبْ

أترَى حين أفقأ عينيكَ

ثم أثبت جوهرتين مكانهما..

هل ترى..؟

هي أشياء لا تُشترى..

.../...

إنها الحربُ!

قد تثقل القلبَ..

لكن خلفك عار العرب

لا تصالحْ..

ولا تتوخَّ الهرب!

لا تصالح على الدّم.. حتى بدم!

لا تصالح! ولو قيل رأس برأسٍ

أكُلُ الرؤوس سواءُ؟

أقَلْبُ الغريب كقلب أخيك؟!

أعيناه عينا أخيك؟!

وهل تتساوى يدٌ.. سيفها كان لَكْ

بيدِ سيفها أثكلك؟»[٢٥]

وقصيدة أمل دنقل بيانٌ شعريّ جريءٌ جدّاً، يرفض فيها الصّلح مع عدوّ دأبه النّفاق والتملّق والكذب والمراوغة والغدر والمكر، حيث تتكرّر «لا تصالح» تسع عشرة مرّة وهيّ لازمة يتجدّد ظهورها في كلّ مقطع من مقاطع القصيدة العشرة. ولهذا التّكرار دلالته المعنويّة والفكريّة والسيّاسيّة، فهوّ تأكيد على أنّ الصّلح مع العدوّ فساد كلّه، «ومعناه قتل الخير وإبقاء جذوة الشرّ مشتعلة».[٢٦] وأمل دنقل قد استشرف المستقبل، وواقعنا العربيّ المُعاش اليوم يصدّقه، فلا عهد لليهود ولا وفاء في سياستهم ولا صدق في معاملاتهم.

وقد اتّضح على مرّ الأيّام، وطوال تاريخ التّفاوض مع الإسرائيليّين أنّ السّلام في عُرف هذا العدوّ أكذوبة كبيرة، ولا وجود له البتّة لا في ثقافته ولا في سياسته، فهو «سلام خادع» تستظلّ تحته إسرائيل بغية تحقيق مآربها، تارةً بخداع العالم إعلاميّاً، وتارةً باضطهاد الفلسطينيين وسلبهم حقّهم في الوجود بتفقيرهم وتشريدهم وتهجيرهم، فلا الأرض تبقى أرضهم ولا فلسطين تبقى وطنهم.

وقد استخلص الدّكتور النّاقد جابر قميحة المعاني والأفكار من قصيدة «لا تصالح» الّتي كان يرمي إليها الشّاعر أمل دنقل، والحقيقة أنّها دروس وعبر وقواعد حصرها في قوله:

«-الصلح يتضمّن تنازلاً عن قيم نفسيّة واجتماعيّة وقوميّة لا يمكن التّعويض عنها مهما كان المقابل.

. الصّلح تفريط في حقّ الضحايا الّذين سقطوا صرعى حروب العدوان والبغي.

. الصّلح لا قيمة له ولا مكان ولا احترام عند قوم لا يرعون الجوار والسّلام.

. الصّلح تفريط في حقّ الأحياء من الأرامل والثكالى واليتامى.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

. لا يستقرّ حكم ولا ملك ولا شرف بالصّلح مع أعداء اتّسموا بالخيانة والغدر.

. شعارات السّلام والصّلح والاستقرار الّتي يطلقها الأعداء وأذنابهم لا تمثّل حقيقة نواياهم.

. الحلول الجزئيّة لا يمكن أن تكون طريقاً للحلّ الكلّي الشّامل، لأنّ القضيّة تخفّ الحماسة لها مع الأيّام «وتبهت شعلتها في الضّلوع إذا ما توالت عليها الفصول».

. نحن أمّة الضّحايا: الأرض والرّجال والمال، واستيفاء الحقوق ممّن غدروا بنا أمر منطقي يتّفق مع أصول الحقّ والعدالة.

. أعداؤنا ليسوا أقوى منّا حتّى نقبل الصّلح معهم، وخصوصاً إذا لم يكن الصّلح «معاهدة بين ندّين في شرف القلب لا تُنتقض».

. دعاة الصّلح لا يمثّلون المصلحة الحقيقيّة للوطن إنّما هم دعاة استكانة ليتفيّئوا -في هدوء- ظلال الرّفاهيّة والمتعة والهناءة.»[٢٧]

أمّا الشّاعر الغماري فيرفض رفضا مطلقاً وشاملاً أيّ سلم بيننا وبين اليهود، ويرى أنّ ذلك خيانة عظمى للأمة وتشويه لتاريخ المسلمين. وأيُّ سلم يقوم بيننا وبينهم؟ وهم مغتصبو الأرض المقدسة وما زالت تحت وطأتهم يعيشون فوقها فساداً، يستنزفون خيراتها ويقتلون أصحابها، بل ويتفننون في أنواع التنكيل والتعذيب والتهجير. فلا سلم مع من لا يجنح للسلم:

«أيُّ سِلْمٍ؟ وَعِفَّةُ القُدْسِ تَهْوِي كَمَا الجَلِيدْ
فِي ظَلاَمَيْنِ مِنْ رُؤَى مُرَّةٍ.. وَمَدَى بَلِيدْ
نَحْنُ جِئْنَاكِ بِالْوُعُودِ..وَكَمْ نَرْهَبُ الوَعِيدْ
نَمْلأُ الدَّرْبَ بِالْحُدُودِ، وَنَغْفُو بِلاَ حُدُودْ»[٢٨]

. . . .

«بِاسْمِ السَّلاَمِ تُبَاعُ القُدْسُ عَارِيَةً
وَالرَّفْضُ يَرْفُضُهُ رَفْضٌ.. وَيُتَّهَمُ
قَالُوا السَّلاَمُ. فَقُلْنَا أيُّ مَهْزَلَةٍ
إنْ كَانَ ضَرْهُمْ جَهْلٌ.. فَكَمْ عَلِمُوا
لِمِصْرَ أمْ لِرُبُوعٍ لَسْتُ أجْهَلُهَا
سِيَّانِ مَنْ تَاجَرُوا بِالدَّرْبِ. مَنْ حَطَمُوا
فِي وَكْرِ «دَاوُدَ» وَالتَّارِيخُ مُنْتَحِرٌ
يُنْفَى «مُحَمَّدُ»، تَنْعَى دَرْبَهَا القِيَمُ
يُعَرْبِدُ الزَّمَنُ المَشْبُوهُ يَا وَطَنَا
تَعَهَّرَتْ فِي مَرَايَا بُعْدِهِ الكَلِمُ»[٢٩]

فبقاء اليهود في القدس واستمرارهم على طبائعهم وعاداتهم الخلقية والسياسية المعهودة دليل على اعتلال كيان الأمة الإسلاميّة، ومؤشر على سقمها، وإنّ هذا السقم قد يمتدّ إلى منظومتها الفكريّة والاجتماعيّة إنْ هي فكرت -ومجرّد تفكير فقط- في إقامة صلح مع اليهود. وهي تعرف بداهةً أن لا عهد واف لليهود. وقد لُدِغَتْ

هـــذه الأمّة من جحر اليهود مرة ومرات من دون أن تعتبر بأحداث التاريخ.

ومن هنـــا كان هجاء الغمـــاريّ للحكّام العرب هجاءً لاذعـــاً موجعاً، إذ إنّه يحمّلهم مسؤوليـــة ضياع القدس، وهم أصحاب اليد الطويلة فيما آلت إليه أوضاع الفلسطينيين اليـــوم، ومـــا ذاك إلا بسبـــب مهادنتهـــم ومسالمتهـــم اليهود، في مســـيرة استسلامية -لا سلميـــة- قدّمـــوا فيها تنـــازلات لم تكن تخطر علـــى بال العـــدو، ولا كان يحلم بها البتـــة. وكان نتيجة ذلـــك أن قُدمت رقاب الفلسطينيـــين إلى مقاصل اليهود. وأضحت القدســـ محـــل مساومة وهـــي إرث مشروع للمسلمين. كل هذا يحدث على مسمع ومرأى من قادة الشعـــوب العربيّة. وكل منهم يلوك لسانه باســـم فلسطين ويرفع راية «العروبة» و«القومية» شعاراً في المجامع والمحافل. وهي شعارات ما كانت تخيـــف العدو في يوم من الأيام، بل زادته تيهاً وعجرفةً وتطاولاً، ولو أدرك أن العرب يتبعـــون شعاراتهم بأعمال جهادية، لكان قد انكمشـــ وقُلّمَتْ أظافره، يقول الغماريّ مشخصاً سبب علّة المسلمين وضياع القدس:

«فَلَمْ أرَ أُمَّـةً مِـنْ قَبْـلُ دِيسَتْ
بِمَـنْ كَـادُوا .. فَكَـانُوا الأوصِيَـاءَ
تَـوَلَّـوْا أمْـرَهَـا زَمَـنًـا فَهِيضَتْ
وَفَـدَّوْهَـا .. وَهُـمْ سَرَقُـوا الفِدَاءَ
رِجَـالُ كَـرِيهَـةٍ فِي السِّـلْمِ.. لَكِنْ
لَـدَى الهَيْجَـاءِ تَحْسَبُهُـمْ إمَـاءَ
عَلَـى وَتَـرِ العُـرُوبَـةِ كَـمْ تَنَـاغَوْا
وَعَـاطَوْهَـا «العِـتَـابَا» وَ«المُكَاءَ»
وَمِـنْ سَاعَـاتِهَـا سَرَقُـوا الثَّـوَانِي
وَفِي أجْـوَائِـهَـا خَنَـقُـوا الهَـوَاءَ
أرَى وَتَـرَ العُـرُوبَـةِ فِي اغْـتِبَـاقٍ
وَأوْتَـارَ العُـرُوبَـةِ.. لا تَـرَائَى»[٣٠]

. . . .

«وَالقُدْسُ.. بِالجُبَنَاءِ القُدْسُ مُنْعَفِرًا
وَالقَادَةُ السُّمْرُ كَمْ غَنَّوْا وَكَمْ طَرِبُوا
تَأنَّقَ السِّلْمُ حَتَّى صَارَ مَفْخَرَةً
وَفَلْسَفَ الجُبْنُ حَتَّى أُحْمِدَ الهَرَبُ
وَمَا عَلَيْهِمْ وَقَدْ بِيعَتْ كَرَامَتُهُمْ
أنْ يُعْبَدَ الأصْفَرَانِ، الذُّلُّ وَالذَّهَبُ»[٣١]

إن الغماريّ، وهو الشّاعر المتّقد العزيمة، المتيقـــظ الشعور، الذي يحمـــل أعباء أمّته، والذّائـــد عن حياضها، والمعبّر عن آمالها، والمصوّر آلامها، والطامح إلى غدها المشرق، لا يتوانى ولا يـــتردّد في التعبير عن مواقف الرفض تجاه أولئك الذين يعفرون مقدساته في التّراب، ففي ظـــل سياسة هؤلاء الحكام تسلـــل مكر اليهـــود إلى القدســـ، وامتدت مطامع الاستعمار إلى الأمّة العربيّة:

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

«يَهُودُ العَصْرِ وَا قُدْسَاهُ عَادُوا
وَعَادَ العَصْرُ يُورِقُ أَدْعِيَاءَ!
فِدَاءُ السَّامِرِيِّ عُيُونُ مِصْرٍ
وَإِنْ تَشْقَى العُيُونُ بِهِ عَمَاءَ
وَفِي عَمَّانَ دَبْكَةُ صَوْلَجَانٍ
تُوَارِي مَا تَعُدُّ لَهُ رِيَاءَ!»[٣٢]

فلا يسعنا إلاّ أن نقدّم العذر للقدس ونتقرّب إليها بالشكوى تلوى الشكوى، ونحن مكرهون على ذلك، ويبقى صوت شاعر الأمّة متوثّباً، لا يعرف كَلَلاً ولا مَلَلاً متغنّياً بقدسيّة القدس على الرغم مما سامها من إذلال:

«أجَلْ يَا قُدْسُ. يَا صَحْوِي وَمَحْوِي
وَيَا أَلَمًا أَلُوذُ بِهِ دُمَاءَ
وِطَاءُ مُحَمَّدٍ وَمِهَادُ عِيسَى
سَمَوْتِ فَفُقْتِ يَا قُدْسِي السَّمَاءَ
مَلاَذَ العَاشِقِينَ إِلَيْكِ فَاوُوا
وَكَمْ بَثُّوا مَوَاجِدَهُمْ سَخَاءَ
فَجُرْتِ مَنَابِعَ الإِبْدَاعِ فِيهِمْ
فَهَامُوا فِي مَدَاكِ رُؤًى وِضَاءَ
وَرَقَّ حَنِينُهُمْ فِيكِ انْسِيَابَا
فَرَقْرَقَتِ القُلُوبُ لَكِ الوَفَاءَ
وَرَاقَتْ فِيكِ نَجْوَى اللهِ ذِكْراً
سَبُوحِيًا .. تَضَوَّعَ أَنْبِيَاءَ
فَمَاذَا يَا جَلاَلَ القُدْسِ مَاذَا؟
وَقَدْ عَادَ الزَّمَانُ بِنَا وَرَاءَ!!
تَحَطَّمَتِ اليَرَاعَةُ فِيكِ شَكْوَى
وَوَجْهُ الصَّمْتِ يَطْوِينَا عَيَاءَ
يُلَمْلِمُ جُرْحَنَا فِي كُلِّ نَادٍ
وَيَقْبِسُ مِنْ لَيَالِيهِ السَّنَاءَ»[٣٣]

إنّ فلسطين/القدس في الشّعر العربيّ المعاصر، وعند شعراء الرّفض بصفة أخصّ، تمثّل ديواناً شعريّاً مكتملاً، ولو رحنا نستقصي ما نُظم حول فلسطين لأعددنا موسوعةً شعريّةً ذات بال، حيث تتشعّب فيها أشكال القصيدة، وتتعدّد مضامينها. لكنّها تشترك كلّها في منحى المقاومة والثّورة والرّفض. فقصيدة فلسطين هيّ قصيدة المقاومة والإباء، كما أنّها تمثّل الصّورة المشرقة لمعنى الالتزام الأدبي، حيث يمتزج الشّاعر بروح الشّعب وهوّ يثور في وجه المستبدّ الصّهيونيّ الغاصب. كما يُبرز إلى العالم صورة ذلك الطّفل البريء الرّافض للذل وهو يرمي حجراً صارخاً يبتغي حريّته وكرامته، وتلك المرأة الّتي تبكي طفلها وزوجها، وغير ذلك من مآسي الشّعب الفلسطينيّ. فيكون الشّعر بهذا الاتّجاه في الإبداع شاهداً على العصر لا غائباً حبيس النّرجسيّات.

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش

١- عـن أبي هريرة -رضي الله عنـه- عن النبي (ص) قال: «لا تشدّ الرحـال إلاّ إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجـدي هذا (المسجد النبوي) و(المسجد الأقصى) (البخاري ١١٨٩). ينظر: الإمام زين الدين أحمـد بن عبد اللطيف الزبيـدي: مختصر صحيح البخاري المسمى «التجريـد الصريح لأحاديث الجامع الصحيـح». تحقيق إبراهيم بركة، مراجعة أحمد راتب عرموش. لبنان. بيروت. ط: ٢. السنة: ١٩٨٦م. باب كتاب الصلاة في مسجد مكة والمدينة. ص: ١٤٦.

٢- مجلة المنطلق. لبنان. بيروت. العدد ٧٧. شوّال ١٤١١هـ/ نيسان ١٩٩١م. ص: ٨٣.

٣- المرجع نفسه ص: ٨٤.

٤- و الحـق أن الأدب الجزائري، والشعر منه بصفة أخصّ، ظلّ وفياً للقضية الفلسطينية وقد واكبها منذ أن وطأت أقدام اليهود أرض القدس، وتشهد لهم إبداعاتهم العديدة على قومية الانتماء. ومن هؤلاء الأدباء: محمد البشـير الإبراهيمي، والشاعر محمد العيـد آل الخليفة، والشاعر مفدي زكريـاء، والشاعر أحمد سحنون.. وغيرهم كثر.

ينظـر: د. عبد الله الركيبي: قضايا عربيّة في الشعر الجزائـري المعاصر. الجزائر. م و ك. ط: . السنة: ١٩٨٣م. ابتداءً من صفحة: ٣٩.

٥- مصطفى الغماريّ: ديوان: العيد والقدس والمقام. الجزائر. مؤسسة الشروق للإعلام والنشر. ط: ؟. السنة: ؟. صفحة الإهداء. ينظر كذلك الإهداءات التي تتصدر القصائد الآتية: أ- يولد الثأر من رفات الشهيد. ب- العيد والقدس والمقام. ج- كل طفل عماد. فكلها رفض وجهاد، وسخط على الأوصياء. وتقديس للشهادة، وإكبار للشهداء.

٦- مصطفى الغماريّ: ديوان الهجرتان. الجزائر. دار المطالب ط ١. السنة: ١٩٩٤م. ص: ١١.

٧- البيت للشاعر أحمد شوقي من قصيدة «ذكرى المولد النبوي». مطلعها:

سلوا قلبي غداةَ سلا وثابا

لعلّ على الجمال له عتابا.

ينظر: أحمد شوقي: الشوقيات. لبنان. بيروت. دار الكتاب العربي. ط. ١١. ج ١. السنة: ١٩٨٦م. ص: ٧١.

٨- مصطفى الغماريّ: ديوان. العيد والمقام والقدس. ص: ٢٠، ١٩، ٢٤.

٩- د. مفيـد محمـد قميحة: الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر. لبنـان. بيروت. دار الآفاق الجديدة. ط ١. السنة: ١٩٨١م. ص: ٢٠٦.

١٠- أولا: يقول الله تعالى:

أ ـــ ((وَالَّذِيـنَ آمَنُـواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)) سورة الأنفال الآية: ٧٤.

ب ـــ ((الَّذِيـنَ آمَنُـواْ وَهَاجَـرُواْ وَجَاهَـدُواْ فِي سَبِيـلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِـمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنـدَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ

الفَائِزُونَ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)) سورة التوبة، الآية:٢١-٢٠- ٢٢.

ج ـــ ((إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ..)) سورة التوبة، الآية: ١١١.

د ـــ ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)) سورة الصف، الآية: ١١-١٠.

ثانيا: يقول الرسول صلى الله عليه وسلم:

أ- عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال:جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: دلّني على عمل يعدل الجهاد، قال: لا أجده قال: هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر، قال: ومن يستطيع ذلك؟

ب- عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله: أيّ الناس أفضل؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله، قالوا: ثمّ من؟ قال: مؤمن في شِعْبٍ من الشعاب يتقي الله ويَدَعُ الناس من شرّه.

يُنظَر: الإمام زين الدين أحمد بن عبد اللطيف الزبيدي: مختصر صحيح البخاري المسمى: التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح. مرجع سابق: كتاب الجهاد ص:٢٧٦.

١١- البيت من قصيدة للمتنبي مطلعها:

كم قتيل كما قتلت شهيد

لبياض الطُلى وورد الخدود

ينظر: أبو الطيب المتنبي: الديوان شرح ناصيف اليازجي المسمى «العُرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب». لبنان. بيروت. دار بيروت للطباعة والنشر. ط:؟. ج٢. السنة: ١٩٨١م. ص:١١٥.

١٢- ينظر: د.مفيد محمد قميحة. الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر. مرجع سابق. ص: ٢٠٧.

١٣- مظفر النواب: الأعمال الشعريّة الكاملة. لندن. دار قنبر. ط:؟ السنة:١٩٩٦م. ص:٤٧٧ وما بعدها.

١٤- مظفر النواب: الأعمال الشعريّة الكاملة. لندن. دار قنبر. ط:؟ السنة:١٩٩٦م. ص:٤٧٧ وما بعدها.

١٥- مظفر النواب: الأعمال الشعريّة الكاملة. لندن. دار قنبر. ط:؟ السنة:١٩٩٦م. ص:٤٧٧ وما بعدها.

١٦- يقول طَرَفة بن العبد:

وظُلم ذَويّ القُربى أشدّ مضاضةً

على المرء من وقع الحُسام المهنّدِ

١٧- نزار قباني: ثلاثية أطفال الحجارة. لبنان. بيروت. منشورات نزار قباني. ط:٢. السنة: ١٩٩٠م. ص:٢٧، ٢٨.

١٨- نزار قباني: ثلاثية أطفال الحجارة.لبنان. بيروت. منشورات نزار قباني. ط:٢. السنة: ١٩٩٠م. ص:١٩.

١٩- نزار قباني: ثلاثية أطفال الحجارة.لبنان. بيروت. منشورات نزار قباني. ط:٢. السنة: ١٩٩٠م. ص:٥٢، ٥٤.

٢٠- مصطفى محمد الغماري: «إسلاماه»- الجزائر- مؤسسة الشروق للإعلام والنشر- ط:١- السنة: ١٩٩٤م. ص:٩١.

٢١- مصطفى محمد الغماريّ: العيد والقدس والمقام. الجزائر. مؤسسة الشروق للإعلام والنشر. ط:؟. السنة:؟. ص: ٦٤.

٢٢- مصطفى الغماريّ: ديوان «إسلاماه». ص: ٩٢.

٢٣- د.عبد العزيز المقالح: صدمة الحجارة، دراسة في قصيدة الانتفاضة. لبنان. بيروت. دار الآداب. ط:١. السنة:١٩٩٢م. ص:١٠٥.

٢٤- فاروق شوشة وآخرون: شاعر الغرفة ٨. مصر. القاهرة. دار الوثبة.ط:؟ .السنة:؟ .ص:١١١.

٢٥- أمل دنقل: الأعمال الشعريّة الكاملة. مصر. القاهرة. مكتبة مدبوليّ.ط:؟ السنة:١٩٩٥م. ص:٣٩٤.

٢٦- د.بسّام قطّوس: استراتيجيّة القراءة،التّأصيل والإجراء النّقدي. الأردن. إربد. دار الكندي. ط:١. السنة: ١٩٩٨م. ص: ١٧.

٢٧- د.جابر قميحة: الأدب الحديث بين عدالة الموضوعية وجناية التطرّف. مصر. القاهرة. الهيئة المصريّة اللّبنانيّة. ط:١. السنة: ١٤١٢هـ/١٩٩٢م. ص: ٢١٨، ٢١٩.

٢٨- مصطفى محمد الغماريّ: عرس في مأتم الحجاج - الجزائر- ش ون ت ط:١ - السنة: ١٩٨٣م. ص:٢٣.

٢٩- مصطفى محمد الغماريّ: نقش على ذاكرة الزمن - الجزائر- ش ون ت ط:١ - السنة: ١٩٨٣م. ص:١١١، ١١٣.

٣٠- مصطفى محمد الغماريّ: ديوان بوح في موسم الأسرار. الجزائر. مطبعة لافوميك. ط:؟. السنة: ١٩٨٥م. ص: ٦٧، ٦٨.

٣١- مصطفى محمد الغماريّ: قراءة في آية السيف- الجزائر- ش ون ت- ط:١ - السنة: ١٩٨٣م. ص:١٢٤.

٣٢- مصطفى محمد الغماريّ: ديوان بوح في موسم الأسرار. الجزائر. مطبعة لافوميك. ط:؟. السنة: ١٩٨٥م. ص:٦٩،٧٠.

٣٣- مصطفى الغماريّ: ديوان بوح في موسم الأسرار. ٧٠، ٧١.

مراجع البحث

١- القرآن الكريم.

٢- أبو الطيّب المتنبي: الديوان. شرح ناصيف اليازجي المسمى «العرف الطيّب في شرح ديوان أبي الطيّب». لبنان. بيروت. دار بيروت للطباعة والنشر. ط:؟. ج٢. السنة: ١٩٨١م.

٣- أحمد شوقي: الشوقيّات. لبنان.بيروت دار الكتاب العربيّ. ط.١١ .ج١. السنة: ١٩٨٦م.

٤- الإمام زين الدين أحمد بن عبد اللطيف الزبيدي: مختصر صحيح البخاري المسمى «التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح». تحقيق إبراهيم بركة، مراجعة أحمد راتب عرموش. لبنان. بيروت. ط:٢. السنة: ١٩٨٦م.

٥- أمل دُنقل: الأعمال الشعريّة الكاملة. مصر. القاهرة. مكتبة مدبوليّ. ط:؟ السنة: ١٩٩٥م.

٦- د بسّام قطّوس: استراتيجيّة القراءة،التّأصيل والإجراء النّقدي. الأردن. إربد. دار الكندي. ط:١. السنة: ١٩٩٨م.

٧- د.جابر قميحة: الأدب الحديث بين عدالة الموضوعيّة وجناية التطرّف. مصر. القاهرة. الهيئة المصريّة اللّبنانيّة. ط:١. السنة: ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٨- مجلة المنطلق. لبنان. بيروت. العدد٧٧. شوال ١٤١١هـ /نيسان١٩٩١م.

٩- د مفيد محمد قميحة: الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر. لبنان. بيروت. دار الآفاق الجديدة. ط١. السنة: ١٩٨١م.

١٠- مصطفى محمد الغماريّ: بوح في موسم الأسرار-الجزائر- مطبعة لافوميك -ط:؟- السنة: ١٩٨٥م.

١١- مصطفى محمد الغماريّ: الهجرتان. الجزائر. دار المطالب. ط١. السنة: ١٩٩٤م.

١٢- مصطفى محمد الغماريّ: وإسلاماه- الجزائر- مؤسسة الشروق للإعلام والنشر- ط:١- السنة: ١٩٩٤م.

١٣- مصطفى محمد الغماريّ: نقش على ذاكرة الزمن - الجزائر- ش ون ت ط:١ - السنة: ١٩٨٣م.

١٤- مصطفى محمد الغماريّ: العيد والقدس والمقام. الجزائر.مؤسسة الشروق للإعلام والنشر. ط:؟. السنة:؟.

١٥- مصطفى محمد الغماريّ: عرس في مأتم الحجاج - الجزائر- ش ون ت ط:١ - السنة: ١٩٨٣م.

١٦- مصطفى محمد الغماريّ: قراءة في آية السيف- الجزائر- ش ون ت- ط:١ - السنة: ١٩٨٣م.

١٧- مظفر النوّاب: الأعمال الشعريّة الكاملة. لندن. دار قنبر. ط:؟ السنة: ١٩٩٦م.

١٨- نزار قباني: ثلاثية أطفال الحجارة.لبنان. بيروت. منشورات نزار قباني. ط:٢. السنة:١٩٩٠م.

١٩- د.عبد الله الركيبي: قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر. الجزائر. م وك. ط:. السنة: ١٩٨٣م.

٢٠- د.عبد العزيز المقالح: صدمة الحجارة، دراسة في قصيدة الانتفاضة. لبنان. بيروت. دار الآداب. ط:١. السنة:١٩٩٢م.

٢١- فاروق شوشة وآخرون: شاعر الغرفة٨. مصر. القاهرة. دار الوثبة. ط:؟. السنة:؟.

شعر خليل مردم بك بين الغزل ... والحماسة

د. محمد رضوان الداية ✿

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بمناسبة بدء السنة الدراسية ١٩٥٣-١٩٥٤م في الكلية العلمية الوطنية بدمشق[1] امتلأت قاعة المحاضرات الكبرى بالطلبة، وكنتُ في الأسبوع الأول من الانتظام في المدرسة، وخرج علينا د. عثمان بن أحمد منيف العائذي مدير المدرسة التنفيذي، وألقى علينا كلمة بالمناسبة، فلما انتهى منها التفت إلينا وقال: يا أولادي! هذه القاعة شهدت محاضرات وندوات لأدباء كبار

✿ أديب وناقد وأستاذ جامعي.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

وعلماء عظام، وفيها تمَّ ترشيح قصيدة لشاعر الشام خليل مردم بك لدخول مباراة اختيار نشيد وطني لسورية، وهي:

حُماةَ الديارِ عليكم سلامْ

أبتْ أن تذلَّ النفوسُ الكرامْ

وكانت هي الفائزة -كما تعرفون- وصارت هي شعر النشيد الوطني. فلما ظهر ديوان خليل مردم بك في طبعته الأولى سنة ١٣٧٩هـ ١٩٦٠م عن مجمع اللغة العربية بدمشق افتتيته مستعيداً ذكرى يوم افتتاح الدراسة في الكلية العلمية الوطنية، ومستفيداً من قراءة شعره، وتمثله في إطار أشعار شعراء الشام في القرن الماضي.

وربطت صلة الأدب والتذوق، والفن والجمال وأساسيات أخرى كثيرة بيني وبين الشاعر وشعره. ولفتت نظري قصيدة غزلية بعنوان (قالت لي السمراء)[٢] وذكرتني بديوان لنزار قباني من بواكير دواوينه بالاسم نفسه. والاثنان من دمشق، وأحدهما سابق والآخر لاحق، وأحدهما كان معلماً للآخر الذي كان طالباً يتدرب على يديه.

(١)

يقف خليل مردم بك في مصاف عدد من الشعراء العرب في سورية، أسهموا في حركة الشعر السوري خاصة والعربي عامة، وتركوا دواوين مطبوعة يقرؤها الناس، وانغمسوا في حياتهم -كما صنعوا في أشعارهم- في جوانب الحياة. وصَدَروا -كثيراً- عن تجاربهم، وعن معاناتهم، وعن تفاعلهم مع أحداث الحياة المختلفة من حولهم؛ فكانوا صدىً لأنفسهم وما يتعلق بهم، وكانوا صدىً آخر -أبعد أثراً في الحياة- لما عايشوه -أو انغمسوا فيه- من الأحوال السياسية والاجتماعية وغيرها.

وهو واحد ممن أدركوا مدةً من القرن التاسع عشر ولو يسيرةً، وممن انغمسوا في العمل الوطني، وممن انخرطوا في قضايا اللغة، وصاروا أعضاء في المجمع العلمي العربي. وممن مارسوا التعليم: الذي أفادهم بتجاربه، وأسهم في التهيئة لجيلٍ جديد أحبَّ الشعر، وعالجه، حتى خرج منه من برع فيه، وسابق أساتذته كنزار قباني.

وإذا كان لي أن أضيء شيئاً من حياة خليل مردم بك وأحواله فإنني أختار ما يخص الموضوع الذي أعالجه (الغزل، والحماسة) وهما من أغراض الديوان، ولكن في هذا الديوان موضوعات أخرى يصح الوقوف عندها وتنويرها لأهميتها الأدبية والسياسية والاجتماعية.

وعلى الرغم من انشغال الشاعر بشيء

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

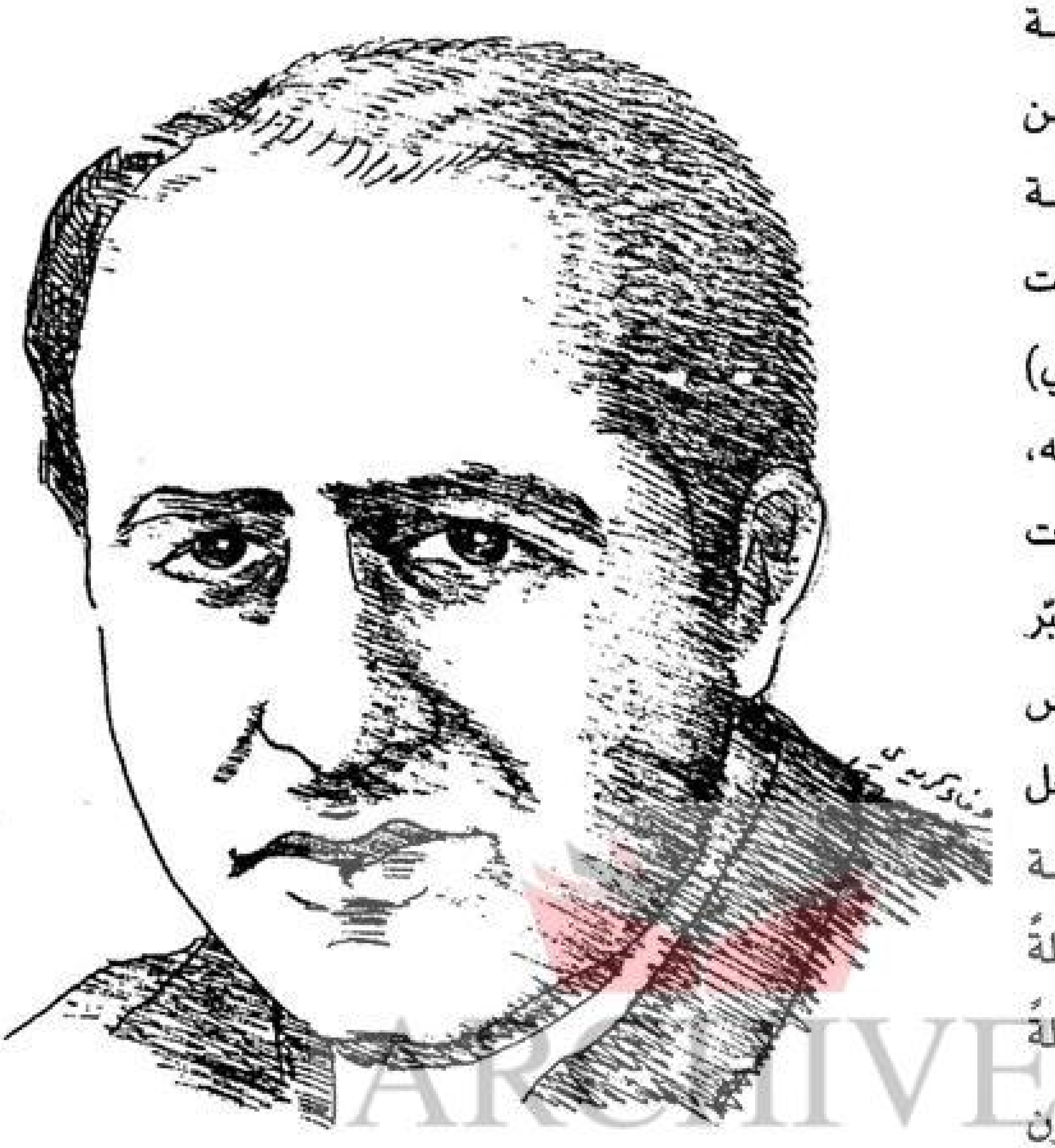

من الأعمال الإدارية والسياسية، وأخذه من بعض مناصب الدولة بنصيب فقد وجد الوقت (أو اقتطع منه ما يكفي) للعناية بالأدب، وتاريخه، وقضاياه، والالتفات إلى إلهام الشعر: يعبّر عن خواطر نفسه وبعض مجريات حياته، ويسجّل فيه مواقفه الوطنية والاجتماعية، ويجعله صلةً بينه وبين من حوله، وصلةً بينه وبين كثير من شؤون الحياة.(٢)

واختيار قضيتي الغزل والحماسة من شعره هو اختيار قاصدٌ فإن خليل مردم بك في بعض قصائده نهجَ نهج بعض السابقين البارعين في لفّ الغزل بالحماسة كالمتنبي. وإن القارئ يجد في هذين الغرضين ملامح خليل مردم بك ظاهرةً مشرقةً، منفعلةً، مؤثرة. وقد أتاح له هذان الموضوعان إخراج ما في نفسه من العواطف، ومن التوهج العالي فيما يخص الذات في أرقّ خصائصها (الحبّ ورصد الجمال)، وفي ما يخصّ الأهل والعشيرة والوطن في أيام صراع العدو الفرنسي الغاصب قبل الاستقلال (الحماسة).

وإذا كانت الطبيعة الشامية وملامح الجمال احتضنت الشاعر وأثارت جزءاً مهماً من عبقرية الشعر عنده فإن خليل مردم بك يرى أن الشاعر لا يكون شاعراً -كما انتبه د. صليبا- إلا إذا نبَّه قومه وأيقظهم من سباتهم فذكّرهم بأمجادهم القديمة وأذكى حماسهم وأطلعهم على نقائضهم، وأي فضل لشاعر عربي معاصر لا يرثي شهداء العروبة ولا يتغنى بالاستقلال ولا يدعو إلى الثورة

علـى الاستعمار، ولا يقدس الوحدة العربية الكبرى؟[٤]

- ومن شعر خليل مردم بك في هذا[٥]

إذا لم ينبه شاعر القوم قومه
فذاك بأن يشقى به قومه أحرى
أرى الشعر أنفاساً يصرفها الفتى
فيطفي بها جمراً ويذكي بها جمرا
وينفحها روحاً بميّت أمةٍ
فتنسلّ من أحداث غفلتها الكبرى!

وهذه الأبيات من قصيدة بعنوان (الشعر) نشرها سنة ١٩٢٤م قبيل احتدام الثورة السورية الكبرى بقليل.

لقد اجتمع لخليل مردم بك عوامل متعددة جعلت اهتمامه بهذين الموضوعين من سياق حياته، وظروفها، ومعاناته وأحوالها: بين الحال الداخلية للشاعر، وبين الدنيا التي تطيف به في دمشق، وسورية، وفي بلدان عربية أخرى (كلبنان ومصر) وفي بلاد الاغتراب البعيدة (كإنجلترة).

وهكذا تتردد أصداء شتى لهذين الموضوعين في حياته، وفي قصائده متدرجة مع الزمن، في ترابط قوي ظاهر.

وقد أعان الشاعر الدارس لحياته وشعره بتأريخ معظم قصائده، وتعيين أماكن نظمها أحياناً، وبإضافات كان يضيفها، على قلةٍ، تتعلق بأسباب نظمها أو الظروف المصاحبة لذلك.

(٢)

عُني بالكلام على خليل مردم بك عددٌ غير قليل من الباحثين والنقاد والمؤرخين،[٦] بين دراسات موسعة (وخاصة في مجال الرسائل الجامعية)[٧] ودراسات جاءت في كتب تتحدث عن أدباء الشام من القرن الماضي،[٨] وبحوث أدرجت في مؤلفات تؤرخ للأدب في القطر العربي السوري.[٩] وغير ذلك من المجالات. على أنّ في أهم ما كتب عن حياة خليل مردم بك، وعن شعره وشاعريته بحثان اثنان لا بد من الإشارة إليهما:

أحدهما: للدكتور سامي الدهان، واعتنى، أكثر ما اعتنى، بسيرته، ومنعطفات حياته، وتوجهاته الإدارية والعلمية والأدبية شعراً ونثراً.

والثاني: للدكتور جميل صليبا: صديق الشاعر ورصيفه في المجمع العلمي العربي. والدكتور صليبا وإن كان مشهوراً بدراساته الفلسفية والتربوية من رؤوس النقاد في سورية في القرن الماضي.

ودراسة د.صليبا، على إيجازها واختصارها بالقياس إلى المألوف من البسط والسرد الذي شاع كثيراً، من أجمع ما قيل في أدب خليل مردم بك شعراً ونثراً، ومن

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

أعمق ما يقرأ المتابع في سبر غور آفاق الشاعر، وفي النفوذ إلى نفسيته، وفي الربط بين حياته، وشعره.

وقد أتاحت الصداقة المتينة بين د. صليبا وخليل مردم بك، ومعرفته العميقة به أن يفسر كثيراً من أحوال الشاعر ويربط بين النص وملابساته، ويوجّه قراءة ذلك الشعر، وفهمه. واستطاع الناقد بأدواته الماهرة أن ينفذ إلى أعماق الشعر وأن يستنبط الكثير الجمّ من خصائصه الفنية.

(٢)

نال خليل مردم بك (١٨٩٥-١٩٥٩) حظه من التعليم على الطرائق التي كانت سائدة آنذاك، ولكنّه التفت إلى القراءة والحفظ، ولعله أفاد من كون جده لأمه: السيد محمود الحمزاوي مفتي دمشق وعلّامتها وصاحب التصانيف الكثيرة.

ولما كان في الثالثة والعشرين من عمره، وبعد جلاء الأتراك ١٩١٨م عُيّن مميزاً لديوان الرسائل العامة، وهي وظيفة زادت من تمكنه في اللغة وتوسعه في المعارف الأدبية وغيرها.

وفي هذه المدة المبكرة من حياته نظم الشعر، وما لبث أن أسس (الرابطة الأدبية) على غرار الرابطة القلمية في المهجر الأمريكي. وقد كان معجباً بالشعراء المهجريين، وعقدت أوّل اجتماعاتها سنة ١٩٢١م، وكان من أعضائها شفيق جبري، وسليم الجندي وحليم دمّوس وأحمد شاكر الكرمي ونجيب الريس وعز الدين التنوخي وجورج ريس وجميل صليبا وغيرهم. وصدر عن هذه الجمعية مجلة (الرابطة الأدبية)، وكان شعارها المدوّن عند صدورها: «إنشاء جامعة أدبية تلم شملهم وتوحد قوتهم».[١٠]

ومن هذه المجلة انطلق خليل مردم بك ينظم أشعاره وينشرها، وكان الغزل هو الغالب عليها.

ومن قصائده الأولى، المنشورة فيها قصيدته المؤرخة في ٢١كانون الأول ١٩٢١م، ومنها:

الهوى يا ميُّ صَعبُ
فارحمي من لك يصبو
الأسى والسهدُ والدمـ
ـعُ على الوامِق ألبُ
بين عينيه وبين النو
م قد أعلن حَربُ!

ومنها[١١]

أيها العاذلُ قد أسرفت في عذلي فحسبُ

ليسَ في التهيامِ رأيٌ

ما على الهائم عتبُ!

وبعد تسعة أعداد من المجلة صدر قرار السلطة الفرنسية المستعمرة بإغلاق المجلة وحلّ الجمعية.

ومع ازدياد القمع الاستعماري وعودة لهيب الثورة السورية من جديد (بعد انتفاضة يوسف العظمة) تنبه المستعمرون إلى أثر أشعار خليل مردم بك الوطنية. وذاعت قصيدة له نظمها إثر نشوب الثورة السورية سنة ١٩٢٥م.

أمدّهُ الدمع حتى غاض جائدهُ

فمن بأدمع عينيه يُرافدُهُ؟

وقد جعل عنوانها (يوم الفزع الأكبر) ومنها[١٢]

باتت دمشق على طوفان من لهبِ

يا ذيْنَ قلبي من خطب تكابدهُ

موجٌ من النار لا تهدا زواخرهُ

يمدّه آخر ما ارتدّ وافدهُ

وَيلُ القذائف هطالاً له مددُ

والنار والنفط والتهديم رافدهُ

في ذمّة الله والتاريخ ما لقيتْ

وفي سبيل الأماني ما تصامدهُ

يا هول ذلك من مرأى شهدتُ وقد

وددت لو كنت أعمى لا أشاهدهُ!

وقد جاء في ذيل القصيدة المؤرخة في ١٩تشرين الثاني ١٩٢٥م ما نصّه من كلام الشاعر نفسه:

«إثر نشر هذه القصيدة في الصحف العربية وتناقلها في المجالس جدّت السلطة الفرنسية لاعتقال الشاعر وزجه في السجن مع من زجت من أحرار البلاد فنزح الشاعر عن وطنه إلى الإسكندرية ومنها إلى أوروبة، وظل غائباً عن وطنه مدة أربع سنوات ونيف».

وفي تفصيل الخبر أن الشاعر لما أحسَّ بملاحقته فرَّ إلى لبنان واستخفى بقرية المروج بمساعدة الشاعر أديب مظهر، ولما خشي من إدراك أمره فرَّ إلى الإسكندرية سنة ١٩٢٦م، ونزل عند شقيقته السيدة فائزة وكانت زوجة الدكتور أحمد قدري أحد أعلام الثورة العربية ومن رجال الملك فيصل المقربين.[١٣]

وفي لندن –التي رحل إليها- أقام أربع سنوات درس فيها الآداب في جامعة لندن و«حصل على شهادة تعادل الدكتوراة».[١٤]

رجع خليل مردم بك إلى دمشق ١٩٢٩م وقد سكت البحث عنه وصار مساعداً لرئيس الأدب العربي في الكلية العلمية الوطنية (من ١٩٢٩ -١٩٣٨م). وأصدر مع جميل صليبا

وكامل الداغستاني مجلة الثقافة. ونشر فيها من شعره ونثره.

وانتخبه أعضاء المجمع العلمي العربي (وقد نال عضويته سنة ١٩٢٥م) أميناً للسر. وعمل مع رئيس المجمع (محمد كرد علي) في اتفاق وتعاون مثمر.

وتقلب خليل مردم في بعض المناصب الوزارية (المعارف-والخارجية) والدبلوماسية (وزير مفوض) وبقي رئيساً للمجمع العلمي العربي من سنة ١٩٥٣م إلى وفاته سنة ١٩٥٩م.[١٥]

(٤)

سبق القول إن فن الغزل كان بداية علاقة خليل مردم بك بالشعر، وهو -وإن كان أكثره قد صدر في صبا الشاعر وشبابه- يشكل جزءاً مهماً من أبواب الديوان. وقد رتبه الشاعر على النحو التالي: الوصف، والوطنيات، والنسيب، والاجتماعيات، والإخوانيات، والمراثي، والإسلاميات.

ويشغل موضوع الغزل الذي عنونه بمصطلح (النسيب) ما بين الصفحات ١٧١ و٢٣٨.

على أن قضية الغزل موصولة أيضاً بملامح الجمال التي عكف الشاعر عليها في قصائده التي نظمها في غوطة دمشق خاصة والطبيعة عامة.

وقد وقف د.صليبا عند هذا الجانب، فخليل مردم بك «يحب الجمال لأنه مرآة ينعكس عليها وجه الله، لا بل هو ظل الله وقبس من نوره»[١٦] ... والجمال لا يتجلى في أنفاس الزهر، وألوان الربيع، وتغريد الطير فحسب بل يتجلى أيضاً في وجه المرأة وقدّها ورشاقتها وسحر عينيها، فصورة المرأة في نظره أجمل صورة في الطبيعة، سحر الجمال الحق من عينيها، ووحيه من وحي جفنيها، لا بل إن رحيقها ألذ من الخمر، وأنفاسها أطيب من أنفاس الربيع، فلا غرو إن ملأ حبها قلبه فتغنى بجمالها، ووصف حبه وشوقه إليها، وعذره في هواه أنها جميلة، وأنه لا ذنب له في غرامه بها. وفي هذا يقول[١٧]

إن كان ذنبي أنني بك مغرمٌ
فعلام حسنك فتنة للرائي؟

وإذا كان الشاعر قد التفت إلى أغراض شعرية أخرى بعد خفوت صوت الغزل عنده فمن المفارقات حقّاً أن تكون آخر قصيدة نظمها هي قصيدة (واهاً لأيام الشباب) سنة ١٩٥٨م. وقال عدنان مردم بك ابن الشاعر وهو يعلق على القصيدة «هذه القصيدة هي آخر ما نظم الفقيد وقد آثرنا أن نضعها في

باب الوصف لما يطالع به القارئ من الوصف البارع».

وقد نظمها الشاعر أرجوزة من نوع المزدوج قال فيها[18]

واهاً لأيام الشباب الغض
ما كان أهنا العيش لو لم تمض
نعمتُ في ظلالها زمانا
نشوان من سكر الصبا ريانا
أرودُ ما زها من الرياض
وأرِدُ العذب من الحياض

فالطبيعة مهادٌ لهذه المنظومة. ولما جعلها أرجوزة مال فيها إلى أسلوبه المفضل من الجزالة اللغوية ومتانة السبك.

وإذا كانت القصيدة الأولى في القسم الغزلي من ديوانه بعنوان (البدوية)[19] فإن الشاعر في آخر قصيدة له يذكر الحسن الآخر المقابل لسمرة البداوة وجمالها الفطري، ويتغنى بالفتاة الشقراء:

ورُبَّ شقراء حكت شمس الضحى
تختال في بُرد الشباب مرحا
بيضاء مثل الدرة الفريده
أنفاسها طيبة بَرُوده
جبهتها وضاءة كالبدر
إذا بدا لأربع وعشرِ
وشعرها كالذهب الوهاج
وجيدها وصدرها كالعاجِ
عينان خضراوان كالزبرجد
تأتلقان كائتلاق الفرقدِ

وفي القصيدة أوصافٌ حسية كثيرة تلمّس فيها الشاعر مواطن جمال المرأة، وهي جميعها تنسجم مع الشقراء في تفاصيل أحوال الجمال المتعلق بها.

وأخذُ الشاعر بالصور الحسية -كما قرر د صليبا- هو وسيلة رمزية للتعبير عن رؤاه وأحلامه ... إنه يعبر عن الإحساس الجميل باللفظ الجميل ...

فإذا وقفنا عند (البدوية) المؤرخة بسنة ١٩٢٣م نجد فيها (من أواخرها) وهو يردّ على فتاة حضرية انتقادها له في حب البدوية[20]

إن التي تدعينها
بدوية ترعى الغنمَ
أفدي بداوتها بمن
هو بالتعمُّلِ معتصمْ
العنجهية والجفا
ء بها يدل على الشمم
خير من اللين الذي
من دونه لين الأصمّ
بدأ الفؤاد بحبها
وعلى الهيام بها خُتم

فهو يفدي بداوتها وجريها على السليقة

بأولئك الفتيات المتصنعـات. ولعلَّ الشاعر أفاد من مذهب المتنبي المشهور[٢١]

حُسن الحضارةِ مجلوبٌ بتطريةٍ

وفي البداوة حُسن غير مجلوبِ!

وكان المتنبي أحد الشعراء الذين أعجب خليل مردم بك بهم، وكان لا يخفي الإعجاب به، والأخذ عنه.

وهذا الانتقال بين الحضارة والبداوة مرتبط بعناية الشاعر أصلاً بملامح الجمال في الطبيعة التي استغرق في وصفها وفي المرأة التي تكمل ملامح الجمال في الكون، وفي كل ملمح جمالي آخر.

ونلمح في غزله طريقة المتنبي في لفِّ الغزل بالحماسة، ومن أقرب نماذج هذا اللون قوله من قصيدة (الغزل الوطني) أوّلها[٢٢]

طيفٌ للمياء ما ينفك يبعث لي

من آخر الليل إن هوّمتُ أشجانا

ومنها:

تذكّرتْ قومها أبناءَ يعرُبَ إذ

كانوا أعز ملوك الأرضِ سلطانا

سادوا الممالك من هندٍ لأندلسٍ

محكمين بها عدلاً وإحسانا

فرقرقت أدمعاً أضحى بصيّبها

روض الأمانيّ بعد الجدب فينانا

قالت عهدت الألى تنمي أصولهم

إلى الذوائب من قيسٍ وقحطانا

• وطريقة اشتهر بها ابن خفاجة من وصل الغزل بالطبيعة، ووصل الطبيعة بصورة المرأة الجميلة كقوله[٢٣]

وزهرةٍ تخجل الياقوت حمرتها

حييتها بفمي إذ أشبهت فاكِ

قبلتها فتلظى لونها خفراً

وزدت فابتسمت عن ثغر ضحّاكِ

شاعت بنفسي منها نشوةٌ عجبٌ

لما شممت لها ريّاً كريّاكِ

كأنها ودموعي فوقها بددٌ

خداك إذ بدموعي ابتل خداكِ

وربُّ عصفورة في (الأرز) ناعمةٍ

هاجت بترجيعها في القلب ذكراكِ

حكت بمختلف الألوان بردتها

شعاع شمسٍ بروضٍ مونقٍ زاكِ

– والأمثلة في ديوانه كثيرة، ولا يغيب عن البال أن بيئة ابن خفاجة في بساتين جزيرة شُقر ومتنزهات بلنسية موطنه ومنتهى أمله، تشابه غوطة دمشق وبساتينها في أيام خليل مردم بك آنذاك، قبل أن يقع الجورُ على الغوطة ومائها وشجرها وسائر نباتها.

– ويلفت قارئ الديوان كما سبق قصيدة (قالت لي السمراء) المنظومة سنة ١٩٤٤م، وهو عنوان أحد دواوين نزار قباني الأولى،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد وصف خليل مردم بك في القصيدة يوماً مطيراً عاصف الرياح كثيف السحب غطى عين الشمس واستمر على قصفه وعصفه وظلمته حتى انجلت الشمس أخيراً وظهرت في أفق صافٍ، ثم قال[٢٤]

ما ترى قالت لي السمراء ما بين السطور
لمحة البارق في
ليلٍ دجوجيَّ ضرير
وابتسام النور في يو
مِ عبوسٍ قمطرير
قد يكون اللحن والإيما
ء أبدى للضمير

وقد نحا الشاعر في القصيدة منحىً رمزياً.

(البارق: البرق، والليل الدجوجي: الشديد السواد، والقمطرير: الشديد المظلم. واللحن هنا: الإشارة باللفظ عن المراد والمقصود تلميحاً لا تصريحاً).

(٥)

في قصيدة (الحب المتبادل) المؤرخة في رجب (١٣٣٠هـ -١٩١٦م) نقف أمام شعر تلبس بالجو العربي البدوي القديم تبدو بداوته في البيئة التي تبرز في النص (المفردات والأحوال، وظروف المحب مع المحبوب، ومقالة العشاق عند رمال البادية، وتحت ظلال بعض شجيرات النخل أو الدوم أو الغاف)

وفيها[٢٥]

شربنا دهاقاً أكؤس الحب والهوى
فقلبُ كلينا مُترعٌ من مَعينها
إذا ما رأتني أعرضَت خوف كاشحٍ
وآيةُ ما تخفيه ملء عيونها
فوالهفا للشمل تنقض رصفهُ
عواذلُ قد كنا فدىً بجفونها
وهل علم الواشون أن أولي الهوى
ترى دون قطع الوصل قطع وتينها
فيا غُلَّةً لم يُطفها فيضُ أدمعي
وكيف وما يرفض غيرُ سخينها
ويا حسرة بين الحشا قد تغلغلت
بلوغ نجومِ الأفقِ دون دفينها

والمخاطبة في القصيدة هي من سمّاها (لمياء)، ونستعير من مقدمة د.صليبا على الديوان:[٢٦]

إننا لا نعرف من هي لمياء التي يتغزل بها في شعره، ولكنا نلمحُ من وراء وصفه وغزله مُشخصات ترينا أن لمياء فتاة مسيحية جار عليها أهلها ومنعوها من لقائه، فنزحت عن دمشق، وأنه على شدّة غرامه بها كان يعفّ عنها، فلا يجتمع بها جلسة إلا ليبثها شوقه وهيامه ولا يضع يده بيدها إلا ليشكو

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إليها صبابته ولوعته فمن هذه المشخصات قوله:[٢٧]

فَـأي كـتـابٍ بـعـد هـذا وسـنَّـةٍ
تـبـاعـدني ألا أديـن بـديـنـهـا؟
لئن فرّقت كتب الديانات بيننا
لتجمعنا صحف الهوى بغضونها
وإن حـرِّج الإنـجـيـل وهـو مـحـرَّفٌ
ففي صحة القرآن حل وضينها

وقوله (من قصيدة أخرى):[٢٨]

فـكـأنـنـا إذ ذاك زوج مـن قـطـا
يـتـطـاعـمـان بـروضـةٍ غـنَّـاء
قـد كـان في طـوقـي بـلـوغ مـآربـي
لـولا زواجـر عـفّـة وحـيـاء

– انتهى الاقتباس من د.جميل صليبا، على أنه نبَّه على أن آخر قصيدة أنشدها خليل مردم بك هي في غرض الغزل.

وقد نظم الشاعر هذه القصيدة على بحر الرجز من نوع المزدوج كما سبق في الاقتباس الآنف (للبيت الواحد قافية تتكرر في صدر البيت وعجزه، ثم تتغير القافية في البيت التالي)، قال فيها:[٢٩]

ورُبَّ شقراء حكت شمس الضحى
تـخـتـال في بُـرْد الـشـبـاب مـرحـا
بـيـضـاء مـثـل الـدرة الـفـريـده
أنـفـاسـهـا طـيـبـة بَـرُوده
هـيـفـاء لـفَّـاء نـحـيـلٌ خـصـرهـا
نـاعـمـةُ المـتـنـين غـضٌّ ظـهـرهـا
ممشوقة لينة الأعطاف
مـيـادة مـرتـجـة الأرداف
جـبـهـتـهـا وضـاءة كـالـبـدر
إذا بـدا لأربـع وعـشـرِ

فالأسلوب أعرابي بدوي، ولكن الفتاة الموصوفة بيضاء شقراء تذكر بفتاة من أهل المدينة لا من أهل البادية، فهل هي ذكريات (ميـاء) التي وقف عند شخصها في أشعار الصبا؟ وهل نقول إن شعر خليل مردم بك في الغزل استدار استدارةً كاملة بين أوائل الصبا وأواخر الشيخوخة؟ .. إنه الفن، وهو وحده يفسر هذه الالتفاتة أو الالتفافة في الوعي الحاضر، ومن وراء خفايا النفس لشاعر مرهف المشاعر رقيق الأحاسيس...

ولعلَّ القارئ ينتبه معي إلى قوله في القصيدة البدوية الثياب والبيئة والألفاظ والمدارك: الحضرية الشخوص والملامح:[٣٠]

وشـعـرهـا كـالـذهـب الـوهـاج
وجـيـدهـا وصـدرهـا كـالـعـاج
عـيـنـان خـضـراوان كـالـزبـرجـد
تـأتـلـقـان كـائـتـلاق الـفـرقـدِ
كـأن بـين سـحـرهـا والـنـحـر
لجَّـة مـاءٍ أو بـيـاض زهـرِ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والقصيدة تنزع إلى مواقف الشعراء العذريين في العفة عند اللقاء، والاكتفاء بالحديث إلى المحبوبة وسرد مكنونات النفس في حوار هادئ بين اثنين أو نجوى صامتة بين عاشقين، وقد قال الشاعر في آخرها (ص:١٠٦) إنه لمس بكفه كفها:[٣١]

حتى إذا ما ندي الكفان
واشتبك البنان بالبنان
وعلت الأنفاس والتراقي
ودرت العروق والمآقي
وقد تلظى خفراً خداها
وارتج فوق صدرها نهداها
تنفست كالرشأ المبهور
وارتعشت كرعشة المقهور
وكان سل كفها من كفي
كخطف كأس الشارب المشتف

(٦)

في ديوان خليل مردم بك باب عنوانه الوطنيات[٣٢] وهو باب كبير من أبواب ديوانه، وفيه قصائد نظمها في مدة متطاولة، وإن كانت مدة الاستعمار الفرنسي (أكثر من ربع قرن) حظيت بعددٍ كبير منها.

ولم تكن تنقص الشاعر الشجاعة والجرأة، وهو يعالج قضية الاستعمار، ويدعو إلى الثورة عليه، وطرده من الوطن الغالي. وكانت الرؤية عنده واضحة تماماً. إن معاداة الاستعمار الفرنسي لا يمكن أن تسوّغ الركون إلى مستعمر آخر ولو كان ذلك بدعوى تشجيعه على المساعدة ضد مستعمر سورية. ونقرأ في ديوانه قصيدة بعنوان «براءة الشام من اللئام»[٣٣] ذمّ فيها نفراً من بلده هللوا لجنود إنكليز لمناسبة مروا فيها في بعض شوارع القاهرة، وتنبه إلى ما في هذا من إساءة إلى إخواننا المصريين الرازحين تحت الاحتلال الإنجليزي، وقال في مطلع القصيدة:[٣٤]

إن الذين تجافى عنهم الشرفُ
الشام تبرأ من عارِ الذي اقترفوا

وفيها في وصف تلك القلة:

هم سُبّة الدهر فالأسلاف تلعنهم
وسوف يخزي بما جاؤوا به الخلَفُ

والقصيدة حماسية قوية. وفيها اعتذار من أهل مصر على ما صنعت تلك القلّة.

وتوزعت أشعار الشاعر الحماسية على جوانب متعددة:

- الدعوة إلى مقاومة الاستعمار، والعمل على طرده، والتخلص منه بالثورة عليه، وحمل السلاح ضده.
- وذكر مآثر الشهداء الذين أناروا طريق

الثورة المؤدي إلى طرد الغاصب، وعلى رأسهم القائد العبقري اللواء يوسف العظمة.

- والفرح بالاستقلال بعد تحقق خروج آخر جندي فرنسي من أرض الوطن (الصغير).

- والانفتاح على لمّ شمل العرب، والتغنّي بالوحدة العربية.

في قصيدته (الاستقلال أو الموت)[٣٥] يرفع الصوت عالياً بمضمون هذا العنوان، ويحذّر من الاستنامة إلى الوعود الكاذبة والمفاوضات المطاطة التي تبدأ ولا تنتهي، ومن هذه القصيدة:

يا أيها الثوار هذا يومكم
فإذا انقضى لا تدركون فلاحا
لا خير في وطنٍ ولا في أهله
ما دام محتل الذرا مجتاحا
ما زلتم في فسحة من أمركم
كي تبعثوها غارةً ملحاحا
الموتُ أربح صفقةً من عيشةٍ
من أسرها لا ترتجون سراحا

والقصيدة مؤرّخة بسنة ١٩٢١م.

وفي قصيدته يوم الفزع الأكبر التي سبقت الإشارة إليها دعوة حماسية عالية لأهل الشام للقتال، ومناجزة العدو بكل ما يُستطاع من قوة، ومن عزيمة؛ وكنّى عن المجاهدين بعبارة «بقية السيف والنيران» وأشار إلى كل مقاتل بعبارة: فتى الشام، وقال[٣٦]

بقيّة السيفِ والنيرانِ إنّ لكم
شأناً تراءت على قربٍ شواهده
لكمْ وإن مسكم قرحٌ وطولُ أذى
من طيّب الذكر بعد اليوم خالدهُ
لله يومكم يوماً فإنّ لهُ
ما بعدهُ وإن اشتدّت شدائدهُ
فتى دمشقَ اصطبر للخطب تجبههُ
إن العروبة جيشٌ أنت قائدهُ
لا عُذرَ في اليأس مما كان ممتعاً
إذا تقصّيت أمراً أنت واجدهُ
أمّا دمشقُ فلا ترجو لنجدتها
إلا فتاها الذي شاعت محامدهُ

وقبل أن يكون وزيراً أو دبلوماسيّاً تجد المنافسة السياسية والحجاج المنهجي واضحاً في قصائده التي عالج فيها قضية الانتداب، والمعاهدات المرفوضة، وسحب سورية إلى حيث يريد المستعمر لمصالحه وخاصة شؤونه. وله قصيدة دالة على ما نقول عنوانها (حديث المعاهدة)[٣٧]

- قال فيها عن الانتداب ومساوئه وجرحه للكرامة العربية:

أتى ضيفاً فأصبح ربّ بيتٍ
يحكم بالقَطِين وبالعيالِ

(القطين: الحشم وأتباع الرجل، والعيال: أهله ومن يعول)

وسمّى نفسه قسراً وصيّاً
علىَّ مفوّضاً في كل حالِ
وسمى نفسه -دهراً- وليّاً
فساواني بربات الحجالِ!
ومنتدباً عليَّ برغم أنفي
ولستُ بقاصرٍ يوم النزال
يضنُّ عليَّ من مالي ويسخو
على غيري بميراثي ومالي

ويستمر في الحِجاج والنقد والاعتراض بصوت عالٍ، وعداءٍ سافر للانتداب الفرنسي وأعماله الاستعمارية السيئة من سلب للإرادة ونهب للأموال وتحكُّمٍ في السياسة ..إلخ

ومرَّ في القصيدة على قضية لواء اسكندرون الذي سلخه اتفاق فرنسي-تركي، وألحقه بتركيا خلافاً لرغبة أغلبية السكان ودون مراعاة للاستفتاء حول الموضوع. والقصيدة مؤرَّخة في سنة ١٩٣٨م سنة أخذ اللواء.

والقصيدة المذكورة هي من أطول القصائد في الديوان.

● ● ●

وللشهادة مكانها في شعر خليل مردم بك من جهتين:

١- الكلام على الشهيد عامة من دون تسمية بطل أو قائد أو مقاوم مجاهد معين.

٢- والكلام على شهداء بأعينهم كالكلام على يوسف العظمة.

وله قصيدة عنوانها (شهداء العرب) يقول فيها جامعاً بين حبّ الوطن وتقديس الشهادة، وتكريم الشهداء:(٣٨)

وطني تقدّس في الورى استقلاله
شهداؤنا ودماؤهم قربانهُ
فتعطّرت بنفوسهم أجواؤه
وتخضّبت بنجيعهم قيعانهُ
دمع الثكالى كان لؤلؤ تاجه
ودماءُ مَنْ نبكيهمُ مرجانهُ

واغتنم كلامه على (ذكرى الشهداء) ليذكرهم ويمجِّد مآثرهم من جهة، وليلوم تشتت القوم وعدم توحّدهم للإجهاز السريع على العدو، فقال في شطر من القصيدة(٣٩)

في مثل ذا اليوم في هذا المكان على
هذي الجذوع علت أرواحهم صُعدا
لصوتها في حفاف العرش هينمةٌ
هل تسمعون ففي أذنيَ منه صدى

صدى دعاء عريضٍ ذي حكايته،

الغُرْبُ، والغُرْبُ، واستقلالهم أبدا

(الهينمة: الصوت الخفي)

وقال في آخر القصيدة داعياً إلى التوحد، وشدّ الهمة:(٤٠)

والله ما الليلة السوداء حين مشوا

يشاهدون مناياهم بها صَددا

أشدَّ هولاً عليهم من تفرّقنا

وإن طول سُرانا بعدُ ما حُمدا!

وأفرد خليل مردم بك قصيدة مطولة عن يوسف العظمة وجهاده، ونبله، وإبائه من دخول الفرنسيين الأعداء من دون أن يلقاهم ولو بجيش قليل العدد والعدّة.

وقصيدته هذه (ذكرى يوسف) طنّانة صدّاحة بناها على الفخامة والنبرة العالية والجزالة، أفرغ فيها من عواطفه ومشاعره، وقال في أولها:(٤١)

اعكف على جدثٍ في عدوة الوادي

(بميسلون) سقاه الرائح الغادي

وطأطئ الرأس إجلالاً لمرقد من

قضى له الله تخليداً بأمجادِ

واجعل تحيته عند الطواف به

ريحانة النفس لا ريحانة الوادي

ومنها:

فدى العروبة بالنفس التي كَرُمَت

يا رحمة الله للمفديّ والفادي

قد كان قائدها حيّاً وجامعها

ميتاً فبورك في الحالين من هادِ

وعرّج الشاعر في القصيدة على أصحاب يوسف العظمة الذين استشهدوا في ٢٣تموز ١٩٢٠م، هذا اليوم الذي صار خالداً في تاريخ الشام، وعلامةً على إباء وزير الحربية الذي لم يقبل على نفسه عند مجيء العدو (وإن كانت القوتان مختلفتين تماماً) إلا إحدى حالين: النصر أو الشهادة. وكان قد أعد للشهادة عدتها -مثلما أعدّ للحرب خطتها-

وقد نقل خليل مردم بك في آخر قصيدة (هوى التاج) ما نصّه -وهو يذكر خلع الملك فيصل عن عرش سورية- «وكان يقال إن بعض وزرائه (فيصل) قبيل وقعة ميسلون زينوا للجنرال غورو دخول سورية حرباً وأطلعوه على خارطة الدفاع» انتهى بحروفه، وقد قال في هذه القصيدة(٤٢)

ما زال يُقْدِمُ والأبطالُ محجمةٌ

حتى المنيّة فيه أصبحت أَمَما

فما تردد في تفضيل موردها

عن أن يقال وزير الحرب قد هُزما

في ذمة الله أشلاء مجندلة

تقحّمت جاحمَ الهيجاء مضطرما

قد أبلغوا النفس عذراً في مصارعهم

ومبلغُ نفسه عذراً كمن سَلِما!

وأنشد خليل مردم بك ليوم ميسلون، سنة ١٩٢٠م وقد آتت الثورة السورية كثيراً من ثمراتها، فجمع قصيدته بين إحياء ذكرى ميسلون وبين تحية الشهداء الذين كان سابقهم: يوسف العظمة، وفيها[٤٣]

أيوسفُ والضحايا اليومَ كثْرٌ
ليهنكَ كنتَ أوّلَ من بداها
زكا نبتُ البلاد وليس بِدعاً
زكيات الدما كانت حياها
فديتك قائداً حيّاً وميتاً
رفعت لكل مكرمةٍ صُواها

(والصوى: علامات دالة توضع على الطريق للسالكين)

(٧)

وكان يغتنم كل مناسبة ليذكر الوطن، ويشكو همّه، ويدعو إلى إنقاذه. حتى قصيدته في (هدية نبوية) التي ألقاها وهو في مصر لم تخل من ذلك، فقد قال فيها[٤٤]

يا رسول الله شكوى
ذي شجونٍ وظُلامَهْ
نحن في الشام نقاسي
فوق أهوال القيامَهْ
ما لنا من أمرنا حتى...
ولا مثلُ قُلامَهْ
أخذوا الأمرَ وأعطو
نا «المعالي، والفخامَهْ»!

يعني ليس لأهل سورية في وطنهم تحت الاحتلال قدر قُلامة الظفر. وقوله المعالي والفخامة يشير إلى الألقاب التي كانت تعطى للرؤساء والوزراء من دون أن تكون لهم الصلاحيات، ودون أن تكون لهم قدرة ولا فعالية، بل كانوا كما قال الشاعر «ألقاب مملكةٍ في غير موضعها ...».

وفكرة وحدة بلاد العرب قائمة في نفسه ثابتة في شعره. ومن هنا هاجم خطة غورو التي قطعت البلاد:

وكيف ترجي جمع قيس ويعربٍ
وشملك يا هذا شتيتٌ مفرقُ؟
وكيف ترجي وحدة عربية
ومن دون (راشيا) حدودٌ وبيرقُ

(والبيرق العلم)

وكان الشاعر بعد خروج الجيش التركي وقبل الاحتلال الفرنسي يتمنى وحدة البلاد العربية، كما كان يأمل الشريف حسين، وابنه فيصل وغيرهما وكما رسم الوعد المزعوم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

للشريف حسين، ولأنصاره في الحجاز ونجد والشام وغيرها. وفي هذا الجو الذي لم يدم طويلاً أنشد الشاعر قصيدته (الفتح العربي) التي ربط فيها بين الماضي والحاضر، وعقد أمله على دولة عربية واحدة شاملة، وقال في آخر القصيدة:

لازال يخفقُ في أرباعنا علمُ
مربّع اللون نفديه بكل اب

يشير إلى العلم العربي ذي الألوان الأربعة الذي كان علم حركة الشريف حسين، واشتقت من ألوان أعلام معظم الأقطار العربية فيما بعد.

ونشيده المشهور صدر عن هذه الروح العربية الشاملة، وإن انطلقت من أبناء بلده سورية. و«حماة الديار» الذين ذُكروا في نشيد خليل مردم بك (الديوان ٢٦٩) هم أنفسهم «حماة الذمّار» في ديوان إلياس حبيب فرحات (الصيف:١٧٢). وهو واحد من الشعراء الذين وظفوا أشعارهم للقضية الواحدة: العربية عامة والشامية (يدخل فيها سورية ولبنان وفلسطين والأردن) خاصة.

ونقرأ من شعر فرحات في قصيدته (شباب الشآم):

سلام عليكم حماة الذمّار
ويا فتيةً لابسين الوقار

ونلاحظ المقاربة في الشطر الأول مع نشيد مردم بك:

حماة الديار عليكم سلام
أبت أن تذل النفوس الكرام

فالتحية مرفوعة إلى هؤلاء الذين يرابطون على الثغور ويحمون الديار وأهلها، ويمنعون عنها العدو.

وفي قصيدة فرحات:

شباب الشآم شباب العلا
صقور الجبال ليوث القفارْ
ويا ذاخرين ليوم الوغى
سيوفاً تمتّ إلى ذي الفقارْ

ومن قضية هؤلاء الشباب (وهم يشكلون معظم قوة درع الوطن) قوله:

وأن مناطق برّ الشآم
جمعها وحدة لا جوار

لقد كان شعر خليل مردم بك الوطني انفعالاً من مواطن عربي مخلص، صدقَ في التعبير عن شؤون نفسه وشجونها، وأسهم في الوصل بين شعره وأناشيده وبين شعراء آخرين في الوطن العربي، وخارجه في بلاد المهجر أيضاً.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش

١- من أشهر مدارس دمشق الأهلية في القرن الماضي.

٢- ديوان خليل مردم بك: ١٩١.

٣- في مؤلفات خليل مردم بك: شعراء الشام في القرن الثالث، وجمهرة المغنين، والأعرابيات،

- وأصدر سلسلة أئمة الأدب وفيها دراسات عن: الجاحظ، وابن المقفع، وابن العميد، والصاحب بن عباد، والفرزدق، وأبي نواس.
- وفي كتبه: الشعراء الشاميون، وقد صدر بعد وفاته. وهو مجموعة من مقالات، وموضوعات متعددة...
- وكتاب دمشق والقدس في الثلاثينيات.
- وأعيان القرن الثالث في الفكر والسياسة والاجتماع.
- ورسائل الخليل، ومحاضرات الخليل، ويوميات الخليل، وتقارير الخليل الدبلوماسية. (صدرت بعد وفاته)
- وحقق من كتب التراث العربي عدداً فيه: ديوان ابن الخياط وديوان ابن عنين، وديوان ابن حيّوس، وديوان ابن الجهم،

(انظر فصل مؤلفات خليل مردم بك من دراسة فادية المليح: خليل مردم بك ص٥١-٧٥. وفهارس الكتاب ص١٦٨-١٦٩)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٤- مقدمة د.صليبا في الديوان: م١٣.

٥- ديوان خليل مردم بك: ٤٧-٤٩.

٦- أخص دراستيّ د.صليبا ود سامي الدهان في مقدمة الديوان (الصفحات م٥-م٣٢).

٧- منها: خليل مردم بك: دراسة أدبية - فادية عبد اللطيف المليح - دار الفداء - دمشق - ١٩٩١.

وخليل مردم بك: حياته وشعره - د محمد فؤاد نعناع - دار الفكر - دمشق - ٢٠٠١.

٨- منها الدراسة القيمة لستة شعراء شاميين أصدرها د سامي الدهان «الشعراء الأعلام في سورية» دار الأنوار - بيروت - ط٢ - ١٩٦٨م - ص١٤٢:٨٣.

٩- منها كتاب: الأدب العربي المعاصر في سورية - سامي الكيالي - دار المعارف بمصر - ط٢ - ١٩٦٨م ص٢٨٠-٢٨٦.

١٠- مقدمة د دهان على الديوان: الصفحة م٢٣.

١١- الديوان: ٢٣١-٢٣٢.

١٢- الديوان: ١٢٣-١٢٥.

١٣- مقدمة الديوان: م٢٥.

١٤- السابق م:٢٦.

١٥- انظر ثبتاً بأعماله الإدارية والدبلوماسية في ترجمته في: الأدب العربي المعاصر في سورية ٢٨١.

١٦- مقدمة الديوان: م١٢.

١٧- ديوان خليل مردم بك: ٢٢٢.
١٨- الديوان: ١٠٤.
١٩- الديوان: ١٧١.
٢٠- الديوان: ١٧٢.
٢١- ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري ١: ١٦٨ من قصيدته الذائعة الرائعة:
من الجآذرُ في زيّ الأعاريب حمر الحُلى والمطايا والجلابيب.
٢٢- ديوان خليل مردم بك: ١٢٧-١٢٨.
٢٣- الديوان: ١٧٦.
٢٤- الديوان: ١٤١.
٢٥- الديوان: ٢٠٦-٢٠٨.
٢٦- مقدمة الديوان م:١٢.
٢٧- الديوان: ٢٠٧.
٢٨- الديوان: ٢٢٣.
٢٩- الديوان: ١٠٤.
٣٠- المصدر السابق.
٣١- المصدر السابق.
٣٢- الديوان: ١٠٩-١٧٠.
٣٣- الديوان: ١١٤.
٣٤- الديوان: ١١٤.
٣٥- الديوان: ١٥٦-١٥٧.
٣٦- الديوان: ١٢٤.
٣٧- الديوان: ١٣٧.
٣٨- الديوان: ١١٧-١١٨.
٣٩- الديوان: ١١٠-١١٢.
٤٠- الديوان: المصدر السابق.
٤١- الديوان: ١١٩-١٢٠.
٤٢- الديوان: ٢٥٧-١٥٨.
٤٣- الديوان: ١٣١-١٣٢.
٤٤- الديوان: ٣٩٤-٣٩٥.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ما هي الشائعة؟

فيليب آلدران[1] Philippe Aldrin
✲
ترجمة د. ماري شهرستان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ليست الحقيقة هي وحدها الفاعلة...

يعود أصل كلمة rumor إلى اللغة اللاتينية التي تعني «ضجيج مبهم غامض يسري، أو خبر دون يقين موثوق». والشائعة هي دون أدنى شك أقدم وسيلة إعلام في العالم. لكن يبدو أن لها مستقبلاً باهراً، حتى في المجتمعات التي هي ظاهرياً الأكثر تقدماً والأكثر عقلانية. فقنوات الاتصال الجديدة مثل الشابكة (أي الإنترنت) ووسائل الإعلام الكثيفة، وفّرت لها اليوم سرعة

✲ مترجمة وباحثة من سورية.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

انتشار غير مسبوقة. هناك مواضيع نمطية تعاد بشكل منتظم مثل: التسمم الغذائي، جرائم الجنس، مؤامرات من كل الأنواع، والعنف الحضري، و«المخاوف- التقنية»... والشائعة هي نهمة مسعورة تتغذى بكل ما تجده حولها. كيف يمكن لنا أن نحددها، ونسيطر عليها ونركزها أو حتى نوجهها؟ ولماذا تستدعينا جميعاً؟

لقد ظلت العلوم الإنسانية لفترة طويلة ترى في انتشار الشائعات أعراضاً لخلل اجتماعي. مع أنه من الناحية العلمية، لا يوجد في الشائعة أي شيء محقر أو منتقص من قدر شيء. وطالما ينظر إليها وكأنها شكل من أشكال التبادل الاجتماعي، مرنة ومتعددة الأشكال، فهي تثير الجدل حول الثقة بوسائل الإعلام وحول علاقة المواطنين بالسلطة.

إن ظاهرة الشائعات تفتن تحمُّس وتثير الفضول. من زمن فيرجيل Virgile في الإينيد (L`Eneide) وصولاً إلى بومارشه Beaumarchais في (حلاق اشبيلية Le Barbier de Séville)، مروراً بغابرييل غارسيا- ماركيز -Gabriel Garcià Marquez في (لامالااورا La Mala hora)، تشكل الشائعة بالنسبة إلى الأدب مادة أولية ذات وسائل ومحركات غير محدودة. وتزدحم يومياتنا أيضاً بهذه الأخبار حيث الحقيقية منها تحاذي الوهمية. هجمات ١١ أيلول، والتسونامي في آسيا، أو الحياة الشخصية للرؤساء، تظهر أن الأحداث التي تتغلغل في المجال العام والإعلامي هي في أغلب الأحيان، إن لم يكن على الدوام، مترافقة بموكبها من الشائعات، مثل: «حكومة ومكاتب المعلومات في الولايات المتحدة كان الإداريون فيها على علم مسبق بأن برجي التجارة سيكونان هدفاً لهجوم، وإنهم قد أنذروا المقربين منهم العاملين في هذه الأبراج كي لا يذهبوا إلى عملهم في ذلك اليوم. ولم يُصب البنتاغون بأية طائرة... وكان التسونامي نتيجة قنبلة جديدة طبيعية يختبرها الأمريكان...» روايات مضادة للروايات الرسمية، تتردد هذه الشائعات في الرأي العام وتبقى احتمالية في وسائل الإعلام وتجتاح الشابكة (الإنترنت).

من وجهة نظر علم الاجتماع، تعني «الشائعة» باللغة المحكية العامة، انتشار معلومة غير شرعية بشكل مضاعف، بالنسبة إلى الخطابات القانونية وإلى قنوات مراقبة المعلومات، وإلى سلطات اليوم ووسائل الإعلام الاعتيادية، وبشكل أكثر عمومية بالنسبة إلى كل «مراكز الحقيقة» (المجامع الدينية، المحاكم، والأكاديميات).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لذلـك، يلجـأ الناشطـون الاجتماعيون الذين يريدون تبادل الشائعات إلى أسلوب التستر والسرية(«طالما نحن بمفردنا، يمكنني أن أخبرك بـأن...»)، أو أنهم ينسبون الخبر إلى قوة العدد المغفل («كل المدينة تعلـم أن..»). وبما أن الشائعة لا يمكن أن تُذكر في الشأن العام من دون إجراءات وقائية مهنية، يلجأ الناشـر إلى استعارة أشكال العرض الخاصـة بالأخبار المسترة (التـي ربما تكون مخالفة للقانـون): فيلصق أصولهـا بمصدر مبهم غير محدد («يُحكـى أن...») أو («يقال كذا وكذا...»)، ويلجأ لاستخدام الخبر المشروط. لكنه عندما يبغي أن يكـون على مسافة من الرواية، لأنها غير قابلـة للتصديـق أو أنها دقيقـة وخطرة، فيعرضهـا على أنها «شائعـة» فيبدأ روايته بـ«يقولون إن...»، إنها «ثرثرات». وعلى العكس من ذلك، إذا أراد تبنيها تماماً وأراد دعمها بغية تصديقها، يقول أنه سمعها من صديق، أو من صديق لصديـق عنده الخبر اليقين.

مهما كان اللبوس الذي ينتقيه الناشر، يمكن تحديد الشائعـة باللجوء إلى مصدر الخبر. هناك بعض الحـالات والمواقف التي تكون أكثر ملائمة لتبادل الشائعات. وفي مواجهة حـدث مقلـق ذي أسبـاب تظـل غامضة، فـإن غياب الحقيقة العامـة أو الشك تجاه المؤسسات التي تبثها يجعل المجال العام أكثر عرضة لتنفذ إليه معلومات غير مدققة وغير مؤكـدة. إن النشر القوي لشائعة ما ينتج عن

ARCHIVE
http://Archivebeta.sakhrit.com

القيمة القوية للمعلومة التي يعيرها قسم من المجتمع أهمية كبيرة، بدافع من إرادة المعرفة الملّحة وغير المحققة.

تعود ظاهرة الإشاعات إذاً إلى تقنية روتينية ودائمة في التبادل الاجتماعي للمعلومات. إن إمكانية الرؤية وآثار هذه الظاهرة يتعلقان بشكل صميمي بنص الرواية وسياقها المباشر. ورغم أنه قد تمّ استيعاب الشائعة منذ زمن بعيد وحتى يومنا هذا على أنها خلل في النظام الاجتماعي، يبقى التساؤل المطروح: لماذا تسود مثل هذه الرؤية السلبية؟ والصحيح أن الشائعات تظهر في أزمنة الأزمات وبشكل منهجي، والهيئات التي تعمل عادة على تصديق المعلومات، إن هي لم تعد حينئذ مستعدة للإجابة على الطلب الملح للمعلومات، فإنها تفقد الثقة والسمعة. فالشائعة هي من حيث الجوهر مرتبطة بالأوضاع الفوضوية للمجتمع، ومن هنا تضافرها التقليدي مع جهل الدهماء، كما أنها تشكل صدى مخيفاً لأزمة الفتن المستمرة، وللأحكام العرفية وصيحات الهجوم التي ترصّع صفحات التاريخ.

في كتاب «الخوف الكبير» عام ١٧٨٩م، بيّن «جورج لوفيبر[٢] Georges Lefebvre» أن قلق الريفيين نجم حينها عن شائعات تتحدث عن مؤامرة قام بها نبلاء ولصوص ضد فرنسا. وعند التحرير، وشيَ بالمشبوهين وتمّ إذلالهم غالباً بسبب الشائعة التي تتهمهم بالتعاون مع المحتل أو بإقامة علاقات غرامية معه. عندما تعيّن الشائعة مذنباً ما ليعاقب باسم الشعب، فإن الهيجان الشعبي الذي تولده قد يؤدي إلى القتل الجماعي. حصل ذلك في «أوتفيه-الدوردونHautefaye - Dordogne» عام ١٨٧٠م، حيث قتل الفلاحون شاباً أرستقراطياً لأن الشائعة اتهمته بالتآمر مع البروسيين ضد الإمبراطور.[٣] كما أن الشائعة في الآداب العامة هي أولاً: مرض الجماعة، جمهور وصل إلى حد الجنون، يرتكب الحماقة في أفضل الحالات والبربرية والقتل في أسوأها.

هذا الحكم السلفي مستمر بقوة ومندمج في تدرّجية الخطابات الاجتماعية. في واقع الأمر، كل الذين لهم رأي سلطوي سواء أكان سياسياً أو أكاديمياً أو صحافياً، يتحدثون دوماً بازدراء أو بتعجرف عن الشائعة، المعلومة المشكوك بصدقيتها والتي هي غالباً فاضحة مشنّعة. ومشيعوها يُنعَتون بالإهانة نفسها ويُعتبَرون جهلة وضعفاء فكرياً أو متآمرين وضيعين.

العلوم الاجتماعية في مرآة الشائعات: إن امتلاك الكلام بالقوة وبمطلق الحق، يهيّئ

بشكل من الأشكال إلى خلق رؤية مختلفة عن الشائعة المعتبرة وكأنها عيب في الفطنة والبصيرة، وحتى كأنها مثلب مرتبط بغريزة الدهماء التي تجعلها تابعة من دون روّية. هذه الحالة السلبية هي التي تبناها أوائل منتجي الخطاب العلمي حول الشائعات منذ القرن التاسع عشر، حيث لم يتمكنوا من فصل فرضياتهم وتفسيرهم للظاهرة عن المعنى العام الشائع. هناك حكمان سلفيان مؤذيان لوضوح ومعقولية الظاهرة يدعمان بعضهما بعضاً. فمن جهة الاعتقاد الراسخ أن سرعة تصديق الأخبار المشبوهة هي من شأن الجماهير غير المهذبة؛[4] من جهة ثانية، فكرة أن الثرثرة هي تسلية النساء، حيث يُعتقَد بشكل عام أن لهن مزاجاً غريباً ومؤثرًا.[5] هناك معلومات في خفايا تاريخ العلوم الإنسانية والاجتماعية تبدو مفيدة جداً لفهم الرؤية التي بنيت حول الشائعة وصنفتها على أنها سلوك خاص بالـ«شعب».

كانت العلوم الاجتماعية منذ نشوئها مشبعة بعقيدة العقلنة التدريجية للعالم وذلك لأن ولادتها حصلت في أوج ازدهار المجتمع الصناعي. الثورة المستمرة لوسائل الاتصال، وظهور إعلام الجماهير، وعولمة النشاطات والقيم، كل ذلك كان يدعم هذا الحلم العلمي، المستند إلى تطور مسخ الذي خلاله كوّنت الديمقراطية والنظام والتقدم دعائمه الرئيسة. في هذا المحيط الفكري – الثقافي، كانت الشائعة بأشكالها التشنجية اللاعقلانية السهلة الانتقال، قد اشتهرت كانتفاضة لذاك الفكر البدائي ما قبل المنطقي والذي بدأ المجتمع الحديث بمحاربته. وقراءة مجددة لكتاب «نفسية الجماهير» لغوستاف لوبون الذي كتبه في نهاية القرن التاسع عشر تكفي لمعرفة نسبة الذم والطعن غير المحدود الذي كان حينها يصيب ظواهر الدهماء ومن بينها ظاهرة الشائعات. وفي هذه الأثناء أيضاً لم يكن علم الاجتماع الناشئ حديثاً أكثر لطافة في هذا المجال.

في بداية القرن العشرين، كان العديد من المفكرين مقتنعين بأن المجتمع الحديث يحرِّر الفرد مع رفض واستبعاد حركات الدهماء مثلهم مثل إيميل دوركهايم مؤسس المدرسة الفرنسية لعلم الاجتماع. في مفهوم عضوانية[6] المجتمع الذي كان سائداً حينذاك: تعتبر الشائعة أنها عَرَضٌ لمرض ينبغي استئصاله. وفي سياق نص فكري تغلب فيه نظريات الانتروبولوجيا الجنائية وأعمال جان – مارتان شاركو حول النوام والإيحاء، فإن سلوك الجمهور يخشى منه باعتباره ينجم عن التقاء غرائز المرأة الهيستيرية مع غرائز الرجل الدموية.[7]

إن ظهور وسائل الاتصال الجماهيرية بإمكانياتها الهائلة في النشر والانتشار، تقوي وتدعم مؤيدي هذه النظرية في «العدوى الفكرية» ونتائجها الطبيعية (استمرار الفكر البدائي في الشعب، ونزوع طبيعي إلى تراجع الفرد ضمن الدهماء). خلال الحرب العالمية الأولى، وضِعَتْ هذه الوسائل بخدمة الدعاية لتنشيط نشر الشائعات التي تهدم نفسية المجموعات.[8] وفي الفترة الواقعة بين الحربين، كان الاستخدام المفرط لأدوات الدعاية الحديثة وللتجمعات الكبيرة من قبل الأنظمة الشمولية السبب بإعطاء حجج إضافية للحذر من سلوك الجماهير وإمكانية تقليب رأيها[9] والتلاعب بها. فأصبح منذ ذلك الحين «إلقاح الشائعات» عند العدو يعود إلى ترسانة «العمليات النفسية» للمحتربين.

خلال الحرب العالمية الثانية، قام اثنان من علماء النفس في بوسطن وهما: غوردون آلبورت Gordon Allport وليو بوستمان Leo Postman بوضع «تدابير تطبيقية للشائعات»[10] هدفها إيقاف انتشار الأخبار الكاذبة المحبطة نفسياً أو الانهزامية، بمساعدة الرسائل الإذاعية والإعلانات الملصقة.[11] تذكر هذه الإعلانات الملصقة بأن «الجدران لها آذان» وتدعو إلى عدم نشر الأخبار الكاذبة المنسوبة إلى دعاية قوات المحور (نصر مداهم لهتلر، إنزال قوات يابانية على شواطئ ماساشوست). كان قصدهم وضع العلم في خدمة الحكومة لإصلاح رأي الشائعات وتنقيتها من المغالطات التي تراكمت بفعل الدعاية المعادية. بمساعدة بعض الجامعيين، قامت سلطة الدولة في مختلف البلدان المتحاربة بتوظيف نظريات في «سايكولوجية السلوكيات الواهمة» للسيطرة التامة على الحالة الاجتماعية والتي أصبحت ممكنة بفضل التقنيات والعلم.

إن أفق العلوم الاجتماعية بالأسلوب الذي أعيدَ به ترتيبه بعد عام ١٩٤٥م لا يبدي تقدماً لإمكانية تغيير الرؤية في تحليل الشائعات. الحرب الباردة، عندما خلقت مناخاً ملائماً لعمليات إفساد النفوس، دعمت التقارب بين الشائعة وبين تهديد العدوى بالدعاية. وأكثر من ذلك، في علم الاجتماع وفي الإنتروبولوجيا، ظلت الدراسات المختصة بالشائعة حبيسة مخططات التركيبية المسيطرة أو المعارضة لها. بالنسبة إلى النفعيين، تحتوي الشائعة فضائل إيجابية، لأنها قد تساهم في الحفاظ على الوحدة الاجتماعية عندما تزيل القلق أو الخلاف قبل أن يؤديا إلى زعزعة الاستقرار

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الاجتماعي. بالنسبة إلى العداء فالأمر هو على عكس ذلك لأن الشائعة تنشر النزاعات. بوساطتها يعبر الشعب عن رفضه للحداثة، أو أنه يذكّر بنظمه وهويته الخاصة.

الاستخدامات الاجتماعية للشائعة:

لهذا، فإن الجسر لم يقم بعد بين المنطق الاجتماعي الخاص بالثرثرات المسيئة (التي لها أبعاد ريفية) وبين الشائعات (التي تظل محصورة في بعدها الجماعي الذي يطهرها). إن البزوغ السريع لدراسة «الشائعات والأساطير الحضرية»[١٢] اعتباراً من عام ١٩٧٠م، يدل على أنه لا يزال هناك استمرار في تحميل الشائعة ميّزة تجعلها كحجرة الصدى في المجتمع. أما الهدف المقصود من قبل الفاعلين الاجتماعيين الذين ينشرون الشائعة فيظل غائباً تماماً عن الاهتمامات. إنه الجسد الاجتماعي برمته الذي يسأله علماء الاجتماع، مثل خلية توضع على زجاجة مجهرهم لدراسة البنية والتغيرات الفجائية. تظل الشائعة مرادفة لسرعة تصديق الطبقات الشعبية، في الخط المستقيم لـلوسيان ليفي- برول Lucien Levy-Bruhl (الذهنية البدائية، ١٩٢٢م) أو أرنولد فان جينيب Arnold van Gennepالذي برأيه «الفكر الشعبي لا يتطور بنفس مستوى الفكر العلمي» (كتاب وجيز في الفولكلور الفرنسي المعاصر، ١٩٤٣م). في عام١٩٦٩م، في أورليان Orléans وفي آميان Amiens وفي مدن أخرى من البلاد الفرنسية، تروي الشائعة أن فتيات في مقتبل العمر قد تمّ اختطافهن أثناء تجربة ملابس في إحدى محلات بيع الألبسة. ذهب إدغار موران Edgar Morin وفريقه إلى أورليان لمعرفة وفهم الأسباب. يبدو أن الشائعة تعبّر عن قلق الشعب من حماس الشباب للتحرر من التقاليد واندفاعه نحو الدُرجات الصاخبة. ووصفوا الشائعة كما يتم وصف «الانتشار السرطاني» في جميع أنحاء الجسم الاجتماعي.[١٣]

في واقع الأمر، اعتباراً من عام١٩٤٠م إلى نهاية أعوام١٩٦٠م، الأعمال الوحيدة حول الشائعات التي تقترح ملاحظة حسية لآليات الانتقال قد تمَّ تنفيذها من قبل علماء الاجتماع -النفسي من خلال تجارب تحاول إعادة إنتاج الشائعات في بيئة مصطنعة وفق سلوكية مبتذلة (إثبات كتابة السلوكيات البشرية من دون البحث عن الأسباب). ويعتمد الاختبار على تنظيم نقل رسالة عبر سلسلة أفراد وملاحظة الانحرافات الحاصلة عليها. خلال أعوام١٩٧٠م، الأزمة المستمرة في المجتمعات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المسماة حديثة ثم «ما بعد الحديثة» تثبت انحسار الاجتماعوية- البنيوية التي تعتبر الأفراد «عناصر اجتماعية» مطيعة للأفكار السلفية العميقة في النظام الاجتماعي لكن دون حرية فكر. إعادة اكتشاف «أعمال ماكس فيبر Max Weber» ومبادئه الشاملة في علومه الاجتماعية إضافة إلى تطور علم اجتماع المعرفة بشكل عام، هي أمور أتاحت الفرصة للاهتمام بشكل أفضل بالأسلوب الذي يدمج به الفرد الفكر الاجتماعي ويتكيّف معه. ومنذ ذلك الحين، ومن أجل فهم منطق الشائعات، أصبح اختصاصي علم الاجتماع يوجِّه نظره باتجاه الأوقات التي فيها ينشر خبر معيّن، وهي حالات يكثر عددها خلال فترة قصيرة حيث تصنع الشائعة. فإن الملاحظة المباشرة تحديداً لهذه البرهة الرمز، التي هي المكوّن الأساسي لآلية الشائعة، هي التي ظلت لفترة مديدة وكأنها غير قابلة للتحقيق. لهذا السبب خصوصاً تمَّ إهمال فكرة دراسة الظاهرة في بيئتها بشكل مبكر جدّاً لمصلحة التجارب المخبرية أو التصنع (تمثيلي) الذي يقام بين مجموعات طلابية صغيرة. لكن المعارف الطليعية حول ممارسات الاتصال بين الأفراد تسمح اليوم بعزل ذكر الشائعة ضمن محادثة معينة.

عندما يلقي الدارس بنظره بحدود مستوى الإنسان وعندما يجرده من كل قصد واعظ يفسِّر أخلاقياً، يتضح في الواقع أنه من الممكن معرفة العلاقات التي تلعب دوراً في تبادل الشائعة واستنتاج وإبراز أنماط التفاعلات التي فيها يظهر هذا التبادل. وعندما يتم تركيز الملاحظة على الزمن حيث فيه يتبادل عدة فاعلين اجتماعيين شائعة ما؟ وبقائمة وجيزة لبنية علاقاتهم، ومواقفهم، وردود أفعالهم المتتالية والوضع؟ يمكننا أن نستنتج خلاصات حول مقصد الناشر. هذه المقاربة المبنية على الفرد، تعيد إلى مضمون التحليل بعداً اجتماعيّاً صرفاً ظل لفترة طويلة محجوباً: كل عالَم اجتماعي، كل مساحة علاقات تحمل فتراتها المليئة بالشك والريبة، حيث يغلب فيها الظن والتخمين على الأخبار المثبتة والمؤكدة. ملاحظة أخرى: تبادل الشائعات يجري وفق أنماط مضبوطة متناسبة مع مظهر الحدث، ومع نظام القيم والنواهي الخاصة بالمجموعة الاجتماعية، ومع شرعية المؤسسات الإخبارية.

الشائعة ليس لها عقل ولا جوهر ولا قصد خاص بها. انبثقت من نسيج مستمر ومتبدل لعلاقاتنا، فهي لا توجد إلا بوساطة تبادل أحاديثنا والمصداقية التي نوليها لها. إنها رواية الوقت الراهن، والإيحاء الذي تحمله

مصنوع من عروضنا واهتماماتنا ومن أحداث تهز عوالم وجودنا. إذا انتشرت أخبار غريبة بشكل شائعات، هذا يعني، أن بعضهم يجد في هذه الروايات اللاشكلية قيمة تبادلية،فردياً وجماعياً، وأنها تقوّي الشعور فيما بينهم لأنها مكونة من أحكام سلفية ووهمية عامة. أن نروي شائعة ضمن حديث هذا معناه أننا نستغل الوقت المناسب للتواطؤ، مؤسس على مفهوم ضمني نتشارك به (حول اختلال السلطات المحلية، أو الفساد السياسي، أو ارتفاع الأسعار)، لإثارة الشعور المحبب في المشاركة، وبهذا المنحى تفيد الشائعات التي تتحدث عن فساد وجهاء السياسة المحليين. الشائعة هي غالباً إفشاء وكشف مثير، وهي أيضاً وجهة نظر غيابية. أن نروي شائعة ربما يكون ذلك طريقة جيدة لتبادل الحديث عندما لا يكون لدينا معلومة أخرى نقولها بصدد الموضوع المعني. فالشائعة إذاً ليست فقط ظاهرة عارضة لهذه الأعاصير الكبيرة التي هي الفتن أو انهيار البورصة، بل هي تدخل في كل أحابيل النسيج الاجتماعي وكأنها تقنية أساسية في التبادل والألفة الاجتماعية.

الشائعة، هي نحن: بهذا المنحى، إنه من الهام التذكير أن الفكر العلمي هو أيضاً قابل للوقوع في الشائعات مثله مثل الفكر اللاعلمي، وهذا ما تؤكده «قضية روزفيل Roswell» التي بدأت عام١٩٤٧م بعد حادثة البالون- المسبر الذي ظُنَّ أنه شيء ما طائر غير محدد الهوية وقد أثار ظنوناً خطيرة عند بعض العلميين. الأمر الذي يختلف هو فقط مستوى التنظيم وقامة المجموعات التي بينها تنتشر الشائعة. في الحقيقة، الشائعة هي نحن، أو كل العالم، إن أردنا التعبير بهذا الشكل. إنها ظاهرة آنية، وهي قبل كل شيء معرفة متكررة في التفاعلات التي نتعلمها خلال تجربتنا في العالم الاجتماعي ونلائمها وفقاً للمواقف. وفي النهاية، إنه السياق، سواء أكان هزلياً أم دراماتيكياً، هو الذي يحدد نمط الشائعات التي نتبادلها، ودرجة اشتراكنا في الخبر الذي تحمله، والتأثير الذي بإمكانها ممارسته على سلوكنا. فعلى سبيل المثال، موظفو شركة ما يتبادلون الحديث أمام آلة القهوة، حول الجلبة المتعلقة بتغيير الإدارة: فطبيعة الشائعات، والمشاعر التي تثيرها هي مختلفة جذرياً وفق ما تكون الشركة مزدهرة أم بحالة تراجع مزمن.

عندما تكون الشائعة موصوفة وكأنها تقنية مستخدمة في مختلف أشكال الاتصال الاجتماعي، موفرة مرونة كبيرة، ومتلائمة مع الرهانات ومع المشاعر الآنية، فإنَّ

الإعلام الاجتماعي السريع للظاهرة يمكن وصفه بالـ«اتصالي» (أي الدائم أو المستمر). بهذا المنحى، تفقد الشائعة جوهرها: فهي تفقد المادية والمقاصد الخاصة التي غالباً ما نحمّلها إياها، وتتحوّل بطريقة براغماتية إلى تبادل خبر ما، ذي طبيعة غير مؤكدة أو مشكوك فيها، ومفاجئ ومثير للفضيحة، يقدَّم من قبل ناشره مع تدابير وقائية نوعية واضحة ومن السهل معرفتها. تحليل الشائعات الذي ينجم عن ذلك يلفت الانتباه بشكل أكبر إلى الظروف والسياق، وإلى الهيئة الاجتماعية التي يجري فيها تبادل المعلومة (ماذا تروي الشائعة؟) وحول نوايا الناشر (لماذا اختار الناشر نقلها إلى هؤلاء الأشخاص وفي هذا الوقت بالذات؟). فلم يعد الموضوع هنا جعل العقل الباطن وكبت المجتمعات تتحدث عن نفسها، وفق تحليل باطني معمق تقريبي.

هذا الوضع السيئ المستمر، مهما بدا جلياً مثله مثل المسائل والطرق التي يجلبها، لم يجد صدى في الجدل الاجتماعي إلا حديثاً. والأمر الأكثر إثارة للدهشة، إن قمنا باستكشاف بيانٍ بالمؤلفات الحديثة، لوجدنا فرضيات مصاغة بطريقة واضحة عند مارك بلوك،[14] منذ عام ١٩٢٠م، ونوربرت الياس Norbert Elias عام ١٩٦٠م. إن غياب الصدى تجاه هذه الدراسات، كما في حالة عدم تقبل مؤلف تاموتسو شيبوتاني Tamotsu Shibutani المثير جداً والذي يقترح منذ عام ١٩٦٦م تطبيق التفاعلية الرمزية الممارَسة من قبل «إيرفينغ غوفمان Erving Goffman» على حالات محصية من الشائعات، هي أمور ينبغي حسبانها في مستوى التخريبات التي سببها السلوكية والاجتماعوية: الشأنان اللذان انتصرا لعام ١٩٣٠م في نهاية عام ١٩٦٠م. المقاربة المستمرة تسمح بتحليل استخدام روايات الشائعات التي يقوم بها الناشرون. تبدو حينئذ نوايا النشر متنوعة جداً: إقناع، ترويع، تسلية، لهو، إدهاش المستمع.

لكن كثرة الشائعات تدل دوماً على شيء من الريبة تجاه الهيئات التي تنشر الخبر اجتماعياً، أي، في نظام ديمقراطي، السلطات العامة ووسائل الإعلام. إعادة طرح مسألة مالكي الكلمة السُلطويّة، قد يُترجَم بتصديق أهم للقنوات اللاشكلية للأخبار.

هل ينبغي الاستنتاج أن الجمهور يصدق بشكل آلي الروايات الشاذة للشائعات؟ هنا، يصل تفسير اختصاصيي علم الاجتماع إلى حدوده. لأنه حتى على المستوى الإثني، أي حتى عندما يكون بأقرب ما يكون من

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التفاعلات المتواجهة، فإنه لا يستطيع أن يكشف المعتقد في قلب الإشاعة. إن الأخبار الكاذبة التي تصدر يومياً على الشابكة (الإنترنت) بشكل إشاعات، تحرضنا على التفكير بأن التهلل لـ«اللامعقول» وتذوق الفكاهة التي تتناول الحياة بعنف وقسوة مأسوية هي أمور فاعلة مثل السذاجة.

السياسة: بيئة خصبة: في السياسة، عدا الصخب البسيط الذي ينبئ عن تغيير وشيك الحدوث أو عن خلاف بين وزيرين، إن الشائعات تتعلق غالباً بانتهاك للنظام الظاهر للسلطة، مثل: أمر سيئ مخفي، ماضي شائن، ممارسات إجرامية أو لا أخلاقية، اتفاقات سرية.. هذه الشائعات تناقض على الدوام الصورة العامة للشخصيات المعنية، مثل الوجه السيئ لأيقونة جيدة.

النشاط السياسي هو أمر ملائم للشائعات لأن له طبيعة مزدوجة، تفرض واجب الشفافية العامة[15] من جهة وفي الوقت نفسه تفرض السرّية[16] من جهة أخرى. بهذا الصدد، فإن الإفشاء أو النشر الذي يغذي وسائل الإعلام يدل على لعبة معقدة في العلاقات بين الصحفيين وبين من ينقل لهم الأخبار. وراء كل خبر منشور يظل مجهول المصدر، يمكننا أن نحدد آليات تبادل الأخبار التي فيها لايستطيع مالك الخبر ولا يتمنى تحمل مسؤولية نشر الخبر علنياً. فهو يقدم هذه الأخبار بشكل خصوصي حميمي خارج الإطار الرسمي الشكلي للمقابلة. يسميها الصحافيون بالأخبار الجانبية. فهم لا يستطيعون توثيقها بإعلان مصدرها لكنهم يمتلكون عادة ثقة بأصالتها (علاقات قديمة، وحتى صداقات مع مخبر موثوق). مصدر الشائعة هنا ليس له علاقة مباشرة مع نشر الخبر العشوائي. الموضوع على الأغلب هو المستوى الفوضوي في التبادل الذي يقوم به الصحفي - والمخبر بحيث يسمح لكل منهما أن يتفادى ضغوطاته المهنية الخاصة به. يحاول المخبر تقديم رؤية إعلامية للخبر الذي يمتلكه دون أن يتعرض شخصياً؛ وبفضل هذا الإعلان، يصل الصحفي إلى الأسباب المخفية لحدث ما أو للتحضيرات السرية لقرار ما. لكن، بغياب مصادر أخرى وعدم توفرها، فهو لا يستطيع أن يزاوج الخبر ولا يمتلك أي برهان لتصديقه. فيقبل إذاً بالتصرف بحدود أدبيات مهنته ويتعرض للمناورة والتقليب.

وفي التقنية الإلكترونية الراهنة بيئة خصبة لنمو الشائعات أم هل عند الشابكة الخبر اليقين؟[17] يعتقد بعض الباحثين أن شهرة الشابكة كوسيلة اتصال تبدو ملائمة تماماً لإنتاج وانتشار الشائعات لكن باسكال

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فرواسار[١٨] Pascal Froissart يردّ على ذلك بـأن هذه الشهـرة مغـالى بتقديرها لسببين. أولاً، لأنه من الصعوبة بمكان قياس مقدار الشائعات ضمن العدد الكلي للأخبار التي تنتقل. ثم، لأنــه يبدو أمراً مدهشاً أن تكون وسيلة إعـلام أو وسيلة اتصال تجمع شائعـات أكثر من غيرهـا: التلفاز، المذياع، الصحافـة، تنقل كل الشائعـات (بقصد أو بغـير قصـد) والشابكة.. مثلهـا مثل باقي الوسائـل. فالمسألـة تستحـق أن نتوقـف عندها، لأن الشابكة لها خصوصية حقيقية يمكن دراستها من ثـلاث زوايا: فهي تتميز بامتدادها الجغرافي الذي يوفر كل الأخبار طالما أنها تعمل على صعيد الكرة الأرضية؛ وتتميز أيضاً بالامتداد الزمني: انتقالا لخبر هو شبه فوري؛ وأخيراً، قدرتها على التخزين الهائل توفـر اتساعاً حقيقيـاً للحفظ: كل شيء يبدو قابلاً للمناقشة في كل مكان وكل زمان. فأصبح من الممكن إجراء التحقيقات والمقارنـات والاستقصـاءات، ولعـب دور التحـري أو الصحفـي في البيت (لحساب آخـر). كما أن نص الشائعـة يمكن إيجاده ببضع كبسات .لنظهـر الفروق الدقيقة في هـذه الخصوصيـات: ليس لأن الإمكانية موجودة ينبغي علينـا استخدامها! فغالبية الناس لا يتحققون من الخبر قبل نشره.. رغم أنه يوجد مواقع موجهة خصيصاً للشائعات وتختبر مصداقيتهـا وهنا تكمن الإبداعية الكبيرة للشابكة: يوجـد مواقع متخصصة توثق وتصدق (أولا) الشائعات. لقد وجدت هذه المواقع حتى قبل إنشاء الشابكة العالمية World Wide Web. منـذ عام١٩٩١م، وضع إعلاميـو «سيليكون- فاللي Silicon Valley » بتصـرف بطاقـات FTP (في مساحة التبادل التي سبقت الشابكة، ماكانوا يسمونـه «أساطـير حضريـة»، لأنهم كانوا مهووسـين بالقصص الظريفـة. بعد أربع سنـوات، عـام١٩٩٥م ظهـرت أولى المواقع المختصـة بالشائعـات. أحد هـذه المواقع hoaxbusters.ciac.org والـذي أنشأه أخصائـي في المعلوماتيـة في وزارة الطاقة الأمريكية، لاحظ أنـه يهدر وقتاً في ترميم الأضـرار التي تحدثهـا الشائعـات («لقد أصاب جهاز كفيروس، ينبغي فرمتت قرصك الصلـب!») أطول من الوقت الذي يهتم فيه بمسائل المعلوماتية الحقيقية. والموقع الآخر snopes. Com هو السائد حالياً. جهتان تفسران نجـاح مثل هذه المواقـع: من جهة الناحيـة المتعلقة باللعب ومـن جهة أخرى الناحية المفيدة؟

تطلـب المواقـع مـن أجـل البحث عن الأمـور المثيرة أكثر منهـا عن المعلومات. في

جميع الأحوال الأمور تسير بشكل جيد: إن جمهور المواقع كموقع snopes. Com في الولايات المتحدة أو موقع hoaxbuster. com في فرنسا يفوق عدده عن جمهور مواقع معلوماتية مالية على سبيل المثال! والخصوصية الأخرى هي أن كل هذه المواقع ليس لها صفة رسمية أو حتى مهنية. كل هذه المواقع ينشطها متطوعون من دون أن يكونوا معدّين بشكل ملائم، ووسائلهم في التقصي محدودة.

سوف يشكل ذلك في المستقبل مسألة لا يمكن تفاديها حول شرعية معلومات هذه المواقع، وحول المناورات الممكنة التي قد تقوم بها بعض الخدمات الحكومية أو الشركات الكبيرة كي يمرروا رسالتهم لجذب الزبائن وإحداث قابلية البيع والشراء أو لبساطة محركي المواقع.

الإبداعية الأخرى للشابكة هي أن الشائعة تظهر فيها بشكل صور. وهذا شأن نوعي تماماً. يوجد من الآن فصاعداً نشر مكثف لصور من دون مؤلف وثيق الصلة بالموضوع وقد تمَّ تسمية هذا النوع من النشر بالـ«الشائعة البصرية». في صندوق البريد الإلكتروني، وفي المحادثات، وفي المواقع، تظهر صور جنونية: فهي تجعلنا نضحك، ونخاف، تجعلنا نحلم.. ونجاح هذه الصور يعود إلى جودة تنفيذها وإلى متعة النظر إليها وإلى مواضيعها من دون أدنى شك. عندما نصنف هذه المواضيع نرى أن الموضوع المتكرر في أغلب الأحيان هو موضوع المآثر أو الأمور غير المألوفة التي تجاوز الحد، مثل: رياضي مائي يقترب من سمك القرش في عباب موجة (في الواقع إنه دلفين قد تمَّ تصويره من بعيد فتتراءى الصورة وكأنها قريبة)، أو قط يزن ٤٠كغ، أو هيكل عظمي بشري بحجم الفيل، إلخ. هناك ثلاثة أصناف أخرى تتدرج بالتساوي: المواضيع الفكاهية، والمرعبة، والسياسية. وأخيراً، هناك صنفان يدهشان بتدني أهميتهما: الصور ذات المفهوم الجنسي أو فوق - طبيعي، لأنه من الصعوبة بمكان إدخالها في نقاش مع المحيط. في الواقع، أهمية الشائعات المصورة مثلها مثل كل شائعة، هي أن يستطيع الإنسان التحدث بها، ونقدها، والسخرية منها، أو تصديقها، وبالنتيجة تحريك الروابط الاجتماعية.!

لكن الإساءة للناس وعلى الأخص الوجهاء هي أمور يحاسب عليها القانون وهنا يستوجب طرح التساؤل: ما هو الرد القضائي في مواجهة الشائعة؟

إن وقع شخص ضحية شائعة ترددت في المجال العام يمكنه أن يدّعي ضد التعدي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على حياته الخاصة أو فضحه. فهناك مسؤولية كبيرة تقع على من يردد شائعة بشكل علني. وفي سؤال موجه إلى السيد باسيل آدر[١٩] أجاب أن مجرد الكتابة أو القول دون توضيح إشاعة منتشرة، هو عمل لا يستوجب العقاب. لكن عندما نروي الشائعة ونشرحها، ونفصلها، عندها، يمكن أن نُعتبَر مسؤولين، حتى لو تذرعنا بأننا نقلناها عن وسيلة إعلام أخرى أو مصدر آخر، ذلك لأن تصرفنا بهذا الشكل سيؤدي مجدداً إلى إعلام قرّاء جدد لم يكونوا على علم بالخبر من قبل. والقانون المطبَّق هو نفسه بالنسبة لجميع الوسائل، انطلاقاً من اللحظة التي تصبح فيها الشائعة بمتناول العموم. فسواء أكانت صحافة مكتوبة كالصحف اليومية، أو راديو، أو تلفزيون، أو موقع على الشابكة، أو منتدى، القوانين المطبقة هي نفسها بشكل دقيق مهما كان شكل الوسيلة. فمستخدم التويتر Twitter يمكن أن تتم ملاحقته مثله مثل صحفي في الصحافة المكتوبة. لقد أصبح من الممكن في يومنا هذا التحقق من العنوان IP على الشابكة والوصول إلى المصدر. كما أنّ استخدام الاسم المستعار لا يحمي أحداً.

ويمكن أن يبدأ المُستهدف بالإجراء القضائي في ثلاث حالات مختلفة: في حال التعرض للحياة الخاصة: التشنيع والفضح[٢٠] خصوصاً إذا تناولت الشائعة موضوع الشرف، وفي حال التعرض للمكانة الشخصية (بشكل عام حول الوظائف في القطاع العام التي يمارسها الشخص المعني) وأخيراً، التعرض لحميمية الحياة الشخصية وكل ما يتعلق بالحياة العاطفية والصحية، لأنه مجال محمي بشكل عالي المستوى.[٢١]

وانطلاقاً من اللحظة التي يتم فيها إعلان الشائعة والاسم المعني بها والتحقق منها بسهولة، هناك إمكانية طلب حق الرد وحتى طلب إلغاء المقال إن كان على الشابكة. لأنه في الوقت الراهن، حق الرد على الشابكة يترافق مع حق طلب إلغاء المقال من مدير الموقع أو من الناشر. لكي نُعلِم القرّاء أن الخبر غير صحيح ينبغي أن نتصدى كتابةً لما كتب عن الموضوع.

إذا كانت الشكوى تتناول الحياة الخاصة، تجري المحاكمة أمام قاضٍ في المحكمة المدنية. التعرض للحياة الخاصة يعاقب بالحجز: أي يستطيع القاضي أن يحكم بمصادرة كل أعداد الصحيفة أو أن يطلب إلغاء المقال إن هو على الشابكة.

إذا تناولت الدعوى التشنيع والقذف، هناك مهلة ثلاثة أشهر اعتباراً من تاريخ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إقامة الدعوى. يمكن أن تكون المحكمة جزائية ما يسمح برفعها إلى قاضي التحقيق لتبيان كل المسؤولين: مؤلفي الشائعة، والذين نشروها، ومواقع الشابكة التي تناقلتها.

في حال القذف تكون الدعوى أكثر تعقيداً مما هي عليه في حال التعرض للحياة الخاصة. فوسيلة الإعلام أو الشخص الذي ينشر الشائعة يتعرض لغرامات تصل إلى حد ١٢٠٠٠ يورو. في حال القذف يمكن للمدعى عليه أن يرد ويُظهِر الحقيقة والنية السليمة للصحافة ونية الصحافي ليبرهن أن الموضوع ليس انتقاماً شخصياً أو أن له أي قصد غير مهني. أما في مادة الحياة الشخصية، فلا يوجد استثناء، سواء أكان الخبر صحيحاً أم لا فليس لدينا الحق في نشره، ولا تفيد النية السليمة في قانون الصحافة.

الهوامش

١- دكتور في علم السياسة وأستاذ محاضر في علم الاجتماع في جامعة روبر شومان في ستراسبورغ، عضو مجموعة علم الاجتماع السياسي الأوروبي (GSPE/IEP Strasbour)، مجمل دراساته تبحث في الاقتصاد الاجتماعي للإعلام وتكوين الآراء السياسية. نشر علم الاجتماع السياسي للشائعات.

2- G. Lefebvre, La Grande Peur de 1789, 1932, rééd. Armand Colin, 1970.

كتاب: الخوف الكبير صدر عام١٩٣٢م، أعيد طبعه عام١٩٧٠م.

٣- كوربان، «بلدة المتوحشين»، اوبييه ١٩٩٠م.

A. Corbin, Le .Village des «cannibales», Aubier, 1990.

٤- لوبون، «نفسية الجماهير»، ١٨٩٥م، أعيد طبعه عام١٩٩٥م

G. Le Bon, La Psychologie des foules, 1895, rééd. Puf, 1995.

٥- فريس، «عقل النساء»، بلون، ١٩٩٢م

G. Fraisse, La Raison des femmes, Plon, 1992.

٦- عضوانية: الحياة صادرة عن الأعضاء، organiciste- يعتبر المجتمع كجسد مجهز بأعضاء لها وظائف مخصصة.

٧- موسكوفيسي، عصر الجماهير

P. Moscovici, L'Âge des foules. Un traité historique de psychologie des masses, 1981, rééd. Complexe, 1991.

٨- لاسويل، تقنية الدعاية في الحرب العالمية

H. Lasswell, Propaganda Technique in the World War, Knopf, 1927.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٩- تشاكوتين، اغتصاب الجماهير من قبل الدعاية السياسية

S. Tchakhotine, Le Viol des foules par la propagande politique, 1939. Gallimard, 1992.

10-Cliniques des rumeurs.

١١- آلبورتوبوستمان، «سايكولوجية الشائعات»

G. Allport et L. Postman, The Psychology of Rumor, Henry Holt & Co, 1947.

١٢- رونار، «شائعات وأساطير حضرية»

Voir J.-B. Renard, Rumeurs et légendesurbaines, Puf, 1999.

١٣- ادغار موران، شائعة اورليان

É. Morin et al. , La Rumeurd>Orléans. 1969, rééd. Seuil, 1982.

١٤- ملاحظات مؤرّخ حول أخبار الحرب الكاذبة

M. Bloch, Réflexions d>un historiensur les faussesnouvelles de la guerre, 1921, rééd. Allia, 1999.

١٥- مثل: التنافس الانتخابي، كيفية عمل المندوبين إلى الاستفتاء العام، إعلان المداولات وقرارات السلطة.

١٦- الخطة الانتخابية، استراتيجيات التحالف، تهيئة التغيرات السياسية، الملفات الحساسة، وأسرار الدولة.

١٧- جمع وإعداد بونوا ريشار Benoît Richard- العلوم الإنسانية sciences humaines.

١٨- أستاذ محاضر في علوم المعلوماتية والاتصال في جامعة باريس الثامنة، وباحث في مخبر الاتصال والسياسة (CNRS). مؤلف كتاب: «الشائعة»، تاريخ وتصورات، ٢٠٠٢م. بعض مقالاته متوافرة على الموقع: www. LCP.cnrs.fr

١٩- تحقيق أجرته فلور غالـو Flore Galaud نشر في صحيفة لوفيغارو الفرنسيـة بتاريخ ٢٠١١/٧/١٢م lefigaro.fr مـع السيّـد باسيـل آدر BasileAder عضو في نقابة محامي باريـس وأخصائي في حقوق الصحافة.

٢٠- المادة ٢٩ من قانون ١٨٨١م حول حرية الصحافة في القانون الفرنسي.

٢١- الاستثناء الوحيد هو صحة رئيس الجمهورية التي هي تعود إلى المجال العام، وذلك في القانون الفرنسي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إدارة المعرفة

عامر السويداني ✲

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لم يبق في مقدرة دول العالم، كبيرها قبل صغيرها، مواجهة التغيرات المتلاحقة وتحولات العصر الحديث وحركة تطوره السريع غير المسبوق في تاريخ الحضارة الإنسانية، إلا من خلال الاستخدام الأمثل للتكنولوجيا المتطورة والتقنيات المعرفية الحديثة، إذ تجتاح العالم اليوم ثورة جديدة يطلق عليها اسم «الموجة الثالثة» أو «المنحنى الثاني» وهي مزيج من التقدم

✲ ناقد سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

التكنولوجـي والثـورة المعلوماتيـة، تميزت بإيجـاد مجتمع يتمتع بإنتـاج كثيف المعرفة ويعتمـد في تخطيطه على الحاسوب، الأمر الذي يستدعي وجود كـوادر تعليمية قادرة على استخدام التكنولوجيا المتقدمة، ومناهج أساسية تنقل أساسيات العلوم والمعارف إلى المتعلمـين فهذا العصر الـذي نعيشه اليوم والـذي يطلق عليه بأنه عصـر التكنولوجيا بلا منازع، والانفجار المعرفي الهائل يعود له الفضل في تقدم الحيـاة البشرية وتطورها في جميع ميادين الحياة، ومن أهمها ميدان التربية والتعليم، وما يتعلق بهذا الميدان من أمور عديدة سـواء في أهدافه أو وسائله أو طرائـق تدريسه، فالحاسب الآلي يعد ناتجاً من نواتج التقدم العلمي والمعرفي المعاصر.

كمـا يعد في الوقت ذاتـه أحد الدعائم الأساسية التي تقود هذا التقدم مما جعله في الآونة الأخيرة محور اهتمام المربين والمهتمين بالعملية التعليميـة والتعلمية، وقد اهتمت النظـم التربويـة الحديثـة في جميع بلدان العالم بالحاسـب الآلي، حيث يعتبر الحاسب الآلي من أحـدث الوسائل التكنولوجية التي تعمـل على إدخـال المعلومـات ومعالجتها وتخزينهـا واسترجاعهـا والتحكم فيها من خلال مجموعة عمليات معالجة مختلفة.

إن مايشهده العـالم اليوم هو تحول غير مسبوق في مجـال تدفق المعلومـات، بل إن مـا يحدث الآن هو ثـورة حقيقية في مجال المعلومات تسمى ثورة المعلوماتية والإنترنت، وإن مـا يواجه العالم اليـوم من تغير جذري في ظـل انتشـار المعرفـة ماهـو إلا نتيجة للتقدم السريع الذي تشهده التكنولوجيا وما يرافقه من زيادة يومية في أعداد مستخدمي تكنولوجيا المعلومـات التي تعدّ اليوم مورداً اقتصاديـاً في عـالم يعيشـ في عصر يطلق عليه تسمية «بلا حـدود» ومع اتساع نطاق التكنولوجيـا نلاحظ ارتفاع قـدرة تقنيات المعلومـات والاتصـال في إدارة المؤسسات وعلى الأصعدة والمستويـات المختلفة وهذا يعود أيضـاً إلى تعدد قواعد البيانات وتنوع مصادرها[١].

إذ إن نجـاح أي مؤسسة يرتبط بقدرتها وتفوقهـا في إدارة المعرفـة، والتكنولوجيا، وتوظيفها في بنـاء مجتمعات المعرفة، حيث تعمـل العقـول والتكنولوجيا معـاً، وبذلك يجري تحويل سياسـات التنظيم، وأهدافه، ومراميه إلى واقع ملموس في ظل تكنولوجي معرفي تام[٢].

إن العلاقة الطردية بين تطور تكنولوجيا المعلومـات، وسهولة إخراج كميات كبيرة من المعلومـات يتطلـب معرفة عميقـة ودراية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كافية بما هو مطلوب، ليتمكن الأشخاص المؤهلون من تحليل هذه المعلومات، وتبويبها، وصقلها لتكون أكثر معنى وأهمية وليس جمعها في ملفات فقط، إضافة إلى الوثوق بأنها نافعة ومفيدة، فالمعرفة Knowledge هي حصيلة المهارات الإبداعية الناتجة عن التفكير والتفسير المختلف والمتميز لكل الموارد التنظيمية المتاحة وكل الظروف والعوامل البيئية المحيطة، فهي استخدام البيانات والمعلومات والتجارب التي يتم الحصول عليها عن طريق التعلم والممارسة، وهي التي تمكن من يملكها من التجاوب مع المستجدات التي تواجهه، وتجعله أكثر قدرة على الوصول إلى حلول أفضل للمشاكل التي تقع في مجال معرفته، فالمعرفة هي نفسها المعلومات ولكن مايميزها عنها أنها ممزوجة بخبرة الأفراد وقدرتهم على استخدام الحقائق في القيام بالأفعال واتخاذ القرارات(٢). وهذا يعني أن

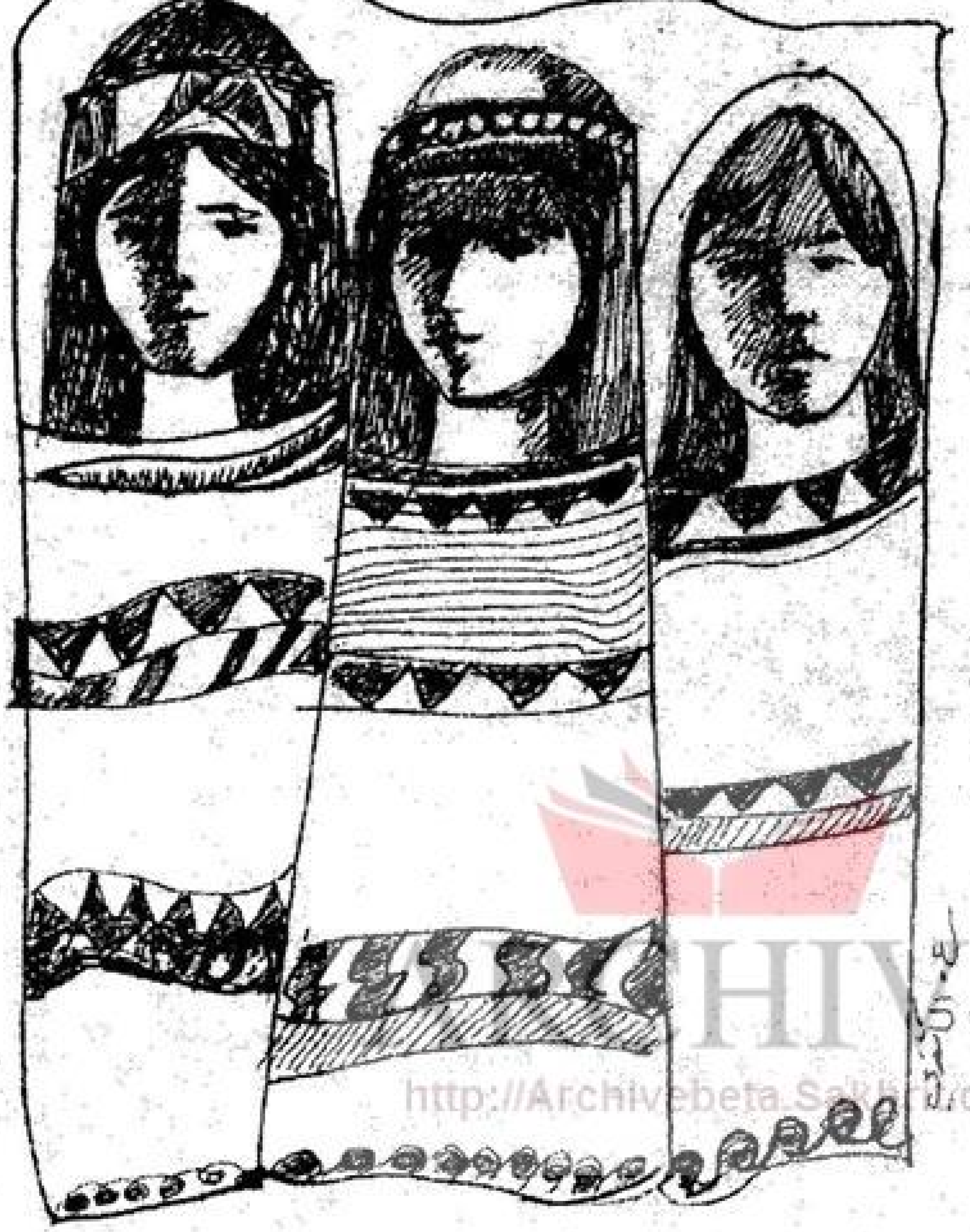

المعرفة هي أعلى شأناً من المعلومات فنحن نسعى للحصول على المعلومات لكي نعرف أو نزيد معارفنا، ومن خلالها يستطيع الإنسان تشخيص المشاكل وتحديد بدائل لها والوصول إلى حلول جديدة.

ولأن المعرفة تزداد عند الإنسان مع مرور الوقت وتشكل جزءاً من شخصيته فإنه يمكن صياغتها وفقدانها مع موت الإنسان. وتتواجد المعرفة في أدمغة الأفراد

أو قواعـد المعرفـة، وقواعـد البيانات أو يتـم خزنهـا في وثائق المجتمـع وممتلكاته ومنظماته وعملياته. وقد وضح عدة باحثين مفهوم إدارة المعرفة بأنها نظام وثيق يساعد على نشر المعرفة سواء على المستوى الفردي أو الجماعـي من خلال المؤسسة بهدف رفع مستوى إدارة العمل. مع إيجاد الطرق للإبداع ونقلهـا إلى الآخرين الذين هم بحاجة إليها لإدارة أعمالهم بكفاءة وفاعلية، وباستخدام الإمكانيات الحديثـة وتكنولوجيا المعلومات بأكبر قدر ممكن.

وتستمـد إدارة المعرفـة أهميتهـا من خلال الدور الـذي تلعبه المعرفة في مختلف المستويـات ففي المستـوى الأعلى (المستوى الاستراتيجـي) تحتاج المؤسسـة إلى تحليل وتخطيـط أعمالها في ضـوء المعرفة التي تمتلكهـا حاليـاً والمعرفـة التـي تحتاجها لعملياتها المستقبليـة، أما المستوى المتوسط (المستـوى التكتيكـي) فتهتم فيـه المؤسسة بعمليـة تعريف وصياغة المعرفـة المتوافرة واستحصال معرفة جديدة لاستخدامها في المستقبل، والبحث عن أنظمة جديدة تسمح بالتطبيق الجيد في المؤسسـة. أما المستوى الأدنى (المستوى التشغيلي) فالمعرفة تستخدم في الأعمال اليومية من قبل الأفراد، لذا يجب على المؤسسة توفـير تلك المعرفة بالطريقة المناسبـة وفي الوقت المناسب. لذلك اهتمت المؤسسات الحديثة باستخلاص المعرفة من مصادرهـا، وترميزها، وتوصيفها، وتحديد العلاقـات بين مكوناتهـا، وتخزينها وتوفير آليات لاسترجاعها، والاستفادة منها، وجعلها متاحة للمستفيد النهائي، وتنميتها، وزيادتها بالاستفادة من المعارف الجديدة الناشئة من العلم الجديد والتجربة.

فقـد بينت الدراسات والأبحاث في هذا المجـال أن المشكلات التـي تواجه صانعي القرارات بـأن (٨٠٪) مـن المعلومات التي يستخرجونها تجلب أضراراً لهم أكثر من النفع فالكم الهائـل من المعلومات ليس بالضرورة أن يزيد من ثقة صانعي القرارات، بل يزداد معها التضليل لهـذه المعلومات الأمر الذي يفرض على هؤلاء الصانعين أن يكونوا على مستوى عال مـن الكفاية والقدرة في انتقاء المعلومات وحسن اختيارها بما يضفي عليها المصداقية المطلوبة[٤].

ولقد زادت قناعة الأفـراد والمؤسسات بالحاجة إلى المعرفـة لأهميتها الحيوية في حياة الأفراد والمؤسسـات فثورة الحاسوب والاتصـالات والانفتاح الواسـع بين الأمم زادت من الحاجـة إلى المعرفة في المجالات كلهـا وخاصـة في مجـال اتخـاذ القرار، فأصبحت القـرارات أكثر تعقيداً وقد يكون

نتاج القرار الخطأ سبباً في اتخاذ قرارات أكثر دقة وديمومة وقد تمَّ تطوير علوم عدة لتحصيل المعرفة وجعلها متاحة على نحو ميسر وسهل لمن يرغب الاستفادة منها.

والمعرفة التي تشبع حاجات المجتمع بدرجة كافية توصف بأنها مجتمعات متقدمة، والمعرفة التي لاتلبي حاجات المجتمع توصف بأنها مجتمعات متخلفة، فالمجتمع المتطور هو المجتمع القائم أصولاً على العلم والمعرفة، فبالمعرفة يفسر المجتمع الظواهر الحياتية المختلفة التي توجد في الحياة الإنسانية فيقف على طبيعة هذه الظواهر ويفهمها ويتحكم بها ويتنبأ بما يمكن أن يطرأ عليها في المستقبل، وبالمعرفة يتمكن من الاتصال مع الآخرين، والتكيف مع المستجدات الثقافية التي تزيد من قدرته على الإنجاز والعمل، كما يستطيع السيطرة على البيئة ويخلصها من كل ألوان التلوث ويتحكم في خيراتها وثرواتها الطبيعية ويستثمرها أفضل استثمار.

وفي ظل هذه الثورات المعرفية أصبح لزاماً على كل مجتمع يريد اللحاق بالعصر المعلوماتي أن ينشئ أجياله على تعلم العالم المعرفي بكل أطيافه ومجالاته، وفي هذا المجال قامت الكثير من دول العالم بوضع خطط معلوماتية استراتيجية من ضمنها جعل تقنية الحاسوب والإنترنت عنصراً أساسياً في المنهج التعليمي(٥). حيث أصبح الحاسوب والإنترنت في السنوات الأخيرة من المصادر الرئيسة للاتصال ونقل المعلومات بشكل سريع، لذا تعد الأدوات التكنولوجية مصدر قوة في المجتمع لتطوير المهارات العقلية وإظهار قدرات الأفراد وإبداعاتهم، وتغيير طريقة التفكير لديهم وإعطائهم أفكاراً جديدة ومساعدتهم على المقارنة بين المعاني (٦).

ولقد سهلت تكنولوجيا الاتصالات المجال أمام الباحثين لتبادل المعرفة فيما بينهم مع استدعاء كل مايحتاجون إليه من معرفة ومعلومات عبر أرجاء المعمورة، والاتصال بمن يريدون عن طريق شبكة الإنترنت، وقد أشار خبراء التربية إلى أن الجامعات في عصر المعلومات، يتوقع أن تشهد اهتماماً كبيراً بالعملية التعليمية التعلمية، إضافة إلى إجراء المزيد من البحوث العالمية، التي لها الدور الإيجابي في رقي الإنسان، وتطور التعليم، لمجابهة تحديات المستقبل(٧).

كما يتميز مجتمع المعرفة بعدد من الميزات والخصائص منها: توافر مستوى عالٍ من التعليم، ونمو متزايد في قوة العمل التي تملك المعرفة وتستطيع التعامل معها، وكذلك القدرة على الإنتاج باستخدام الذكاء

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الصناعي، فضلاً عن وجود مراكز للبحوث القادرة على إنتاج المعرفة والاستفادة من الخبرات المتراكمة والمساعدة في خلق وتوفير المناخ الثقافي الذي يمكنه فهم مغزى هذه التغيرات الجديدة والتفاعل معها، فمجتمع المعرفة يختلف عن مجتمع المعلومات الذي يقوم على استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصال في أنه مجتمع قادر على إنتاج البرمجيات (أشكال المعرفة المختلفة) وليس فقط استخدام أو حتى إنتاج المعدات الصلبة أو الأجهزة التي تستخدم في الحصول على المعرفة، وإذا كان العمل في المجتمع الصناعي يعتمد على المعرفة المتوفرة فإن مجتمع المعرفة المستقبلي تعتبر هي العمل، ولذا تحتاج هذه المعرفة إلى مراجعة مستمرة كما تحتاج إلى تكنولوجيا المعلومات حتى يمكن تحويلها إلى مشروعات وسلع تقوم عليها اقتصاديات المعرفة في المجتمع الجديد.

ويؤكد كل من «هول وهورد» بشكل كبير على العبارة التي تقول «أن التغيرات تحدث في أي مكان» ولايمكن لأي فرد أن يهرب منها في عمله أو حياته الخاصة، وتحدث هذه التغيرات بشكل مستمر في كل (١٨) ثانية تقريباً وفي المجالات التالية: المعلومات، المعايير، التنوع، العنف، الاقتصاد، البيئة، التكنولوجيا، مما دفع الكثير من دول العالم إلى صرف مئات الملايين من الدولارات لمواكبة التطور المعرفي وإدخاله في مجالات الحياة كافة[٨].

الهوة المعرفية:

على الرغم من اتساع عدد المستفيدين من مصادر المعرفة العالمية وتسابق الدول النامية على اقتنائها واستيعابها والتعامل معها بإيجابية من أجل إحداث تغييرات جذرية في بنيتها المعرفية، إلا أن الهوة المعرفية سوف تزداد اتساعاً مع العالم المتقدم في مجال إنتاج المعرفة، حيث لاتزال دول العالم الثالث تعاني من نقص في الإمكانات والوسائل والبرامج التقنية الأساسية لإنتاج المعرفة وحتى في الإعداد الذهني والعلمي، فالتوصل إلى المعرفة لن يكفي في حد ذاته للدخول إلى مستوى مجتمع المعرفة، إذ لابد من تحويل هذه المعرفة إلى برمجيات يمكن تسويقها على المستوى العالمي، وهذا الأمر يحتاج إلى مهارات وقدرات لاتتوافر في الأغلب لدول العالم الثالث، كما يحتاج إلى استثمارات ضخمة حتى يمكن الصمود أمام المؤسسات المتعددة الجنسية التي تسيطر على سوق المعرفة بما في ذلك المعرفة المحلية في الدول النامية ذاتها.

فليس من السهل على المجتمعات النامية أن تقفز فوق مرحلة التصنيع التي ميزت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تاريخ المجتمعـات الغربية خـلال القرنين التاسـع عشر والقـرن العشرين، وعلى ذلك فالمتوقع هو أن اقتصاديـات المعرفة سوف تؤدي إلى اتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء بدلاً من ردمها أو تضييقها كنتيجة منطقية لتوافر المعلومات وإتاحتها للجميع.

وأخطر ما في الأمـر، هو أن الكثير من المؤسسـات التابعة للـدول المتقدمة والتي تدعي أنها مهتمـة بتنمية دول العالم الثالث تحصل أثناء تنفيذها لمشروعات التنمية في تلك المناطق على معلومـات كثيرة ومتنوعة تستغلها لصالحها الخاص، وتحقيق مكاسب وأربـاح خياليـة على حساب هـذه الدول. فالمعرفة تكتسب قيمة مضافة من إمكانات تسويقها، والواضح أن الذي يتحكم في الهوة أو الفجوة المعرفيـة ويعمل على استمرارها هي الجماعـات الاستراتيجية القوية وذلك في سعيها المتواصل عن المكاسب المادية وعن الربـح وجني الثروات الطائلـة وما يرتبط بذلك مـن هيمنـة اقتصاديـة وسياسية.. وإن استمرار الهـوة المعرفية مسألة مفتعلة إلى حد كبـير لضمان استمرار تفوق الغرب وهيمنته على اقتصاديات العالم.

ولكن ينبغي علـى المجتمعات المتخلفة في ما إذا أرادت مسايرة ومتابعة التطورات المتلاحقة في مجتمع المعرفـة والذي تتبلور ملامحه بسرعة فائقة والذي سيفرض نفسه في وقـت غير بعيد، أن تعمـل جادة وبخطاً حثيثة علـى تكوين وتنشئـة أجيال جديدة من المواطنـين تكون لهم توجهـات مختلفة عما هـو سائد الآن، وقـدرات على التأمل والتفكير والإبداع والابتـكار بحيث يؤلفون قـوة ضخمة عاملة في إنتـاج المعرفة، وهم من يطلق عليهـم الآن اسم Knowledge Workers الذيـن يكرسـون جهودهم في إنتـاج وتطوير وتطبيـق المعرفة في مختلف المجالات، فإنتاج المعرفـة يحتاج إلى وجود ثقافـة معرفية متميزة غنية في مجتمع مهيأ للتعامل معها وفهمها، وإلا أصبح ما نسميه مجتمع المعرفة مجـرد هيكل مادي خال من الإنسانية وفارغ من الحياة.

مجتمع المعرفة:

مجتمـع المعرفة هو ذلـك المجتمع الذي يحسن استعمال المعرفة في تسيير أموره وفي اتخاذ القـرارات السليمة والرشيدة، والذي ينتـج ويستهلـك ويوظف المعلومـة لمعرفة خلفيات وخفايـا وأبعاد الأمـور، بمختلف جوانبهـا وأنواعها، ليس في بلده فقط بل في جميـع أرجاء العالم، لقـد أفضت الثورة المعرفية إلى مجتمع المعرفة الذي أصبح يعتمد بالدرجة الأولى على المعارف كثروة حقيقية، أي علـى خبرة المـوارد البشريـة وكفاءتها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومعارفها ومهاراتها كأساس للتنمية البشرية الشاملة، أي إن من خلال هذه الموارد المعرفية يمكن إنتاج الكسب واستغلال الطاقات الإنتاجية بصفة أفضل من ذي قبل. ويبنى هذا المجتمع على مجموعة خصائص من أهمها التكنولوجيا الأحدث والأحسن أداءً والأرخص سعراً والأصغر حجماً والأخف وزناً والأكثر تعقيداً من سابقتها، كما أن المعرفة والمعلومات اللازمة لإنتاجها أكثر كثافة وتتطلب ارتفاعاً متزايداً للقدرات البشرية من علماء ومطورين وتقنيين. كذلك فإن مجتمع المعرفة يضع الإنسان كفاعل أساسي، إذ هو معين الإبداع الفكري والمعرفي والمادي، وهكذا يتبين أن المعادلة الاقتصادية الجديدة لاتعتمد أساساً على وفرة الموارد الطبيعية ولا على وفرة الموارد المالية، بل على المعرفة والكفاءات والمهارات، أي على العلم والابتكار والتجديد. إنه المجتمع الذي يعتمد أساساً على المعلومات الغزيرة كمورد استثماري وكسلعة استراتيجية وكخدمة، كما أنها أيضاً مصدر للدخل القومي ومجال للقوة العاملة وفيه تتاح الاتصالات العالمية وتنتج المعلومات بكميات ضخمة، كما توزع توزيعاً واسعاً والتي تصبح فيه المعلومات لها تأثير مباشر على مختلف جوانب التنمية.

فمجتمع المعرفة لايقتصر على إنتاج المعلومة وتداولها فحسب، وإنما يحتاج إلى ثقافة تقيّم وتحترم من ينتج هذه المعلومة ويستغلها في المجال الصحيح، مما يتطلب إيجاد محيط ثقافي واجتماعي وسياسي يؤمن بالمعرفة ودورها في الحياة اليومية، وبذل المزيد من الاهتمام بالقدرات الإبداعية مع إمكانية توفير حرية التفكير المتميز والعدالة في توزيع العلم والمعرفة والخدمات بين الطبقات المختلفة للمجتمع.

عمليات إدارة المعرفة:

إن إدارة المعرفة في الممارسة العملية تسعى إلى الحصول على المعرفة وتنظيمها وتمكين الأفراد من الوصول إليها عبر المراحل التالية:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المرحلة الأولى: توليد المعرفة:

قبل أن تبدأ المؤسسة بعملية توليد معرفة جديدة، فإنها تعمل على تشخيص المعرفة الموجودة داخلها كأول خطوة لإدارة معرفتها، وعلى ضوء نتائج عملية التشخيص يتم تحديد نوع المعرفة المتوافرة وبمقارنتها بما هو مطلوب الحصول عليه يتم تحديد فجوة المعرفة في المؤسسة، وعند الانتهاء من تشخيص كل من المعرفة الداخلية والخارجية تأتي عملية توليد المعرفة الجديدة، وذلك من خلال عدد من العمليات التي تتوزع بين الإبداع والبحث الجاد. فالأفراد هم

الذين يولدون المعرفة لذلك فإنه يجب على المؤسسة أن تشجع وتحفـز نشاطات توليد المعرفة التي يقوم بها هؤلاء الأفراد.

المرحلة الثانية: تخزين المعرفة:

بعد قيام المؤسسة بتوليد المعرفة التي تحتاجها كمرحلة أولى، تعمل في هذه المرحلة على تخزين تلك المعرفة لحين استخدامها.. وتتضمن عملية التخزين هذه حفظ المعرفة التي يمتلكها الأفراد، فعملية التخزين تعتبر من أهم العمليات لإدارة المعرفة، بحيث يجب أن تقـوم على أساس انتقائـي، وذلك حتى لاتضيع معرفة تكون ذات مستوى متميز. أو أن يتم الاحتفاظ بمعرفة لافائدة منها.

المرحلة الثالثة: توزيع المعرفة:

ترتبـط هـذه العمليـة بمصطلحات: النشر، المشاركة، النقل والتبادل، حيث تفيد هذه العملية في ضمـان وصول المعرفة إلى مستخدميهـا، فالمعرفة تـزداد قيمتها عند تقاسمهـا، أما بالنسبـة للمشاركة بالمعرفة فهـي تقتضي الانتباه إلى ثلاث نقاط مهمة وهي الانتقـال من العمل الفردي إلى العمل الجماعي، والاختـلاف في أسلوب وطبيعة المشاركـة حسب نوع المعرفـة.. إضافة إلى ذلك فـإن المشاركـة بالمعرفـة تختلف عن المشاركـة بالمعلومـات لأن هـذه الأخيرة لا تتضمن عمليـة التفكير. إذاً فعملية التوزيع تشمـل توزيـع كل مـن المعرفـة الصريحة والضمنيـة، حيث أن أفضل الوسائل لتوزيع المعرفة الصريحة هي استخدام الوثائق وكذا شبكات الإنترنت والاكسترانت، بينما أفضل الوسائل لنقل المعرفة الضمنية هي التدريب والحوار وشبكات العمل الشخصية.

أنواع المعرفة: للمعرفة تصنيفات كثيرة نذكر منها:

التصنيف الأول:

١- المعرفـة الإجرائيـة: وهـي المعرفة العملية التي تتعلـق بكيفية عمل الأشياء أو تطبيـق إجراءات معينة كفك أو تركيب أداة معينة.

٢- المعرفة الإدراكية: وهي أعلى المهارات الأساسية، فهي الخبرة الناتجة بحكم التراكم المعرفي في موضوع معين.

٣- المعرفـة السببيّـة: وتتضمـن فهماً أعمـق للعلاقـات البينيـة والسببيّـة عبر مجالات المعرفـة.. وهذه المعرفـة تفيد في مجـال الإدارة في عمليـة اتخـاذ القرارات خاصـة في الظـروف البيئيـة المعقدة التي يسودها الغموض وعدم التأكد.

التصنيف الثاني:

وهـذا التصنيـف يأخذ عمـق المعرفة وعليه تكون المعرفة على نوعين وهما:

١- المعرفـة العميقة: وهـي التي تكون

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بعيدة في تحليل عناصر ومتغيرات المشكلة وشاملة في الحلول التي تتضمنها.

٢- المعرفة السطحية: وهي معرفة تستوي في شروط فهم المشكلة، وتستوعب نطاق المساحة التي تمتد إليها هذه المشكلة.

التصنيف الثالث:

يعد التصنيف الثالث الأكثر شيوعاً واستخداماً بين الباحثين في حقل إدارة المعرفة.

١- المعرفة الضمنية: وهي المعرفة التي يمتلكها أصحابها في عقولهم ولم يعبروا عنها بأي صيغة من الصيغ إلا بحدود ضيقة، ومن ثم فهي غير ملموسة وليس من السهل تخزينها ونقلها للآخرين إلا عن طريق التفاعل الاجتماعي، وهي تشمل على القيم والمعتقدات والأفكار والخبرات والمهارات.

وتقسم المعرفة الضمنية إلى بعدين أساسيين:

أ- البعد التقني: وهو البعد الذي يتضمن الكفاءات والمهارات غير المخزنة والتي يصعب تحديدها وتفريغها ويمكن أن نطلق عليها اسم المهارات المهنية، فهي محصلة للتجارب التي مرَّ بها الفرد لعدة سنوات.

ب - البعد الإدراكي (المعرفي): فهو يتضمن المعتقدات، النماذج العقلية، التخطيط للمستقبل، فهذا البعد تعكسه الحقيقة المعاشة والنظرة للمستقبل.

٢- المعرفة الصريحة: وهي المعرفة المكتوبة أو المرمزة التي تحتويها المراجع، الكتب، الوثائق، المدونات والتقارير، وأوساط تخزين المعلومات الرقمية. وبالتالي فهي تلك المعرفة المعبر عنها بلغة محددة.. ويمكن أن تكون في شكل علاقات رياضية.. ويمكن للأفراد تقاسمها وتداولها فيما بينهم.. ومن خلال الندوات واللقاءات.. وبالتالي فإنه من السهل وصفها وتحديدها وتخزينها وإعادة استرجاعها في أي وقت.

كما يمكننا أن ندرج المعرفة التنظيمية والمعرفة الإلكترونية كنوع آخر من المعرفة والذي جاء كنتيجة للثورة الإلكترونية:

أولاً: المعرفة التنظيمية: وهي كل أشكال المعرفة التي تتعامل بها المؤسسات التي تنتج من التفاعل بين عناصرها عند أداء الأعمال والتعامل مع عناصر البيئة المحيطة. وتشمل هذه المعرفة العمليات التفاعلية الحاصلة بين الأفراد داخل أي مؤسسة حيث يمكن ملاحظتها إما في أذهان الأفراد أو في الوثائق كالقرارات والسياسات والإجراءات.

ثانياً: المعرفة الإلكترونية: إذ ساعدت الثورة الإلكترونية في فتح العديد من المجالات المتنوعة والمتشعبة التي تبشر بإمكانية قيام

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مجتمـع معرفة إلكـتروني. وقد عرفها نجم نجم على أنها «التمكين من الوصول الأوسع للمعلومات والمعرفة، وتحقيق كفاءة أفضل في إعـادة استخدام تلك المعرفة. وهذه المعرفة هي التي يتم تداولها على الشبكة الداخلية أو الخارجية وفق نماذج الأعمال الإلكترونية بما يحقق رافعة الأصول الرقمية (المنتجات والخدمات الرقمية) والوصول الواسع والمرن إليها في كل مكان وفي أي وقت.. مستندة إلى بنية تحتية فعالة وثقافة قائمة على التقاسم على نطاق واسع(٩).

وأخيراً، يمكننا القول إن المعرفة التي يتم تداولهـا إلكترونياً تتعلق بالمعرفة الصريحة علـى نطـاق واسـع، في حـين أن المعرفة الضمنيـة قد تكون صعبـة التداول ضمن أنشطـة المعرفة الإلكترونيـة إلا في حالات التفاعـل المستمـر بـين ذوي الاهتمامات المتماثلة.

اقتصاد المعرفة:

لقد حدثـت ثورة هائلـة في تكنولوجيا المعلومـات كانـت بالدرجـة الأولى بسبب التفاعـل بين ثلاثة تطورات هي تطور عتاد الكمبيوتر Hardware وتطور البرمجيات Software وتطـور شبـكات الاتصـالات Communication Network وقادت هـذه التطـورات السريعـة إلى تطـورات متلاحقـة وغزيـرة في المجتمـع. وكعادتها كانـت قـوى الاقتصـاد المتعطشـة للتغير المستمر سباقة دائمـاً لمجاراة هذا التطور، ذلك لأن القـوى الاقتصادية غالباً ما تكون أكثر مرونة في الاستجابة لمثل هذه التطورات من باقي عناصر القوى الاجتماعية الأخرى، إذ يركز الخـبراء الاقتصاديون على تقديم ثورة تكنولوجيا المعلومـات كفرصة للتطور الاقتصـادي والمعـرفي الذي يتيـح تشكيل قاعدة راسخة للازدهار الاقتصادي، ويرى كثـيرون أن العـالم أصبح يتعامـل الآن مع صناعـات معرفية تكون الأفـكار منتجاتها والبيـنـات موادها الأوليـة والعقل البشري أداتها، إلى حد باتت المعرفة المكون الرئيسي للنظام الاقتصادي والاجتماعي المعاصر.

لقد شكلت المعلومات بالنسبة للاقتصاد تلسكوبـاً لرصـد المتغـيرات الاقتصاديـة والتحكم بها ومعرفة نتائجها أينما وجدت، كمـا شكلـت المعلومات المرتدة مـن مواقع خارج الاقتصاد دوراً فعـالاً في فهم سلوك الاقتصاد العالمي وأوجد آلية سريعة للتعامل مع المتغيرات على مستوى الاقتصاد الدولي والمحلي.

ويمثل اقتصاد المعرفة اتجاهاً حديثاً في الرؤية الاقتصادية العالمية، ينظر إلى المعرفة بوصفها المحرك للعملية الإنتاجية، والسلعة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الرئيسيــة فيها، إذ يــرى أنها تلعب دوراً رئيسياً في خلق الثروة غير المعتمدة على رأس المال التقليدي، وإنما المعتمدة كلياً على رأس المال الفكـري، ومقدار المعلومـات المتوفرة لدى جهة مـا وكيفية تحويل هذه المعلومات إلى معرفة ثم كيفية توظيف المعرفة للإفادة منها بما يخدم البعد الإنتاجي.

فقـد أصبحـت المعرفة بعـد اتحادها مـع الاقتصاد ذات تأثـير كبير على مختلف الجوانـب الحياتيـة، خصوصـاً في ضـوء الطفـرة التكنولوجية، والثـورة المعلوماتية، التي وفرت المادة المعرفية للجميع، ومن هنا يحاول المختصون في هذا الميدان مع ازدياد توليد ونشـر واستخدام المعرفة والمعلومات، إيجاد طـرق لإدخال عامـل المعرفة بشكل مباشـر وواضـح في نظرياتهـم ونماذجهم الاقتصادية. فالاستثمار في المعلومات أصبح أحد عوامل الإنتـاج فهو يزيد في الإنتاجية كما يزيد في فرص العمل.

ميزات اقتصاد المعرفة:

يتميـز اقتصاد المعرفـة بمميزات عدة ومن أهم هذه المميزات:

١- المرونة الفائقة، والقدرة على التكيف مع المتغيرات والمستجدات التي تتبدل بشكل متسارع.

٢- القـدرة علـى التجديـد والتطوير والتواصـل المتكامـل مع غيره مـن أنماط الاقتصاد الأخرى.

٣- القـدرة علـى الابتـكار وتوليـد منتجات فكرية غير مسبوقة: معرفية، وغير معرفية.

٤- الانفتـاح الكامل، وعـدم وجود أية حواجـز أو موانع تحـول دون التعامل معه ومن خلالـه، وكل ما يحتاجه هـو المعرفة والإدارة والالتزام.

٥- الإيمان بالمباداة والإبداع للتوصل إلى أكبر إنتاج متميز.

٦- الاعتماد علـى المعرفة التي ترتبط بشكل أو بآخر بضرورة التطوير والتجديد.

مستلزمات تطبيق إدارة المعرفة:

إن تهيئة المستلزمات التنظيمية والبشرية والماديـة تحتل أهميـة وأولويـة، وإن عدم توفرها يقود إلى تطبيق غير صحيح لتقنيات وآليـات تلك الإدارة، وتـبرز في مقدمة تلك المستلزمات مايلي:

أولاً: الهيـكل التنظيمـي: حيث شهدت عملية تصميم الهيـكل التنظيمي للمنظمة كثيراً مـن التطورات التي جـاءت استجابة لحاجـات بيئية، ومتطلبـات التكيف معها، وبظهور تكنولوجيا المعلومات وتطور وسائل الاتصـالات وقنواتهـا فقد استلـزم الأمر التفكير بتصميم تنظيمـي يدعم استخدام

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التكنولوجيا الحديثة من جهة ويسمح بانتقال المعارف وتبادلها بين المنظمة والأطراف التي تتعامل معها في محيط عملها الداخلي أو بيئة انتشارها الخارجي من جهة أخرى.

ثانياً: القيادة الإدارية: تعدّ القيادة الإدارية أحد أهم العوامل الداعمة لتطبيق نموذج إدارة المعرفة وذلك لدورها الرئيسي في رسم المسارات الاستراتيجية للمنظمة، وتوجيه الموارد البشرية العاملة فيها لتحقيق أهداف المنظمة، كما تقوم القيادة الإدارية بترسيخ القيم والمعتقدات وتعزيز السلوك الإيجابي في المنظمة.

إن قدرة القيادة على توليد وابتكار المعرفة وتبادل تلك المعرفة بين أطراف المنظمة والقيادة والمتعاملين معها. يتطلب تفاعلاً مباشراً ومستمراً وغير رسمي ومن خلال هذا التفاعل تحدث النقاشات والحوارات التي تقود إلى إنتاج المعرفة وتداولها بالشكل السليم.

ثالثاً: الموارد البشرية: إدارة المعرفة تستلزم توافر موارد بشرية مبدعة وقادرة على توليد المعارف وتبادلها مع الآخرين، فعالم المعرفة يتطلب من العاملين في المنظمة امتلاك القدرة على استخدام المعلومات خارج إطار الأساليب المعيارية، الأمر الذي يتطلب امتلاك قدرة تحديد المعلومات المطلوبة أولاً، واستخدام تلك المعلومات بشكل دقيق ثانياً. وفهم نتائج الاستخدام ثالثاً، فالتغير في محتوى العمل يتطلب أن تكون الموارد البشرية متطورة بما يواكب المستجدات البيئية.

رابعاً: إدارة المعرفة وتكنولوجيا المعلومات: من أجل الوصول إلى مستوى التنفيذ الناجح لإدارة المعرفة لابد من التعاون مع قسم تكنولوجيا المعلومات لضمان تحقيق الأهداف بأن تصبح قادرة على تقديم خدمات جديدة تؤثر بشكل إيجابي على أداء المنظمة. لذلك يجب ربط أهمية تكنولوجيا المعلومات بالاستراتيجية العامة للمنظمة المرتبطة بالمنافسة الخارجية أو التغير في بيئة الأعمال.

صعوبات تطبيق إدارة المعرفة:

١- صعوبة تحديد المعلومات والمعارف التي من الضروري وضعها في برنامج إدارة المعرفة.

٢- عدم توافر الكادر القادر على القيام بمهام نظام إدارة المعرفة.

٣- عدم توافر البنية التحتية اللازمة من أجل إدارة المعرفة بطريقة فعالة.

٤- عدم نشر الوعي بأهمية المعرفة لدى مختلف المستويات والفئات الاجتماعية.

خاتمة:

ليس هناك أدنى شك في أن الثورة المعرفية التي شهدها العالم منذ بداية الربع الأخير من القرن العشرين أدت إلى إحداث تغييرات هامة وعميقة في مجالات الحياة المعاصرة، فالانفجار المعرفي الكبير الذي أتى للعالم بكتل هائلة من المعارف والمعلومات، انتقلت بسرعة فائقة عبر التقانات الاتصالية الحديثة التي أفرزتها الثورة التكنولوجية: فألغت الأبعاد والمسافات واجتازت الحدود الجغرافية، وتحول العالم فيها أشبه مايكون بقرية صغيرة، فحملت أشكالاً ونماذج متعددة من الأفكار والعادات والقيم الاجتماعية، أدت إلى تقارب الشعوب وتلاقي الثقافات. فالمعرفة أصبحت محرك الإنتاج كما أصبح مبدأ التركيز على المعلومات والتكنولوجيا كعامل من العوامل الأساسية في عمليات التنمية الشاملة.

وتركز إدارة المعرفة على المعرفة كأحد المصادر والأصول المهمة التي ينبغي الاستفادة المثلى منها كإحدى الأدوات والوسائل لمواجهة التحديات التي تواجهها بيئة الأعمال كالمؤسسات والمنشآت، والتغلب على الصعوبات والتغيرات الكبيرة والمنافسة والعولمة التي تؤثر على مستقبل هذه الأعمال مع صعوبة التعامل معها بشكل تام. الأمر الذي أجبر هذه المؤسسات والشركات على اعتماد أدوات ووسائل تمكنها من البقاء والمنافسة، ومن هذه الأدوات الاهتمام بإدارة المعرفة Knowledge Management خاصة في ظل اقتصاد عالمي يعتمد أساساً على المعلومة والمعرفة.

فالمعرفة تسمح لنا بتحقيق الأهداف بأسرع وأسهل الطرق، دون استعمال التصحيح بالتغذية العكسية أو التجربة والخطأ، لأنها تسمح لنا بتحديد المطلوب فوراً. فهي بمثابة مفاتيح تسمح لنا بفتح الزمن باستنتاج ماحدث في الماضي، والتنبؤ لما يحدث في المستقبل، ومعرفة مراكز التوازن أو الاستقرار بحيث يتعرف الإنسان على مكنونات العالم الموضوعي في أثناء تفاعله مع موجودات البيئة المادية والاجتماعية التي حصل عليها بوساطة المعرفة.

المراجع

١- سيندوف، بلا جوفيست (١٩٩٧): نحو حكمة شاملة في عصر نظم الترقيم والاتصالات، ترجمة د. إبراهيم شبكة، جامعة القاهرة، مركز مطبوعات اليونسكو، مستقبليات، ٢٧ (٣) ص ص٤٥٩- ٤٧٢.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

٢- عبـد الوهاب، محمد رفعت، وشيحا، إبراهيم عبد العزيـز (١٩٩٨): أصول الإدارة العامة، دار المطبوعات الجامعية، القاهرة، مصر. ص٢١٥.

٣- جاب الرب، سيد محمد (٢٠٠٦): إدارة الموارد الفكرية والمعرفية في منظمات الأعمال المعاصرة، ص٥٨.

٤- فيكـري، براين كامبل، والينا فيكـري (١٩٩١): علم المعلومات بين النظريـة والتطبيق، ترجمة د.حشمت قاسم، مكتبة غريب، القاهرة، مصر.ص٥٣.

٥- السلطـان، عبد العزيز والفنتوخي، عبد القادر (١٩٩٩): الإنترنت في التعليم، مشروع المدرسة الإلكترونية، رسالة الخليج العربي، (٧١) الرياض، السعودية.ص٧٩.

6- Gregoire, R., Bracewell, R., & Laferriere, T. (1996), The contribution of new technologies to learning and teaching in elemantery and secondary schools, retrieved April 12 , 2004, from.

(http://www.tact.fse.ulaval.ca/fr/html),P. 93.

٧- صالـح، ماجدة محمد (٢٠٠٢): الحاسوب في تعليم الأطفـال، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن.ص١١٠.

8- Hall, E., & Hord, M. (2001), Implementing change: patterns, principles and potholes, MA: Allyn and Bacon, Boston, U.S.A.P.P 1228-.

٩- نجم، عبود نجم (٢٠٠٩): الإدارة والمعرفة الإلكترونية- الاستراتيجية- الوظائف- المجالات، دار اليازوري، عمان- الأردن، ص٥٠٣.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أخطاء الدراسات الميدانية التربوية في عصر المعلومات والمعرفة

د. فخر الدين القلا ✽

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إن عصر المعلومات والمعرفة غـيرّ كثيراً من أدوار الباحثين، ومساعديهم مــن الإحصائيين الحاسوبيين، والمبرمجين بالمعلوماتية والتربية. وقد أتيح لي تقويم عشرات الأبحاث المقدمة للمجلات الجامعية، أو لتقويم أعضاء الهيئة التدريسيــة في كليات التربية الذين يتقدمــون إلى وظائف أعلى من مدرس ونظــراً للسرية في اسم الكاتب والمقــوم، لذلك أركز على تجربتي الشخصية دون الإشارة إلى المراجع.

✽ كاتب وأستاذ في كلية التربية - جامعة دمشق.

العمل الفني، الفنان رشيد شمه.

واخترت ملاحظاتي في المجالات الآتية:

أولاً- عنوان البحث المقدم للتقويم.

ثانياً- مسؤولية الباحث التربوي.

ثالثاً- مسؤولية الإحصائي الحاسوبي.

رابعاً- أخطاء التوثيق المتن وقائمة المراجع.

خامساً- أخطاء التجربة الميدانية.

سادساً - أخطاء الجداول والأعمدة البيانية.

سابعاً- أخطاء المصطلحات.

ثامناً- أخطاء أداتي قياس التحصيل واستبانة الاتجاه والرأي.

تاسعاً- خاتمة

أولاً: عنوان البحث:

تقدم جهات متعددة محاور لعناوين أبحاثها، ويختار الباحث عنوان بحثه من أحد هذه المحاور، ويشترط بالبحث أن يكون محدداً بالعبارات دون إفراط أو تفريط، مع التركيز أن يكون أصيلاً، ومن الطبيعي أن يكون بلغة عربية صحيحة ومصطلحات فنية متداولة، وإذا اضطر الباحث إلى ذكر مصطلح أجنبي يمكن عرضه مرافقاً للمصطلح العربي. مثلاً (إعادة الدورة) قد يوضح له بالعربية أيضاً مصطلح (رسكلة) و(إعادة هندسة التربية) فيسمى (هندرة التربية أو التعليم).

ويشترط أن لا يحيد الباحث عن العنوان في تقرير بحثه، ويعرف مصطلحاته الموجودة بالعنوان وغالباً ما ترفض البحوث لتغير العنوان، لأن المجلة التربوية ملزمة بالعنوان، فإما أن يقبل أو يرفض البحث بعد تغيير العنوان.

وتغيير العنوان في رسائل الماجستير والدكتوراه يتطلب الانتظار سنة كاملة.

ثانياً: مسؤولية الباحث التربوي:

٢-١- الباحث هو المسؤول الوحيد عن تقرير بحثه المقدم للتقويم والتحكيم أو الترقية لوظيفة أعلى.

٢-٢- وهو المسؤول عن عمليات الرقن والتنضيد، والمنهج العلمي التربوي.

٢-٣- قد يكلف الإحصائي الحاسوبي بالمهمات المطلوبة في بحثه الذي يوفر عليه الجهد والمال.

٢-٤- وقد يقوم بالتدريب على الطرائق والتقنيات الجديدة المستخدمة ببحثه.

٢-٥- وقد يتعاون مع طلابه في حلقات بحوثهم، ويطوّرها ويقومها ويستفيد منها.

٢-٦- ويشرف على طلاب الدراسات العليا في الدبلومات ورسائل الماجستير

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والدكتوراه التي تمنح درجات علمية وألقاب محترمة.

٢-٧- ويفضل أن يعترف بالمشاركين الباحثين الذين يقومون بإعطاء العلامات أو الدرجات الجامعية من إجازة، وماجستير أو دكتوراه بالتربية وعلم النفس.

٢-٨-ومن مسؤوليته الحديثة أن ينجح (بقيادة الحاسوب) في عصر المعلومات. وهي مبادئ أساسية في الحاسوب والشبكات وتمنحها جهات متخصصة.

٢-٩- ويواكب الباحث التطورات السريعة في عصر المعلومات والمعرفة.

٢-١٠- وهو يعد اختبارات التحصيل، واستبانات الاتجاه والرأي، وغيرها من أدوات البحث العلمي ويتحقق من صدقها وثباتها، وبالتالي موثوقيتها.

٢-١١- ومن أكثر الذين يشاركونه في البحث هو الإحصائي الحاسوبي الذي يعمل بتوجيهاته ويستخدم قوانين الإحصاء وبرامج الحاسوب الملائمة.

ثالثاً: مسؤولية الإحصائي الحاسوبي:

٣-١- تعد الرزمة العلمية للعلوم الاجتماعية المسماة spss بنسختها الجديدة في القرص الحاسوبي أهم ما يتعامل به الإحصائي الحاسوبي لمعظم المهمات التي يستخدمها في إنجاز تقرير البحث عن الدراسة الميدانية.

٣-٢- قد يؤدي جهد الإحصائي

الحاسوبي إلى القيام بمعظم المهمات لتقرير البحث، لدرجة تتبين منها أنّ معظم تقرير البحث أعده الإحصائي الحاسوبي ولم يراجعه الباحث في النسخة المقدمة للتقويم. وهناك دلائل كثيرة تجعلني أرفض البحث بكامله، لأنه يكرر الأخطاء التي يقع بها الإحصائي الحاسوبي في الدراسة الميدانية ويقصر الباحث في مسؤوليته الوحيدة عن جودة التقرير وسلامته من الأخطاء المرتكبة.

رابعاً: أخطاء التوثيق في المتن وقائمة المراجع:

٤-١- تلزم المجلات التربوية في العالم والبلاد العربية التقيد بتعليمات هيئة علم النفس الأمريكية. المسماة اختصاراً APA ولكن هذا الالتزام، قد يوقع الباحث بأخطاء في المتن، وقائمة المراجع بالشكل والمحتوى فالصحيح أن يذكر بالمتن (اسم عائلة الباحث، وسنة نشره البحث، والصفحة أو الصفحات التي استند إليها) بالاقتباس الحرفي أو بالأفكار التي يعرضها في دراسته، وتقرير بحثه.

٤-٢- ومعظم الأخطاء في قائمة المراجع تتعلق بالتنفيذ، مثل تسويد الوعاء، ويكون البحث عادة كتاب أو مجلة (دورية) يسجل فيها رقم المجلد، وعدد المجلة وسنة النشر، واسم الناشر، وبلد النشر، وصفحات كاتب البحث من بدايته إلى نهايته ويفصل بين كل مكون وآخر بفاصله يستخدمه بالعربية أو بالأجنبية، ولا يستخدم النقطة إلا للمختصرات.

٤-٣- تتوافر في الأدبيات التربوية تعليمات عديدة لطريقة التوثيق بنظام APA قد توضع في كتب أو أقراص حاسوب.

٤-٤- قد يستخدم الباحث مراجع عديدة لفكرة واحدة، وغالباً ما تكون هذه المراجع العديدة من بحوث آخرين، وخاصة من رسائل الماجستير والدكتوراه اطّلع عليها الباحث من دراسة باحثين آخرين، فذكرها في تقريره كأن ينقلها من رسائل الدراسات العليا التي أشرف عليها، ويفضل في هذه الحالة حذف المراجع المتعددة والاقتصار على مرجع واحد منشور، والموثوق بصدقه.

٤-٥- إن أكثر البحوث غير المحترمة هي:

أ - رسائل الماجستير والدكتوراه لأنها غير منشورة، ولذلك لا يجوز وضع صفحتها.

ب - بحوث في الإنترنت، لأنها قد تكون للإعلام، ولا توثق بالصفحة، وقد تقبل إذا ذكر تاريخ استرجاعها بعبارة retrieved.

ت - كما ترفض ملخصات رسائل الدكتوراه بالعربية أو الإنكليزية لأن من

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

يكتبها ليس الباحث الأصلي، بل المكتبي أو الموثق للملخصات، وهو غير الباحث.

ث - البحوث التي كانت تصدر عن مؤسسة ERIC وهي تشبه ملخصات رسائل الدكتوراه.

ج - بعض البحوث المقدمة للندوات والمؤتمرات التي لا تخصص لجنة أو متخصصاً لقبول أو رفض البحوث المقدمة للندوة أو المؤتمر العلمي.

٤-٦- هناك بعض الالتباس في شكل كتابة المرجع بالقائمة، مثل قدم الباحث في مراجعه بحثين، قام بها شخص واحد في السنة نفسها، ويفضل عندها وضع حرفي (أ،ب) في المتن وقائمة المراجع.

٤-٧- قد يكون أكثر من شخص ورد بالقائمة من عائلة لها الاسم نفسه عندها يفضل بالمتن ذكر اسم الشخص بعد اسم العائلة وسنة البحث.

٤-٨- قد يجد المقوم أخطاء أخرى في التوثيق لم أذكرها في مقالتي البحثية.

خامساً: أخطاء في التجربة الميدانية:

٥-١- أسهم عصر المعلومات والمعرفة في إهمال ذكر التجربة الميدانية لأن الباحثين يعرضونها بإيجاز شديد، أو ينتقلون إلى تسجيل النتائج الإحصائية من دون ذكر بيئة التجربة الميدانية في المكان والزمان، وصعوباتها المتعددة التي يصعب حصرها.

٥-٢- ومن الأخطاء المرتكبة أن يكون عدد عينة البحث المختارة عشوائياً والمجتمع الإحصائي من مدورات رقم خمسة. ويندر احتمال وجوده في العينة والمجتمع الإحصائي، ولكن المتخصص الفني في الإحصاء والحاسوب قد يستخدمه: ولا ينتبه الباحث إلى خطورة إيراده مما يؤدي بالضرورة إلى رفض نشر البحث في المجلة المحترمة.

٥-٣- قد يسجل الباحث معلومات موجزة عن تجربته في المكان والزمان، وهناك تحيزات عديدة في مناسبة إجرائها، والمشاركين بها، وما يقدم له من تسهيلات تقدمها الجامعة أو الكلية أو هيئات أخرى تقدم للباحث الإمكانات الفنية أو المالية للقيام بالبحث.

٥-٤- تذكر الأدبيات التربوية أن من صعوبات الدراسة الميدانية هو الموات التجريبي (Experimental mortality) مثل عدم مشاركة الأعضاء المفحوصين في التعلم أو التقويم لأسباب عديدة يصعب تعدادها، وهذا يضطر الباحث إلى حذفه من التجربة الميدانية أو التحفظ بذكر النتائج، وفي عصر المعلومات والمعرفة قد يتوقف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحاسوب عن عمله أو يصاب (بفايروس) حاسوبي، أو يحصل عطل في الشبكات، وقد تكون الصعوبات اجتماعية أو ثقافية، مثل عدم اختلاط الذكور بالإناث، وهناك صعوبات بعدم استرجاع الاستبانات التي قدمها الباحث للدارسين.. وفي اعتقادي أن ذكر هذه الصعوبات ضروري للأمانة العلمية.

سادساً: أخطاء الجداول والأعمدة البيانية:

٦-١-يقوم الإحصائي الحاسوبي بتنظيم الجداول والأعمدة البيانية ويضعها في أرقام بأول الجداول، أو الأعمدة البيانية. وهذه الجداول والأعمدة تكون ذات إحداثين أفقي وشاقولي، لذلك يجب ذكر عنوان الجدول وفق ما في الأحداثين معاً. ولذلك لا يوضع ضمن هذين المصطلحين قوائم الضبط للمكونات لأنها تكون عادة من إحداثي واحد يجرد المحتويات الشاقولية.

٦-٢- قد تكون الأخطاء بإنقاص أحد المكونات مثل (المجموع الكلي) أو المتوسط الحسابي، أو الانحراف المعياري، أو النسبة المئوية أو التكرارات، أو الدلالة الإحصائية، ولكن البرامج الحاسوبية الحديثة تتلافى معظم هذه الأخطاء في الجداول والأعمدة البيانية.

٦-٣- يفضل أن لا تعاد أرقام محتوى الجداول في الشرح لأن ذلك فضله، ويكتفى بتفسير النتائج وفق خبرة الباحث في الميدان التربوي والبيئة التي جرى بها البحث.

٦-٤- إن جداول توزيع العينة ومكانها في التقرير قبل جداول النتائج التي تجيب عن الأسئلة أو تتحقق من الفرضيات المذكورة، وأفضل عدم تكرار نصها مرتين أو ثلاثة في التقرير.

٦-٥- هناك شروط للاختبارات الإحصائية في الجداول. وقد يسرت البرامج الإحصائية في عصر المعلومات من تنظيم الجداول ورموزها.

٦-٦- قد لا يكون من الضروري عرض الجداول والرسوم البيانية معاً، ويكتفي بأحدهما.

٦-٧- لا بد من التلازم في صفحات مواقع الجداول أو الأعمدة مع سياق الشرح.

٦-٨- قد يتطلب السياق وضع جداول في ملاحق البحث للإيضاح وليس للنشر.

سابعاً: أخطاء المصطلحات:

٧-١- تستخدم المصطلحات الفنية المتداولة في الأدبيات التربوية، ويفضل أن يكون الباحث ملتزماً بثبات مصطلحه المذكور بعنوان بحثه.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٧-٢- والمصطلحات المترجمة عن الإنكليزية قد تكون واحدة، ولكن العربية تذكرها متعددة مثل (الحاسوب، والهاتف الخلوي، والتعليم الافتراضي، وغيرها).

٧-٣- يفضل تجنب المصطلحات الغامضة مثل (بعض، عديد، كثير) لأنها غير محددة بالرقم.

٧-٤- قد يستخدم مصطلح منسوب إلى باحث معروف عالمياً، ولكنه مترجم بالعربية بمصطلح آخر، مثلاً كان بياجيه باحثاً تربوياً عالمي الشهرة وله مصطلحات بالإنكليزية متداولة، وتترجم إلى العربية (بالتمثيل والمطابقة) ويعني (بالتمثيل) تغيير البيئة لتناسب الفرد، (والمطابقة) هي بالعكس تغير الفرد لتناسب البيئة، ولكن بعض الباحثين يستخدمون مصطلحات أخرى للمطابقة مثل (المواءمة). وهذا تحريف في نظري.

٧-٥- قد يقدم الباحث (مقترحات) نابعة من بحثه، ولذلك يجب أن لا يحولها إلى (توصيات) أو (قرارات) تستخدم في الاجتماعات، والندوات والمؤتمرات.

٧-٦- هناك مصطلحات فنية أخرى قد يسهم تعريفها في تحسين البحث ووضوحه.

ثامناً: أخطاء في اختبارات التحصيل أو استبانات الاتجاه:

٨-١- إن أكثر أدوات البحث استخداماً هما اختبارات التحصيل المعرفي واستبانات الاتجاه نحو التجربة الجديدة أو التقنية الجديدة المستخدمة بالبحث،ولكل منهما شروط.

٨-٢- وغالباً ما تكون اختبارات التحصيل مؤتمتة لأنها تتألف من عدد من البنود، وكل بند له مقدمة وأربعة خيارات أو بدائل.

٨-٣- ولا يجوز أن تكون مقدمة البند موحية باختيار البديل الصحيح من الخيارات الأربعة.

٨-٤- ولكن قد يكون ذلك للتمويه الذي يوقع المستجيب بإجابة مغلوطة.

٨-٥- تختبر هذه الاختبارات بقياس معامل الصعوبة أو التمييز بين المجموعة العليا والسفلى في التجارب الاستطلاعية.

٨-٦- ويكون الاختبار القبلي/البعدي الموحد أحد أشكال القياس مقدار التعلم، وكلما كانت علامات الاختبار القبلي قليلة يكون ذلك أفضل. لأن الاختبار البعدي يدل على مدى التحصيل والاكتساب.

٨-٧- ولا يجوز اختبار الفروق بين الاختبار البعدي والقبلي باختبارات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إحصائية تحقق من فرضيات غير مقبولة بينهما. لأنه من الطبيعي أن يزداد التعلم، ولا يمكن المساواة بينهما أو نقص التعلم.

٨-٨- وزيادة في اطمئناني كمقوم أفضل دراسة الاختبار المطبق ميدانياً إن كان ذلك ممكناً وليس صورة عنه.

٨-٩- تعرف موثوقية الاختبار كأداة تحصيل معرفي بإجراء صدق الاختبار وثباته قبل البدء بتطبيقه على المجموعتين التجريبية والضابطة. وتطبق على فئة من المتعلمين من المستوى نفسه، ولكنهم من خارج عينة البحث.

٨-١٠- أما استبانات الاتجاه ورأي الدارسين فلها شروط عديدة كأن لا يذكر اسم المجيب، وأن تجرب أسئلته وبنوده، وأن توضع فيه أسئلة سلبية، وأخرى إيجابية، وغالباً ما تكون الأجوبة بين ٣-٥ مستويات وفق مقياس ليكرت.

٨-١١- ويفضل عدم إجراء هذه الاستبانات قبل فترة الامتحانات لأن الطلاب قد يتملقون الباحث المدرس لهم.

٨-١٢- وقد تعرض (الاستبانة) على كل من الطلاب والمعلمين، وكل منهم يدافع عن مصلحته في الإجابة.

٨-١٣- يفضل أن تنتهي كل استبانة بأسئلة مفتوحة تدل على معوقات التجربة ومقترحات المجيبين لتلافيها.

٨-١٤- غالباً ما تكون الاستبانات أسهل الأدوات استخداماً على الرغم من التحيزات التي تظهر بها.

٨-١٥- أخيراً إذا وجدت عيوباً في الاختبارات والاستبانات أرفض البحث لأن العيوب طبقت بالبحث ويصعب تعديلها في التقرير ذاته.

تاسعاً: خاتمة:

عرضت في هذه الورقة مسؤوليات العاملين في البحث التربوي وفق اعتقادي وآرائي. اخترتها من تجاربي السابقة بالتقويم، وخاصة في عصر المعلومات والمعرفة، ولا أكتم بأنني أهملت جوانب عديدة تتعلق بالبحث.

ويستطيع الباحث الاسترشاد من البنود السابقة ليحسن تقرير بحثه ويتجنب رفضه لجسامة الأخطاء، ولكن هذا العالم المعرفي في عصر المعلومات يعتمد على الجودة في التربية والتعليم ولا بد للباحث التربوي والنفسي من مواصلة التعلم والتدرّب. وأحاول أنا مواصلة ذلك التقدم على الرغم من عوائقي بعد بلوغ سن الحادي والثمانين.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المرأة
نبع الحنان السرمدي

عبد الباقي يوسف ✽

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثمة أسطورة في تراث الهنود الأسطوري تقول بأن الله تبارك وتعالى في البدء خلق كل هذا العالم ومن ثم خلق الرجل، وبعد ذلك شاء أن يخلق كائنا بشريا غير الرجل، فأخذ من القمر مسامرته، ومن البحر عمقه، ومن الأمواج مدها وجزرها، ومن النجوم لمعانها، ومن الشمس حرارتها، ومن الندى قطراته، ومن الريح تقلباتها وثباتها، ومن النبات ارتجافه وارتعاشه، ومن الورد لونه وعطره، ومن الأزهار تجملها، ومن الأوراق خفها، ومن الأغصان

✽ أديب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

تمايلها، ومن حفيف الأشجار حنينها وأنينها، ومن النسيم لطفه ورقته، ومن العسل شهده، ومن العلقـم مرارته، ومـن الذهب بريقه، ومن الماس قساوته، ومـن الحية حكمتها، ومن الحربـاء تلونها، ومن الغـزال شروده، ومـن المهـا عيونهـا، ومن الأرنـب خجلها وحياءها، ومن النمر شراسته، ومن الطاووس خيـلاءه وزهوه، ومن الثعلب مكره وروغانه، ومن العقرب لسعته، ومـن الببغاء هذيانها وكثرة كلامها، ومـن الزمان خيانته وغدره. وبعد ذلك جمع كل هـذه الخواص وسكبها في بوتقة وخلق منها كائناً بشرياً مختلفاً عن الرجل ومنحه اسم /المـرأة/ ومن ثم قدَّمه للرجل. وتروي الأسطـورة الهندية أنه بعد أسبـوع من العلاقة بينهمـا جاء الرجل إلى الخالق شاكياً: يارب إنَّ المرأة التي أعطيتني قد سممـت حياتي ووجودي. إنها تتكلم بلا انقطـاع، تبكي بلا سبب، إنهـا مستضعفة ونحيفـة ومطالبة لا حد لها، إنها تستاء من أقل شيء، خذها وأرحني منها يا رب.

وأخذ الله عزَّ وجـل المرأة، وبعد أسبوع عاد الرجـل إلى ربه يقول: يا رب إنَّ حياتي مـن دون المـرأة أشبه بالوحـدة والإنفراد، كل العـالم الذي أعطيتنـي أشبه بمنفى لي، أنـا تاعس من دون المـرأة، إني أتذكر كيف كانـت تحبب لي الحياة، كيـف كانت تبتسم فتجدد نشاطي، وتضحـك فتبدد همومي، كيف كانت تداعبني، كيف كانت ترتمي بين ذراعي، كيف كانت تخفي آلامي وتعطي لذة لأحلامـي، أرجعها إليَّ يـا رب. فأعاد الله تبارك وتعالى المـرأة للرجل وبعد ثلاثة أيام رجع الرجل إلى الخالق شاكياً: يا رب إنني لا أفهم نفسي، لكنني متأكد أن المرأة تزعجني أكثر مما تريحني وتسترني. فغضب الخالق وقال: خذ المرأة واذهب أيها الرجل ولا تعد إليَّ.

المرأة والتربية

تحافظ المرأة علـى ملامح الطفولة في شخصيتهـا، هذه الملامح التـي تؤهلها كي تقوم بدور فاعل وأساسي في تنشئة الطفل.

تميل المـرأة إلى عـالم الطفولة أكثر من ميلهـا إلى عالم الكبـار، وتميـل إلى العمل الأمومـي والتربـوي، أكـثر مـن ميلها إلى الأعمال الأخرى.

تتمتـع المرأة بخصائـص تؤهلها لتربية الطفل وتقديم الموعظة والإرشاد إليه، وهي تملك مقومات التأثـير المباشر وغير المباشر عليه، لذلك تعـوّل المؤسسات التربوية على شخصيـة المـرأة المعلمة، لأنهـا تحمل في شخصيتها الكثير من المزايا التي تجعلها تعلِّم الطفل وتربيـه بالوقت ذاته من منطلق أنها امرأة، ومـا يلفظه الرجل المعلم بسهولة من

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كلمات، قد تتحــرج المرأة في قولها، بل قد تعاقب تلميذها إذا لفظ تلك الكلمات.

تقــول الكاتبــة الدنماركية توفه ديتلفسن: /هنــاك طفلة صغيرة في أعماقي ترفض أن تموت/.

إن الاعتماد على تربية الأطفال يقــع في غالبه علــى شخصية المرأة المربية، فهي تجيــد تربيته، وتجيد تأديبه، وتجيد فن القصّ عليه وهي تهدهده حتى ينام.

إنها تجيد عمليــة تنظيم وقته، ولديها قــدرة هائلة من الصبر على نتائج عملها.

والمرأة بطبيعتها تميل إلى القصّ والحكــي، ولذلك شهد الأدب أسماءً نسائية قصصيــة وروائية أكثر مما شهــد أسمــاء نسائيــة شعريــة، أو فكرية.

استطاعــت المــرأة أن تحقــق حضوراً في عالم السرد الروائي والقصصي، وتفــوز بأعلى الجوائز الأدبيــة مثل جائزة نوبل للآداب.

ومن أبرز الروائيــات في العالم: شارلوت برونتــي -جــورج سانــد- آغاتــا كريستي -فرجينا وولف- ناتــالي ساروت -فرنسواز

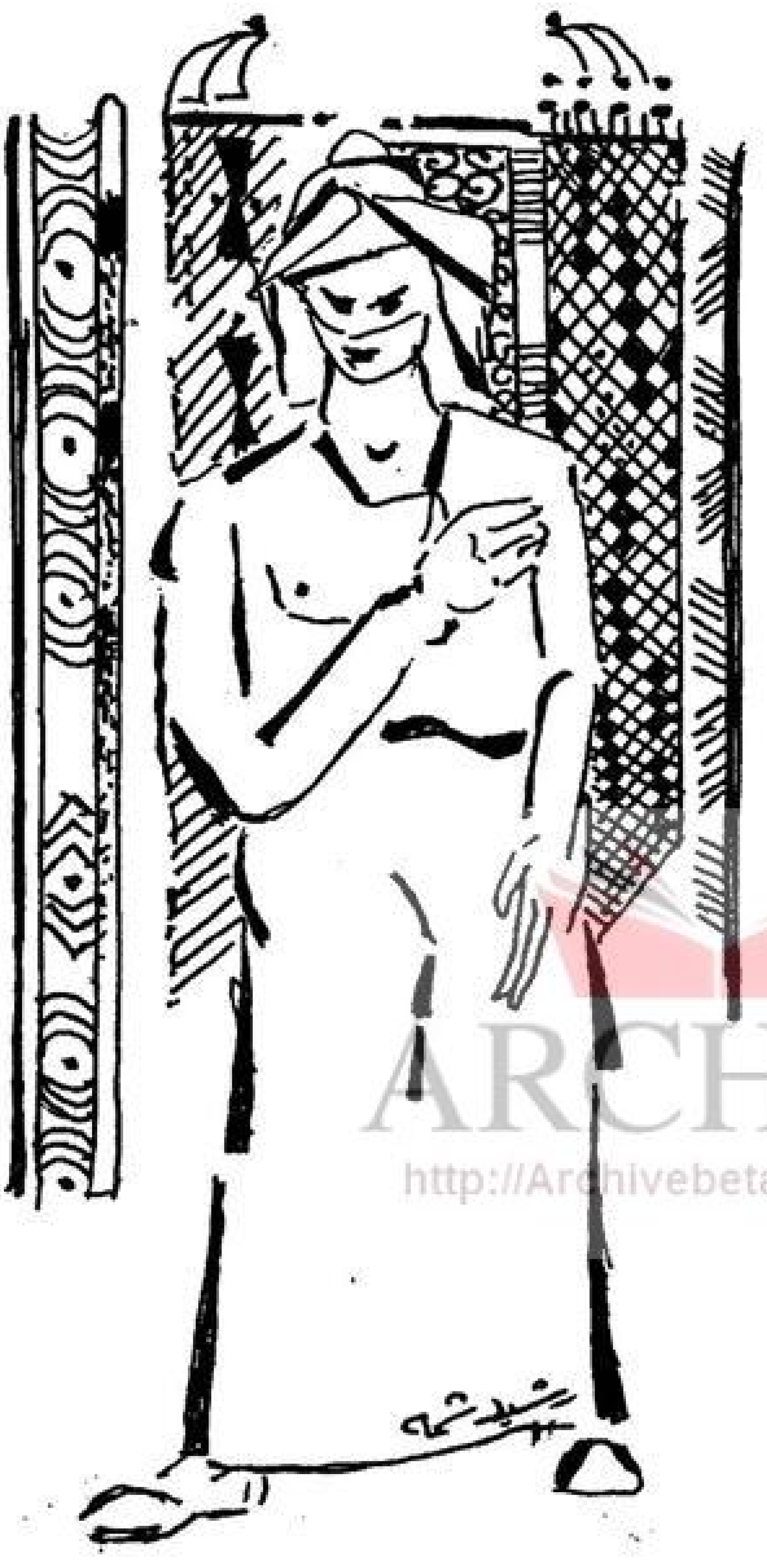

ساغان- تــوني موريسون- إيزابيل الليندي، نادين غورديمير.

ومن الفائــزات بجائزة نوبــل للآداب: نادريــن جورديمــر مــن جنــوب أفريقيــا سنــة١٩٩١م- تــوني موريسون مــن أمريكا ١٩٩٣م- الفريدا يلنك من النمسا ٢٠٠٤م-

دوريسن ليسينغ من المملكة المتحدة ٢٠٠٧م- هيرتا مولر من ألمانيا ٢٠٠٩م.

تصـف كريستـي مرحلـة طفولتها: / كان شعـري مرفوعاً كما كان دارجاً في تلك الحقبة ويسمى -علـى الطريقة الإغريقية - مـع ضفائر عاليـة تحيط بهـا عصابة حريرية بيضـاء ملونة. كان هذا الزي فعلاً زياً أنيقاً/.

وعن مرحلة طفولتهـا تقول: /من أمتع سنوات حياتي وأسعدهـا، سنوات طفولتي الأولى، كان لـديَّ بيـت وحديقـة كنـت أعشقهما، ومربية ممتـازة، وكان أبي وأمي يجسدان الحب والحنان وجعلا من حياتهما حياة ناجحة وهانئة/.

تبقى المرأة دائمة الميل والحنين إلى عالم الطفولـة مهما بلغت من مراتب في حياتها، ولذلك فإن هذه الأم يمكنها مخاطبة طفلها قصصياً بدرجة أكثر قرباً من الرجل.

تقول سيمـون دي بوفوار: /نحن النساء نعرف خيراً مـن الرجال عالم المـرأة، لأننا مرتبطـات الجذور بـه، ونحـن أقدر على إدراك مامعنـى أن يكـون الكائـن البشري امرأة/.

تقول بيرجيت وانكرت: /غالباً ما نغفل أن أدب الأطفـال ليس ظاهرة طبيعية شأنه شأن مفهوم الطفولة الذي حمله، ولكنه بدلاً من ذلك بناء اجتماعي وُلِد مع عصر التنوير الأوروبي في القرن الثامن عشر/.

وحتى شخصية البنت تختلف في نموها عـن شخصية الولد .يرى ديفيز /أنَّ البنات تسبقن الأولاد الذيـن يجاورونهن في العمر في النمو اللغـوي، وخاصة ما بين الخامسة والعاشرة من العمر/.

شهـد أدب الأطفـال أعمـالاً قصصية وروائية هامـة لأديبات مـن مختلف أنحاء العالم، ومن ذلك /لويـزا ماي أيكوت/ التي كتبت أوَّل روايـة واقعية للأطفال بعنوان / نساء صغيرات/ سنة ١٨٦٨م.

تروي فيها وقائع الحياة من خلال عائلة أمريكية، وفيها نتعرف على موقع الطفل في هذه العائلة وعن مفهوم المجتمع للطفل، كما أننا نتعرف على عالم الكبار من خلال مفهوم الصغار .

وكتبت الكاتبـة الإنجليزية /آنا سويل/ روايتهـا /الجمـال الأسود/ سنـة ١٨٧٧م تحدثت من خلالها عن عالم الحيوان، ودعت الطفل إلى محبة الحيوان والرفق به.

كما اشتهرت الكاتبة الأمريكية /ماربيت بيتشـر/ بقصصها التي كتبتهـا للأطفال، وخاطبت من خلالها عالم الطفل.

وفي اليابـان ظهـرت الكاتبـة /كيوكو ايواسكـي/ التي كتبـت أعمـالاً قصصية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

للأطفال صـــورت من خلالها عالم الحيوان، وعالم الطبيعة.

امتازت الكتابة النسوية للطفل بشيء من الشفافية والموعظـــة، واستطاعت أن تقدم باقة من الأعمال الأدبية إلى مكتبة الطفل.

إن مـــا يميز سيكولوجية المـــرأة هو أنها قادرة على الاحتفاظ بهذا المخزون الطفلي في ذاتهـــا، وتتمكن من تنمية وتعزيز جمالية وتلقائيـــة الطفولة في شخصيتها وفق جميع المراحل التي تمرّ بها.

إلى جانب ذلك، فهي لا تسعى كي تقتلع غرسة الطفولة من شخصيتها، لأنها تستمد لمســات أنوثتهـــا على قدر مـــا تتمتع به من جماليـــة وعفوية ونقاء الطفلـــة الكامنة في عمقها، تلك الطفلة التي لاتزيدها السنوات إلا نضجاً وخبرة، والطفـــل الذي ينظر إلى أبيه، لاينظر إليه على أنه طفل كبير، بيد أنه عندمـــا ينظر إلى أمه، فإنه ينظر إليها على أنها طفلة كبيرة.

العلاقة بـــين المرأة وعـــالم الطفولة هي علاقـــة تكامليـــة تستمد قوتهـــا وتماسكها من الخصوصيـــة التي تتمتع بها المرأة، تلك الخصوصيـــة التي تمنحها هـــذا الغنى في الميزات الفطرية.

تسعى المرأة إلى توظيف وقتها وإمكاناتها ومقدرتهـــا حتى تقدم ما يمكـــن له أن ينفع الطفولة، وهي بذلك تعـــبر عن المزايا التي تتمتـــع بها شخصيتها حـــول جوهر العلاقة بينها وبين عالم الطفل.

المرأة التي تعمّد روح الرجل

إنهـــا المرأة التـــي تضفي علـــى الحياة إشراقـــة، وتضفي علـــى العمل بهجة، فترى المحب يعيش إشراقة الحياة، ويستمتع ببهجة العمـــل. إنه يمتلئ بمسؤوليـــة تجاه كل يوم يعيشه، وتجاه كل خطوة يخطوها، كل نظرة ينظرها، كل كلمة يقولها. يشعر بأن الطرف الآخـــر يسمعه، ويـــراه، ويحدسه. يسعى ما بجهده كي يكون معطـــاءً حتى يكون جديرا بالحياة التـــي يكتشف من خلالها جماليات وهج العاطفة.

بمـــا أن الحب هو حالـــة صفاء من نقاء المشاعـــر، فإن الطرف الآخـــر الذي نرتقي إلى -وليـــس نقع في- حبـــه يتمتع بمقومات استثنائيـــة، إنه شخصـــ استثنائي بامتياز، وهذا ما يجعل العقبات التي يمكن أن تعيق مســرى تفجير ثورة المشاعـــر نحوه في حالة زوال؛

الحـــب هنا يعمّد الـــروح، ويطهرها من الآثـــام. كان فرانـــز كافكا يقـــول لحبيبته: /نجس أنا ياميلينيا نجـــس، لذلك كل هذا الحديث حول الطهارة/

إن قـــوة نقاء الحب هنـــا تجعل الإنسان

يشعر بحاجته القصوى كي يرتقي في درجات الطهـارة حتى يكون بمستـوى تلك المشاعر الكبرى التي يعيش في بهاء معانيها.

إنها معادلة يلتمس الإنسان معها مساحة ما لديه من إيجابية عندما ينوضع أمام كائن بالغ الشر، ويلتمس مساحة ما لديه من سلبية عندما ينوضع أمام كائن بالغ الخير.

يكتب رامبو عن سحر الحب الذي يسكنه ويلهب حواسه فيصور مشاعره قائلاً للمرأة التي يحبها:

/في الشتـاء سنمضي بعربة وردية ذات وسائد زرقـاء، بالسعادتنا.. سنخبئ في كل زاويـة صغيرة عشّـاً من القبـل المجنونة.. ستغمضين عينيك فلا ترين أي شيء.. وعبر الزجاج تتراقص ظـلال المساء القاتمة تلك المسوخ الشكسة الدهماء من الشياطين السود والذئـاب السود، ثم تشعريـن شيئاً يدغدغ خدك.. قبلة صغيرة مثل عش عنكبوت طائش يجري على عنقك..

فتحنين رأسك وتقولين: أبحث عنه/.

هيمنة المرأة المُلهمة

ويمكننـا اكتشـاف سحريـة الحب في مسرحية ألبير كامو /صلاة إلى بتول/

في هـذه المسرحية يطـرح كامو قضية الحب والموت بشكل إنساني مؤثر

وهـي مـن المسرحيـات التـي تطـرح الحساسية العاليـة في علاقة حب عميقة، ولكن الشـاب يقلقه دوماً الموت الذي يبعده عن حبيبته.

البطل ينتابه قلق وجـودي، وهو يتخيل موتـه، والابتعاد عن حبيبته، وفي هذا القلق ينادي

/دييجـو/ حبيبته: إننـي أكره جمالك لأنه سوف يحيا بعد موتي... ملعون هو لأن غيري سيتمتع به... لن أكون وحدي هناك... ماذا يهمني من حبك إن لم يتعفن معي.

الحياة تقترن هنا بوجود مَن نحب، وإذا خلت الحياة من الحب، خلت من الدفء.

يقـول دييجو: لا أريـد أن أموت وحدي وأغلـى شيء عندي في العـالم يشيح بوجهه عني ويرفض أن يتبعني.

وتأتي الإجابة، فتقـول فكتوريا جملتها الرائعـة: إذا كان يجب أن تموت يا حبيبي، فإنني أحسد حتى الأرض التي سوف تقترن بجسمك.

والحب يضفي سحرية حتى على المكان الذي يسكنه من تحب ويضفي سحرية على كل ما يفعـل، ففي روايـة مرتفعات وذرنغ تصـف كاترين هذا الحـب في أكثر المقاطع إشتعالا:

/أحب الأرض تحت قدميه، والهواء فوق رأسـه، وكل شيء يلمسه، وكل كلمة يقولها..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أحـــب كل نظراتـــه وكل أفعالـــه، أحبه بكل مافيه، أحبه بمجمله/.

شعرية اللقاء

يقول المظفر الأعمى:

قبلته فتلظى جمر وجنتِهِ
وفاح من عارضيه العنبرُ العبقُ
وجال بينهما ماءٌ ولا عجب
ولا ينطفي ذا ولا ذا منه يحترقُ

ويقول الشيخ عزّ الدين الموصلي:

كالزرد المنظوم أصداغُهُ
وخده كالورد لما ورد
بالغت في اللثم وقبّلته
في الخد تقبيلاً يفك الزرد

ويقول ابن صابر:

قبلت وجنته فألفت جيده
خجلاً وماس بعطفه المياس
فانهلّ من خديه فوق عذاره
عرقٌ يحاكي الطلَّ فوق الآس
فكأنني استقطرت ورد خدودِهِ
بتصاعد الزفرات من أنفاسي

المرأة وقوة العاطفة

هل سيكون بوسعها أن تعيش يوما يكون فيه ابنها غائبا عن الحياة، وأي حياة جافة ستكـــون تلك التي لا تتفـــوح برائحته، كأنها تعيش فقط من أجل أن تراه كل يوم وتطمئن على وجـــوده سليما، وعندما يغيب يوما عن البيت، تلبث مستيقظـــة، مشتتة الذهن إلى أن يعود.

لم يسبق لها أن ذاقت لذة النظر إلى وجه مخلوق كما تتذوقه وهي تضع أنظارها على محياه، كأنه سيهـــرب بعد لحظات ولن تراه ثانية.

تأنـــس حواسها لرائحتـــه، ترتاح أذناها لسماع نبرات صوته.

عندما يكون نائما، تنظر إليه بعمق كأنها تنظر إليه أوّل مرة،

عندمـــا يكون جالسا، لا تملك نفسها إلا أن تنظر إليه،

عندمـــا يكون واقفا ولو بين مئة شخص لا يلفـــت نظرها غيره، حتـــى عندما يكون غائبا فإنها تسترجع نظراتها إليه، تسترجع رائحته، تستعيد نبرات صوته.

عندما بلـــغ الخامسة من عمـــره كانت أحيانا تحبسه في البيت حتى لايخرج، وكانت تتحجج بأنها تخاف عليه من عيون الحسّاد، لكـــن الحقيقة التي لاتملـــك أن تخفيها عن نفسها هي أنهـــا لاتحتمل غيابه ولو لساعة واحدة عندمـــا يلعب فيها مع أطفال القرية في الشارع.

– بونجغ، هل سينتهي كل هذا يا ولدي اليـــوم صباحـــا قال لهـــا الطبيب هذا

الكلام المزلزل، قـال الكلام الذي كان لابد أن يقوله حتى يخرج بونجغ من المشفى بعد مكوثه أسبوعاً من دون فائدة، فقد استفحل به الداء، وهـي ساعات معدودة يفارق فيها الحياة.

- لا أمل.. لا أمل

لفظهـا الطبيب وهو يدرك مدى وقعها على أقرب الناس إليه، ثم ما لبث أن أضاف بسحنته الجادة: أقـول هذا الكلام حتى لا ترهقوا أنفسكـم بأخـذه إلى أماكن أخرى للعلاج، أقول لكم بأسف أن كل شيء انتهى، هذه هي الحقيقة وليس أمامكم غير الرضاء بواقع الأمر.

لحظتـذاك خارت بجسدها المنهك على سريره وهي تطبع قبلاتها الدافئة على يديه الباردتـين لتعود بها الذاكـرة ثلاثين سنة، إلى اليوم الأول الـذي أخبرتها الطبيبة فيه بأنها تحمل ذكراً بعد ست بنات، الحلم الذي تحقق أخيراً.

يومها لم تملك نفسها من الفرحة فراحت تضـم الطبيبـة إلى صدرهـا وتقبلها على رأسهـا، ثم خرجت وهي تنذر خروفين توزع لحمهما على سكان القريـة إذا ولد المولود بسـلام، وعندمـا وصلـت إلى البيت قالت لبناتها وهي تخبرهن النبأ بأنها أيضاً سوف تمشي حافية القدمـين إلى قرية /حانون/ التي تبعد مسـير خمس ساعات عن قريتها وتعود سيراً على الأقدام.

بعد ذلك غـدت كل مطلع شهر تمضي يوماً كاملاً في الذهـاب والإياب حتى تأتي المدينـة لتراجـع طبيبتهـا وتطمئـن على صحته.

وفجأة، قبـل الأوان، ذات ليلة عاصفة بالغـة البرودة أحست بأنهـا ستضعه، ظنت أنها في حلم، فهي للتو دخلت الشهر الثامن، ولم تمضـ ساعة حتى مـلأ صراخه البيت، البنـات الست تحلقن حوله، ورغبن فيما لو كان الأب حاضـراً ليشاركهـن فرحة سماع نبرات المولـود الأولى، كان لسوء حظه يبيت الليلـة في بيت أحد أخوتـه في المدينة، ولم يخطر في باله أن ابنـه المنتظر سوف يفتح عينيه على العالم هذه الليلة.

قالت: أريد أن أزداد يقينا، هل هو حقا ولد؟

ولد يا أمي.. إنه ولد.

قالتها ابنتها الكبرى /كنز/ المتزوجة في القرية نفسها ملء الفم.

ثم راحت تنظـر إليه كأنها أصبحت أمّاً لأول مرة.

عندما عـاد الأب ظهيرة اليـوم التالي، أطلق عليـه الاسم الذي سوف يلازمه مدى الحياة: بونجغ.. إنه بونجغ. وراح يقبل بناته

واحــدة تلــو الأخرى قائلا: أصبــح لكن أخ سوف يحميكن، أصبح لأبنائكن خال.

وعند الصباح ذبح عجلا ودعا كل سكان القرية لتناول الغذاء احتفالا بقدوم بونجغ.

بدأ بونجغ يكبر يوما بعد يوم على يديها. وهــي متفرغة لــه دون أن يشغلها أي شيء عنه، وقد خصصت دفتراً كتبت اسمه عليه، تكتـب فيــه كل مرحلة من مراحــل حياته، وتأخذ صورة له في تلـك المرحلة تضعه في ألبوم خاص بنموه.

في الشهــر الأول كانت تنظــر إلى يديه القريبتين من بعضهما، وتشابك أصابعه.

في الشهر الثاني بدأ يرفع رأسه، وينظر إلى الحركات من حوله، وترتسم على شفتيه بسمة صغيرة.

في الشهر الثالث يحرك قدميه، ويمصُّ أصابعه، يكثر البكاء.

في الشهر الرابع يرفع رأسه بشكل جيد، ويريــد أن يتحرك في محاولــة ليتقلب على يمينه أو يساره، يضحك بصوت ملفت.

في الشهر الخامس يستقيم ظهر بونجغ وهــي تحاول أن تجلســه، يحدق في الوجوه وكأنه يبدأ في تمييزها.

في الشهــر السادس ينقلــب على بطنه ويحــاول أن يرفــع جسده بوساطــة يديه، وتتشكل أسنانه اللبنية المؤقتة.

في الشهــر السابــع توقفــه على قدميه فيلبـث واقفــا بمساعدتها، ينتــزع الدمى والألعاب من يديها، وتسمعه لأوَّل مرة يلفظ: مم.. أي.. آه.

في الشهــر الثامن توقفــه على قدميه، وتدعه لبريهات فيميــل، تمد يديها لتسنده وهـــي تدربه على الوقوف، يعتمد على يديه في مسك زجاجة الحليب، ينقلها من يد إلى أخرى.

في الشهر التاســع يزحف بونجغ بشكل جــدي على يديه وقدميه، يقــول: ما.. با.. دا.

في الشهــر العاشــر يقف علــى قدميه بمساعــدة أقل منها، يحــاول أن يقلدها في بعض الحركات، يبحث بيديــه عن الدمى والألعاب.

في الشهــر الحادي عشــر تمسك به من الخلف فيمد خطواته نحو المشي وهو يقول: ماما.. دادا.

تضع خيطــا في أسفــل قدميه ليقطع الخيط ويمد خطواتــه، وتفرّق السكر على أطفال القرية بسخاء.

بعــد شهر يمــدّ خطوات المسير بشكل أفضل ويبتعد عنها، يرفع الملعقة ويأكل بها، ويصفق لأول مرة.

في الشهــر الخامس عشــر يرفع جسده

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إلى الأرجوحة، وينزل منها، يصر على بعض الأشياء التي يريدها.

بعـد ثلاثـة شهـور يركض بونجغ في الحوش، يسمي بعض الأشياء التي يراها.

كل هـذا ونساء القرية يقلـن أن ونيسة تربي ابنها في عينيها ولاتدعه يطأ الأرض.

حتى إن فطينة التي /بها العين/ كما هو شائع في القريـة لم تتمكن من أن تنظر إليه قبل بلوغه السادسة من عمره، كانت عندما تضطر لإخراجه من البيت، حتى يذهب إلى المدرسة، تمدّ رأسهـا إلى الشارع، فإن رأت فطينـة تجلس أمام أحـد الحيطان، عادت وجعلت إحدى بناتها يراقبنها إلى أن تذهب إلى البيت حتى تخرج به.

عندما حصـل بونجغ على /البكالوريا/ لم تستطـع أن تتخيل بأنـه سوف يذهب إلى مدينة أخرى ليكمل دراسته، فاضطر بونجغ أن يذعن لها عندما رآها على وشك الانهيار وهو يلمّح للسفر والدراسة.

وتذرعت بـأن البيت يحتـاج إلى وجود رجـل لأن الأب لم يعـد قادراً علـى متابعة أحوال الزراعة كما كان.

وعندمـا بلغ الخامسة والعشرين راحت تخطب له أجمل فتـاة في القرية حتى ترى أحفادها، وتطمئن بأن بونجغ قد استقر في الحيـاة وأصبح رجلا حقيقيا، وكان شرطها الأول على الفتاة أن تقبل العيش معه في بيت أهله من دون أن تطالب يوما ما الخروج من البيت.

وكما أنه تأخر في المجيء، فإن حفيدها منـه أيضا جعلها تنتظـر أربع سنوات حتى تراه.

سنوات طويلة حافلة بالأحداث والوقائع مضـت كأنها كانت غفوة ظهيرة، الآن سوف يرحل بونجغ عن الحياة برمتها، يرحل كأنه لم يكن.

لم يكـن أمامهم إلا أن يجلبوه من المشفى حتـى يقضي في البيت كمـا نصح الطبيب المشرف على علاجه، وقال بأن ذلك لايتجاوز صبـاح الغد بحسب الحالات المتشابهة التي بلغت هذه المرحلة من الخطورة.

جلـس الجميـع في الغرفـة ذاتها التي يتمدد فيها بونجغ علـى فراشه في غيبوبة مـن دون أن يـدري ما يحـدث حوله، تأتي أخواته الست المتزوجـات لتطبع كل واحدة قبلـة على جبهته، ثم تقبله زوجته، ويضعوا طفله في حضنه.

عندمـا بلغت الساعة الثانية ليلا، ولبث بونجـغ دون حـراك، طلبت أمـه أن يخلوا الغرفة حتى تبقى وحدها معه، لم يكن بوسع أحـد أن يعصي الأمر، حتـى زوجها السيد عقيل لم يملك إلا أن يمتثل لهذا المطلب.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جلســت الأخوات الســت وزوجة بونجغ وطفله برفقة الأب عنـد عتبة باب الغرفة المحكـم، ليمضي الليل مــن دون أن يصدر منهــا صــوت، تبادلــت الأخـوات نظرات السؤال فيما بينهن، بينما السيد عقيل ينظر في الأرض من دون حراك، والزوجة تهدهد طفلها وتدندن له بحرقة تاركة الدموع تسيل على خديها.

بعــد قليل ومع بــزوغ الشفق لفت سائل أحمــر اللون أنظارهــن، يرافق ذلك صدور أصوات من الغرفة المحكمة.

رفــع الأب رأسه لــيرى السائل الأحمر يتسرب من تحت باب الغرفة المغلق.

تتالــت الطرقات على الباب من دون أن يجيب أي صوت، ومع تصاعد الحركات غير المألوفــة وتسرب السائــل الأحمر من تحت الباب لم يبق أمام السيد عقيل إلا أن يحطم الباب ليلج الجميع دفعة واحدة ويقعوا على منظر رهيب، كانت السيدة ونيسة قد بترت أذنيهــا ووضعتهما على أعلى اللحاف الذي يتغطــى به ابنها، وتــدور على شكل حلقات بالدم حوله قائلة بشكل نحيب رافعة كفيها إلى الأعلــى: يا رب، إنــه ابني الوحيد، خذ عمــري بدلاً عنه، يــا رب اجعلنــي قربانا لبونجغ.

كانــت تلــك اللحظــات هــي الأخيرة والحاســمة بالنسبة لحياة بونجغ، فقد طلع الضوء، وحان موعــد الفراق، والأم شاحبة ينــز العرق والدم منها، تــدور بجدية بالغة كأنها في حالة عبادة من دون أن يجسر أحد علــى الدنو منها، وبونجغ يرقد وسط دوائر الدم والعرق.

عند سماع الأصوات المفزعة من الغرفة، فتح بونجغ عينيه كأنــه يفتحهما لأوّل مرة ليرى نفسه في ذاك المشهد، عند ذاك هدأت الأم وهي ترى عينيــه المفتوحتين لأوّل مرة منذ أسبوع، جمــدت في أرضها وهي تنظر إليــه، ثم بعد لحظات خــارت على ركبتيها وهــي تنظر إليــه مبتسمة، ثم مــا لبثت أن زحفت وطبعــت قبلتين على خديــه ناسية ما هــي به، كما نسي الجميع ماهي به وهم ينظرون إلى بونجــغ الذي تحرك قليلا وما لبث أن نهض من الفراش كأنه ليس مريضا وبــدأت العافيــة تعــود إلى سحنتــه، نسي الجميــع أمر الأم تمامــا لينشغلوا بما طرأ على بونجغ من تغيير مباغت.

وقــف بونجــغ على قدميه قائــلا بأنه لايشعر بأي أعراض مرضية، ثم طلب كأس ماء مــن أخته الصغرى لأنــه يشعر بعطش شديد.

عنــد ذاك رفعت السيــدة ونيسة يديها إلى السماء قائلة: يارب لاتحرمني من رؤية بونجغ بعد أن عافيته.

سيكولوجية المرأة

الذكـر هـو كائن ذكـر بـكل مقومات وتفاعـلات وخصوصيات فحولـة الذكورة وخشونتهـا، كما أن الأنثى تمتاز بأنها كائنة مؤنثة بكل معـالم وخصوصيات رقة الأنوثة ونعومتها.

مـن هنا يمكن القول بأن مجرد المحاولة لإسقاط كل واحـد خصوصياته عنه ليكون متساويـاً مـع الآخر، هـو بالوقـت نفسه محاولة لحرمان كل واحد من التمتع بمزاياه الاستقلاليـة والجمالية التـي يعيشها بكل انسجـام حتى مع خصوصية الحركات التي يتمتع بها والمختلفة عن الآخر.

فإن تساوى صوت المرأة مع صوت الرجل كان ذلـك بمثابة حرج لها، وإن تساوى شعر المرأة مـع شعر الرجل، أضفـى ذلك عليها نوعـا من الرعونة، وإن نبتـت للمرأة لحية وشارب لتحولت إلى كائن فاقد لكل مقومات الأنوثة.

وكذلك من هنا فـإن التوافق الظاهري والسيكولوجي بين الرجل والمرأة هو محاولة لإلحاق الأذى بكل واحد منهما، لأن التوافق في هـذه الحال يحـرم المـرأة خصوصيتها التـي نشـأت عليها، وكذلك يحـرم الرجل الخصوصيـة التي جُبل عليهـا. ومن جهة أخرى فـإن مثل هذا التوافـق وحتى يكون متبادلاً فيجب على الرجـل أيضا أن يكون متساويـا مع المرأة، وهـذا ما لايمكن له أن يحـدث، كما لاتتوافر المقومات التي تساوي المـرأة بالرجل من حيث مشاعـر الأمومة، وفيض الحنان.

إذن، فالرجـل هو الأصل، أي إنه الكائن البشـري الأول الذي فتح عينيه ليرى الحياة ويعيشهـا مـن دون أن تكون ثمـة امرأة في الوجـود علـى الإطلاق كما هـو معلوم في غالبية المعتقدات البشرية.

فالرجـل وبناء على هـذه الأسبقية في الحيـاة يشعر بمسؤولية تجـاه المرأة وكأنها ابنتـه، ويمكن ملاحظـة روح العلاقة هذه مـن خلال علاقـة الأب بابنته، فهو يعطف عليهـا ويكون قلقا علـى مستقبلها ويوليها عنايته أكثر مما يفعـل بالنسبة لابنه. فهي هنا إضافة إلى كونها كائنة مجزأة منه، باتت قطعـة من فلذة كبده بشـكل مباشر فيأخذ العطف الأبـوي ذروة أبعـاده بما لايحظى به الولد الذكر بأي حـال. وإذا كان الرجل عندمـا يتزوج يريد أن ينجب ولداً ذكراً أوَّل الأمـر على الأقل، فإن المرأة تريد أن تنجب ابنة على الأقل في الولادة الأولى، وقد سألت زوجتي -ومـا نزال في الشهـور الأولى من زواجنـا- إن كانت ترغـب في ولادة ابن، أم ابنة؟ فلم تتردد مـن القول بأنها تريد ابنة.

وحتى في أسفارنا الكثيرة التي نقوم بها فإنها كانت تؤثر شراء الدمى التي تكون على هيئة طفلة صغيرة جميلة.

ثم تتحدث معهـا وكأنها طفلتنا بالفعل. بيـد أن الرجـل لايفعل ذلك لأمـر بسيط وهـو أنه لايشعر بعاطفـة الأمومة، كما أنه لايشعـر بعاطفة الأبوة قبل أن ينجب ويغدو أبـاً بالفعل، بيد أن المرأة تشعر بها وتعيشها حتى قبل أن تكون أمّاً، وقبل أن تكون زوجة كذلك، فهي تقوم بشراء مثل هذه الدمى وهي ماتزال في العقد الأول من عمرها. وتستمر معها هذه العاطفـة وهذا الاهتمام بالدمى حتى لو بلغـت العقد السابع من عمرها إذا لبثـت من دون زواج، أو إذا لم تنجب وتصبح أمّاً. في حين أنها تكف عن شراء الدمى منذ الشهور الأولى التي تصبح فيها أمّاً حقيقية لأنه سيكون قد جاء من كانت ترمز إليه تلك الدمى خـلال كل تلك السنوات وأنه بالفعل أبطل مفعولها.

المرأة وخصائص البقع الجغرافية

المرأة هي ابنـة الواقع الذي تعيش فيه، وهي تكتسب معـالم شخصيتها من التركيبة الاجتماعيـة التي تنمـو عليها، ولذلك نرى تفاوتاً بين المـرأة في المجتمعات التي تعيش على شرق الكرة الأرضية، والمرأة التي تعيش على غربها.

أجـل فإن الشرق شـرق، والغرب غرب، لكل بقعة منهمـا خصائصهـا وجمالياتها وتركيباتهـا الاجتماعية، بل حتى الحيوانية والنباتيـة، والطقسية، وهذا يقدم حالة من الغنى للمجتمع الإنساني.

إذن، أي محاولـة للسعي سواء إلى ذوبان الشرق في الغرب، أو ذوبان الغرب في الشرق هي بالاتجاه ذاته محاولة لإلغاء هذه المزايا، والخصائص، والجماليـات التي يمتاز بها كوكـب الأرض، وهي خسـارة فادحة لأبناء الشرق، وأبناء الغرب معـاً إضافة إلى أنها خسـارة للأرض ذاتها لأنهـا ستكون فقيرة ومقتصـرة على اتجاه واحد في نمط العيش والتفكير.

لذلك فحتـى روح الطبيعة مشتركة مع فطرية الإنسان ترفضـ أيَّ مسعىً للمضيّ في هـذا الاتجاه مهما بلـغ ذاك المسعى من قوة ومن جبروت لأن أي إنسان ومن أيّة بقعة كان فإنـه في النهاية لايملـك إلا أن ينتمي إلى أصلـه لأنـه ببساطة لايملـك أن يغير خصائص ومزايا وجماليات، وحتى مورثات ذاك الأصل الذي تشكل منه وهناً على وهن، وكذلك قوة على قوة.

يهمنـي أن يكون الحديـث مركزاً هذا الفصـل عن واقـع الحياة اليوميـة للمرأة التـي شاءت لها الظـروف أن تولد في بلاد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الشرق وتقطن هذه البلاد وتعيش كل أواصر العلاقــات الحميمية وغــير الحميمية مع دفء وبرد الرجل الشرقي.

إنها المرحلة التي يمكن اعتبارها: نقطة التحول الكبرى في حياة المرأة الشرقية.

أعني اعتباراً من النصف الثاني للقرن العشرين، مع بدايـات تسرب ثورة التقنيات الكـبرى إلى بقـاع الشرق حتـى أخـذت تتـدرج في شكلها المعـروف بالنظام العالمي الجديـد، وأخذ هذا النظـام يتفاعل رويداً رويـداً - شئنا أم أبينـا - في مختلف أنحاء العالم، بيد أنه أخـذ يتفاعل بصورته الأكثر سلبيـة في بقـاع العالم العربـي، إذ إن أبناء هـذا العالم رضخـوا لهيمنته بصـورة غاية في الوهـن إلى درجـة أن البعض بات على وشك أن يتخلى عـن أي خصوصية تربطه بواقعه وأصوله وتركيبته الاجتماعية، بعكس غالبية المجتمعات الأخرى ومنها المجتمعات اليابانية التي لم تتزحزح التقاليد اليابانية في ذواتها رغم ترحيبهـا بسيرورة هذه العولمة، بل سعت لأن تكون مؤثرة وفعّالة فيه وكذلك مضيفة بصمة لها فيه، فلبث هذا الشخص في جـذور محليته، من دون أن يكون مهمّشاً من بريـق العالمية، وهنا باعتقـادي يتبلور النظـام الإنساني العالمـي ويستمد شرعيته العولمية، لكن هل هـي مشكلة هذا النظام، أم هي مشكلة أبنـاء بعض المجتمعات التي لاترغب في أن تساهـم فيه، بل تتجرف في تياره حيثما مضى.

نحـن نتحدث عن تركيبـات ومعتقدات وتقاليد مجتمعـات الكرة الأرضيـة ولسنا بصـدد التأييد أو الإدانة لهـذا المجتمع أو ذاك فالأمر مختلـف كل الاختلاف بالنسبة للمجتمعـات التي تعيش علـى غرب الكرة الأرضيـة، فمثلا يمكـن أن تجد في مجتمع غربي ما تقتضـي فيه التركيبة الاجتماعية تعدد العلاقات العاطفية والغرامية بالنسبة للفتـاة حتى تكون مؤهلـة وصالحة للزواج، فالفتـاة تتباهـى أمام حبيبهـا أو خطيبها الجديد بتعدد علاقاتها العاطفية والغرامية السابقة، وهو كذلك يتقبل هذا الأمر ويرى بأنها أصبحـت مؤهلة لفتح بيت وبناء أسرة والإخلاص كل الإخلاص له على خلفية تلك العلاقات التي انتهت بالفشل.

ثم قد ينتابه شعور بالبطولة لأنه استطاع أن يحظى بهذه المرأة التي لم يعجبها أحد من تلك العلاقات حتى توافق عليه زوجا غيره.

و على هذه الذهنيـة فإنه يقتنع بفكرة أن هـذه المرأة سوف تكـون رائعة ولا يمكن لهـا بأي حال مـن الأحـوال أن تخدعه أو تخونـه لأنها منذ البـدء كانت واضحة معه كل الوضوح، وأوصلته إلى قناعة بأنها سوف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تكـــون واضحة معه كل الوضوح في المستقبل ولن تخفي عنه شيئاً.

هـــذه هي العلاقات الكـبرى التي تبنى علـى الثقة الكبرى وعلى القناعة الكبرى في تلك التركيبات والتقاليـد الاجتماعية، فلو طلب الحبيب من حبيبته قبلة أو لمسة أو ما إلى ذلـك، ويراها تستجيب له، سوف تتعزز مكانتهـا في عاطفتـه مدركا مقـدار حبها العظيم له، وإلا لما منحته ما يريد رغم أنها في تلك اللحظة لا تريد، بل هي مستاءة من ذلـك، لكنها ترغب أن تقدم لـه شيئا يسره حتى لو كان هذا الشيء يمس عفتها.

هنا أيضا فإن ذاك الرجل من أبناء تلك التركيبة سوف لن يفـرط بهذه الفتاة تحت أي ظرف من الظروف لأنه لا يسمح لنفسه أن تنظـر إليـه ذات يوم نظـرة خائبة بأنه شخص مخادع.

هنا سوف يسقط هذا الرجل أمام ذاته وينهـار قبـل أن يسقط من عينـَي حبيبته السابقة، ثم ينهار أيضـا على أرض الواقع أمامها لأنه ببساطة شديدة إنسان مخادع ولا يستحق غير أن تنظر إليه نظرة مزدرية.

هنا وكما أن ذاك المجتمع الغربي لا يقبل تركيبـة مجتمعاتنا ولا عـادات أو تقاليد أو أعراف مجتمعاتنا لأنها لا تنسجم مع أسسه التربوية التي نشأ عليهـا فمن الطبيعي ألا تأخذ تلك التركيبات والخصوصيات مكانها في أعمـاق مجتمعاتنا لأنهـا لا تنسجم مع الذهنية التربوية التي نشأت عليها مجتمعاتنا وهذا أيضا لا يعنـي القطيعة بأي حال من الأحوال بل تعني اللقاء والمودة والصداقات الحميمـة العميقـة وتبادل الخـبرات بين مجتمعات الشرق ومجتمعات الغرب فكما أنه ليـس بالإمكان أن تشرق الشمس من الشرق وتغرب في الشـرق أيضا وليس بالإمكان أن تشرق الشمس من الغرب وتغرب في الغرب أيضـا فليس بالإمكان إلغـاء ثنائية الغرب والشرق أو محاولـة توحيدهما واحدة على حساب إلغاء الأخرى.

الـزواج وشراكـة الحياة بـين شخصين علاقة جوهرية أكـثر منها علاقة ظاهرية، تتزاوج ذرات المرأة بـذرات الرجل وتتزاوج ذرات الرجل بذرات المرأة فيقبلان أن يكونا زوجـين في الظاهر أيضا ويعلنا هذا الزواج فقط ليعلم الآخرون وحتى يمكن لجسديهما أن يعـبرا عن قـوة ذاك التـزاوج الروحي، ولكنهما قبل ذلك يكونا قد تزوجا حتى لو لم ير أحدهما الآخر قط.

وعلـى قـدر مـا يكـون ذاك التزاوج الروحي قويا فإنه يبث القوة ذاتها في تلاحم الجسدين، فالعينان تـأكلان العينين نظراً، واليدان تأكلان اليدين مصافحة، والفم يأكل

الفم قبلات، والجسد يأكل الجسد التحاماً في حالة تبلغ ذروة في الشوق والدموع وانفجار عبارات الحب السحريـــة التي لاتحضر إلا في لحظات روحيـــة متقدمة كهذه من عناق الذكورة والأنوثـــة واكتمال أحدهما بالآخر، وعلـــى قدر ما يكون هذا التزاوج واهناً فإنه يبعث البرودالروحي والجسدي فيهما فيكون الجسد بـــارداً في احتضان الجسد حتى في حالة خالية من أي ذرة إثارة وإن كان الجسد مستلقيا في حضن الجسد منذ دهر.

فترى زوجـين ولهما أطفـــال بيد أنهما غير متزوجين ولم يتذوقا لحظة من لحظات عسل الزواج.

في مسألة الزواج عليك أن تعتمد بشكل أولي علـــى حواسك وقلبك وعقلك أكثر مما تعتمـــد على أي اعتبار آخـــر أو أي شخص مهما كان مقربـــا منك لأنه ليس من مقرب إليك أكثر منك.

مراحل ومنعطفات في تاريخ المرأة

مـــرت المـــرأة بالكثير مـــن الأحداث في مختلـــف الأحقاب البشرية، تلـــك الأحداث التي جعلت من شخصية المرأة أكثر غنى.

رُوي عن ابن عباســـ -رضي الله عنه- أنـــه قال: «كانت الحامـــل إذا قربت حفرت حفرة فمخضـــت على رأس تلـــك الحفرة، فإذا ولدتْ بنتاً، رمت بها في الحفرة، وردت التراب عليها وإذا ولدت ولداً جلبته».

ويُـــروى في كتـــب الـــتراث أن أبا حمزة الضبـــي قد هجر خيمـــة امرأته وكان يقيل ويبيـــت عند جيران له، حـــين ولدت امرأته بنتاً، فمـــر يوماً بخبائهـــا وإذا هـــي ترقص ابنتها وتقول:

مـــا لأبـــي حـــمـــزة لا يـــأتـــيـــنـــا
يـــظـــل في الـــبـــيـــت الـــذي يـــلـــيـــنـــا
غـــضـــبـــان أ لاّ نـــلـــد الـــبـــنـــيـــنـــا
تـــالله مـــا ذلـــك في أيـــديـــنـــا
وإنـــمـــا نـــأخـــذ مـــا أعـــطـــيـــنـــا
ونـــحـــن كـــالأرض لـــزارعـــيـــنـــا
ننبت ما قد زرعوه فينا.

وحتى في المجتمعات الأخرى لم تكن أفضل حالاً فقد عبّر سقـــراط عن مفهوم مجتمعه قائلاً: «إن وجود المرأة هو أكبر منشأ ومصدر للأزمـــة والانهيار في العـــالم، إن المرأة تشبه شجرة مسمومة ظاهرها جميل ولكن عندما تـــأكل منها العصافير تموت حـــالاً». أما في عهد الإمبراطورية الرومانية فكانوا يعذبون النســـاء بسكب الزيت الحار على أجسادهن تارة، وأخرى بربطهن بذيول الخيول الماهرة وجرهـــن. وفي الهند فـــإن عقيدة /سانتي/ تقضي بموافقة المرأة التي مات زوجها على حرق جسدها بجانبـــه وإن رفضتْ ستكون شاذة ومذمومة حتى من أقرب الناس إليها.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفي الصين فقد تمّ تلخيص المرأة بأنها مثل /المياه المؤلمة/. وعقيدة /نيوك/ تقول بأن على المرأة أن تضطجع مع غير زوجها حتى تنجب الأولاد. أما في عقيدة /بها كوداكينا/ يقول السير بندرا كان: « يرون المرأة ما هي إلاّ تجسيد لـلأرواح «الخبيثة المجرمة التي ولدتْ على هيئة امرأة».

وفي كتابها «وضع المـرأة في مها بهارتا» تقـول أنديرا: «تشبه المـرأة بالسيف الحاد إنها تولد النيران ومن أجل هذه الخصائص على الرجل ألاّ يحبها ولا يعشقها أبداً».

ولبث الأمر على ماهـو عليه حتى عند المجتمعـات اليهوديـة التي نظـرت للمرأة الحائض على أنها نجسـة وأنها تنجّس كل ما تلمسه حتـى إذا كان حيواناً، والمرأة هي المسؤولـة الأولى عـن أي عمل غير أخلاقي يقوم بـه الرجل، وفي هـذه المعتقدات فإنه يجوز للأب مثـلاً أن يبيع بناته بيع الرقيق، وفي حـال الولادة فإن عليهـا تقديم ذبيحة تكفـيراً عـن نجاستهـا بعد مـرور أربعين يومـاً للمولود الذكر وثمانـين يوماً للأنثى. وهذا ذاته استمـر، فهي المسؤولة وفق هذه الأعراف الظالمة عـن كل خطيئة للإنسان، ففـي خطابـه إلى النساء يقـول ترتولين: «يستمر إلى اليوم توبيخ الله لكن ولجنسكن عامة، وعلى هـذا يجب أن يبقى في نسلكن الشـر والحقد. أنـتن أيتهـا النساء مدخل الشيطـان، أنـتن اللاتي قطفـتن من ثمار تلك الشجرة الممنوعة، أنتن اللاتي حطمتن القانون الرباني، أنـتن اللاتي خدعتن آدم، وذلك قبل أن يبـدأ الشيطان حملاته، أنتن اللاتي أضعتن أسماء الله بسهولة كاملة من طبيعة البشر، وإن شقاء الموت يرجع لعملكن القبيـح، وحتى مـوت النبـي عيسى يرجع لعملكن الشنيـع». بالطبع فإن مانلمحه من مظاهر حول حرية المرأة هي في واقع الأمر قشور أو وسائـل لاستغلال المرأة في قضايا الإعلان والاقتصـاد والابتزاز، بحيث تبقى هـذه النظرة ثابتة في الأعمـاق وعلى ذلك يخاطب القديس بولس عامة مريديه بقوله: «دعوا المرأة تتعلم السكوت والهدوء أمام كل المصاعب والمتاعب التي تتحملها، ولكنني لا أتمكـن أن أصمت أمام امـرأة تتسلط على زوجها، لأن أوّل خلق كان آدم، ومن ثم خُلقتْ حواء».

يُروى أن رجلا أراد أن يختبر ذكاء زوجته فقال لها وهي صاعدة السلم: أنت طالق إن صعدت، وطالق إن نزلت، وطالق إن وقفت.

فشردت المرأة قليلا ثم رمت نفسها على الأرض.

دُهش زوجها وقال: فداك أبي وأمي، إن

مات الإمام مالك احتاج إليك أهل المدينة في أحكامهم.

ويحكى أن هنداً ابنة النعمان كانت أحسن أهل زمانها، فوُصف للحجاج حسنها، فأنفذ إليهـا يخطبها، وبذل لها مالاً جزيلاً إلى أن تزوج بها، وشرط لها عليه بعد الصداق مئتي ألـف درهم، ودخل بها ثم إنها انحدرت معه إلى بلـد أبيها المعرة، وكانـت هند فصيحة أديبة، فأقام بها الحجاج بالمعرة مدة طويلة ،ثم إن الحجاج رحل بها إلى العراق، فأقامت معـه ما شاء الله، ثم دخـل عليها في بعض الأيام وهي تنظر في المرآة وتقول:

ومـاهـنـد إلا مـهـرة عـربـيـة
سـلـيـلـة أفـراس تـحـلـلـهـا بـغـل
فـإن ولـدت فـحـلا فـلـلـه درهـا
وإن ولـدت بـغـلا فـجـاء بـه الـبـغـل

فانصرف الحجاج راجعا ولم يدخل عليها، دون أن تعلم بـه. وأراد طلاقها فأنفذ إليها عبـد الله بن طاهر، وأنفذ لهـا مئتي ألف درهم وهي التي كانت لها عليه، وقال: يا بن طاهر طلقها بكلمتين ولا تزد عليهما.

دخـل عبد الله بن طاهـر عليها، فقال لها: يقول لك أبو محمد الحجاج: كنتِ فبنتِ، وهذه المائتا ألف درهم التي كانت لك قبله، فقالت: اعلم يا ابن طاهر، إنا والله كنا فما حمدنا، وبتنا فما ندمنا، وهذه المائتا درهم التي جئت بها، بشارة لك بخلاصي من كلب بني ثقيف.

ثم بعد ذلك بُلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها ووُصف له جمالها، فأرسل إليها يخطبها، فأرسلت إليه كتابا تقول فيه بعـد الثناء عليه: اعلم يا أمـير المؤمنين إن الإناء ولغ فيها الكلب.

فلمـا قرأ عبد الملك الكتاب ضحك من قولهـا وكتب إليها يقـول: إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعا، إحداهن بالتراب، فاغسلي الإناء يحل الاستعمال.

فلما قرأت كتابَ أمير المؤمنين لم يمكنها المخالفة، فكتبت إليه بعد الثناء عليه: يا أمير المؤمـنين والله لاأحل العقد إلا بشرط، فإن قلـت ما هو الشرط قلـت أن يقود الحجاج محملـي من المعرة إلى بلدك التي أنت فيها، ويكون ماشياً حافيـاً بحليته التي كان فيها أولا.

فلمـا قـرأ عبـد الملـك ذلـك الكتاب ضحك ضحكاً شديـداً، وأنفذ إلى الحجاج وأمره بذلـك، فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجـاب وامتثل الأمـر ولم يخالف، وأنفذ إلى هند يأمرهـا بالتجهز، فتجهزت وسـار الحجاج في موكبـه حتى وصل المعرة بلد هند، فركبـت في محمل الزفاف، وركب حولها جواريهـا وخدمهـا، وأخذ الحجاج

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بزمـــام البعير يقوده ويشير بها، فجعلت هند تتواغد عليه، وتضحك مع الهيفاء دايتها، ثم إنهـا قالت للهيفاء: يادايـة اكشفي لي سجف المحمـل، فكشفتـه، فوقع وجههـا في وجه الحجاج فضحكت عليه، فأنشأ يقول:

فإن تضحكي مني فيا طول ليلة
تركتك فيها كالقباء المفرج

أجابته هند تقول:

وما نبالي إذا أرواحنا سلمت
بما فقدناه من مال ومن نشب
فالمال مكتسب والعز مرتجع
إذا النفوس وقاها الله من عطب

لم تـزل كذلـك تضحك وتلعـب إلى أن قربت من بلد الخليفــة، فرمت بدينار على الأرض، ونادت: ياجمــال إنه قد سقط منا درهم فارفعه إلينا، فنظر الحجاج إلى الأرض فلم يجـد إلا دينارا فقال: إنمـا هو دينار، فقالت: بل هو درهم، قال: بل دينار.

فقالــت: الحمد لله، سقـط منا درهم فعوضنا الله دينارا، فخجل الحجاج وسكت، ولم يرد جوابا، ثـم دخل بها على عبد الملك ابن مروان فتزوج بها.

المراجع

١- الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص١٠٤.
٢- مـن المستطرف في كل فـن مستظرف – شهاب الدين أبي الفتح محمد بن أحمـد الأبشيهي السفر الثاني –منشورات وزارة الثقافة السورية– دمشق ٢٠٠٤م.
٣- قصة الإنسان – كارلتون كوون – ترجمة محمد توفيق حسين، وعبد المطلب الأمين – بغداد ١٩٦٥م.
٤- المرشد الأمين للبنات والبنين– رفاعة الطهطاوي –ضمن الأعمال الكاملة– جمع وتقديم محمد عمارة.
٥- تجلي الجميل –هانز جيورج جادامر– ترجمة سعيد توفيق المجلس الأعلى للثقافة– القاهرة.
٦- حول النقد النسوي –كاتريـن ستيمبسون– ترجمة سلافة الحجاوي– دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد ١٩٨٩م.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

النزعة الإنسانية في الفكر العربي المعاصر

(دراسة مقارنة بين التيارين الليبرالي القومي والتيار الديني)

د. ياسين حسين الويسي *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إن مــن المسلم به أن الأفــكار تختلف من شخص إلى آخر فمن يعتقد في فكــر معين لا يمكنه استساغة الأفكار المخالفة له فإذا كان هذا على مستوى الأفكار فكيف به على مستوى التيارات الفكرية الكبرى. لقد تقاسم الساحة الفكرية في مجتمعنا العربي تياران كبيران هما التيار الليبرالي القومي والتيار الديني. وهذان التيــاران لهما من الحضور ما يجعلهمــا مؤثران وبقوة في المجتمــع، ولكــن إذا ما أردنــا الحكم على أي فكر فإننــا نحكم عليه بمدى

* أستاذ في قسم الفلسفة - كلية الآداب الجامعة المستنصرية- العراق.

العمل الفني: الفنان محمد الوهيبي.

إنسانيته، لذا فإن بحثي كان دراسة أكاديمية مقارنة بين التيار الليبرالي القومي والتيار الديني وكيف عبَّر كل تيار عن إنسانيته، والسبل التي اتبعها كل تيار للتعبير عن إنسانيته.

على أنني لم أقصد بالتيار الإسلامي الحركات السياسية المتسترة بستار الدين وإنَّما قصدت بذلك الفكر النابع من صفو الإسلام وإنسانيته ومعبراً عن روح الإسلام وسماحته. وقد اقتصرت على البحث في سبل تعبير هذين التيارين عن إنسانيتهما لما لهما من حضور في حياة الإنسان العربي المعاصر السياسية ولأنهما حاضران بقوة في الساحة الفكرية العربية المعاصرة.

أما التيار الاشتراكي فهو متفاعل مع التيار الليبرالي ولذلك لم أتطرق إليه بشيء في هذا البحث.

تمهيد حول مفهوم الفكر العربي المعاصر:

إنَّ أولَّ ما نفترضه ونسعى لإثباته هو أنَّ الأفكار لا يمكن أن تكون واحدة فلكل إنسان أو جماعة طريقة معينة في التفكير (ولكي نفهم الفكر العربي المعاصر فهماً دقيقاً وشاملاً يكون من الأفضل في رأينا أن نحلله في إطار التحديات والمهمات التي واجهت المجتمع العربي، والتناقضات والصراعات بين طبقاته وجماعاته، والمواجهات التي كان ولا يزال يخوضها ((يتوارى عن خوضها)) في سبيل النهضة والتحرر وبناء مجتمع أفضل)[1].

وإذا كان للتفكير أنماط معينة فإن التفكير بصورة عامة هو(كل ما يدور في الذهن. إذ يقال أنماط أفكارك لا تساوي شيئاً في هذه الحالة، يتعلق الأمر ((بأفكار)) لا أهمية لها، دونما نتيجة منطقية ومجردة من الحقيقة)[2]. وإذا كان الفكر المعاصر يسعى إلى الربط بين ظواهر الطبيعة وبين الأفكار السابقة واللاحقة لاستشراف المستقبل فإنَّ هذا النمط من التفكير ليس ترابطياً بل فكر تأملي يكون فيه التسلسل الصحيح وليس المتابعة الحرفية. فالفكر الترابطي كما يقول هاملتون (هو ليس الفكر بالمعنى الدقيق)[3].

إذن، الفكر العربي المعاصر هو في حيز النمط التأملي من عملية التفكير وهذا النوع من التفكير لا يستلزم (تتابعاً للأشياء التي نفكر بها... لا يفترض التأمل وجود عدد معين من الأفكار المتتابعة ولكن من الأفكار المتعاقبة كنتيجة طبيعية، حيث تعتمد، على العكس، كل واحدة عن تلك التي سبقتها)[4] فقد يكون (بعضها غير مترابط وقد يكون البعض الآخر مفككاً. فعندما تكون

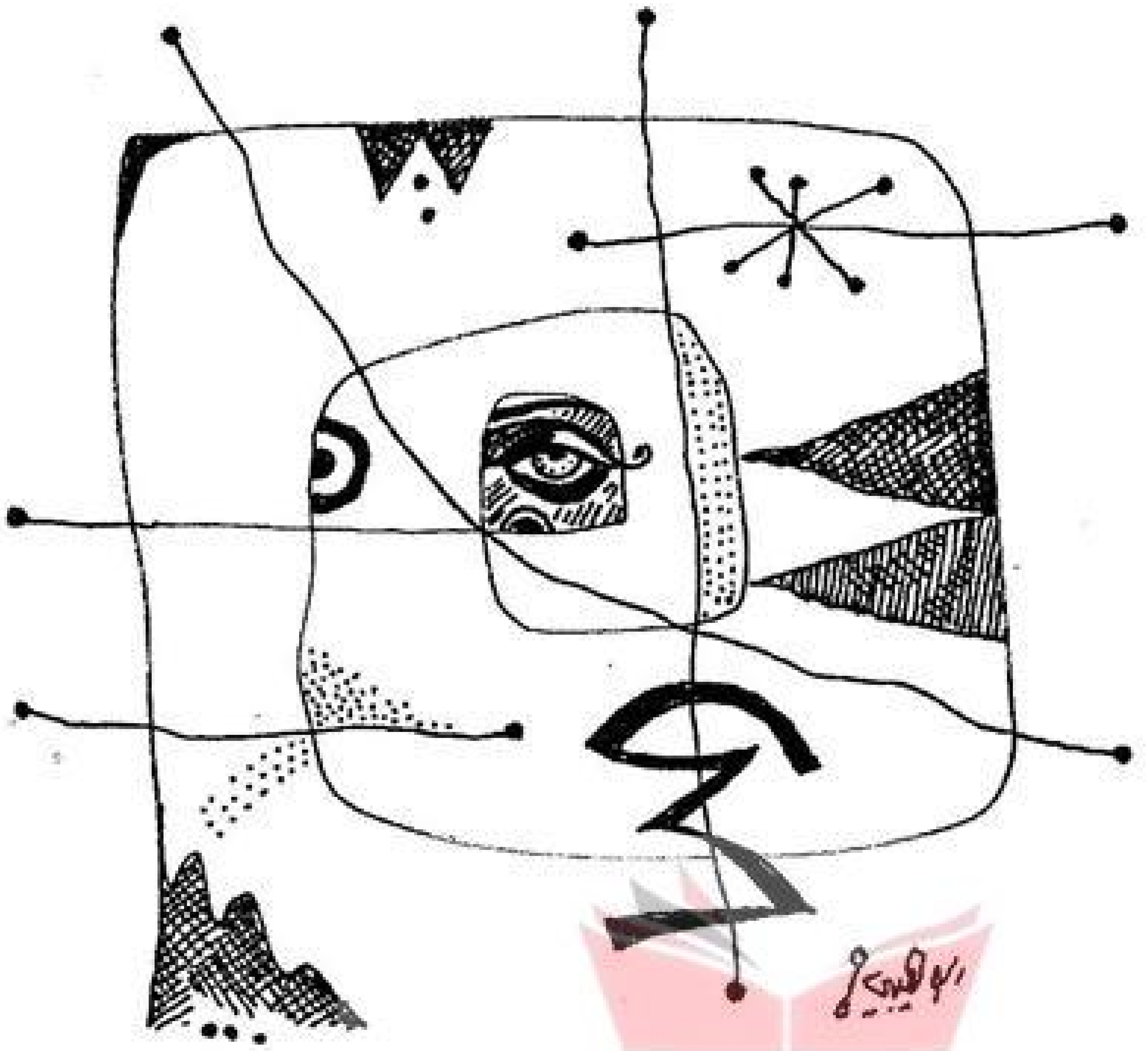

مترابطة فإنها تصنع الفكرة التأملية، التي تغذيها عادة العقلية المنطقيـة)[٥] وإذا ما عدنـا إلى الفكر العربي المعاصر فإنه كذلـك و(إذا كان ذلك صحيحاً، تكون الفرضية الأولى التي نتوصل إليها هي أن الفكر ليـس واحداً وأن لـكل طبقـة أو جماعـة وحركـة فكرهـا ومفكريها.. وأن لكل عصر تياراتـه الفكرية المحافظة، والليبرالية الإصلاحية، والتقدمية)[٦]

يعتبر هذان التياران الفكريان هما من أهم التيارات الرئيسيـة (المتصارعة في المجتمع العربي منـذ عصر النهضـة حتى عصرنا الحاضر)[٧]. ولقد كان من أهم الصراعات هو صراع التيارين الديني والليبرالي فبعد انهيار الخلافة العثمانية (انتهى الصراع بين فكرة الجامعـة الإسلامية وفكرة الوحدة القومية لصالح هذه الأخـيرة. ازداد التوجه الديني التقليدي والسلفي في المغرب العربي، ولكن ضعف في مصر والمشرق العربي حيث بدأت في الأوساط الفكرية سيطرت التيار القومي الليـبرالي - ونتيجة للاحتـلال الذي كانت تعيشه جميع الدول العربية- أصبح واضحاً أن عمليـة الاستقلال تقتضي حصول وعي قومي يتجاوز الولاءات الطائفية والعشائرية والمحليـة وتأسيس أحزاب ومنظمات شعبية وسياسيـة على تلك القواعـد بالذات التي جعلـت أوروبـة قويـة: الوحـدة والسيادة القومية، الديمقراطية النيابية، الدستورية، العلمنـة، والعلم وتحرير المرأة وحرية الفكر والحقوق الفردية)[٨].

أما التياران الليبرالي والتقدمي فقد صار بينهمـا تفاعلاً إيجابياً فقد (عبر عن نفسه

باتجاهين رئيسيين في الفكر العربي المعاصر، الاتجاه القومي والاتجاه الاشتراكي).[٩]

وسوف نتكلم عن إنسانية الفكر العربي المعاصر من خلال التيارين الرئيسيين الحاضرين بقوة.

المبحث الأول:

سبل تعبير الفكر الليبرالي القومي عن إنسانيته في الفكر العربي المعاصر.

لقد عبّر الفكر الليبرالي القومي العربي المعاصر عن إنسانيته من خلال أمور عدة أهمها: -

١- اعتماد الوسطية في التفكير.

فقد اعتمد التيار الليبرالي الوسطية بين التيار الإسلامي المتشدد الذي يعتبر أن الدين المصدر الوحيد للتشريع وبين التيار الاشتراكي الذي ينفي أيّ دور للدين في حياة الفرد والمجتمع (فمنذ القرن الثامن عشر ساهم مفكرو الثورة الفرنسية في تعزيز الاتجاه الربوبي (Dism) والذي ينطلق من الإيمان بوجود إله دون الأخذ بما تقوله الأديان بل استنادا إلى عقل الإنسان ذاته وتنامي هذا التوجه إلى أن انتهى لمبدأ فصل الدين عن الدولة غير أن فصل الدين عن الدولة لا يعني فصل الدين عن المجتمع فأصبحت الدولة القومية متحررة من منظومة قيم دينية تحدد لها سلوكها.. وقد فتحت هذه الجهود الباب واسعا أمام ظهور الدولة القومية بشكلها العصري، وترافق ذلك مع اكتشافات علمية أعطت الإنسان إحساساً زائدا بقدراته، وكان ذلك كله على حساب السلطة الدينية).[١٠]

لم يكن أمام الليبراليين الذين فصلوا الدين عن الدولة إلا أن يبحثوا عن مرجعية لهم تكون بديلا عن الدين فكانت القومية هي المرجعية والبديل لهم عن الدين (وقد مثلتها الناصرية على وجه الحصر والتحديد، لقد اهتزت المرجعية إياها بتصدع نظامها السياسي قبل ثلاثة عقود ونصف وإن كان وجهها المعنوي ما زال متقدا.. واليوم لا مندوحة من بناء مرجعية شعبية غير نظامية للحركة القومية تستند إلى قوة المجتمع المدني لا إلى السلطة).[١١]

ويمثل هذا الفكر اليوم حركات وشخصيات بارزة في الفكر العربي المعاصر.

٢. العقلانية والتركيز على العقل العربي والعقلانية

لقد شكلت كتابات الباحثين المحدثين العرب المعين الأساسي لدراسة العقل العربي أما العقل بصورة عامة فهو (توافق عقلي للظروف الجديدة... أو هو أساس الحاجات والمحاولات والأخطاء والتصديق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التجريبي... مع ذلك يبقى بالإمكان تعريف العقل عن طريق الاتجاه الذي يصوب نحو تقدمه، دون التأكيد على مسائل الحدود،التي أصبحت موضوع مراحل أو أشكال متتابعة للتوازن. عندها يمكننا التواجد بشكل متساوٍ في وجهات نظر الحالة الوظيفية والميكانيكية والبنيوية)[١٢] فالعقل العربي المعاصر يبدو منسجماً مع التعريف الأوّل حيث يعبر من خلال إنسانيته على التركيز على العقل وإيجاد توافق عقلي للظروف الجديدة،وبالتالي يكون له القدرة على الحكم الذي هو (تأكيد توافق الذات المفكرة مع الموضوع المفكَّر فيه فهو مرادفاً للتصديق)[١٣] من خلال توافق الفكر مع موضوعه، وانطلاقاً من إنسانية هذا الفكر حدد عدد من الباحثين إشكاليات العقل العربي، ومنهم من نقده، وهذه الإنسانية الفكرية حتمت ظهور ناقد لنقد العقل العربي. ولكن مع ذلك ظل حتى الناقد لهذا العقل وناقده يحددان إشكاليات هذا الفكر وهذه الحرية الفكرية منطلق كبير للتعبير عن إنسانية هذا الفكر كعنصر أول (والعنصر الثاني للمرجعية هو الخطاب القومي. في هذا الإطار يعالج زياد حافظ قضيتي الشكل والمضمون - فيرى- أن أحد مهام الخطاب القومي هو تجسيد الفكر ونقله إلى واقع ملموس)[١٤] إذاً نحن أمام عنصرين لعرض العقل العربي المعاصر الأول: حرية التفكير والثاني: حرية الخطاب؛ وأمام إشكالين في العقل العربي المعاصر، الأول: سيطرة الفكر التقليدي، والثاني: عدم دقة الخطاب وغياب الموضوعية.

٣- النزوع إلى القضايا البرهانية والعقلانية العلمية[١٥]

ظهر في الفكر العربي المعاصر الفكر التنويري وعقلانية المراجعين الجدد فقد (تراجعت نتاجات أهل العقلانية العلمية والأخرى التنويرية دون أن تختفي. فقد ظهرت لزكي نجيب محمود، ويحيى هويدي، وعزمي إسلام، ويوسف كرم، ونجيب بلدي وتلامذتهم نتاجات فلسفية معتبرة، اتخذت جانب العقلانية العلمية، فلسفة العلوم، دونما اهتمام كبير بأيديولوجيات التنوير. وفي العقود الثلاثة الأخيرة أقبل عبد الله العروي وفؤاد زكريا ومحمد عابد الجابري وناصيف نصار وحسن حنفي ومحمد جابر الأنصاري ومحمد أركون على اختلاف الاهتمامات والتركيز وتحت وطأة التيارات الإبيستمولوجية الجديدة، وتحدي الأصولتين الماركسية والإسلامية، وفشل التجربة الدولتيه العربية، على ربط العقلانية العلمية بالتنوير من جديد،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والقيام بتأويلات شاملة للإسلام في عصوره الكلاسيكيـــة)[١٦] ويشير رضـوان السيد إلى ارتباط مصطلـح العقلانية بمعانٍ ثلاثة في الفكـر العربي المعاصـر: (أول هذه المعاني اعتباره مرادفـة للمصطلح العلمي، والمعني بالعلم في السياقـات التي كانت تستخدمها مجلـة ((المقتطـف))، بـل واستخدامـات البستـاني في دائرة المعـارف ومحمد فريد وجدي أيضا في دائرة معارفه للقرن العشرين، كل هـؤلاء يعنون بالعلم والبحـوث العلمية في العلـوم البحتة والتطبيقيـة.. وقد صار العلم أوّل الأمارة علـى العلمية والعقلانية أو عدمهـا... والثـاني للعقلانية: الذي تلا المعنى الأول في الظهور ذو أبعاد أيديولوجية أوضح وهو أدنـى إلى الـ(Rationalism) المعروفـة عند ماكس ويـبر (M.weber) ويعني اللجـوء إلى المشاهدات والحقائق في النظـر إلى قضايا المجتمع والدولة والإفادة من التجارب الغربية في هذين الشأنين، وما يتعلق بهما مـن إدارة للشـأن العام (فصل الدين عن الدولة) والابتعاد في الفكر والعمل عـن الميتافيزيقيات والموروثـات وصولاً إلى اعتناق أيديولوجيـات التحديث أو الحداثة ولذلك درج العلمانيون التقدميون على قرن العقلانية بالثـورة العلمية في القرن التاسع عشر من جهة، وبالتنوير من جهة ثانية، إشارة إلى ما عرف بعصر الأنوار في أوروبة..

والمعنى الثالث: هو الذي درج عدة كُتاب على استعماله في العقود الأخيرة، وهو يعني عندهم اللجوء إلى ربط الأسباب بالمسببات، والإصغاء إلى العلمـي والواقعي في المسائل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، دونما أيديولوجيـا حاكمة، دونمـا ربط للعقلانية هذه بمذهب فكري أو نزوع ثقافي معين، وإن قيل أحيانا بارتباطها بالمصلحة)[١٧]

٤- التركيـز علـى الإنسـان وهمـوم المجتمع وواقعه

ركز التيار الليبرالي على الإنسان وهموم المجتمع من حيث النظـرة المتساوية لأفراد المجتمع كافة دون التمييز بين عرق أو لون، وحتـى القومية التي كان النظـام الليبرالي يعتبرهـا كمرجعية بديلة عـن الدين فهي لم تكن تلغـي وجود القوميـات الأخرى ولكن كان سعيهـا الدؤوب لإبراز قوميتها وبالتالي إبراز إنسانيتها فتبدأ من الإنسان ومن لغته وشعوره بالانتماء فـإن (العرب أشد شعوب الأرض إحساساً بلغتهم)[١٨].

أما المستشرق الفرنسي جاك بيرك فقد ذكـر في كتابه الشهير العرب: الأمس والغد: (أن الشرق موطن الكلمة: أن فضيلة الكلمة مستمـدة من شكلها وصورتها وإيقاعها أكثر ما هي مستمدة من نوع تطابقها مع حقائق الحيـاة اليومية... إن الكتابـة العربية هي

أكثر إيحـاء منها أعلامـا)[19] ولقد صنف عالم الاجتماع المصـري سعد الدين إبراهيم الجماعـات في الوطن العربي حسب بعدين رئيسيين: همـا: الشعور بالانتمـاء العربي والتحـدث باللغة العربية كلغـة أم، وخلص إلى أن هنـاك أربعة جماعـات موجودة في الوطـن العربـي الأولى: الجماعة الرئيسية التي تمثل أكثر من ٨٥٪ من مجموع السكان يتكلـم أفرادها اللغـة العربيـة ويشعرون بالانتمـاء إلى الجماعـة العربيـة؛ الثانية: جماعـات تتكلم العربيـة ولكنها لا تشارك العـرب حسهم القومـي؛ الثالثة: جماعات ذات انتمـاء عربي لكنهـا لا تتكلم العربية؛ الرابعة: جماعات لا تتكلم العربية ولا تحس بالانتماء العربي.[20]

ويرى عبد العزيـز الدوري اتفاق جميع منظري القومية على أن اللغة تشكل العنصر الرئيسي الأهم في تحديد الهوية العربية)[21] لهـذا ركز التيـار الليبرالي علـى إبراز دور الإنسان والمجتمع من خلال اللغة وإبراز أكبر قـدر من إنسانيته من خـلال اللغة العربية والتي هي أكثر اللغات تعبيراً.

٥- التنوع الفكري وقبول الآخر

إن التنـوع الفكري لـه جذور قديمة في المجتمـع العربي فمنذ صـدر الإسلام كان اليهـود يعيشون جنبـاً إلى جنب مع العرب المسلمـين وفي العصـور الأولى كانت بغداد والبصرة والكوفة وغيرها من المدن العربية مكاناً لولادة الأفكار سواء كانت تلك الأفكار صحيحـة أو حتى منحرفة، ولكن كانت كلها تطرح للمناقشـة والمناظرة العلمية التي قد يصمـد فيها صاحب الفكـرة أو يسقط هو وفكرته غير أن الفكر لا يموت ويقيت الأفكار القديمة تعود إلى ساحة الفكر والمناقشة من جديد فالأفكار الديمقراطية وإرادة الشعب في اختيار الحاكم هي عينها ما كان يطالب بِه الخـوارج وأن لا تكون بيعـة بتعيين وإن ذلك من الأمور التي تركها الله تعالى لعبادهِ لكي يقرروا من يحكمهـم ويسوس أمرهم. وما التنوع الفكري في الفكر العربي المعاصر ألا امتـداد لذلك التنـوع الأصيل فنحنُ إذ نشهد اليـوم اختلافات فكرية متنوعة حتى في التيـار الواحد أحيانا فما ذلك ألا تعبيراً عن إنسانية هذا الفكر.

٦- محاربة التطرف والعصبية

لقـد أخذ الفكر العربي المعاصر محاربة كل أشـكال التطرف والعصبيـة سواء كان ذلـك للدين أو للمذهب أو للجنس أو اللون. ولعلً هذا الجانـب بارزا في الفكر الليبرالي القومـي على وجـه من التحديـد.. فحين تكون المرجعيـة القومية غير متعصبة حتى لذاتها فهي تحترم القوميات على أساس من

الاحترام المتبادل وتحترم الأديان والمذاهب على أن تعمل هذه الأديان والمذاهب في ضوء منظومة عملها المحددة لها دون الخوض في تفاصيل تدبير الأمور وتدبر أمر الناس السياسية ففي المجتمع العربي أقليات كثيرة من حقها أن تعبر عن نفسها دون أن يكون دين من الأديان أو مذهب من المذاهب هو الحاكم.

٧- التفريق بين المقاومة والإرهاب

يسعى الفكر العربي المعاصر للتفريق بين الإرهاب الذي يستهدف حياة الإنسان وبين حرية الإنسان وحقهِ في مقاومة المحتل، فإن هذا جزء من إنسانية هذا الفكر لقد تنبه التيار الليبرالي القومي إلى أن خطر الاحتلال يمكن أن يداهم الوطن العربي في اي لحظة وبالتالي يسعى جاهداً ومعهُ القوى الشريفة في العالم إلى استحصال نص من الأمم المتحدة يشير فيهِ إلى أحقية الشعوب المحتلة في مقاومة المحتل و تميزها عن الإرهاب ولذا فنحن في العراق نعيش أسوأ احتلال عرفته الإنسانية فالعدو يسعى جاهداً لخلط أوراق الإرهاب بالمقاومة الحقيقية، والفكر العربي المعاصر والليبرالي القومي خصوصاً يسعى لكي يفرق بين الإرهاب الذي يطال الأبرياء وبين المقاومة التي تستهدف المحتل، فقد برزت في فكرنا العربي المعاصر ما يسميه حسن حنفي ب (فكر المقاومة، وفلسفة المقاومة، ولاهوت المقاومة)(٢٢) فهو يرى أن المفكر العربي يستطيع أن يشكل مع المقاومة (بصيصاً من الضوء في ظلام السكون الرهيب الذي يبديهِ عن بعد، الرأي العام.. والمفكر بطبيعتهِ يشعر بأن العالم بين يديه وأنه يستطيع تحقيق مدينتهِ الفاضلة، ملكوت السماوات على الأرض، لا فرق بين الحلم والواقع بين ما ينبغي أن يكون وبين ما هو كائن.. يستطيع المفكر العربي أن يؤصل فلسفة للمقاومة في اتجاهين محاولاً الإجابة عن سؤالين:

الأول: ما هي أسباب السكون الحالي في الوطن العربي حكاماً ومحكومين..

الثاني: هل غاب مفهوم المقاومة في ثقافتنا الموروثة، وإذا حضر ففي أي جانب منها؟ وهل يمكن إعادة بناء الثقافة الوطنية بحيث ترتكز على المقاومة بدلاً من الاستسلام للقاهر الداخلي أو العدوالخارجي وتنشيط الحركات الشعبية وتجنيد الجماهير)[٢٣]

إذن، على الفكر العربي أن يعمل على اتجاهين الأول: التأكيد على حقهِ في المقاومة.

والثاني: البراءة من كل ما يوصف بهِ من عمليات إرهابية تطال الأبرياء، ومهما يكن

ARCHIVE http://archivebeta.Sakhrit.com

من الأمر فإن الأمر معلوم لدى كل ذي عقلٍ إذ لا يمكن للمقاوم الذي يجعل من روحهِ ثمناً لإجلاء الاحتلال عن بلادهِ وتحرير أبناء شعبهِ أن يرتكب أي جريمة في حق الأبرياء من أبناء جنسه لقد (كانت الولايات المتحدة ولا تزال عاجزة عن الإقرار بالخطر الحقيقي للمقاومة والمدى الذي يمكن أن يصل إليهِ السخط الشعبي من قوات التحالف وقد أخفقت الولايات المتحدة في خلق الظروف السياسة للتقليل من الاستياء الشعبي العراقي)[٢٤]

المبحث الثاني:

سبل تعبير التيار الإسلامي في الفكر العربي المعاصر عن إنسانيته

لقد سعى التيار الديني إلى اعتماد سبل عديدة للتعبير عن إنسانيته منها:

(١) الوسطية في التفكير

أما التيار الديني فإنَّ الوسطية التي اتبعها تتمثل في التغير الحاصل في أيديولوجياته السياسية فقد انقسم التيار الديني إلى (جماعه محافظة تقليدية تتمسك بالنظام القائم ومؤسساته، وجماعة مصلحة رفضت المؤسسات والتقاليد السائدة في ذلك الحين، أي بعد الفترة التأسيسية. وطالبت بالعودة إلى منابع الإسلام ونقاوته الأولى)[٢٥] أي فريق يطالب بإقامة الخلافة الإسلامية وفريق آخر إصلاحي (وكانت الجماعة التقليدية مرتبطة بالخلافة العثمانية والعائلات والزعامات البرجوازية الكبرى التقليدية. ومتمسكة بمقولات العلماء والفقهاء بما فيها مقولة طاعة الحاكم طاعة مطلقة على أساس أنها واجب ديني حتى لو كان الحاكم ظالماً... تجنباً للفتنة والفوضى وتجزئة الأمة.. وكانت هذه الجماعة تتألف على الأغلب من علماء الدين ومن المفكرين المتمركزين حول العائلات الإقطاعية... وقد دعم هؤلاء آراءهم التقليدية المحافظة بالعودة إلى عدد من المفكرين الدينيين القدامى من أمثال الماوردي (٩٩١م-١٠٣١م) وابن تيمية (١٢٦٣م-١٣٢٨م) وغيرهما- في أن الخلافة مستمدة من الشرع وقال بالنقل لا بالعقل وذهب إلى أن القرآن فرض على الناس طاعة أولي الأمر منهم باعتبار الحاكم خليفة للنبي (صلى الله عليه وسلم) يعني بحماية الدين وسياسة الدنيا وتنفيذ الأحكام الشرعية، ويتم اختياره من قبل ((أهل الحل والعقد)) أو بعهد من الخليفة السابق)[٢٦] أما الجماعة السلفية الإصلاحية فقد تمثلت في (رفاعة رافع الطهطاوي وخير الدين التونسي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وغيرهم)[٢٧] لقد حاول هذا التيار إحياء الإسلام والعودة إلى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عصره الأول النقي، ونادى بتوحد الدول الإسلامية لمواجهة خطر الغزو الأوروبي والاجتياح الحضاري الأوروبي للمجتمع العربي والإسلامي.

لقد كانت هذه الجماعة الإصلاحية (رغم اصطدامها بالمؤسسة الدينية التقليدية، ظلت في التحليل الأخير حركة توفيقية محافظة تعمل في خدمة تثبيت الأنظمة والثقافات السائدة، فمات الأفغاني في كنف عبد الحميد وتعاون عبده مع الإدارة الإنكليزية في مصر وهاجم رشيد رضا بقسوة الفكرة العلمانية وقال بإعادة بناء الخلافة والمصالحة مع الوضع القائم)[٢٨] هذا التجديد الوسطية جعل التيار الديني يتجدد في خضم الأفكار التنويرية الجديدة وهكذا عبر التيار عن إنسانيته من خلال الوسطية أي إنه في موقف بين التفريط والإفراط.

٢- التأويلات العلمية في تفسير النصوص

وفي مجال العقلانية والتنوير فإن التيار العربي الإسلامي بدأ يبحث عن ما فيه إنسانيته فقد أراد التقرب من المعنى الأول للعقلانية والتي كما ذكرنا تكون بمعنى العلم فشرع بالبحث في الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة على أن هناك اختلاف في هذا التيار بين من يجيز تفسير الآيات القرآنية تفسيراً علميا وبين من يعتبر القرآن الكريم كتاب هداية ولا يجوز تفسيره إلا من خلال اللغة العربية، فظهر لدى أصحاب التفسير العلمي بياناً وتوضيحا بجملة من القضايا العلمية توافقه بشكل دلالي واضح أو إشارات في بعض آيات القرآن الكريم، فقد بدأ محمد فريد وجدي هذا الاتجاه التطور لاسيما في المحاضرات العلمية والسلوكية المنبثقة للدكتور زغلول النجار وأنيس الراوي وعمرو خالد فشجع إلى ذلك إلتفاف العامة من جديد حول هذا التيار وأقصد بشقه المتنور فكان ذلك جزءاً من إثبات إنسانيته.

٣- النزوع إلى القضايا البرهانية (أو العقلانية العلمية)

واتصالاً مع الفقرة السابقة فإن التيار الإسلامي بدأ يركز في قضايا العلم واعتبار أن الإسلام دين العلم والحاث عليه والآيات والأحاديث والآثار في ذلك كثيرة جداً. وهذا بالنسبة للمجتمع أمر مهم يرفع به من شأن الفكر الإسلامي فيه ولكن العقل الجمعي العربي بصورة عامة بل وحتى (الباحثين العرب في قضية العلاقة بين الدين والسياسة هم أسرى: إما أنموذج يسمونه أوروبياً في الفصل بين الدين

والدولة، أو أنموذج ديني معاكس يعتبرونه إسلامياً).(٢٩) ولقد أشار الأستاذ أنطوان مسرة إلى مسألة مهمة وهي إنه (تختلف الأديان في عقائدها ولكنها تجابه كلها دون استثناء - جدلية استغلال الدين في التنافس السياسي، وهي - بحسب رأيه - المعضلة التي تشكل المنطلق لتنظيم العلاقة بين الدين والسياسة.. لقد تحول الدين سياسياً وعملياً، وبسبب فقدان الضوابط في بعض المجتمعات العربية، خصوصاً تلك التي تتمتع بدرجة من الديمقراطية إلى مجال سائب ((no mans land)) يخترقه رجال الدين ورجال السياسة الطامعون في السلطة والباحثون عن شريعة ذات مصدر إلهي غير قابلة للنقد)(٣٠) لذلك فأن من الأولى على التيار العربي الإسلامي قبل أن يخوض في مجال الحاكمية عليه أن يهيئ الأرضية الخصبة والمناسبة وإقامة المؤسسات التي تقوده في نهاية المطاف إلى الحكم لا أن يبرز نفسه للمنافسة على الحكم وليس له، ولبعض الأفكار الدينية المسيسة إلا أن تلعب بعواطف الجماهير ليكون ذلك أكمل إلى إنسانيته.

٤- التركيز على الإنسان وهموم المجتمع وواقعه.

لقد سعى الفكر الإسلامي العربي المعاصر إلى فتح باب الاجتهاد لكي يكون للإنسان المعاصر نصيب من فتوى توافق عصره وواقعه وأعرافه، ويبدو أن الدين نجح في إيجاد حلول لكثير من مشاكل الإنسان والمجتمع ولكن (تبقى علاقة الدين الإسلامي بالسياسة، بل علاقة كل دين منزلاً كان أو وثنياً، علاقة قديمة قدم الدين نفسه. فالإسلام في العقل الجمعي للمسلمين دين ودنيا، إيمان وسياسة، إدارة الحياة الدنيا والآخرة معاً. وأول خلاف؛ سياسي في الإسلام هو انقسام العرب المسلمين حول من سيخلف النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) بعد وفاته مباشرة. إن الصلة بين المقدس والسياسي تفرض نفسها بقوة في كل المجتمعات ((البدائية)) منها والمتقدمة).(٣١)

لأن رجل الدين يمثل هيئة ذات قدسية خاصة، ولكن بعيداً عن رجال الدين. نطرح سؤالاً مهماً هو هل استطاع الفكر العربي الإسلامي المعاصر أن يهتم بالإنسان ومجتمعه وواقعه.؟ الجواب نعم فقد ظهرت اهتمامات عديدة في الفكر العربي الإسلامي المعاصر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تشعر بأهمية الإنسان لدى هذا الفكر على سبيل المثال لا الحصر الاختلاف حول نقل الأعضاء البشرية ومدى شرعيتها. فالمجوز لذلك ينطلق من منطلق إنساني لإنقاذ حياة الإنسان. والمحرم لذلك ينطلق من منطلق إنساني أيضا، وهو احترام أعضاء الإنسان حتى بعد وفاته. نستخلص من ذلك أن التيار الإسلامي في الفكر العربي المعاصر قد عبر عن إنسانيته من خلال التركيز على الإنسان وهموم المجتمع وواقعه.

٥- التنوع الفكري وقبول الآخر

إن الحركات الإسلامية بمجملها تدعي أنها هي النخبة المختارة للسير على نهج السلف الصالح رضوان الله عنهم؛ (ليس جديداً القول إن الحركات الإسلامية في مجمل تياراتها قد بينت بوضوح انتماءها إلى التيار السلفي بمفهومه الواسع، ولابد منذ البداية من تحرير المصطلح مما علق به من تشويهات، ومدعيات، جعلت استخدامه كمصطلح داخل أدبيات الحركات الإسلامية مشوباً بالغموض تبعاً للمرجعية الفقهية والفكرية لهذه الحركات التي تتميز بدرجة واسعة من التعدد والاختلاف، ما يستوجب الحذر في التعميم وإصدار الإحكام).[٣٢]

فالسلفية هي: (العودة كلياً إلى النص والسير على خطى السلف الصالح)[٣٣] وهنا سؤال يكون معروضاً لكل الحركات الإسلامية بمختلف تياراتها، هل استطاع التيار الإسلامي في الفكر العربي المعاصر أن يسعى من أجل التنوع الفكري وقبول الآخر؟

إن التيارات الإسلامية تبدو متناحرة فيما بينها مختلفة حول مسائل فرعية في الإسلام كغسل القدم ومسح القدم وقد أوصل بعضهم بعضاً إلى الكفر واستباحة الدم والعرض والمال فكيف يمكنه قبول الآخر من تيارات فكرية أخرى يعتبرها خرجت عن الإسلام لمجرد أنها لا تؤمن بإسلام سياسي. لقد أخفقت التيارات الإسلامية في التعبير عن إنسانيتها في هذا الجانب وتناست أن أسلافهم كانوا يختلفون في أمور العقيدة ولايكفر أحدهم الآخر. بيد أن السلفية جعلت من الآخر خصماً وعدواً فـ (تحول المعتزلة والفلاسفة،ثم أهل التصوف والشيعة إلى خصوم)[٣٤]

٦- رفض التطرف والتجدد في الفهم والفتوى.

هل عبر التيار الإسلامي في الفكر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العربي المعاصر عن إنسانيته من خلال رفضه للتطرف الديني والتعصب؟ سوف نعود للإجابة عن هذا السؤال بعد أن نسمع هذه القصة التي يروي لنا فيها رضوان السيد لقاء أجراه عام ١٩٧١م لمجلة الفكر الإسلامي الصادرة عن دار الفتوى بلبنان مع المفكر الإسلامي الجزائري مالك بن نبي ت ١٩٧٣م. قال رضوان السيد (وقد عبرت لابن نبي عن انزعاجي من جمود الأزهر والمؤسسات الدينية الإسلامية إزاء المتغيرات، وتبعيتها للأنظمة السياسية في الدول التقدمية والمحافظة. فقال لي: ((هذا الأمر يدعو للانزعاج فعلاً، لكن الظاهرة الأبرز في الموقف اليوم هي في مكان آخر، ألا تلاحظ أن التقليد الإسلامي الذي أنت منزعج منه، لا يزعج العلمانيين والتحديثيين فقط من أمثال: العظم وأركون والبيطار وصعب، بل يزعج أيضاً إسلاميين كبار مثل المودودي وسيد قطب والغزالي و...؟ إنني أرى أن هذا الإسلام الاحتجاجي المتصارع سيشغلنا في السنوات المقبلة، بينما نحن غافلون الآن مستمتعون بالحملة على الغرب، وعلى الرأسمالية والاشتراكية: الإسلام الآتي هو إسلام الثورة المضادة حسب التعبير الماركسي. ما فهمت وقتها كلام مالك بن نبي ـــ يقول رضوان السيد لأني وزملائي من غير الحزبيين كنا نعتبر الحركيين الإسلاميين التقليديين الجدد أو محافظين جدد، لا يميزهم عن شيوخ الأزهر والقرويين إلا أنهم مسيسون)[٣٥] فقد سعى هذا الإسلام الاحتجاجي على حدّ تعبير مالك بن نبي إلا أن يحاول إغراق التيارات الإسلامية كلها في دوامة التعصب والتكفير أما الشكل الصحيح للتيارات الإسلامية فهي التي تنبذ التطرف والتعصب وتغير مواقفها بتغير الظروف والأحداث. ولكن السؤال هنا هل استطاع الفكر الإسلامي أن يتبرأ من المتعصبين والمتطرفين الذين شوهوا صورته؟

بطبيعة الحال اعتراضات كثيرة من قبل مفكرين إسلاميين كثيرين حول ممارسات خاطئة تنسب للتيار الإسلامي ولكن المشاهد على الساحة أبلغ من عبارات الاحتجاج.

٧- التفريق بين الإرهاب والمقاومة

ومن خلال التفريق بين الإرهاب والمقاومة يعبر الفكر العربي الإسلامي عن إنسانيته. فالإرهاب لا تقره أي من

المجتمعات الإنسانية حتى الوثنية منها وأصحاب الديانات الوضعية منها فكيف بالأديان السماوية وكيف بالإسلام الذي جاء نبيه رحمةً للعالمين؟!

إن الفكر الإسلامي اليوم في مأزق وهو يحاول تبرئة ساحته من إلصاق تهمة الإرهاب به، وأقصد هنا بالمأزق بالنسبة للمسلمين المعتدلين الذين لا ينحون منحاً متطرفاً، مفرطين في أمر ومفرطين في أمر آخر، وهؤلاء هم في حيرة من أمرهم لأنهم حاربوا الاستبداد ورفضوا أن تحتل الأوطان وتسلب الحرمات في حين (ربط علماء الاجتماع والتاريخ والثقافة بين الثقافة الشرقية والاستبداد الشرقي وجعلوه مرتكزاً على الدين. وهو ما عبر عنه الكواكبي في طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد. لا فرق بين الله والسلطان، وصفات الله وصفات السلطان في الوظيفة الثقافية. لذلك كثيراً ما تدعي السلاطين الألوهية منذ فرعون)[٣٦] ويستطرد الدكتور حنفي في عرض تحليلي لفلسفة المقاومة فيقول: (في حين أن المقاومة تقوم على تحليل ((حال الأمة))، وأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية وليس فقط أحوال الأفراد. ويتمثل حال الأمة في تبعيتها أو استقلالها، قهرها أو حريتها، ظلمها أو عدلها، تجزئتها أو وحدتها، سكونها أو حركتها. المقاومة صراع في المجتمع. والتاريخ يبدأ من وعي الفرد إلى وعي الجماعة ((إلا أنها تضع نفسها حين تقاوم))كما قال فخته في صراعه مع احتلال نابليون لألمانيا وقانون الهوية، الأنا تساوي الأنا، يسبق قانون اختلاف،الأنا مغاير للانا)[٣٧] وأبشركم سادتي أن الأنا في العراق تساوي بردود أفعالها كل أفعال الطامعين وأبشركم أن لكم بأرض العراق بقية من كل عظماء التاريخ منذ قامت عصا آدم (عليه السلام) حتى يومنا هذا. إنهم يسلكون السبل لاستعادة حقهم في الحرية من جهة ولإثبات إنسانيتهم من جهة أخرى وأخيراً نسأل الله السلامة لنا ولكم ولأوطاننا إنه مجيب الدعاء.

الخاتمة

إن لكل ثقافة مسارها التاريخي الثقافي الذي يختلف عن المسارات التاريخية والثقافية الأخرى فهي تشكل وفق الوعي التاريخي والثقافي النابع من الأمة، ثم تنتشر خارج الحدود لتؤثر في الأطراف ومثال على ذلك الثقافة اليونانية، أما نحن اليوم في

عصر ثقافة العولمة وفتح الأبواب بوجه هذه الثقافة التي لا تعترف باختلاف الثقافات لذلك فقد قادتنا هذه الثقافة إلى الانزلاق في ثقافات أخرى. لكن اليوم على المثقف العربي الذي يؤرخ لفكر عربي معاصر أن تكون فيه المعالم واضحة حتى يشار إليه أن هذا فكر عربي وعليه أيضاً تقويم اتجاهات التيارات الفكرية العربية المعاصرة لأن كثر الصقل يجلي النظر كما يقولون.

من خلال بحثي هذا أرى من الواجب علي بيان رأيي في تقييم تيارات الفكر العربي المعاصر وقد استنتجت عدة مسائل منها: -

١- إن الفكر العربي المعاصر فكر غني وذو نزعة إنسانية جياشة.

٢- انتهج الفكر العربي المعاصر بتياريه الرئيسين الليبرالي القومي والإسلامي سبلاً عديدة لإثبات إنسانيته.

٣- في مسألة قبول الآخر لم يكن الفكر الإسلامي موفقاً بالقدر الكافي فهو يعيش في مد وجزر بين من يؤيد حوار الحضارات وبين من يؤيد صراع الحضارات. بل وعدم قبول الآخر حتى في ذات التيار.

٤- استخدم التيار الليبرالي العقلانية العلمية بصورة موفقة جداً في حين سعى التيار الإسلامي إلى إثبات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية وقد وفق هو الآخر في إثبات إنسانيته في ذلك.

٥- التياران جادان في السعي للتفريق بين الإرهاب والمقاومة.

٦- استطاع التيار الليبرالي بفضل مرجعيته القومية أن يحارب التطرف الديني والمذهبي في حين بقي التيار الإسلامي بين نار المستعمر، ونار التطرف المهلكة.

٧- حاول التياران انتهاج الوسطية والتركيز على العقل والعقلانية.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش

١- د.حليم بركات: المجتمع العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٧، ٢٠٠١م، ص٢٩٧.

٢- أرمان كوفيليه: نصوص فلسفية مختارة، ترجمة: آلاء أسعد الفخري، مراجعة: أ.د.أكرم الوتري، بيت الحكمة، بغداد، ٢٠٠٦م، ص١٥٨.

٣- هاملتون: دروس في المتيافيزقيا، شرحها جون ستيورات ميل، ترجمة: كريمر ١٩٦٩م، ص٣٥٢.

٤- أرمان كوفيليه، نصوص فلسفية مختارة، ص١٥٨-١٥٩.

٥- المصدر نفسه، ص١٥٩.

٦- د.حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، ص٢٩٧.

٧- المرجع نفسه، ص٣٨٩.

٨- المرجع نفسه، ص٤١٨.

٩- المرجع نفسه، ص٤٢٤.

١٠- وليد عبد الحي، مستقبل الظاهرة الدينية في العلاقات الدولية، مجلة المستقبل العربي مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت العدد ٣١، السنة السابعة والعشرون، شباط ٢٠٠٥، ص١٢.

١١- خير الدين حسين، تقييم نقدي للمؤتمر القومي العربي خلال الـ ١٥ سنة الماضية مجلة المستقبل العربي العدد ٣١٥ للسنة ٢٨ أيار، ٢٠٠٥، ص:١٨.

١٢- أرمان كوفيليه، نصوص فلسفية مختارة، ص١٦٩-١٧٠.

١٣- المرجع نفسه، ص١٧١.

١٤- زياد حافظ، حول المرجعية في التيار القومي العربي، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات، الوحدة العربية، بيروت، العدد ٣١٤، السنة السابعة والعشرون، نيسان ٢٠٠٥م، ص ٤٣-٤٤.

١٥- رضوان السيد، المصادر الفكرية للعقلانية في الفكر العربي المعاصر، مجلة المستقبل العربي، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد ٣١٥، للسنة الثامنة والعشرون، أيار، ٢٠٠٥م، ص٨٩.

١٦- المرجع نفسه، ص٨٤-٨٥.

١٧- المرجع نفسه، ص٨٤-٨٥.

١٨- ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ١٧٨٩-١٩٣٩،ترجمة: كريم عزقول، دار النهار للنشر، بيروت (د.ت) ص١١.

19- Jacquse Berque.The Arabs Their History and Future.transtated by sirHamilton Gibb, London: Faber and Faber.1964, and pp. 25, 51.and PP.190191-.

٢٠- ينظر سعد الدين إبراهيم، نحو دراسة سسيولوجية للوحدة، قضايا عربية، السنة الثالثة الأعداد ١-٦ (شباط فبراير، تموز) ١٩٧٦،ص٥-٢٤.

٢١- عبد العزيز الدوري، الجذور التاريخية للقومية العربية، سلسلة الدراسات القومية، دار العلم للملايين،

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

بيروت، ط٢، ١٩٦٠، وأيضا ورقة بعنوان «حول التطور التاريخي للأمة العربية» ضمن الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بعنوان؛ القومية العربية في الفكر والممارسة، بيروت، ٢٦-٢٩، تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٧٩، ط٢، بيروت ١٩٨٠، ص٢٢١-٢٢٧.

٢٢- حسن حنفي، ثقافة المقاومة، المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد ٣٢٤، السنة الثامنة والعشرون، شباط، ٢٠٠٦م، ص٨٩.

٢٣- المرجع نفسه، ص٨٩.

٢٤- أنتوني كوردسمان - أستاذ الدراسات الإستراتيجية والدولية في واشنطن، المقاومة المتطورة في العراق، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد ٣١٨، للسنة ٢٨، ٢٠٠٥م، ص ٣٩.

٢٥- د.حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، ص ٣٩٩.

٢٦- ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ١٧٩٨-١٩٣٩، ترجمة كريم عزقول، دار النهار للنشر، بيروت، (د، ت) ص ٢٢.

٢٧- د.حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، ص٤٠٠.

28- Sharabi, Arab intellectuals and The west: The Fromative years, 1875 -1914,p.9.

٢٩-انطوان نصري مسرة، تنظيم العلاقة بين الدين والسياسة في الأنظمة العربية المعاصرة، الجمعية العربية لعلم الاجتماع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠١٠م، ص٤٢٧.

٣٠- المرجع نفسه، ص٤٢٨.

٣١- رسلان شرف، الدين والأحزاب السياسية الدينية العربية، الجمعية العربية لعلم الاجتماع، ص١٧١.

٣٢- عبد الغني عماد، السلفية وإشكالية الآخر بين المفاصلة والمفاضلة، المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد ٣٢٤ لسنة ٢٨، شباط ٢٠٠٦م، ص٥٥.

٣٣- المرجع نفسه، ص٥٦.

٣٤- عبد الغني عماد، السلفية وإشكال الآخر، مرجع سابق، ص٦١.

٣٥- رضوان السيد، الإسلام المعاصر والليبرالية، قضايا إسلامية معاصرة، العددان ٢٤-٢٥/ صيف وخريف ٢٠٠٣م، ص١٧٤-١٧٥.

٣٦- حسن حنفي، ثقافة المقاومة، ص٩٧.

٣٧- المرجع نفسه، ص١٠١.

المصادر والمراجع

١- الآلوسي حسام الدين: الفلسفة والإنسان، بيت الحكمة، بغداد، ١٩٩٠م.

٢- أرسلان شرف الديـن: الأحزاب السياسية الدينية العربية، الجمعية العربية لعلم الاجتماع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،٢٠٠٠م.

٣- أرمـان كوفيليه: نصوص فلسفية مختارة، ترجمة آلا أسعـد الفخري، مراجعة الدكتور أكرم الوتري، بيت الحكمة، بغداد، ٢٠٠٦م.

٤- البرت حوراني: الفكـر العربي في عصر النهضة. ١٧٩٨-١٩٣٩، ترجمة: كـريم عزقول دار النهار للنشر، بيروت، (د.ت).

٥- أنتـوني كوردسمان: المقاومة المتطورة في العراق،المستقبل العربـي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد٣١٨ السنة ٢٨، آب، ٢٠٠٥م.

٦- أنطـوان نصري مسرة: تنظيم العلاقة بين الدين والسياسة في الأنظمة العربية المعاصرة، الجمعية العربية لعلم الاجتماع، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٠م.

٧- جميل صليبا: المعجم الفلسفي. بيروت، ط١، ١٩٧١، ج١.

٨- حسـن حنفي: الإسـلام المعاصر والليبرالية، قضايا إسلامية معاصرة، العـددان ٢٤ -٢٥، صيف وخريف، ٢٠٠٣م.

٩- ثقافة المقاومة، المستقبل العربي، العدد٣٢٤ للسنة ٢٨، شباط، ٢٠٠٦م.

١٠- د.حليم بركات: المجتمع العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٧، ٢٠٠١م.

١١- خـير الدين حسيب: تقييم نقدي للمؤتمر القومـي العربي خلال الخمس عشرة سنة الماضية، العدد ٣١٥ للسنة ٢٨ أيار، ٢٠٠٥م.

١٢- رضـوان السيد: المصـادر الفكرية للعقلانية في الفكـر العربي المعاصر، المستقبـل العربي، العدد ٣١٥، للسنة٢٨، أيار، ٢٠٠٥م.

١٣- زيـاد حافظ: حول المرجعيـة في التيار القومي العربي، المستقبل العربي، العـدد٣١٤، للسنة ٢٧، نيسان، ٢٠٠٥م.

١٤- سعـد الديـن إبراهيم: نحو دراسة سيولوجية للوحدة، قضايا عربيـة، السنة الثالثة الأعداد ١-٦، شباط - تموز، ١٩٧٦م.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١٥- عبد العزيز الدوري: الجذور التاريخية للقومية العربية، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٦٠م.

١٦- حـول التطور التاريخي للأمة العربية، ندوة لمركز دراسات الوحـدة العربية بعنوان ((القومية العربية في الفكر والممارسة)) ببروت، تشرين الثاني نوفمبر، ١٩٧٩م ط٢، ١٩٨٠م.

١٧- عبـد الغني عماد: السلفيـة وإشكالية الآخر بين المفاصلة والمفاضلة، المستقبل العربي، العدد ٣٢٤، السنة ٢٨، شباط، ٢٠٠٦م.

١٨- هاملتون: دروس في الميتافيزيقا، شرحها: جون ستيوارت ميل، ترجمة كريمر ١٨٦٩م.

١٩- وليد عبد الحي: مستقبل الظاهرة الدينية في العلاقات الدولية،المستقبل العربي، العدد ٣١٢، للسنة ٢٧، شباط، ٢٠٠٥م.

المصادر الأجنبية

1- Jacaues Beraque, The Arabs: The History and Future, Translated by siir: Hamilton Gibb, London, 1964.

2- sharbi, Arab: Intellectuals and The west, The Fromative years 16751914-.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من هنا نَبدأ

سليمان العيسى *

مِنَ الطفولةِ
والأطفالِ..
نبتَدئُ
إلى الحياةِ.. إذا ما حَثَّنا الظَّمأُ

أمَّا أنا
فلقد أشعَلْتُ مِسْرَجَتي

سأبلُغُ الفجرَ..

* شاعر العروبة الكبير.
العمل الفني: الفنان علي الكفري.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أم في الدربِ أنطفئُ..

* * *

تعشق الزهر

تعشقُ الزهرَ وتَرعاه.. ففي
كلِ ركنٍ من زوايا البيتِ زَهْرُ

ولها مكتَبُها.. إن هَدأَتْ
فيه فالدنيا دراساتٌ وفكرُ

أنا مُذْ سبعينَ عاماً مكتَبي
رُكْبَتي والعالمُ الواسعُ شِعْرُ..

* * *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ضَياع

إلى شاعر متمرد..

اِحملِ الصخرَ على ظهرِكَ..
واسبَحْ في الغيومِ
وتَبعثَرْ في النجومِ
مثلَما تَهوى شظايا
أو بقايا
من دُخانٍ.. كان يوماً بَشَرا
إنَّما..
خَلِّني أَلمِسْ جناحَكْ

أتحسَّسُ في المتاهات
رياحَكْ
لا تخَفْ، إني أُحِبُّكْ

* * *

الشاعر والخيال

رأي..

الخيالُ المُجنَّحُ
فَرسُ الجنّ يَسْبَحُ
في غُيوبٍ من الرُّؤى
تَنْداحُ
ما يشاءُ الجنونُ
والانسياحْ
غيرَ أني أحدُّهُ
عن جُنوني أردُّهُ
بالبيانِ الذي يُفيدْ
عَبثَ القولِ لا أُريدْ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شعر

سورية

جميل حسن *

«عند الصباح يحمد الناس السُرى»

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

... وماتزال الصورة التي رسمتُها لسوريةَ الجميلة
كما رسمتها.
رسمت فيها امرأةً رائعة الجمالْ
يشعُّ من جبينها البهاءُ والسناءُ والجلالْ
تشعُّ ومضةُ الأملْ

* أديب وشاعر سوري.

العمل الفني: الفنان محمد الوهيبي.

فما تزال سوريا
صبيةٌ رائعة الجمال والمثالْ
قامتها كسروةِ الضحى
تمدُّ للفضاء عنقها الطويلْ
وخدُّها الأسيلْ
تُغري به الشروق والضحى
ورقّة الأملْ
تُغريه بالقبلْ

* * *

حُييتِ يا صبيةْ
يا زهرةَ الرَّبيعِ
غضّةٌ نديةْ
حبيبتي من أوَّل الزمانْ
حبيبتي من قبل أن أحسَّ بالزمانْ
أميرتي!.
توهجّي في كلّ نبضٍ في دمي
فمنك قد بدأتُ رحلتي
يا حلوة العينين!. يا أميرة الزمانْ!.
طوّفتُ في بلاد الله حتى لم أدع مطافْ
وقد جنيتُ من سفاري سمّه زُعافْ
فقلتُ: حسبي. ليتني بقيتُ في مرابع السنا
مصاحباً أعوامَكِ العجافْ
يا ليتني بقيت أشرب النَّميرَ في حماكِ والسُّلاف
يا ليتني بقيتُ قانعاً بعيشي الكفافْ

* * *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أميرتي!. صبيتي!. يا
حلوتي!.
يا سوريةُ الجميلةُ!.
من شوّه الربيع في
عينيك؟
من شوّش السّنا؟
ومن أحاط الخصر
بالأشواكِ
والجبينَ بالأسى؟
من رشَّ فوق الثغر
هذي الصُّفرةَ
الأثيمة؟
فاهتزَّ في عيوننا
السنا
وعاودت أحزاننا
القديمةُ.
أمحنةٌ؟ أم غيمةٌ عابرةٌ؟
أم إنها الآثامُ والجريمة؟
بريئة كطفلةٍ غريرةْ
صافيةٌ كما الشفوف في الطيوف
وأنتِ يا سوريتي الجميلةُ!
وأنتِ يا سوريتي العظيمةُ!.
كقلعة راسخةٍ تستصغر الغزاةَ!.
تصدُّ عنها الريح والعواصف الهوجاء

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتأسرُ الرعود في سمائها

وتحشد البروقْ

تستنزل المطر

بوركتِ يا سوريتي الحبيبةْ!

يا نبعةَ الحنان!.

يا رفة الأمانْ!.

يا نبع خيرٍ دافقٍ على العُفاةِ والحفاةْ!.

يا موئل العطاء والسَّخاءْ!.

يا أميرةَ الحسانْ!.

* * *

ليفعلِ الزَّمانُ ما يشاءُ

بالرَّبيع والسَّنا ورفّة الزّهرْ

ليكفرِ البشرْ

بربهم!.

ليبحثوا عن الأسى!.

ليزرعوا الأسى!.

ليسكبوا المرارَ في قرارة الكؤوسْ!.

ليستقوا!.

ليملؤوا لغيرهم!.

لينزلوا!. ليرتقوا!.

فأنتِ في عينيَّ صورة الزمان مقبلا

صبيةً في ميعة الصبّا

وأنتِ مجدُ الزَّهر في الربيع

والربيعُ مزهراً ومُعشبا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومثمراً.. ومخصبا

* * *

يمرُّ كلُّ عابرٍ إلى غدٍ
بلا غدِ
وأنت يا سوريتي الحبيبة
كالشمس في شروقها
كالشمس في غروبها
تحوم في وجودها
تميس في خلودها
كلوحةٍ زيتية على يدي مبدعها
دائمةِ التجدّدِ.
حبيبتي!.
على يديك شيّدت عروبتي
لخافقي تمثالها
بكلّ نبض في دمي
منارتي.. ومعبدي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قصة

قمة السعادة

د. عبد الرحمن مراد*

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هاهو أبو سالم مسجّى في أحد مشافي ديسلدورف بألمانيا التي نقل إليها من دمشق بمساع من ابنه سالم الذي يدرس الهندسة هناك. ينتظر كل يوم وبلهفة زيارة الطبيبة (مدام أوغلو) له-تلك الطبيبة التركية الأصل رئيسة قسم العناية بمرض السرطان في المشفى- فهو يرى في وجهها الصبوح البلسم الشافي الذي ينسيه كل آلامه خيراً من كل دواء. أما نغمات صوتها فكانت تنساب بين طيّات نفسه انسياب صدى الناي في الأودية العميقة باعثا فيها البهجة والسرور، وهي ميّاسة القوام، طلقة المحيّا، ذات ابتسامة جذابة، تجهد نفسها في تطبيب المرضى والعناية بهم

* أديب وباحث سوري.
العمل الفني: الفنان علي الكفري.

إلى أبعد الحدود، يدفعها لذلك ضمير حي وقيم إنسانية جمّة، كما أنها لاتنفكّ خلال أوقات فراغها من الحديث

لكل منهم على حدة حديث القلب للقلب، والروح للروح، حتى إذا عثرت في حديثه على همّ بددته، أو فرح عزّزته، فكانت لهم ابنة وأختا وأمّا، مما أشاع في نفوسهم المحبة والرّضى، وخصّت أبا سالم باهتمام متميّز لشدة تهذيبه وطيب نفسه، ومعرفته اللغة التركية، وقد سمح لنفسه بأن يدعوها «ابنتي» وكانت تجيبه مجاملة «أبي».

تجرّأ أبوسالم يوما ورجا الدكتورة أوغلو أن تعطيه -إن أمكن- فكرة موجزة عن سيرة حياتها، فوافقت على ذلك، وحدثته كيف عاشت دون أب عقب رحيل والدها إلى بلاد الشام وانقطاع أخباره عنها منذ عشرات السنين، كما حدّثته عن زلزال ضرب الضاحية التي كانوا يسكنونها قرب اسطنبول ممّا اضطرّ العائلة للنزوح إلى المدينة والإقامة في حي التقسيم، ثم وفاة والدتها، بعد معاناة شديدة من مرض عضال ممّا جعلها تقبل بجد على الدراسة لتنتسب إلى كلية الطب عسى أن تكون عونا وبلسما للمرضى. وحدّثته أيضاً عن زواجها بالطبيب الجرّاح عصمت أوغلو، وإنجابها ثلاثة أولاد منه.

وهاجت الذكريات في نفس إبراهيم (أبو سالم) لتعود به إلى نشأته الأولى، فهو من أسرة تفتخر بانتمائها العربي لإحدى القبائل في شبه الجزيرة العربية، وقد أخذ عن أبيه الذي كان ضابطاً في الجيش العثماني آنذاك كثيراً من الصفات الأصيلة كالبطولة والشجاعة والمروءة. وبعد نيله الشهادة الثانوية، انتسب إلى الكلية العسكرية ليحقق طموحات والده، وتخرّج فيها برتبة ملازم، وتزوج سلمى ذات الأصول العربية أيضا، فأنجبت له طفلة سمّاها فاطمة، فملأت حياته سعادة وحبورا.

وفي تلك الآونة استطاعت الصهيونية أن تقيم ما دعي بوطن قومي لليهود في فلسطين. هزّ هذا النبأ شعور كل عربي ومسلم، بل وشعور كل حرّ أبيّ يدافع عن الحق ويأبى الظلم والاغتصاب. ومن الطبيعي أن يتحرّك آنذاك الشعور العربي والديني لدى إبراهيم، دافعا إياه ليهب لأداء الواجب، في ردّ الاعتداء والدفاع عن القدس، وتحرير الأرض من المغتصبين.

طلب إبراهيم من قيادة الجيش التركي السماح له بالتوجه إلى فلسطين لمحاربة الصهاينة، فرُفض طلبه، ثمّ حاول و حاول دون جدوى، مما دفعه للتفكير بترك الجيش لتحقيق هذه الرّغبة التي اجتاحت فكره واستولت على مشاعره. وبدأ يوازن بين أمرين: هل يذهب إلى فلسطين

ويترك عائلته المؤلفة من زوجة وابنة صغيرة برعاية والده وحميه اللذين أبديا استعدادهما لذلك إلى حين عودته، سالما مظفراً، بإذن الله، أم يستكين للأمر الواقع؟.... وهداه تفكيره إلى تبني الأمر الأوّل، فاجتاز الحدود التركية السورية لينضم إلى جيش الإنقاذ بقيادة اللّواء فوزي القاوقجي.

أبلى إبراهيم خلال وجوده في جيش الإنقاذ بلاء حسنا في المعارك، إلا أن الملابسات التي حدثت آنذاك، والكارثة التي حلّت بالأمة العربية -كما نعلم- جعلت جيش الإنقاذ يتوقف عن عمله. أصيب إبراهيم، إثر ذلك، بخيبة أمل كبيرة، وانتابه الاكتئاب، وقد عزّز ذلك هول ما شاهده من فظائع نفذها الصهاينة بالعرب كمذابح دير ياسين وقلقيلية وسواهما..وتفاقمت الأمور فأصيب بانهيار عصبي، وظاهرة نسيان شملت حتى اسمه، مما استدر عطف أحد الفضلاء من أثرياء دمشق، فتكفل برعايته وإرساله إلى إحدى المصحّات في لبنان للعلاج، حيث لبث هناك سنوات ليعود من جديد سالما معافى، وتذكّر أن لديه عائلة في تركيا فراسلها، ولكنه لم يحظ منها بأي جواب. كان إبراهيم يخشى العودة إلى تركيا، فهو معرّض إن عاد إلى محاكمة تصدر عليه حكما قاسيا جدّاً، فآثر البقاء في سورية، وخاصة بعد أن أسند الفاضل الدمشقي إليه مهنة إدارية في أحد المعامل التي يمتلكها في ضاحية من ضواحي دمشق وخصّه بالعطف والرّعاية.

أبدت ابنة المحسن زهراء إعجابها بذاك الشهم إبراهيم، وتعاهدا على الزواج بمباركة عائلة الفتاة، وسكنا لدى زواجهما في شقّة في مبنى العائلة نفسه. أنجبت زهراء منه ثلاثة أولاد هم: سالم وفاروق وخالد، سهر على تربيتهم وتنشئتهم نشأة حسنة، فأتموا دراستهم و حصلوا على شهادات جامعية بتفوّق وتفرقوا خارج سورية: ذهب فاروق بعد حصوله على إجازة في الاقتصاد إلى السعودية للعمل هناك، وتوجه خالد بعد حصوله على إجازة في الفنون إلى إيطاليا للتخصص، أمّا سالم الذي تخرّج من كلّية الهندسة، فقد سافر إلى ألمانيا للتخصص، وأقام في مدينة ديسلدورف. توالت الأيّام والسنون، وتوفيت زهراء الزوجة الثانية لإبراهيم، فأخذ يتنقل من حين لآخر مابين السعودية وإيطاليا وألمانيا لزيارة أولاده وللترويح عن نفسه. ولمّا أصيب بمرض عضال عرض عليه ابنه سالم معالجته في ألمانيا فوافق على ذلك، واتجه إلى مكان إقامة ابنه الذي أدخله أحد مشافي المدينة للعلاج.

راح إبراهيم خلال حديثه مع الطبيبة، يمعن النظر في ملامحها، فهي تذكره بابنته فاطمة

ARCHIVE

التي تركها في تركيا في عهدة أهله منذ عشرات السنين، وذلك من حيث كونها شقراء ذات عينين زرقاوين آسرتين، ووجه مدوّر وشعر غزير، يضاف إلى ذلك صوت ناعم رخيم ذو نبرة تذكره بصوت زوجته الشابة سلمى أم فاطمة آنذاك. وحينها بدأ قلبه يخفق بشدّة لدى سماعه ذلك وما لاحظه فيها، وانفرجت أساريره، وساوره شك في الوصول إلى ضالته المنشودة بالتعرّف على ابنته، وتابع حديثه يقول: لقد أقمت سابقا في إحدى ضواحي مدينة اسطنبول، وأعرف بعض الأقرباء والأصدقاء وهذه هي صورهم: ونثر بين يديها صوراً مازال محتفظا بها منذ ذلك الحين، فميّزت فيها صورة جدّها وعمّها وخالها وأبيها بالزّي العسكري، وصورة روضة اتاتورك التي كانت طالبة فيها، ودكان أبي شريف التي كانت تشتري منها الحلوى والألعاب، وصورتها وهي طفلة مع أبويها، فدهشت ممّا رأت، وبرقت عيناها، وراحت تنظر إليه متفحّصة معالمه وصفاته التي لم تنل منها الأيام كثيراً وحدّثت نفسها: إنّه يشبه جدّي، فهل ثمّة لي عمّ أجهله وقد أُخفي ذلك عنّي منذ أمد بعيد! وإذا كان الأمر كذلك فما المبرّر في الإخفاء؟ لابدّ أنّ في الأمر سرّا!! وانطلقت الطبيبة تمطر إبراهيم بوابل من الأسئلة، ثمّ أردفت تقول:

- بالله قل لي من أنت؟ وما سبب معرفتك بأهلي وعائلتي؟ وما صلة القرابة بيننا إن

وجدت؟ لم يخطر ببال الطبيبة مطلقا أنّه والدها، فوالدها كما تعلم قد مات وانقطعت أخباره منذ عشرات السنين، ولما أصرّت على معرفة هويّته، أخرج من محفظته دفتر عائلته القديم، وقدّمه لها، فقرأت فيه: إبراهيم التهامي، أبوه أحمد، وأمّه خديجة، وهو متزوّج من سلمى، وابنته فاطمة!!! صعقت الطبيبة لدى اطّلاعها على الواقع، وأرتج عليها، وتلعثمت في الكلام، واختنقت الكلمات في حلقها، وانهمرت دموعها غزيرة على خدّيها، وبعد جهد جهيد ارتفع صوتها محشرجا صائحا: - أبي...أبي، أنا ابنتك فاطمة.

ثمّ عانقته بشدّة، وخرّت مغشيًا عليها. ولدى صحوتها، والتقاط الأب أنفاسه، قصّ عليها موجزاً عن حياته فأسفت لمعاناته المريرة. وسألت أباها:

- بالله عليك، قل لي ماذا تريد أن أحقق لك من مطالب؟

وحينها أبدى الأب رغبته بالسفر إلى اسطنبول لتكتحل عيناه برؤية وطنه و مسقط رأسه قبل انتقاله إلى الرّفيق الأعلى، فوافقته ابنته على طلبه، واستأذنت المشفى الذي تعمل فيه للسفر، ورافقته إلى مدينة اسطنبول، حيث كان ظهوره هناك مفاجئاً ومفرحاً للأقرباء والأصدقاء، لأن الجميع يعرف أنه قد استشهد في فلسطين منذ أمد طويل..... اعتنت فاطمة بأبيها اعتناء منقطع النّظير، وحينما شعرت بدنو أجله، أخبرت إخوتها من أبيها بذلك، فتوافدوا على اسطنبول مع عائلاتهم، وسرّ الجميع بهذا التلاقي، وتعاونوا على رعاية والدهم والعناية به، وقبيل وفاته كان جميع أولاده مع عائلاتهم يتحلّقون حوله ويحيطون به إحاطة السّوار بالمعصم، ويودّ كل منهم لو يفتديه بروحه، وقد سمعوه يتمتم قبيل لفظه أنفاسه الأخيرة ، وهو مبتسم قرير العين: -هذه هي قمّة السّعادة... هذه هي قمّة السّعادة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قصة

صور وحكايات

حسن الناصر *

إلى فاطمة الجنوبية..
وإلى كل فاطمة على امتداد مساحة الوطن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فاطمة لم تتخيل أنها في يوم من الأيام ستتحول إلى امرأة تسعى إليها الصحافة، ووسائل الإعلام ومراسلوها.. من العرب والأجانب.. كل ما كانت تفكر به أو تحلم أن تكونه فاطمة.. أن تكون زوجة صالحة «سيدة بيت».. تتزوج من هادي وتنجب أولاداً يشبهونه تماماً، كانت تسمع من أمها

---

* قاص سوري.
العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

كلاماً ظل يرافقها (المرأة التي تحب زوجها أكثر.. حين تنجب أولاداً.. يأتون يشبهون والدهم..) هي نفسها لا تعرف كم تحب هادي، تشعر أنه كل شيء في حياتها.. الهواء الذي تتنفسه.. رائحته تشبه رائحة

الأرض.. وفي وجهه ترى الشمس والقمر.. هادي، فرحها وحزنها، تستيقظ في الصباح، تعدّ الفطور لهادي قبل أن يذهب إلى عمله في الحقل القريب من الحدود الشمالية لفلسطين، تمتمت: فلسطين كم حدثها هادي عن فلسطين وكيف تشرد شعبها من جراء (العدوان الصهيوني.. وما ارتكبه من مجازر) الله يكون في عونهم وعوننا كي نسترد أرضنا؟! بعد تناول طعام الفطور يذهب هادي ليحرث الأرض ويزرعها، يعتني بأشجار الزيتون.. وفي المساء يعود إليها بابتسامته الوادعة، على الرغم من التعب الجسدي الذي كاد أن يهلكه، هو رجل يتحمل ما لا يطيق أحد غيره أن يتحمله، يعمل بصمت، وحين يشاهده أحد المارين، ينشغل عنه ويدندن بمطلع أغنية معجونة بالحزن الممتد إلى ماضٍ لا ينساه.. هادي يغيب عن بيته في نهاية كل شهر لمدة أسبوع.. وربما يمتد غيابه إلى عشرة أيام.. وعندما تسأله فاطمة عن سبب غيابه الطويل عن البيت.. تشعر أنه مرتبك.. ويجيبها بكلمات مقتضبة وحاسمة، يا حبيبتي فاطمة: (لا تخافي هذا الغياب من أجل الأرض) كانت فاطمة تظن أنه يسعى لدى أحد المسؤولين في المدينة لتأمين المواد الزراعية.. كالأسمدة الكيماوية وغيرها.. من أجل تحسين الموسم، تساءلت: لكنه كان يجيء آخر الليل تعباً.. ورائحة عرقه تملأ المكان، وبعض الجراح الصغيرة تتوزع جسده، بعد أن يغتسل ويرتدي ثيابه، تجهز له العشاء فيأكل من دون أن يقول أيّة كلمة.. ثم ينام بعمق كأنه لم ينم منذ سفره، تجلس على حافة السرير بهدوء، تسمع أنينه المتقطع، لكن فاطمة التي تثق بزوجها وبأخلاقه لم يساورها الشك يوماً أن هادي يخونها غمغمت: «لاسمح الله.. استغفر الله..» لو كان متزوجاً من امرأة ثانية ويعيش معها في قرية قريبة من قريتهم لعلمت بالأمر، تابعت: (الجنوبيون يعرفون

بعضهم جيداً.. فلو كان ذلك قد حصل لكانت سمعت بالحكاية من إحدى النسوة اللاتي يزرنها بين الحين والآخر) سألتها جارتها أم هاشم يوماً بينما كانتا يتناولان شراب الزوفا وينظران باتجاه الحقول.. قولي يافاطمة إلى أين يسافر هادي.. وأحياناً يغيب أياماً طويلة..؟ صمتت فاطمة وقد تملكتها الحيرة والدهشة، وقالت وحياة نبينا محمد (ص) لا أعرف يا أم هاشم، كل الذي أعرفه أن هادي يبحث عن السماد ومواد الزراعة في المدينة.. وأنا أصدقه في كل ما يقوله.. هادي رجل طيب يا أم هاشم، ويعاملني معاملة حسنة، ويقوم بتأمين كل ما أطلبه من دون تردد، وهو لا يترك فرضاً.. ويقرأ القرآن في الفجر وعند الغروب، تلفتت حولها أم هاشم وهمست: (الحكي بيني وبينك يا فاطمة) ما يقوم به زوجك هادي.. ابني هاشم يقوم به.. وحين سألته قال ضاحكاً: لا تخافي يا أمي أنا لا أعمل شيئاً يغضب الله أو يغضب رسوله أو يغضبك يا أمي، صمتتا وهما تتناولان شراب الزوفا، الوقت يميل إلى الغروب والشمس بدت لفاطمة كأنها تودعها، قالت: انظري يا أم هاشم كأن الشمس تبكي في عينها لون له بريق خاص.. يلمع؟! أشعر أن جسدي يرتعش وقلبي مقبوض.. الله يسترنا، نهضت أم هاشم على عجل قائلة: هاشم منذ أسبوعين لم يأت من المدينة.. ربما يجيء الليلة، نهضت فاطمة تعد المائدة وتحضر الحمام لهادي.. ربما يعود الليلة أيضاً، حاولت أن تشغل نفسها بأي شيء، جلست خلف النافذة المطلة على الوادي المؤدي إلى الطريق العام، ترقب وصوله، فجأة سمعت دوياً هائلاً تلاحقه انفجارات وصوت رصاص، ثم ما لبثت أن سمعت صوت المؤذن من الجامع القريب «الله أكبر.. الله أكبر».. كان المؤذن يكبر بصوت قوي فيه نوع من التحدي! قالت: الوقت ليس وقت أذان العشاء.. وأذان المغرب سمعته حين كانت تؤدي الصلاة تحت ظل شجرة الزيتون، ماهذه التكبيرات القوية إذن..؟ ما الذي يجري في البلدة.. إنها لا تعرف شيئاً، خرجت فاطمة إلى التلة المشرفة على الحدود مع فلسطين المحتلة، قالت:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(الله أكبر) كل شيء من حولها ينفجر، الطائرات المعادية تقصف القرى والبلدات والمنازل الجنوبية بجنون.. وتحرق الزيتون والتبغ، تلقي بآلاف القنابل، وبعض الرجال الملثمين يتسللون من بين الأشجار، يعبرون إلى الجنوب.. يخرجون من تحت الأرض.. إلى ساحة القتال

ARCHIVE http://archivebeta.Sakhrit.com

قالت بلهفة: الله أكبر يخرجون من تحت المنزل أين كانوا مختبئين.. يا إلهي: هل حان موعد القيامة..؟ حاولت أن تلحق بأي واحد منهم لكنهم تجاوزوها مسرعين، دخلت إلى البيت، فتحت خزانتها القديمة، أخرجت بندقية أعدتها جيداً وجلست تنتظر.. أين أنت يا هادي..؟ في تلك اللحظة كان هادي.. يقود مجموعة من الرجال الذين عاهدوا الله على النصر.. ليواجهوا الدبابات الصهيونية، التي تحاول أن تتجاوز الحدود، فرحة

النصر على العدو.. دفعته لأن يتقدم باتجاه الدبابة محاولاً أسر بعض أفرادها، لكن طلقات لعينة من رشاش معادٍ أصابته في صدره.. رفع يديه إلى السماء وهو ينظر باتجاه بيتهم، كان يردد قوله تعالى: «إن ينصركم الله فلا غالب لكم إن..» وغاب صوته، شعرت فاطمة أن هناك أمراً مهولاً قد حدث، فاضت عيناها بالدموع وهي ترقب الرجال الملثمين يمرون من حولها، حاولت أن تعرف من أين يخرجون، أرادت أن تسأل عن هادي لم تستطع، لم تغمض عيناها طوال الليل، كلما سمعت وقع أقدام في الخارج، تركض تفتح الباب، لا أحد.. إلا الرجال الذين يتجهون إلى الوادي الكبير.. الرجال القادمون من الشرق ملثمين يحملون أسلحتهم فوق أكتافهم، لقد كانوا في عجلة من أمرهم، حين جاء الصباح.. كانت فاطمة غارقة في نوم عميق، وهي تضم البندقية إلى صدرها، سمعت طرقات قوية على الباب، نهضت من نومها وركضت حافية القدمين، فاجأها وجود ثلة من الرجال يقفون بصمت خلف الباب.. جاء من يخبرها باستشهاد هادي.. الدموع الحارقة في عينيها وهي تستمع إلى هاشم ابن جارتها.. أدى هاشم لها تحية المقاومة، قبل أن يحدثها عن شجاعة هادي.. وإيمانه الكبير بالنصر، جلست على الأرض تحضن صورته وبدلته التي سلمها إليها هاشم، وقالت وهي تحاول أن توقف ذرف دموعها: الآن عرفت أين كان يغيب هادي.. تذكرت كلماته جاء صوته واثقاً.. (ما أقوم به من عمل في المدينة يا فاطمة من أجل الأرض.. ومن أجلنا جميعاً) طلبت من هاشم أن تحتفظ ببندقيته وبدلته فهي في الشهر الأخير من حملها.. وعليها أن تسلم الأمانة إلى هادي الصغير.. قالت وهي تحاول أن تنهض: الطريق طويلة يا هاشم.. وهادي الصغير يجب أن يعرف موقع والده في المقاومة.. وما كان دوره في المعركة، رفضت أن تغادر بيتها الجنوبي المعرض للقصف كل دقيقة.. بل لقد أصابت بعض القذائف ساحة الدار وحرقت بعض الأشجار، لكنها بقيت تساعد الرجال الذين يمرون بها وهم في طريقهم إلى المواجهة.. كما كانت تضمد الجرحى.. وتؤمن لهم الدواء.. والطعام طوال

أيـام الحرب، كان الصحفي عبد الله يستمع إلى قصتها.. وفاطمة بنت الجنوب تشمخ بقامتهـا وتتحدث عن علاقتها بالأرض وهادي.. وعن دور هادي الصغير في المستقبل، قالت وهي تضم إلى صدرها صورة هادي وبدلته.. وتمسح دموعها عن خديها النضرين اللذيـن يشبهان أرض الجنوب: «المستقبل لنا يا أخ عبد الله.. لابد أن يأتي اليوم الذي نتجاوز فيه هذه المعابر والحدود الشائكة إلى فلسطين؟!».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

طاغور.. شاعر الطبقة الكونية

د. بغداد عبد المنعم ✪

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لـــن ترمي هذه المقالة إلى تقديم دراسة أكاديمية محسوبة مؤطرة المنهاج، وإنَّمـــا تبغي إلى صُنع مُداخلة نقدية في ظاهرة عالميـــة ثقافية -سياسية أو بالأحـــرى سياسية- ثقافية.. وهذه الظاهرة تتلخص بالاعتراف العالمي عبر مؤسسات الأمم المتحدة بشخصيات ثقافية غير غربية اعتُبِرت عالمية..

✪ أديبة وباحثة في التراث العربي (فلسطين).

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

لقد قُيّض لتجارب قليلة ليستْ غريبةً الدخولَ في الصوت العالمي.. وتلك كانت من نتائج التجربة النوعية لطاغور.. وأقول أيضاً بل من نتائج التجربة النوعية السياسية للهند في مواجهة المستعمر البريطاني وقد كان في وقتها جزءاً فاعلاً من العالمية الثقافية المهيمنة..

هو شاعرٌ من الطبقة الكونية.. تلك التي تجاوزتْ الزمانَ والمكانَ وكوَّنَتْ لغةً جديدة.. كونيةً بمقدار ما هي محلية، ووطنيةً بمقدار ما هي عالمية.. عاصرَ المرحلةَ الأشدَّ عصفاً (١٨٦٣- ١٩٤٨م) من تاريخ الهند والعالم، وبشروط نوعية من التعامل مع الغرب شكَّلَ جسراً وتقارباً وحواراً بين الفكر الشرقي والمدنية الغربية. وظل يدعو طيلة حياته إلى خلق وطنية جديدة، أساسُها التفاهم المشترك بين المدنيتين المتناقضتين (الشرق والغرب).

شِعريةُ طاغور عابرةٌ للجغرافيا وللزمن نقرؤها ليس على ضفاف القرون الثلاثة (١٩- ٢٠- ٢١) التي غطتْ المئةَ والخمسين سنة التي تفصلنا عن ميلاده بل تنادينا هي نفسها إلى زمنٍ شرقي أبعد.. زمن بقي يحسبُ بالتاريخ الهجري..

وبقيتْ كذلك كلماتُ طاغور التي قالتْ: «أنَّ هناك في قطرة الندى مدى للإنسان..» حُلماً مُستمراً غير أنه مدى لَنْ يُدرَكَ الآن إلا من خلال فرض ثقافة حداثية تجدد تعريفَ (العالمية) بينما تنتقد وتعري مفرزاتها السلبية.. تُظهرُ خلال ذلك دعوةَ طاغور إلى (الإنسان العالمي).. مثلما تظهر حضورَ هذه الدعوة مسبقاً عند الحلاج وابن عربي وجلال الدين الرومي في لحظاتهم التاريخية المُهمة.

تستحقُ هذه (الظاهرةُ العالمية) أن نشتغل عليها، وأنْ نتقنَ (الشروطَ القائمة) للوصول إلى ذلك ليس ليكونَ شعراؤنا في مواقعَ إلى جانب طاغور.. بل ليقال كذلك أنهم مرجعية مُثبتة له..

(الإنسان العالمي).. مطلب شرقي قديم

لم يكن (الإنسان العالمي) مطلباً لطاغور كشاعر كبير فقط، بل كان مطلبَ جميع الشعراء الكونيين الشرقيين قبله.. وعلى الرغم من أنَّ طاغور أقامَ عالماً فكريّاً وإنسانيّاً وفنيّاً عبر كل نتاجه الأدبي، الشعري والفلسفي والمسرحي والموسيقي فثمة ما يُؤكد أنَّ هناك خطاً واضحاً يجمع ويربط بين كل ذلك.. تلك فكرةُ (الإنسان العالمي) ظلَّ يكررها لكي يدعم وجودها، وليكسبها الطابع الإنساني الواسع الشامل، فهو من أجل ذلك رفض أي تمييز بين الأفراد بسبب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الدين أو الوطن أو الجنس، وكانت دعوته ردَ فعل على ظروف العالم التي عاصرها، وما تركته الحربُ العالميةُ الأولى من آثار أليمة في نفسه.. ومما قاله « إن الإنسان فِكرٌ، وهذا الفكر الواسع يسعُ العالمَ كله»..

المعنى الجوهري الكامن في (الإنسان العالمي) كان توقاً ومطلباً قديماً عند الصف المؤسس من الشعراء المسلمين الصوفيين (الكونيين).. فالحلاج (الحسين بن منصور) الذي قال في القرن الثالث الهجري:

رأيتُ ربي بعين قلبي
فقلتُ، مَنْ أنتَ؟ قال، أنتَ

يعلو ويشهد مكانةً غير تقليدية للإنسان.. تدنيه من مكانة المسؤولية العظمى المنفتحة.. المتحررة من حدود التفاصيل الضيقة إلى رؤية خلعتْ النسبيات والمرجعيات ووضعتها في يده.. في روحه.. في عقله الذي أدركَ ذلك كله. ففي قصيدة أخرى يقول الحلاج:

روحه روحي وروحي روحه
إن يشأ شئتُ وإن شئتُ يشأ

فهذه الرؤية المبكرة للإنسان وعلاقاته وحواراته عند الحلاج (والتي دُعيتْ عند دارسي التصوف بـ مذهب العشق) سيطورها الرومي لاحقاً إلى أقصى حدٍ.. فالعاشق عنده هو الذي يُضحي بالاختيار طوعاً لأنه يفتح بذلك بوابة الحرية.

فجلال الدين الرومي يؤمن بوحدة الأديان مثل ابن عربي، يقول الرومي «مسلمٌ أنا، ولكني نصراني وبرهمي وزرادشتي، توكلتُ عليك أيها الحق الأعلى، فلا تنأى عني، ليس لي سوى معبد واحد، أو مسجد واحد أو كنيسة أو بيت أصنام.. ووجهك الكريم منه غاية نعمتي فلا تنأى عني.. لاتنأى عني»(1).

يرى طاغور أن للإنسان ثلاث حيوات في حياة.. أما الحياةُ الأولى فحياة الجسد التي لا تكون على أتمها إلا إذا اتسق هذا الجسد مع سائر أجساد الدنيا الطبيعية.. فالعين يقابلها الضوء، والأذن يقابلها الصوت والمعدة يقابلها الطعام.. فجانب من جوانب الجسم الإنساني يتصل بجانب أو جوانب من الطبيعة الخارجية، فإن جاءت الصلة بينهما فخير، وإلا كان الجسم معلولاً يريد البرء من علته لتستقيم صلاته ببيئته مرة أخرى. وأما الحياة الثانية فحياة العقل، فثمة مقولات كقوانين العلم مثلاً، ويراد لعقل الإنسان فهمها وقبولها، فإن فعل كانت حياته العقلية سوية سليمة، وإلا فالإنسان عندئذ يُوصف بالبلادة والغباء والجهل.. أما الحياة الثالثة فحياة الروح التي تتناول علاقة الشخصية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الفردية بالشخصية الإنسانية العامة.
فإلى أي حد تتسق نوازع الفرد الواحد وعواطفه وأهدافه مع نوازع الإنسانية وعواطفها وأهدافها؟

حرية الجسم مرهونة بعلاقته بالطبيعة المادية، وحرية العقل مرهونة بعلاقته بعالم المعقولات، وأما حرية الروح فمرهونة بعلاقتها بعالم الروح.. وهكذا نستطيع أنْ نلمسَ مفرداتٍ ولغة جديدة إلى حدٍ ما في تقسيم حيوات الإنسان.. خصوصيةُ طاغور هو محاولته تصوير الإنسان أمام الخالق والفرق الشاسع بين الخالق والمخلوق من جهة والتقارب الغريب ورفع الكلفة بينهما من جهة.. وهو ما يجعلنا نلمحُ التقارب بينه وبين الحلاج ومن ثم الرومي.. خاصةً حين يشبِّهُ الإنسانَ بناي صغير من القصب في يد الخالق، فحينذاك لابد من أن يتجلى أمامنا الفضاءُ اللانهائي لـ (ناي جلال الدين الرومي) وإنْ كان طاغور يرى ذلك الناي يكبر شأنه إذا أراد الله أن يملأهُ حياةً متجددة وموسيقى أبدية.. ففي ذلك الحين يتسعُ قلب الإنسان ويبتهج ويكاد يذوب فرحاً، وتصبح يداه قادرتين على أن تتلقيا أكثر مما أتحفهما الخالق»..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الموسيقى.. دمُ الشعر الكوني

اهتم طاغور بالموسيقى اهتماماً فائقاً فرأى أن السبب الذي يصل الإنسان بربه، هو قدرته على الغناء، فما الحياةُ وما بها إلا هذا النشيد الذي يصعد من الطبيعة، ومن الكائنات ومن الجمال والطرب الذي يختلج له قلب المغني فيدرك حينئذٍ أنَّ صداقةً تربطهُ بربه.. وإذاً: فضاءٌ حقيقي مشترك بين طاغور وجلال الدين الرومي على وجه

الخصوص.. بذاك الأداء المولوي الجامع بين الناي والرقص والشعر والخشوع المتصاعد إلى منتهاه.

غير أنَّ طاغور الذي جعل الحبَّ الإنساني منطلقاً لكتاباته.. وكانت الموسيقى إحدى الفنون التي عشقها وكتب عنها، تميز بحضوره الواعي والعميق وقراءاته في الفن الغربي وأهمها الموسيقى. وهذا ما أفضى به إلى مقارناتٍ بين الأداء الأوروبي والارتجال الهندي، فالفنان الغربي الذي يعزف مقطوعة موسيقية فإنَّما يذهبُ في الأداء المسرحي المحسوب مذهباً بعيداً جامعاً بين الأداء الموسيقي والأداء المسرحي بتوازنٍ، فلاحظ بالمقارنة مع الفنان الهندي أنه كان في أشدِّ البُعد عن هذا الفعل المسرحي وبقي على نحو مباشر يتجه إلى الخشوع.. غير أنَّ طاغور مال بقلبه ووجدانه إلى الحياة الحقيقية والحركة والصدق غير المفتعل في موسيقاه.. موسيقى الهند.. مستهجناً إلى حدٍ ما هذا الإخراج العلمي الدقيق والتأثير المسرحي الذي تهدف إليه الموسيقى الغربية.. واعتبرَ ذلك من (الأقنعة المُريعة) التي لا تفتأ الحضارةُ الغربية تستخدمُها هنا وهناك..» ألا ترين القبح المميت الذي يتفجر في كل مكان؟ في المدن وفي علاقات البلاد بعضا ببعض حيث يسود دوماً هذا القناع المجوج الذي لا يدع للروح أدنى مجال للتعبير الحي؟».

تبلور الأثرُ الموسيقي والأثرُ الشعري باعتبارهما مكوناً لدم التجربة الصوفية عند جلال الدين الرومي والتي سبقت تجربة طاغور بـ ثمانية قرون..

بالنسبة للرومي كان التصوف سبيل الوصول.. مزيج من الحكمة والروحانية وعبر كل ذلك بلغ أسمى عتبات العبقرية الشعرية.. هرب بالإنسان إلى أقاصي الروح وجعل منه غباراً أمام الطبيعة التي لا تغني إلا لله فغنى معها.. ثم رقص ومن هذا المصدر المتوحد (الشعر- الموسيقى) نصلُ إلى الرقص وتعريفه عند الرومي « وأن تدور.. فإن الكون يدور والكواكب تدور والزمان يدور، والسماء ليست مرآة إلا لرقص أوسع هو رقص الأكوان المرئية واللامرئية..» وأما الراقص فهو كائن مخلوق من حب..

ومع ذلك فإن هذا الأثر العميق (الكوني الشرقي الإسلامي) هو المحيطُ الذي انبثقتْ منه عبقريةُ طاغور الشعرية أولاً، وثانياً: فإنَّ عالميتَها القديمة هي التي مَهَّدَتْ لطاغور خطواته نحو العالمية الحديثة (العالمية بتعريفها الغربي)..

ولكنْ، قُدر لأفكار الرومي أن تجد طريقها إلى الفكر الإسلامي الحديث

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على نحوٍ مرجعي مُعترفٍ بها، وذلك على يد الشاعر الهندي الكبير محمد إقبال (ت ١٩٣٨م) وذلك في مقدمة منظومته الفارسية (أسرار خودي) أي أسرار الذات.. حيثُ تحوَّلَ (العشق) عنده إلى عشق للأمل وللمثل الأعلى[٢].

رمزية المصباح والفراشة: من مصباحُ الحلاج إلى يراعات طاغور

أطلع طاغور بشكل معمق على الآداب العالمية (الغربية).. ونظر إلى الأدب باتساعٍ ووعي حتى إنه اعتبر الأدبَ دولةً « إن دولةَ الأدب تُمتد في المنطقة التي تبدو مختبئة في أعماق الغموض وتجعلها إنسانية.. إنه ينمو لا ليدخل في التاريخ والعلم والفلسفة فحسب، بل ليدخل في وعينا الاجتماعي...».

أخذ طاغور يُقارن بين الحضارات واستطاع أن يستخلص فكراً جديداً ناقداً للحضارة الآلية التي تمجد الذكاء العلمي على حساب صوت القلب والضمير.. ومن أقواله في ذلك « إن من واجب كل شعب وكل جنس أن يتعهد ويرعى شعلة المصباح الروحي الذي يؤدي دوره في إنارة العالم، فإنَّ تحطيم مصباح شعب من الشعوب هو حرمان هذا الشعب من حقه في أن يتخذ مكانه في حفل الكون.. يالتعاسة الشعب الذي لا مصباحَ لـه! ولكن مَنْ هو أشقى وأتعس منه بكثير ذلك الشعب الذي انتزع المستعمر مصباحه، أو تخلف هو نفسه عن إيقاد مصباحه».. في نداء طاغور هذا جعل (المصباح الروحي) هو المصدر الذي يمجد الحياة ويعلي قيمة الإنسان في العالم، وقد أدخل هذا المطلب في لغة عصره ومصطلحاتها واللغة التي كان يستوعبها الغرب.. فهنا دخل دخولاً شرقياً صميماً في قوالب المصطلحات الغربية فاستخدم (شعب- جنس- العالم- حرمان الشعب من حقه-) من دون أن يتراجع قيد أنملة عن كل ما يريد (حفل الكون- انتزع المستعمر مصباحه) وكأنه سار هو وغاندي على خطين متماثلين متوازيين باتجاه الوطن فلن ننسى أنَّ غاندي قدَّمَ أداءً آخر لهذه الفكرة ليُقَدِّمَ إحدى تجلياته وحركياته الأكثر نُبلاً ونقاءً.. فكانتْ بسببٍ من ذلك إحدى إمكانياتِ الشرقِ على الغرب.. طريقةٌ في السياسة صُدِّرَتْ إلى العالم.. طريقةٌ ممكنة طُبِقَتْ على الأرض، وكان العالمُ يمورُ في حروبه الكونية حين تقدمَ ذلك الرجلُ المتناهي ببساطته الشكلية، الفائق السمو بنفسه وحركته.. بنحافته التي تطابقُ أشدَّ الناس فقراً في الهند (وغير الهند) وبردائه الأبيض الزاهد وعصاهُ وقدميه الحافيتين.. تلك الصورةُ التي لن ينساها مجلسُ العموم البريطاني.. ولن ينساها العالمُ كلهُ.. كان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

غاندي الشرقـيُّ الذي اخترقَ بوعيه وذكائه كتلـةَ ومساربَ القوانين الإنكليزية، لكنه هو نفسُـهُ كان إنساناً هندياً خالصـاً استطاعَ أن يستخلصَ وأنْ يستشـفَ من بيئته تلك اللمحاتِ الأصيلة المطمئنة التي هي في غاية القوة بعدَ مجموعةِ الاستيعابات الكثيرة التي دخلَتْ بنيتـه وطريقته، فكان ما أطلقَ عليه الغربُ لاحقاً مصطلح (المقاومة السلبية).. ولا أدري كيف شَكَّلَ الغربُ هذا المصطلح؟! إذ إنَّ مـا حققهُ غاندي هـو نضجٌ وامتلاء وخُلُـقٌ رفيعٌ قـدَّمَ بالنتيجة مثـلاً لتحَقُق المقاومة على الأرض.. إنَّ في مظهر غاندي تلك المُخَيلـة النقية التي تشبهُ الماءَ والترابَ والإيمان.. وتلك المخيلة التي استطاعتْ أنْ تسير على الأرض..

إذاً: في التجربة الهندية الحديثة محوران فائقـا الحضور والأثر.. غاندي الذي أضاءَ (دولـةَ الوطن) وطاغور الـذي أضاءَ (دولةَ الأدب).

وطاغور في ديوانه (البراعات)[٣] يتابعُ في سحر الأغنية وفي جدلية المصباح والفراشة.. يقـول: «إن المصباح المُهْمَـل، ينتظر طوال النهار، قبلـة الشعلة التي تسوق الليل» ففي هـذه (البراعة التي تريد الاحتراق) يتحرك طاغـور في مستويين معاً متجادلين، الإيقاع الشعري المنتقل بين المتناقضات والمعنى غير العادي القائـم في الوعي.. وعي الاحتراق! ومثله كان وعيُ الغناء «إن الزهرة الأولى التي تنور على هـذه الأرض، ستدعو الأغنية إلى أن تولد» و«العـالم يحدثني بالصور وروحي تجيبُ بالأغاني».. هنا الأغنية هي الاحتراق الصوتـي الذي تعبر به حواس الإنسان حين أراد أن يحاور الطبيعة وأن يُقلد الخالق..

ومثلما سار الشعراء الكونيون على درب اللاوصول وانغمروا في كل نقطة من الزمان والمكان.. مثلما تابـع طاغور طريقه اللذيذ الراقص المطلوب لذاته «إنَّ قواربي الورقية قد صُنعتْ، لترقص فـوق مويجات الزمن، لا لتدرك هدفاً مـا». ولكنْ عبقرية طاغور لم تتكـون من التراكم فقـط وإلا تحوَّلتْ إلى موسوعة أو انسيكلوبيديا وليس إلى عبقرية شاعر عالمـي.. وإذاً بناءٌ شعري يبني الجنة في الأرض ويعيد القيمةَ العظمى للإنسان

وحلمـه «تظل السماء فارغة، حتى تبني الأرضُ فيها جنتها من الأحلام».. وفي منتهى هذه البراعات يقدم تعريفه للحياة:

«حـين يوافي المـوت ويقـول لي بصوت خفيض:

إن أيامك قد شارفتْ ختامها.

تُرى أيكون في ميسوري أن أجيب:

لم أعش وحسب، لقد عشتُ في الحب.

ثم يسألني: أتظل أغانيك حية باقية؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فأجيب: لا أدري، ولكنني أدري أنني ظفرتُ، بينما كنت أغني، بالخلود، أكثر الأحيان»..

الحياةُ.. هي العيش في الحب والغناء هو الطريق إلى الخلود.

ففي (قاموس الكونية الشعرية الشرقية) هذا لا شك أنَّ ثمة مويجات آتية من الحلاج التي تقربُ لنا مرمانا فصورة «الفراش والمصباح» هي صورةٌ قديمة عند الحلاج. فالفراش لا يقنع بضوء المصباح وحرارته، فيدخل اللهب ليحترق فـ«من وصل وصار إلى النظر استغنى عن الخبر، ومن وصل إلى المنظور استغنى عن النظر»..

هذه الصورة كذلك وصلت إلى الرومي «وكالفراشة المضحية بنفسها، احتكوا بهذا الشمع» «وما معنى علم التوحيد، أن تحرق نفسك أمام الواحد».. وثمة تطور ألمّ بهذه الصورة المنتقلة عبر القرون والأماكن.. فثمة فرق بين الاحتراقين، احتراق الحلاج واحتراق الرومي.. الحلاج كان يستعجل الفرح بينما كان الرومي يرى في الطريق فرحاً يفوقُ فرح الوصول، يقول: «لستُ فراشة نار أحرقُ جناحي وريشي، بل فراشة سلطان أدور حول الأنوار.. ولكن عندما يتحقق الوصول وكما استغنى الحلاج عن النظر حين وصل إلى المنظور».. فعل الرومي أيضاً «كنتُ مُشاركاً في الجناح لجبريل، كان لي ستمئة جناح، والآن وصلتُ إلى صدره، ماذا سأفعل بأجنحتي!» وكلا الاحتراقين خرج منهما طاغور ليكونَ احتراقُهُ هو الوعي والقيمةُ ولذةُ الأغنية.

إن جيلاً ناصعاً وناضجاً من أعمدة الشعر الكوني الشرقيين سبقتْ طاغور يأتي بينهم الرومي[4] غير أنه ليس تاريخياً أولهم ثمة ذرى مضيئة استند إليها بقوة ليتشكل تراثه ليس من منجزه المباشر وحسب ولكنْ من تراث الشعر الكوني الشرقي وليأخذ صفة الإنسانية وليكمل بناءَهُ من الشعر ومن الموسيقى ومن حوار الفلسفة وحركة الجسد أسلوباً سامقاً ومن ثم آليات حياتية حركية نفسية.. عرَفَتْ في تلك اللحظات من الزمن الهجري ذلك التماهي الأعظم من الروح إلى الجسد.. إلى العالم..!

لقد امتلك طاغور[5] في شخصيته ذلك البعد الانفتاحي الذي يذهب في العالم طولاً وعرضاً وعمقاً، فقد زار أوروبة كلها وأمريكا وأماكن أخرى كثيرة.. ودراسته بجامعة لندن جعلته يتأثر بـ شكسبير وملتن وبيرون.. وفي ديوانه (البجعة) قصيدة يصف بها شكسبير بشمس الشعراء وبأنه « أثمن كنز يعتز به قلب انكلترا».. وإن الدخول في آداب العالم هو أفضل وأهم طريقة لاستيعاب الحقائق وإعادة إنتاجها.

أخيراً

يبحث العالمُ عن نقاط يلتقي عليها.. وعن لحظات إنسانية لا تتشكل إلا فوق دروب الثقافة حيث يتم الارتكاز إلى الخصائص العميقة للمثقف، باعتبار أن الثقافة ترتبط بحضور الإنسان الكلي.. أي بذلك الحضور الذي لا يتنازل عن الحقوق والجماليات والبناء والتطوير.

ولكنَّ عُمق الإشكالات في هذا الأمر كبير للغاية.. فهل هناك طرفان كبيران يتجاذبان الثقافة في هذه اللحظات: اليونسكو كمنظمة أممية شاسعة، والعولمة كظاهرة أطلقها السحرة السياسيون الجدد.. أم هو طرف واحد وحسب؟!!

وعلى الرغم من أن الكلام الذي تطلقه اليونسكو يحمل بكثير من الأماني العِذاب التي تتطلع إلى بناء وعي جديد يخلُقُ التصالحَ بين العالمي والمحلي، ويفتحُ فضاءاتٍ نوعية تجاه تنوع الثقافات، ويصنعُ شلالاً رائعاً من مصطلحات التقارب الثقافي.. بالرغم من كل ذلك فإنَّ هذا البعد الدولي للثقافة يغدو أكثر فأكثر ساحةً لمناورات غالباً ما تتحصن خلف سواتر السياسة التي قد تحرك (القرار الثقافي) بصفته جزءاً من مشروعها السياسي....

لقد قررت اليونسكو سنة ٢٠١٠م سنةً دولية للتقارب بين الثقافات، وكان ثمة احتفاليات مقترحة لتنفيذ برامج عالمية تستلهم مضامينها من أعمال طاغور وبابلو نيرودا وإيميه يسيزير وذلك بدءاً من سنة ٢٠١١ وحتى ٢٠١٢م.. وقد جاء في تفسير ذلك: أن هؤلاء العظماء من مناطق جغرافية واسعة، عَرفوا من خلال نشاطهم النضالي وأعمالهم الأدبية كيف يواجهون تناقضات النظام العالمي غير المتكافئ.. وكيف يشكلون إدراكاً جديداً لمجتمعاتهم وللعالم..

ولكنْ، لماذا لم يُضِفْ الحضورُ العربي الثقافي في اليونسكو شاعراً أو أديباً عربياً يمثل هذه الجغرافية المركزية الشاسعة الممتدة على قارتين بآنٍ معاً..؟!

على الرغم من التنازلات التي يقدمها الحضور العربي الثقافي (الدولي) بشكل عام فإني أعتقد أنَّ التوازنات المدروسة هي المطلوبة أكثر من تنازلات لا تفيد.. وثبُتَ أنها لا تفيد.. وأن يعتمد هذا الحضورُ إعلاماً مدروساً داخل هذه المنظمة، وتصديراً لـ (العنوان الإعلامي) المؤثر في العقليات المحركة داخل مثل هذه المنظمات الدولية (لوبي عربي مقابل اللوبي الصهيوني)..

ذلك الوضع الثقافي العربي داخل اليونسكو ليس إلا انعكاساً لواقع الثقافة العربية في الوقت الحاضر التي تسير نحو

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التأقلم.. والارتجالية إلى حد ما.. وهي مُنقادة من حيث تدري ولا تدري.. وكلها سمات تبعدها عن المجابهة والحضور بفاعلية ومواجهة وسط الدائرتين الكبريين: دائرة اليونسكو ودائرة العولمة، بتداعياتهما من تحالفات رأس المال العالمي والسوق العالمية، والحاملُ لكل ما سبق وهي (الشبكة الإعلامية) التي تغدو دائرةً تدعم الدوائر الأخرى.. وتُعِدُ خرائطَ جديدة ربما لكل العالم.

تستحقُ هذه الظاهرةُ الطاغورية بطرفيها المتداخلين من السياسية والثقافة انتباهاً جدياً من قبل الحالة الثقافية العربية ومن الحالة السياسية العربية، وتستحقُ منّا أنْ نتقنَ (الشروطَ القائمة) للوصول إلى استيعابها واستيعاب شروطها، ليس ليكونَ شعراؤنا وكتابنا في مواقعَ مُشابهة.. بل لتكون لهم خصوصيتُهُم الشعرية النوعية كمصدر من مصادر (العالمية القديمة) و(العالمية الجديدة) بتعريفها الغربي واحتكاراتها الواسعة والقاسية في الحياة الثقافية وفي السياسة.

هوامش وحواش

١- مثنوي، جلال الدين الرومي، تحقيق محمد عبد السلام كفافي، صيدا، لبنان، ١٩٦٦ ج١ ص٤ و٥.

٢- فايشر، محمد إقبال وعلاقته بالثقافة الغربية، ص٨٣.

٣- البراعات، ديوان شعري، ربدرانات طاغور- تعريب د يحيى حقي- المعرفة- ١٩٦١م.. والبراعات (جمع براعة وهي فراشة تضيءُ ليلاً).

٤- نجحت تركيا في إيصال جلال الدين الرومي إلى منبر العالمية فخصصت جائزة دولية باسم (جائزة مولانا جلال الدين الرومي الدولية لخدمة الإسلام) وكان أحد الحائزين عليها علي عزت بيجوفيتش رئيس البوسنة الأسبق.

٥- بلغ عدد مؤلفاته الشعرية ستين وله قصص وروايات وعظات.. ترجم معظمها من البنغالية إلى معظم لغات الأرض.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

القومية والوطنية في شعر «إلياس قنصل» (١٩١٠ - ١٩٨١)

أحمد سعيد هواش ✪

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أوَّل ما يطالعنا في شعر الشاعر «إلياس قنصل» هو عزة النفس والإباء العربي، فقد أبقى اسمه مرفوعاً كشاعر عربي رفيع المستوى شعراً وأخلاقاً وسلوكاً، مما جعل جميع من عرفوه يُكنّون له الاحترام والتقدير في الوطن والمهجر لأنه أهل لذلك، يقول من قصيدة «اسمي» كان قد نشرها في مجلة «الرسالة»[1] المصرية التي كان يصدرها الأستاذ المرحوم أحمد حسن الزيات:

✪ أديب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

وقفت على كرامته حياتي
وصنت علاءه من كل ناب
وفضلت الكفاف على ثراء
يلطخُ عزّه برشاش عاب

كما أن الشاعر يدعو إلى الثورة في قصيدة (نشيد المجد) فيقول:[٢]

إن بتَّ مهضوم الحقوق ولم تثر
فلست بذي نفسٍ إلى الله تنسب

وفيها يؤكد على عزة النفس وكرامتها فيقول:

وما النفس إلا عزةٌ وكرامة
يظللها من طارف النبل مذهب

ومن مكان إقامته في عاصمة الأرجنتين كان يرسل أشواقه الحارة إلى أمته العربية، وكأنّ كل قطر عربي هو عنده بمنزلة بلده «سورية»، فها هو ذا يرسل قصيدة بعنوان «تحية إلى مصر» نشرتها أيضاً مجلة «الرسالة»[٣] المذكورة يقول فيها:

قطران في عقد العروبة برّزا
أرض الشآم وموطن الأهرام

ثم يذكر وطنية المغفور له «سعد زغلول» ابن مصر البار وجهاد أبناء الشام فيقول:

يا مصر «سعدُك» كان أيضاً سعدنا
في دفع شر الظلم والظلّام
وجهاد فتيةِ «جلّق» لك حصة
منه، تخلخل أضلع الأخصام

ثم يذكر ما لمصر من فضل بإيواء المجاهدين والوطنيين العرب الذين كانت تلاحقهم السلطات الاستعمارية في بلادهم فيلاقون كل تكريم في أرض الكنانة فيقول:

في أي عصر لم تكوني معقلاً
من كلِّ نائبةٍ لكل مُضام
وأتاك أعلامُ البيان فأُمِّنوا
من شرّة الحكّام والأحكام
خلق لنبلك ما تضاءل فضلهُ
بل عززتْه فضائل الإسلام

ويستمر الشاعر «الياس قنصل» بإرسال أشواقه الحارة لأرض الكنانة بنفسٍ قومي رائع يدل على نبل صاحبه وعروبته الحقة البعيدة عن كل منفعة، فها هو يرسل تحياته من مغتربه لمصر العربية فيقول:

يا مصر لم أنبس بذكرك مرة
إلا وروح الشوق طي كلامي
إن كانت الأقدارُ تأبى أن أرى
فيك البهاء فأنت في أحلامي
لازلت للمجد المؤثل شارةً
وعليك مني ألف ألف سلام!

نقولُ سلاماً على روحك الطاهرة أيها الشاعر المبدع الذي أَحَبَّ العرب والإسلام فأحبوك لأنك الصوت العربي الحر، ألم تحلم بأنك في أرض النبوّة فأرسلت أشواقك

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

وتحياتك الحارة إلى رسول العرب والإنسانية محمد صلى الله عليه وسلم فقلت:

حباك رضاء الله ماكنت تطلب
فهل لك بعد الآن يا قلب مأرب؟
أنا اليوم في أرض النبوة والتقى
يجللني من هالة الوحي كوكب
تدفق عهد الحق من جنباتها
فضاء الهدى وانجاب للبطل غيهبُ
وعز بما فيه من الخير مشرق
وأحرز منه رحمة الصفح مغرب
ووطد عدلاً أفقُهُ ليس ينتهي
وركَّنَ أمناً بدره ليس يحجبُ

ويدفع الحنين الشاعر للعودة إلى وطنه في عام ١٩٥٤م بعد أن غاب عنه طوال ثلاثين عاماً فيقول:

«... وطني ها أنا اليوم أعود إليك لأقبل ترابك... وطني ها أنا أعود لأرتوي من مائك العذب وأبل شفتي بماء نبع «قريتنا» الحبيبة مرتع صباي...».(٤)

بهذه الروح الملأى بالوطنية المفعمة بالحنين لمسقط رأسه ووطنه وصل شاعرنا لأرض الوطن وبقي فيه حوالي ثلاث سنوات عمل من خلالها في الصحافة والأدب وفي أواخر عام ١٩٥٦م قرَّر العودة إلى مغتربه لأسباب خاصة.

وفي الأرجنتين انصرف إلى التأليف والقاء المحاضرات إلى جانب عمله التجاري، فأصدر عدة مؤلفات بالعربية وبالإسبانية، كما كان يحاضر بالإسبانية خطيباً مفوهاً، فقد ألقى محاضرة عن «دور المرأة في الإسلام» كان لها دور كبير في مختلف الأوساط الأدبية الأرجنتينية، لقد كان على الرغم من مسيحيته معجباً بالدين الإسلامي إلى أبعد الحدود، وبشكل خاص بالنبي العربي الكريم وصحابته الكرام.(٥)

وقد نظم القصائد الطوال متغنياً ببطولات قادة المسلمين، وعلى رأسهم النبي العربي الكريم محمد r وهذه بعض الأبيات من قصيدته العصماء ذات التسعة والتسعين بيتاً تحت عنوان:

«النبي العربي الكريم» وفيها يظهر عدالة الرسالة السمحاء والرسول الكريم فيقول:

أني ذكرتك يا محمدُ ناشراً
روح الأخوة في بني الإنسان
يعلو «بلال» العبد أشرف قبةٍ
ليذيع منها أشرف الألحان
حق المواهب أن يقدر أهلها
لا فرق في الأجناس والألوان

نعم إنه لمن الفضل أن يشيد شاعرٌ عربي غساني بالرسول العربي الكريم محمد r ورسالته السمحاء التي تشمل الأمم كافة

لا فـرق بين جنس وجنس أو لون ولون، فمـؤذن الرسـول (بلال) الحبشي كانت له ومازالت منزلته في هذه الرسالة المباركة...

وكثيراً ما يردد الشاعر ويقرن الإباء وعزة نفسـه بحبه لوطنه، وهذا طبيعـي بالنسبـة لشاعر عربي مثل الياس قنصل نذر نفسه أن يكـون صوت أمته وممثلها في المهجر، لأن الشاعر جزء من أمة عرفـت بأنها خـير أمة أخرجت للناس، فقد نشـرت الحضارة والمدينـة من أقصـى الشرق إلى أقصى الغرب ووصلت فتوحاتها للأندلس فردوس العرب المفقود وإلى مقاطعـة «بواتيـه» الفرنسيـة، وإلى بـلاد الهند والسند وغيرهمـا، التي فتحها الفاتحـون بقلوبهم قبـل سيوفهم مما جعل المؤرخ الفرنسي «غوستاف لوبون» يقول:

«ما عـرف التاريـخ فاتحـاً أرحم من العرب». على عكس ما نرى ممّا ارتكب من مجازر وسلب ونهب في فتوحات أخرى، ولهذا أشار الشاعر اليـاس قنصل فقال: مخاطباً وطنه الكبير بهذا المطلع الرائع:

وَقْـفٌ عليك حماستي وإبائي
وفِـدَاك جهد يراعتي ومضائي

وطني، وهل في الدهر مثلك أمة
جلَّت مآثرها عن الإحصاء؟

العبقرية من خيالك دفقة
عَـزَّ الوجودُ بنورها الوضاء

فتحوا مكان السلب رائد فتحهم
ودليلهم من شرة السفهاء

وكم حز في نفس شاعرنا احتلال القدس الشريف بيـد شذاذ الآفـاق «اليهود»؛ هذه المدينة المقدسة التي سلمت إلينا من السلف

الصالـح ذوي الأخـلاق الرفيعة، منذ عهد الخليفة الراشـدي الثاني عمر بن الخطاب y، ومن بعده البطل صـلاح الدين الأيوبي، كيـف نسلمه وهو أعز أمانة بين أيدينا، لقد سقطـت القدس ليس بسبـب رداءة السلاح وإنمـا بسبب تدني الأخـلاق وتشربها لروح المذلة... هذه الحالة لابد وأن تزول وتتحرر القدس من جديد وذلـك ببطولة الشهداء العرب فقال:

إنـا خسرنـا القـدس وهـي وديـعـة
في عـهـدنـا مـن سـؤدد الخـلاق
مـاكـان مـن وهـن السـلاح ضيـاعـهـا
بـل مـن شـيـوع الـذل في الأخـلاق

* * *

رُبَّ جـيـل مـن الخـنـوع محتـه
سـاعـة مـن بـطـولـة الشـهـداء

نعم إن القدس هي وديعة الله بين أيدينا وقد صانها الأجداد فكيف نفرط بها؟..

وفي عـام ١٩٧٦م زار «ليبيـا» ومنهـا قـدم لزيارة «سورية» فـكان موضع اهتمام الأوساط الأدبيـة والثقافية، وقد نظمت له رحـلات لربـوع الوطن ليرى مـدى التقدم الحضاري الذي وصل لـه وطنه في غيابه، وقد قام اتحـاد الكتاب العرب بطبع ديوانه الشعري الأخـير: «ألحان الغـروب» وينبئ عنوانه أن شمس صاحبـه بدأت تميل نحو المغيـب أو كادت.. وقـد تضمـن قصيدة اسمها: «الفصـول الأربعة» فكأنه يرى فيها نفسه فيقول:

مـرت عـلـيَّ مـن الـفـصـول ثـلاثـة
وأنـا أقـاسـي الآن ظـلـم الـرابـع
كـانـت تجـاري الـنـيرات رغـائـبـي
والـيـوم تـقـنـع بـالحصـاة مطـامـعي
كـانـت تـشـد الـنـائـبـاتُ عـزيـمـتـي
وتحـطـم الـعـقـبـات بـين أصـابـعـي
فـغـدوت أبـحـث عـن طـبـيـب مـاهـر
لِـيُـعِـدَّ لي وصـف الـدواء الـنـاجـع
هـذا قـضـاء الـدهـر لـيـس يـرده
تـرديـد أنّـات وذرف مـدامـع

إنها اعترافات بالتبدل عند الشاعر وما طرأ على نفسيتـه من جراء المرض فأصبح يعتريـه اليأس والقنـوط ويذكر كيف كانت آماله تجـاري النجوم وهـا هـي اليوم تقنع مطامعه بالحصـاة.. فليفتش له عن طبيب ماهـر ليصف لـه العلاج الناجـع... هذا قضاء الله..

وفي عـام ١٩٧٩ زار «سوريـة» للمـرة الثالثة ومكـث فيها حـوالي الشهرين، وفي عـام ١٩٨٠ كانت زيارته الأخيرة التي دامت سبعـة وعشريـن يوماً، ثـم غادرها لمغتربه في الأرجنتـين، ومن هناك أرسـل قصيدة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لصحيفة تشرين السورية بعنوان (مناهل من جمر)، نشرت بتاريخ ١٩٨٠/٧/٢٨م وهي عبارة عن نفثات شاعر تائه محطم يائس، يرى حياته قفراً، وآماله سراباً يقول منها:

قضيت حياتي هائماً برغائب
تحير في تجديد أطوارها فكري
ترافقني في يقظتي وتعودني
إذا نمت أحلاماً لها وحشة القبر

إنها حشرجات نفس قانطة ترى كوابيس مزعجة في الحلم واليقظة، يريد التخلص من إزعاجها ولكن دونَ فائدة، فليجرب، الخمر، والغانيات لعلهما يبعدان هذه الكوابيس ولكن من دون جدوى فقال:

ظننت كؤوس الخمر تمحو خيالها
فـفـاجـأني في كل كأس من الخمر
ولذت بسحر اللحظ والخد واللمى
فلم يُجْدِ ما في الغانيات من السحر

ثم يخاطب الله تعالى فيقول:

فيا رب ما ركبت بين جوانحي
أقلباً رقيقاً أم مناهل من جَمْرِ؟
وهل أبدعت كفاك دنيا جديدة
أحن إلى آفاقها دون أن أدري؟

ثم يصف ما آلت إليه نفسه من إحباط وقنوط وتعاسة وتبدد الآمال فيقول:

طلاسم آمالي تجرعني الأسى
وشوقي إلى المجهول يمعن في قهري
وأصعب أشكال التعاسة وحدة
وحولك لو يرضيك ماشئت من بِشْرِ

إنها أصعب حالة وأشدها أن يصل الشاعر لهذه المرحلة من اليأس، وَقْد فَقَدَ كلَّ ما يختزن من آمال إنها مرحلة ماقبل النهاية...

وبالفعل فاضت روحه في العشرين من آذار١٩٨١م.

رحم الله الشاعر «الياس قنصل» فقد خدم أمته العربية بنبل وإباء، كما خدم أدبها العربي، فكان بحق صوت أمته الداوي في المهجر...

الهوامش

١- مجلة الرسالة لعام١٩٣٥م، العدد (١٣٤٥)، ١٩٣٥/١١/١٨م.
٢- مجلة الرسالة، العدد(١٠١)، ١٩٣٥/٦/١٠م.
٣- مجلة الرسالة لعام١٩٣٥م، العدد (١١٤)، ١٩٣٥/٩/٩م.
٤- من مقال للشاعر نشر قبل وصوله بشهر واحد في مجلة «الدنيا» الدمشقية.
٥- مجلة الكويت، العدد (٢٤) لعام ١٩٨٢م.

الصحافة الإلكترونية وأثرها على منظومة النشر الورقي

د. فايز حداد *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقد حققت تكنولوجيا الإلكترونات والمعلوماتية بتطورها المذهل تغيرات جذرية على جميع الأصعدة والاتجاهات، متجاوزة منطق الحدود والمسافات، هذا إن لم نقل أنها أصبحت تمثل الأداة الفعالة لتحقيق التنمية والنهوض للمجتمع والارتقاء بجميع مناحي الحياة، إنه عصر الإلكترونات والمعلوماتية بلا جدال، عصر الذكاء الاصطناعي وعصر الإنسان الاتصالي، وهو ما

---

* كاتب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

يفسر ظهور العديد من المصطلحات التي انضافت على قاموس العصر مثل الحكومة الإلكترونية، التجارة الإلكترونية، النقود الإلكترونية، الصحافة الإلكترونية والتي هي موضوع مقالنا.

بداية الصحافة الإلكترونية

ظهرت الصحافة الإلكترونية لأول مرة في منتصف تسعينيات القرن الماضي، لتشكل بذلك ظاهرة إعلامية جديدة ارتبطت مباشرة بعصور ثورة تكنولوجيا الاتصال والمعلومات، وليصبح المشهد الإعلامي والاتصالي الدولي أكثر انفتاحا وسعة، حيث أصبح بمقدور من يشاء الإسهام في إيصال صوته ورأيه لجمهور واسع من القراء دونما تعقيدات الصحافة الورقية وموافقة الناشر في حدود معينة، وبذلك اتسعت الحريات الصحفية بشكل غير مسبوق، بعد أن أثبتت الظاهرة الإعلامية الجديدة قدرتها على تخطي الحدود الجغرافية بيسر وسهولة.

كانت بداية الصحافة الإلكترونية مجرد مواقع تحتوي على مقالات وموضوعات وأفكار وأطروحات ورؤى بسيطة، وتحديدا انطلقت من منتديات الحوار التي تتميز بسهولة تحميل برامجها وبساطة تركيبها، ويكفيك أن تقوم بتحميل هذه البرامج المجانية في الغالب ورفعها لموقعك في أقل من ساعة، ليبدأ بعدها الموقع بأثره في العمل المحدد له وفي اجتذاب عدد كبير من الزوّار، وقد نجحت هذه المنتديات في جذب واستقطاب المتصفحين الذين يضعون فيها آراء وأفكاراً حرة غير خاضعة للرقابة مثلما يحدث في المواقع الكبرى، ثم ومن خلالها بدأ أصحاب الآراء الواحدة يشكلون فيما بينهم مجموعات داخل المنتديات التي يتبادلون خلالها الحوارات، وبالطبع فإن الحرية التي تميزت بها شبكة الإنترنت وعدم السيطرة عليها في البداية وسرعة تداول المعلومات هو الذي حفز الجميع للاهتمام بالإنترنت، ولا بد من معرفة أنه كانت هناك صعوبات للإنترنت في بداياتها من أهمها أنه لا يمكن تصفح هذه المواقع إلا لمن يجيد استخدام الكمبيوتر.

مميزات الصحف الإلكترونية

يكفي الصحافة الإلكترونية أنها في

الغالب تتبع الحرية الكاملة التي يتمتع بها القارئ والكاتب على الإنترنت بخلاف الصحافة الورقية التي تكون بالعادة قد تمّ تعديل مقالاتها من قبل الناشر لأكثر من مرة حتى يكون وفقا لسياسة الصحيفة، إضافة إلى مجموعة من المميزات تمّ تلخيصها فيما يلي:

- اتساع رقعة القرّاء في كل أنحاء العالم.

- صحافة تتميز بالسرعة ولا يستلزم خروجها إلى العالم كل الضجيج الصادر من ماكينات الطباعة ولا الحاجة إلى أطنان من الورق.

- صحافة حية تتفاعل مع الأحداث في التو واللحظة أينما كان الحدث.

- السرعة في تلقي الأخبار العاجلة وتضمين الصور وأفلام الفيديو مما يدعم مصداقية الخبر.

- سرعة وسهولة تداول البيانات على الإنترنت بفارق كبير عن الصحافة الورقية التي يجب أن تقوم بانتظارها حتى صباح اليوم التالي.

- حدوث تفاعل مباشر بين القارئ والكاتب حيث يمكنهما أن يلتقيا في التو واللحظة معا.

- أتاحت الصحافة الإلكترونية إمكانية مشاركة مباشرة للقارئ في عملية التحرير من خلال التعليقات التي توفرها الكثير من الصحف الإلكترونية للقراء، بحيث يمكن للمشارك أن يكتب تعليقه على أي مقال أو موضوع ويقوم بالنشر لنفسه في اللحظة نفسها.

- التكاليف المالية الضخمة عند الرغبة في إصدار صحيفة ورقية بدءاً من الحصول على ترخيص مروراً بالإجراءات الرسمية والتنظيمية، بينما الوضع في الصحافة الإلكترونية مختلف تماماً حيث لا يستلزم الأمر سوى مبالغ مالية قليلة لتصدر الصحيفة الإلكترونية بعدها بكل سهولة.

- ارتفاع تكاليف الورق الذي يكبد الصحف الورقية مشقة مالية يومياً، بينما لا يحتاج من يرغب التعامل مع الصحافة الإلكترونية سوى لجهاز كمبيوتر ومجموعة من البرامج التي يتم تركيبها لمرة واحدة.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- عدم حاجة الصحف الإلكترونية إلى مقر موحد لجميع العاملين، إنما يمكن إصدار الصحف الإلكترونية بفريق عمل متفرق في أنحاء العالم.

الصعوبات التي تواجه الصحافة الإلكترونية

تواجه الصحافة الإلكترونية العديد من الصعوبات ومن أهمها:

١- تعاني الكثير من الصحف الإلكترونية صعوبات مادية تتعلق بتمويلها وتسديد مصاريفها.

٢- غياب التخطيط وعدم وضوح الرؤية المتعلقة بمستقبل هذا النوع من الإعلام.

٣- ندرة الصحفي الإلكتروني.

٤- عدم وجود عائد مادي للصحافة الإلكترونية من خلال الإعلانات كما هي الحال في الصحافة الورقية، حيث أن المعلن لا يزال يشعر بعدم الثقة في الصحافة الإلكترونية.

٥- غياب الأنظمة واللوائح والقوانين

وهـو ما يحتاجه الإعلام الإلكتروني ويسعى للحصول عليه.

٦- الصحافـة الإلكترونيـة بلا مردود، علـى الرغم مـن أن المعلنون قـد بدؤوا في السنوات الأخيرة يدركون أهمية هذا النوع من الصحافة مما ساعدها على الخروج من نفق التعثر المادي.

معلومات جديدة ومتنوعة

إن النشر الإلكتروني وفر للباحثين فرصة الاطلاع على عـدد هائل مـن المعلومات المتنوعة والجديدة عـبر التجول في قواعد النشر الإلكـتروني دون ضجر وملل وبجهد أقـل، كمـا قلـل المـدى الزمنـي لتجميع المعلومات، وتكويـن الآراء بسرعة وفاعلية، وتطـورت مهـارات الباحثـين في الوصول إلى المعلومـات، وزاد تفاعـل الباحثـين مع التقنيات الإلكترونيـة المستخدمة بالمكتبات وأصبحـوا على فهم أكـبر لإمكانات النشر الإلكتروني وضـرورة العمل على استغلالها، وهـو ما يعـزز التنافس بـين الباحثين من وجهة نظرنا. وتطورت قدرات الباحثين في التعبير عمـا يجول في خواطرهم من خلال صياغـة واستخـدام أكثر مـن إستراتيجية بحـث في سبيـل الوصـول إلى المعلومـات المطلوبة، ومنحتهـم المكتبات معاً توفيراً في المساحات اللازمة لجمع المعلومات، وأصبح بإمـكان المستفيدين الاطـلاع على البرامج الحالية والمرتقبـة والتعرف على الدوريات الإلكترونيـة والمراجـع ونشـرات الإحاطة الجاريـة والفهارس الإلكترونيـة يومياً بما يلبي مختلف الاحتياجات والرغبات.

إن استخـدام قواعد النشـر الإلكتروني يحقـق للباحثين الحصول علـى معلومات جديدة في موضوع البحث والوصول إلى كمٍّ هائل من المعلومات، واختصار الوقت لإعداد البحث العلمـي، وإثراء البحـث، والارتقاء بقيمتـه إضافـة إلى الاتصـال بالمختصين للاستفادة منهم، أو القيام بمشاريع مشتركة، والحث على التعاون بين المهتمين في البحث العلمي، وزيادة قوة وفاعلية البحث العلمي، وزيادة الاستمتاع أثناء البحث العلمي، وزيادة الاستعـداد للبحث العلمي وهـو ما يساعد على تميـز البحث العلمـي وتحقيق السبق العلمي أيضاً.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

آلة اقتصادية ومادية

في ثورة المعلوماتية فرضت الصحافة الإلكترونية نفسها على الساحة الإعلامية كمنافس قوي للصحافة الورقية، والمتابع للدراسات التي تنشر حول مستقبل الصحافة الإلكترونية يمكنه أن يؤكد أنها قادمة بقوة، وعلينا الاعتراف بأهميتها، وهذا لا يعني أنها سوف تقلل من أهمية الصحافة الورقية، وإنَّما هي تعمل على إثرائها، والمتخصصون هنا يؤكدون أن المستقبل لهذا النوع من الصحافة، وفي اعتقادي أنّ كل القائمين على رئاسة تحرير وإدارات الصحف الورقية في منطقتنا العربية مؤمنون بأهمية الإنترنت كوسيلة إعلامية، وإلا لما تسابقوا على إطلاق نسخ إلكترونية لصحفهم، ولقد استغلت الصحف الكبرى عربية وغربية مواقعها الإلكترونية لتزيد من حيويتها وتأثيرها ودورها الإعلامي وحجم انتشارها ومواردها المالية، ومبرر الاهتمام بسيط للغاية، وهو أن الصحافة الإلكترونية أصبحت آلة اقتصادية ومالية ضخمة إذ إن موارد الصحف من مواقعها الإلكترونية تنامت بنسبة ٣٣ بالمئة سنوياً وهو ما تؤكده الدراسات في هذا المجال.

وسيلة بحث مهمة

نتيجة للمعلومات الإلكترونية التي أصبحت تفرض وجودها بقوة في مجالات البحث والتنمية، لم تعد أساليب البحث التقليدية قادرة على تلبية احتياجات الباحثين، بسبب تداخل الموضوعات، وظهور موضوعات جديدة والذي كان له أثره البالغ في تغيير طبيعة الحاجة إلى المعلومات في مختلف مجالات الحياة. وبالتالي لجأت المكتبات ومراكز المعلومات إلى الاشتراك الإلكتروني، لأن الدورية الإلكترونية أصبحت وسيلة بحث مهمة لا يمكن إغفالها، ولم يعد بإمكان المكتبات ومراكز المعلومات الاستغناء عن مقومات التعامل مع مثل هذه القنوات، وخاصة أن الباحثين أنفسهم أصبحوا هم أيضا على دراية باستخدام شبكة الإنترنت للوصول إلى ما يحتاجون إليه من البحوث والمقالات المنشورة في عدد كبير من الدوريات التي تشترك بها هذه القواعد.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مقارنة بين الصحافة الورقية والإلكترونية

هناك من يرى أن المقارنة بين الصحافة الورقية والإلكترونية مرفوضة من منطلق أن الصحافة الورقية صحافة بالمعنى العلمي والواقعي للكلمة، وأن الصحافة الإلكترونية مجرد وسيلة للنشر وجمع النصوص والمقالات والأخبار والصور وبشكل آلي مجرد من المشاعر والإبداع والفاعلية، أما الطرف الآخر فيرون أن الصحافة الإلكترونية مكملة لدور الصحافة الورقية والمطبوعة وليس هناك صراع بينهما، الا أن التمويل أصبح الآن من آليات نجاح تلك الصحف في شكلها الحديث الذي ينعكس بالتالي على شكل وأداء الموقع من حيث تنوع أخباره وتحديثها بين الحين والآخر، إذ إن ثقافة الإنترنت أصبح لها جماهيرها وشعبيتها، وهي في ازدياد مطّرد على العكس من قراء الصحف والكتب، إلا أن خبراء الإعلام يؤدون على أن كل وسيلة إعلامية تتميز بأدواتها وبجمهورها، فالنشر الإلكتروني موجه لشريحة عريضة تتعامل مع الإنترنت وتعتمد عليه إلى حد كبير للحصول على المعلومات، كما أن الصحافة الإلكترونية واكبت أدواتها الجمهور المتفاعل أو ربما هي التي أوجدت هذا الجمهور لتلغي مفهوم الجمهور المتلقي، وقد أثرت هذه الخصائص التفاعلية التي ازدهرت في عصر الإنترنت على الصحف الورقية التي أعادت حساباتها، وبدأت تولي اهتماماً كبيراً بفتح مجالات تفاعل مع قرائها.

زوال الدوريات الورقية

يرى البعض أن الوقت لا يزال مبكراً للإجابة عن هذا السؤال بالنفي، والقول أن الصحافة الإلكترونية تتمتع بمزايا عديدة من حيث ضخامة المعلومات التي توفرها وسهولة الرجوع إليها والاستفادة منها على الشكل الذي نريد، إلا أن هناك جانبا آخر غفل عنه الباحثون وهو أن استخدام بعض الدوريات الورقية قد زاد كثيرا عن ذي قبل، فالإشارات المرجعية في النشر الإلكتروني، وعدم ثبات المعلومات فيه أجبرت الباحثين على الاستمرار في التعامل مع ما هو منشور ورقيًا. فالدوريات الإلكترونية رغم ما توفره من المزايا العديدة للمكتبات والباحثين على

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

حدّ سواء لها بعض السلبيات، فالرجوع إلى معلومة معينة منشورة بالشكل الإلكتروني بقصد التأكد منها أو توثيقها قد يتعذر أحيانا بسبب اختفاء الدورية من الموقع «شبكة الإنترنت» وعادة مثل هذا يحدث لأسباب منها توقف الدورية عن الصدور أو إلغاء الدورية من القاعدة المضيفة أو اختلاف على حقوق النشر بين الدورية وبين الشركة المضيفة، أو تحول في سياسة النشر في الدورية كأن تبقي فقط على الشبكة الصادر خلال السنة أو السنتين الأخيرتين فقط مثلا..إلخ.

إن مثل هذه المشكلة تواجه الباحثين، وخاصة في مجال تحكيم البحوث لأسباب الترقية، والتثبيت في الوظيفة، فالبحث الذي نشره أي باحث قد لا يجده في الشبكة عند الرجوع إليه هو أو لجنة التحكيم، من جهة ثانية تواجه لجان الترقية مشكلة وهي هل المقال المنشور تمت مراجعته بنفس الدقة والتمحيص الذي تعامل به المقالات الورقية؟ فعمليات التحكيم مهمة جدّاً للخبراء بل إنها قضية شبه مقدسة عندما تدخل في اتخاذ قرارات بشأن الترقيات، وعليه فإن مسألة الدوريات الورقية في طريقها إلى الزوال، أو مسألة إلغاء الاشتراك بالدوريات الورقية قضايا لا يجب القطع النهائي بها، وقبل اتخاذ أي قرار شأن ذلك يجب الوقوف عنده ودراسته على نحو علمي دقيق.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اللغة العربية: مواجهات وحلول

د. خليل الموسى ✪

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إذا كانت اللغة أيّ لغة كائناً حيّاً كما يؤكد ذلك علم اللغة، فإنها ستتعرّض لما تتعرَّض له الكائنات الأخرى من عوامل التغيير والتطور والتراجع والتقدم ولحظـات الضعف والقوة، ويكون لها تاريخ ولادة وتاريخ وفاة، وعلماء الآثار اللغويـة واللهجات يستطيعون أن يحدّدوا زمن الولادة التقريبي بما يمتلكون من أدوات دقيقة ومناهج علمية ومعلومات ووثائق تخضع للمختبرات اللغوية،

✪ ناقد وأكاديمي سوري.

العمل الفني: الفنان محمد الوهيبي.

وليس من الضروري أن تكون أعمار اللغات متقاربة أو متشابهة، فلكلّ كائن مهما يكن قوّة داخلية تقاوم الأمراض والوهن، وهي تتضمن خصائص الحياة في داخلها من جهة، وشكيمة المتكلّمين بها من جهة أخرى، ولذلك تعيش بعض اللغات أعماراً طويلة وتموت سواها وهي في المهد.

ومن هنا كانت اللغة العربية فريدة بين اللغات، فهي متجذّرة في القدم ومازالت فتيَّة لما تتحلَّى به من مرونة وسلاسة وخصائص مختلفة قابلة لتجدّد الحياة، ممَّا جعل بعض المستشرقين النزيهين ينكبّون على دراستها لكشف تلك الأسرار التي تمنحها الحيوية والتجدّد، في حين حاول القسم الأكبر منهم وما يزال البحث عن الثغر لتوسيعها فيتسنَّى لهم ضربها من الداخل، فلم يصلوا إلى أغراضهم إلاَّ من خلال بعض المتكلّمين بها على مبدأ ((فرّق تسد)). والضرب من الداخل أكثر إيلاماً ويؤدي إلى الانقسام.

عمر اللغة العربية أبعد بكثير ممّا نذهب إليه، فتاريخها المعروف أقلّ بكثير من تاريخها المجهول، والذهاب إلى مئة وخمسين عاماً قبل الإسلام ضرب من الجهل بتاريخ الأعمار، فزمن المعلّقات (امرؤ القيس- طرفة- النابغة..إلخ) هو عصر الازدهار والقوّة والشباب، وليس عصر الولادة، ولا عصر الطفولة والفتوة، وربما زاد عمرها على خمسة آلاف عام، بدءاً من العرب العاربة في الجنوب إلى العرب المستعربة في الشمال..ثم جاء الإسلام ونزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، فاعتزت به، ومنحها قوّة جديدة ودائمة. ولذلك هي تتراجع بتراجع المتكلمين بها، ولكنَّها لا تموت.

طبيعة اللغة العربية وخصائصها:

من المفيد هنا أن نذكّر بأنَّ اللغة العربية- إضافة إلى أنَّها من أقدم اللغات، وهي تلقّب بـ((أمّ اللغات))- ذات طبيعة مرنة وإيقاعات سلسة، وهي ذات وهويّة، وللذات ذاكرة حاضرة، وخاصة في شعرها الغنائي المتنوع، فأنتَ إذا قرأتَ قصيدة لأحمد شوقي أو قصيدة للأخطل الصغير أو الجواهري وبدوي الجبل، فأنت تستحضر إلى الذاكرة قسماً كبيراً من المعلّقات والمطولات والمحبّرات وما تلاهن من قصائد العصرين الإسلامي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والعباسي، فللذاكرة أيضاً تاريخ حاضر بقوّة في مخيّلة الإنسان العربي، ومن هنا فهي بنت الهوية، وهي وجه ولسان ويد كما ذهب إلى ذلك شاعر العرب أبو الطيّب المتنبي، وتحديد هذه الهوية العروبة، فالوجه ملامح تشير إلى الجنس والدم والأرومة وما يتصل بالنسب الذي يتفاخر به العرب، واللسان أو اللغة أساس من أهمّ الأسس القومية في أوروبة في القرن التاسع عشر، فإذا أصاب اللغة عارض ما أصيبت الأمة به، وهذا ما سعى إليه أعداء العروبة قديماً وحديثاً للنيل من صلابة اللغة بالمراهنة على المتكلّمين بها من أصحاب النفوس الضعيفة، فاستطاعوا غير مرَّة أن ينالوا من شكيمتها إلى حين، ولكنَّها سرعان ما كانت تعود إلى ما كانت عليه من حيوية وقوة، وكأنها تستعيد شبابها بالمحن التي تواجهها، والضربات القاتلة التي توجّه إليها تكشف عن جوهرها الأصيل وتدفع خصائصها للمناعة والتحديات.

خصائص العربية لا تعدّ ولا تُحصى، وهي تؤهلها للبقاء والتطور والحياة، ومنها:

- القدرة على الاشتقاق وتوليد الكلمات ذات الأصل الواحد، ومن هنا بُنيت المعاجم العربية على الجذر اللغوي الذي شكّل أسرة كاملة من الكلمات، فتغيير أيّ حرف في الكلمة الواحدة يقابله تغيّر في الدلالة، وقد حصر المشتغلون باللغة أحرف الزيادة في كلمة ((سألتمونيها))، وليس كذلك معظم اللغات التي تعتمد على زيادة السوابق واللواحق.

- القدرة على الاختصار والحذف والاستطراد والترادف والتضاد، ولكل عنوان من العنوانات شروح وأبحاث في علوم العربية.

- المرونة بتغيّر الدلالة بوساطة الحركات فالـ(بَرّ)-مثلاً- تعني الأرض، والـ(بُرّ) تعني الحنطة، والـ(بِرّ) تعني الإحسان، وهذا دليل على ثراء هذه اللغة.

- القدرة على استيعاب علوم الحضارات الأخرى والاستفادة منها، وهذا ما حدث في العصر العباسي إذ التفتت الحضارة العربية إلى بلاد الهند وبلاد فارس وبلاد الإغريق، وقطفت من أطاييب تلك الحضارات، ثمَّ شكَّلتها مرَّةً أخرى وأرسلتها للعالم منارة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

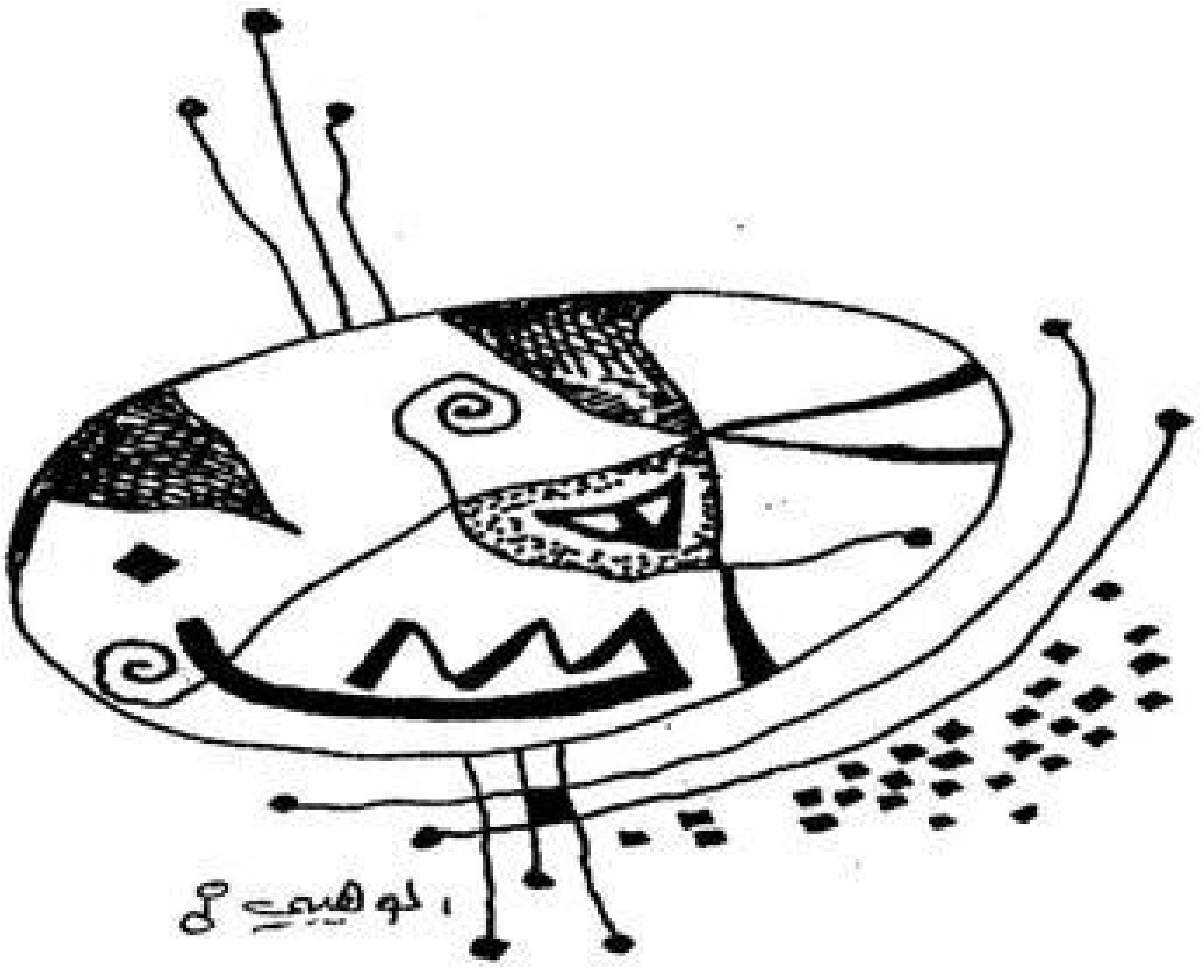

عربيــة ساطعة، فكانت قــادرة علــى الأخــذ، وقــادرة علــى الهضم والتحويل والإبداع.

-القدرة على تدريس العلــوم المعاصــرة كلّها بلسان عربــي فصيح، وتجربــة الجامعــات السوريــة، وخاصــة الفــروع العلمية، كالطب والرياضيات، دليل على ذلك.

وممّا يعــزّز خصائص هــذه اللغة أنها تتمتّع بقوّة متينة داخلية وجذور عميقة من جهــة، وتقوم على حاملين من حوامل البقاء والخلود من جهة ثانية: حامل ديني وحامل قومي، وهما مترابطان متلازمان متفاعلان، فالإســلام حاملها الدينــي، وهو حافظ لها وحاميها، وبما أنَّ صلاة المسلم بالعربية فإنَّ ذلك حقّق لها انتشــاراً واسعاً في العالم، لأنَّ المسلم بحاجة إليهــا في بلاده وفي الأصقاع التي يحلّ بها ســواء أكانت إسلامية أم غير ذلــك، وعليــه أن يحافظ عليهــا ليحافظ علــى صلته بالله، ومن هنــا كانت وما تزال وستبقى ذات طابع مقدَّس لا يجوز المساس بــه، ولا يقلّ الحامل الثــاني القومي أهمية عــن الحامــل الأول، فاللغة العربيــة هويّةُ العربي مسلماً كان أم غير مسلم، والعربي هو الآخر يفتخر بأصوله ونسبه وقيمه وعاداته منذ بدايات وجــوده، وحسبُنا أن نذكر هنا غــيرةَ العرب من غير المسلمــين على لغتهم في التاريخين القــديم والمعاصر، والحقيقة أنَّ العربي مفطــور على التباهي بفصاحته وبلاغته ولسانه، كما يتباهى بنسبه وأفعاله الحميــدة، وقد ســاوى أحــد الشعراء بين النسب الكريم واللسان الفصيح، فقال[1]:

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كفى بالمرءِ عيباً أن تَراهُ
لَهُ وَجهٌ وليس لَهُ لِسَانُ
وما حُسْنُ الرجالِ لهم بِزَيْنٍ
إذا لم يُسْعِدِ الحُسْنَ البَيَانُ

إنَّ اعتزاز العربي بلسانه أمر متّفق عليه، فقد كان الشعر ذا تأثير بالغ في القبائل العربية، وكانت القبيلة إذا نبغ فيها شاعر هنَّأتها القبائل، وأقامت الأفراح، لأنَّه حماية لأعراضهم، وذبٌّ عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم[٢]، وفي تاريخ الشعر العربي مواقف ومشاهد تؤكّد حرص العربي على بلاغة اللسان، وتعدّ شهادة الفيلسوف الألماني هيغل (١٧٧٠- ١٨٣٠م) علامة على عبقرية اللغة العربية من دون منازع، فقال[٣]: ((غير أنَّ العرب دلّلوا من البداية ودفعة واحدة على أنهم شعب ذو طبيعة شعرية رفيعة)).

تحدّيات ومواجهات: لم يتوقّف الصراع بين اللغة العربية والعوامل الخارجية في يوم من الأيام فقد كانت مستهدفة دائماً، ولكنَّ طبيعة الصراع وحدته تختلفان بين وقت وآخر، فتشتدّ في أيام الشدائد والضعف، وتلين في أيام القوّة والسيادة، وبناء على ذلك فإنَّ اللغة العربية واجهت في تاريخها الطويل أربع محاولات قاتلة، ولكنها خرجت منها أشدّ شكيمة وأقوى عزيمة، وهذه المواجهات التاريخية هي:

١- المواجهة الأولى: ظلّت اللغة العربية في تصاعد وتفتّح مستمرّين إلى نهايات العصر العباسي الأول، إذ بدأ الانحلال العام وغياب السلطة العربية فعلياً لا اسميّا، فلما غابت السلطة بعد ذلك اسميًّا وفعليًّا وتحوّلت بعد غزو المغول والتتر إلى غير العرب أصاب اللغة ما أصاب الإنسان العربي من ذلّ وهوان، ودخلت اللغة في نفق مظلم لا يودي إلاَّ إلى الموت، فتراجع الشعر إلى حال زريّة موضوعاً وشكلاً لعدم وجود الخليفة العربي المشجّع لفنون القول، وبرزت الموضوعات الهزيلة، كالبرذونيات مثلاً، وصار الشكل جسداً بلا روح وحياة، وانتشرت العاميات العربية وسواها في بنية اللغة، وهكذا إلى بدايات عصر النهضة، إذ استطاع أصحاب الفكر التنويري، ولاسيّما اللغويين منهم أن يُعيدوا إلى اللغة دورها التاريخي وحيويتها

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المعروفــة، ولا بدَّ من أن نذكــر هنا بجهود اليازجيين والبساتنة وأترابهم في إحياء اللغة بعد عصر طويل من الجمود والنسيان.

٢- المواجهــة الثانيــة (التتريــك): كانت الخلافــة العثمانيــة استمراراً ولــو اسمياً للخلافة العربية الإسلامية، فحكمت البلاد والعبــاد تحت اسم الديــن، وكان يُنظر إلى العرب في بدء الخلافــة على أنهم أصحاب الرسالة السماوية الإسلامية، ولكنَّ الأتراك كانــوا يخفــون أحقادهم على هــذه الأمة، وخاصة في عصر الطورانيين الجدد أصحاب جمعية ((الاتحاد والترقي)) الذين تحالفوا مع النازية وتشبّعــوا بالنزعة النيتشوية من جهة، وبالصهيونية من جهة أخرى، فصبّوا أحقادهــم على العنصر العربــي واحتقروه أيّ احتقــار، وحاولــوا القضــاء على اللغة العربية التي يتباهــى بها المسلمون، فقاموا بحملة مخطّطة لهذه الغاية، وكانت صحيفة ((طنين)) بوقــاً للقضاء على اللغة العربية، وقــد كتب فيها أحمــد الشريــف قائلاً:(٤) ((لايزال العرب يلهجون بلغتهم وهم يجهلون اللغة التركية جهــلاً تاماً كأنّهم ليسوا تحت حكم الترك فمن واجبــات الباب العالي في هذه الحال أن ينسّيهم لغتهم ويجبرهم على تعلم لغة الأمة التي تحكمهم، فإذا أُهمل هذا الواجــب كان كمن يسعــى إلى حتفه بظلفه لأن العــرب إن لم ينســوا لغتهــم وتاريخهم وعاداتهم فإنَّهم سيعملــون عاجلاً أو آجلاً علــى استرجــاع مجدهم الضائــع، وتشييد دولة عربية جديدة علــى أنقاض الترك)).

ولم يتوقــف الاتحاديــون عند هــذا الحدّ، وإنّما حاولوا فرض اللغة التركية في المدارس العربية، وفي الدواوين والمحاكم في الولايات العربيــة، فضلاً عــن إشاعــة الفوضى في الولايات العربية واستنزاف ثرواتها بالقوة، وبــثّ التفرقة بين الســكّان واغتيال زعماء العرب ومفكريهم والنخبة منهم، ولكنَّ القدر هيّأ للعرب والعربيــة أن يخرج هذا الحلف مهزوماً في نهاية الحرب العالمية الأولى.

٣- المواجهــة الثالثــة (المستعمــر الغربي واللغــة العربيــة): لم تكن حال اللغة العربية مع المستعمر الجديــد (بريطانيا- فرنسا- إيطاليا) بأفضل مما كانت عليه، وإنَّما كان هذا المستعمر أبعد صبراً وأكثر حنكة وعلماً

ومعرفة، فسعى إلى هدم اللغة العربية للقضاء على القومية بوساطة اتجاهين: الأول اتجاه المستشرقين المسخّرين لهذه الغاية وقد قاموا بدراسة اللهجات وبثّ السموم والتفرقة بين أبناء الوطن الواحد، وشجعوا بعض الأقليات بالبحث عن لغات بديلة، والثاني أن المستعمرين وجدوا من يتعاون معهم من النخبة لهذه الغاية، فقرّبوهم وأغروهم بالمناصب والمال، فكانت أصواتهم أشدّ مضاء وفتكاً وصدى من أصوات المستشرقين أنفسهم، وهكذا أشاع الجانبان أنَّ اللغة العربية لغات، وهي قديمة لا تصلح من قريب أو بعيد للعلوم العصرية، والحل واحد من اثنين: تعليم العلوم بلغاتها الأوروبية أو استيلاد اللهجات المحلية من جهة وهجران الحرف العربي إلى الحرف اللاتيني كما فعل الأتراك من جهةٍ أخرى، وتعدّ قصيدة حافظ إبراهيم صورة صادقة عن حال اللغة العربية في هذا العصر، ومنها قوله(٥):

أرى لرجالِ الغربِ عِزّاً ومَنْعَةً
وكم عزّ أقوامٌ بعِزِّ لُغاتِ

أتَوا أهلَهم بالمعجزاتِ تفنُّناً
فيا ليتكُمْ تأتونَ بالكلماتِ

أيُطْرِبُكُمْ من جانبِ الغربِ ناعبٌ
يُنادي بوَأْدي في ربيعِ حياتي

أرى كلَّ يومٍ بالجرائدِ مَزْلَقاً
منَ القبرِ يُدنيني بغيرِ أناةِ

وأسمَعُ للكتَّابِ في مصرَ ضَجَّةً
فأعلمُ أنَّ الصَّائحين نُعاتي

أيَهْجُرُني قومي-عفا اللهُ عنهمُ-
إلى لغةٍ لم تتصلْ برُوَاةِ

سَرَتْ لُوثَةُ الإفرَنْجِ فيها كما سرى
لُعابُ الأفاعي في مسيلِ فُراتِ

فجاءتْ كثوبٍ ضمَّ سبعين رُقْعَةً
مُشكَّلَةَ الألوانِ مُختلفاتِ

تكلَّم حافظ إبراهيم على لسان اللغة العربية على طريقة هايدغر الذي ذهب إلى أنَّ اللغة هي التي تتكلَّم، ونحن لسنا سوى وسائط لهذا الكلام، ووجّهت القصيدة، دفاعاً عن اللغة العربية، أصابع الاتهام إلى طرفين محدّدين: الغرب الذي دبَّر كلَّ هذه المكائد للنيل من هذه اللغة التي تعدّ الرابط الأقوى لهذه الأمة، ونعتها بالقصور والعجز

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في حين أنَّها أمّ اللغات، والطرف الثاني بعض العلمــاء العرب الذين يسايــرون الغرب في هذه التهمة ويُروّجون لها، في حين أنَّ العيب فيهــم لا في اللغة، والمشكلــة في المتعاملين معها والمتكلّمين بها، وليست فيها، والمشكلة في اللسان وليست في الكلام حسب هايدغر، فاللغة تتكلّم، ولكــنَّ الألسنة تعبت وترهّلت والتجأت إلى الراحة، ثمَّ فقدت قدرتها على مواكبة العصر، فلما عُوتب اللسان على ذلك كان من الطبيعي أن يوجّه التهمة وبلا تردّد إلى أم اللغات، ويتّهمها بأعزّ ما تملك.

٤- المواجهـة الرابعـة (العربيـة في عصر العولمـة): تواجه العربيــة حالاً فريدة، وهي معرّضة لهجوم عاصــف ومواجهة لم تشهد مثيــلاً لها مــن قبل فإمّــا الصمــود وإمّا السقــوط، ونحن في حــال لا نُحسد عليها، ومــن صورهــا الانقسام والتناحــر وإقامة الدولة القطرية بديلاً مــن الدولة القومية ذات اللسان العربي، ومما يعزّز ذلك كلّه أنَّ الإحساس القومي بدأ بالتراجع السريع بدلاً من التضامن والتعاون للوقوف إزاء الهجمة الضاريــة التي نتعرض لها مــن الاستعمار الجديد المتمثّل بالولايات المتحدة الأمريكية التي جعلت الشرق الأوسط مسرحاً لعملياتها العسكريــة، وعسْكــرت علماءهــا لضرب الاقتصاد العربــي بحجة العولمة.. أمّا اللغة العربية فكان لها النصيب الأكبر من توجيه السهــام للقضــاء عليها اجتماعيّــاً وبنية، فعلــى الصعيد الاجتماعــي تراجع اهتمام المجتمع والأهل باللغة العربية لمصلحة اللغة الإنكليزية على أساس أنّها الضامن الوحيد لمستقبل أفضل لأولادهم، وخاصة أن الحياة والمغريات في البلدان الناطقة بها (الولايات المتحــدة الأمريكية - بريطانيا - أستراليا.. إلخ) عالية جداً، ولو أقمنا موازنة بينها وبين التركية أو الإيرانية أو الصينية أو.. لأدركنا الفروق الكبيرة، وهي في النهاية لغة الدولار، ومــن هنا يوجّه الأهل أبناءهم المتفوقين إلى دراسة الفــروع العلمية (الطبّ- الصيدلة- الهندسة...) لإيمانهــم المطلق بأنَّ المستقبل لهؤلاء، ثــمَّ إنَّ القوانــين الجامعية تساعد على ذلك، فــإذا الأهل ينفقون بسخاء على أولادهــم، وإذا كان الأبنــاء مــن المقصّرين علميّــاً أرسل الأهــل أولادهــم إلى الفروع

الأخرى، وظلّوا متحسّرين على ما خسروه كحكاية الثعلب والحصرم، ولذلك لجؤوا إلى الفروع التعليمية التي افتقدت أخيراً إلى النخبة.

أما على صعيد البنية اللغوية فحدّث ولا حرج، ونتيجة للفرز القاطع بين الفروع فإنّه ليس من غير المألوف والمستبعد أن تجد اليوم الأخطاء النحوية واللغوية والإملائية في أطاريح أكاديمية يتقدّم بها أصحابها لنيل درجة الدكتوراه أو الماجستير في أقسام اللغة العربية في أيّ قطر عربي كان.. أما أخطاء المذيعين والمذيعات، وكتابات الصحفيين، فبتنا لا ننظر إليها كي لا نوصم بالجيل المنقرض، وعلينا أن نتغاضى عن كثرة استخدام الألفاظ الإنكليزية في حياتنا وحواراتنا لأنها من قبيل العصرية والحداثة، وقل مثل ذلك في استخدام الألفاظ العامة، ثمّ علينا أن نتساهل في قضايا الإملاء من المرحلة الأساسية إلى أعلى الدرجات، فالاختلاف في القطر الواحد، ونحن نرسم (موسيقا- موسيقى) و(قرؤوا- قرأوا)، فكيف الحال في الأقطار العربية مجتمعةً، وقد اتفقنا على ألاّ نتفق.. صحيح أنّ مجامع اللغة العربية تجتمع ويتلاقى أعضاؤها في مؤتمرات، فتُفرش لهم السجاجيد، وتُقام الولائم،ثم يتعارفون ويتصافحون، ويقبضون المكافآت، وتبقى اللغة العربية هي الضحية الوحيدة، وعلينا أن نتساءل: لماذا مجامع وليس مجمعاً...!؟ ثم لننظر إلى أعمال الفرانكفونية والأنكلوسكسونية، لعلّ فيها عبرة ودروساً لنا...

الحلول: سأقدّم هنا بعض الحلول كعلاج للأزمة المستعصية اليوم فيما تعانيه اللغة، وخاصة في عصر العولمة، وأنا أعرف أنّ بعضها صعب والآخر مثالي والثالث متعذر، ولكن هي حلول بعضها يفيد هنا ولا يفيد هناك، وكذا شأن الحلول الأخرى، ولذلك سأستعرضها استعراضاً سريعاً، وهي:

١- إعادة الاهتمام بالمدرس وتأهيله واحترامه وتحسين أوضاعه الاقتصادية لتغيير ما ترسّخ في ذهنية الأهل والمجتمع عن صورته، حينذاك يُقبل المتفوقون على هذه المهنة المفصلية والأساس في بناء المجتمعات وتطوير اللغات.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٢- وضع الإنسان المناسب في المكان المناسب، فمهنة التعليم تحتاج إلى خبرات متقدّمة، ولكنّها اليوم أصبحت ملجأً لكثيرين دفعتهم الظروف المعيشية إليها دفعاً، ولذلك قلَّ فيها الإبداع، وتوقّف بها الزمن عند مرحلة الكتاتيب فمعلّم اليوم- وهو الذي يحرس العقول ويبني الأجيال- غير قادر وغير مهيّأ لاجتياز ما هو واقع إلى ما هو مأمول، ولذلك كانت هذه المهنة وما زالت وستبقى موئلاً للإبداع، وهي بحاجة إلى المعلّم الخبير المبدع لتربية المبدعين ورعايتهم منذ الطفولة.

٣- تغيير طرائق تدريس اللغة العربية وتطويرها بدءاً من مرحلة الحضانة إلى أعلى المراحل، وهذه حاجة ملحّة اليوم إذا أردنا فعلاً للغتنا أن تعود إليها الحياة وتعود إلى الحياة، نحن بحاجة إلى تقريب اللغة إلى الأجيال بدلاً من التنفير منها، وليس المقصود بالتقريب الخروج على القواعد، وإنّما العودة إلى طبيعة اللغة الخلابة لغة القرآن الكريم والشعر الجاهلي، لغة البساطة والسلاسة، ولا يحتاج الأمر إلى أكثر من استخدام الصورة البصرية في عملية التعليم، وخاصة في المراحل الدراسية الأولى لاجتذاب بصيرة الأطفال واهتمامهم، بدلاً من التلقين، فعصرنا غنيّ بالصور، ونحن نعيش ثورة المعلومات التي ينبغي أن نستفيد منها لبناء العقول المعاصرة.

٤- العمل على تيسير النحو بدلاً من تعقيده، وأن نبتعد عن الشواهد الشعرية والنثرية الملغزة، وأن نراعي سنَّ الطالب وقدراته العقلية، والتيسير تسهيل لا تغيير، فلا يجوز أبداً أن نضحّي بخصائص اللغة وجمالياتها بحجة أنّها غير قادرة على مواكبة العصر، وهي حجة واهية، فبنية الجملة والإعراب والصرف والاشتقاق أُسّ من أسس هذه اللغة، فإذا تهدَّم أُسٌّ منها تهدمّت، والتسهيل حالة طبيعية تعرفها كلّ اللغات، وتتمّ بالفصل بين الخطاب النحوي الموجَّه لأهل الاختصاص والخطاب الموجه للعامة، وليس هذا التيسير مستحدثاً أو غريباً على اللغة العربية، فقد كلَّف علي بك مبارك الشيخ رفاعة الطهطاوي لتأليف كتاب تدريسي سهل المأخذ لتعليم اللغة،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فأنجزه الشيخ سنة ١٢٨٥هـ وطبع سنة ١٢٨٦هـ، وهو من أيسر كتب النحو وأفضلها لهذه الغاية، وقد سمّاه الشيخ تسمية علمية واضحة الأهداف، وهي ((التحفة المكتبية في تقريب اللغة العربية))، وحتى لا يذهب بنا الظنّ إلى حدود التغيير فإنّ الطهطاوي وضع للكتاب عنواناً فرعياً، وهو بيت من الشعر، والأرجح أنّه من نظمه، وهو يبيّن المراد من هذا التقريب، والبيت:

كلامٌ بلا نحوٍ طعامٌ بلا ملحِ

ونحوٌ بلا شعرٍ ظلامٌ بلا صُبحِ[1]

فالتسهيل لا يمسّ جوهر اللغة النحو، وهو كما يقول الشيخ ملح الكلام، وإنّما هو طريقة لتقريب النحو إلى عقول الناشئة.

٥- زيادة الاهتمام بوضع اللغة العربية ونشر الوعي اللغوي والحرص على إقامة الندوات والمحاضرات بدءاً من القرى الصغيرة والبعيدة إلى المحافظات والمدن، كما كان يفعل المسرح الجوّال، وهذا ما تفعله اليوم المراكز الثقافية فعلاً، فجهودها في هذا المجال جديرة بالاحترام، ولا بأس في أن يقوم تعاون مشترك بين وزارتي الثقافة والتربية لوجود المدارس في كلّ قرية، وسيكون لهذا التعاون نتائج إيجابية كبيرة في الأجيال الجديدة، في حين أننا نجد أنّ مجامع اللغة العربية غائبة عن هذا الاهتمام غياباً يكاد يكون كلّياً.

٦- القراءة ثمّ القراءة ثمّ القراءة، وشعب لا يقرأ لا ينتج ولا يبدع، وإنّما يعيش عالة على إبداعات الشعوب الأخرى، فهو يترجمها ويحفظها، ونسبة القراءة قد تصل أحياناً إلى درجة الصفر بدءاً من الطفل إلى الأستاذ الجامعي، مع العلم أن القراءة للتعليم غير القراءة الثقافية، فالفرق بينهما كالفرق بين اللغة والكلام عند فردينان دوسوسور.

٧- تشجيع التأليف (الإبداع) إحدى الطرق لنهضة اللغة، فأجدادنا كانوا يحتفلون بولادة الشاعر لهذه الغاية.. لكنّنا اليوم في حالة مختلفة تماماً، فإذا كنّا لا نشجّع القراءة فعلاً لا قولاً فإننا إذاً لا نشجّع التأليف والإبداع، ولا نشجّع في الوقت نفسه العودة باللغة إلى الحالة الصحية التي كانت عليها أيّام أجدادنا المبدعين.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذه صورة موجزة وسريعة عمّا تتعرض له لغتنا من تحدّيات ومواجهات وبعض الحلول للخروج إلى دائرة الضوء والانطلاق مرّةً أخرى.

الهوامش

١- ابن قتيبة: عيون الأخبار، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢/١٦٩.

٢- انظر: ابن رشيق: العمدة، تح.محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٥، ١٩٨١م، ١/١٩٧.

٣- هيغل: فنّ الشعر، تر.جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٨١م، ص٢١٠.

٤- نقلاً عن داغر، أسعد: ثورة العرب، حلب، ط٢، ١٩٨٩م، ص١٥٩- ١٦٠.

٥- ديوان حافظ إبراهيم، دار العودة، بيروت، ١/٢٥٤-٢٥٥.

٦- الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي (الجزء الخامس)، دراسة وتحقيق محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨١م، ص١١٥.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الذكاء الاصطناعي..
أحدث علوم الحاسب الآلي (الكمبيوتر)

د. منير سويداني *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العلـم في كل مجالاتــه تطور بشكل سريع جـداً، والتقنيات والتكنولوجيا تطـورت بشكل جعلت الإنسان يسافـر من بلد إلى آخر، يرى جمالية الأرض مــن وراء السحابات العملاقة، إلى بلد آخر بفضل العلم والتكنولوجيا وليس بفضـل أي شـيء آخر، الذكاء البشري أعطى بخبرتـه ويده وعقله وتجربته الرفاهية للبشر للتمتع بالحياة، ولا وجود لحياة في أي مكان في هذا العالم أو الكون من دون عمل وحركة، حتى في الحالتين الفيزيائية والكيميائية للطبيعة

---

* ناقد وباحث سوري.

العمل الفني: الفنان مصطفى الصليق.

والسكون سنجد هناك دائماً حركة دائمة، لقد جعل الإنسان ذكاءه امتداداً لقدراته الذاتية على معالجة مشاكله وبالتالي تطوير الآلات والأجهزة والتقنيات كي يتعرف على قدراته ونجاحاته في إدراك معاني تطوره، لقد عانى الإنسان كفرد ومجتمع لمئات السنين كي يصل إلى ما وصل إليه الآن، كذلك الأمم عانت كثيراً حتى تصل إلى الرقي والحضارة.

علم الذكاء الاصطناعي

هو أحد علوم الحاسب الآلي الحديثة التي تبحث عن أساليب متطورة لبرمجته بهدف القيام بأعمال واستنتاجات تشابه، ولو في حدود ضيقة، تلك الأساليب التي تنسب إلى الذكاء البشري، فهو بذلك علم يبحث أولاً في تعريف الذكاء الإنساني وتحديد أبعاده، ومن ثم محاكاة بعض خواصه. وهنا يجب توضيح أن هذا العلم لا يهدف إلى مقارنة العقل البشري بالآلة التي هي من صنع المخلوق، بل يهدف إلى فهم العمليات الذهنية المعقدة التي يقوم بها العقل البشري أثناء ممارسته التفكير، ومن ثم ترجمة هذه العمليات الذهنية إلى ما يوازيها من عمليات محاسبية تزيد من قدرة الحاسب على حل المشاكل المعقدة، وقد اكتسب هذا العلم أهمية بالغة في السنوات الأخيرة لتطبيقاته العديدة في مجالات حيوية، كالدفاع والحاسوب والاتصالات والطب والصناعة والترجمة الآلية وغيرها.

وعلم الذكاء الاصطناعي هو أحد العلوم التي نتجت عن الثورة التكنولوجية المعاصرة، ويتميز بأنه علم تعددي (عمل جماعي بالدرجة الأولى)، يشارك فيه علماء الحاسب الآلي والرياضيات وعلم النفس وعلم اللغة والفلسفة والمنطق. ويهدف هذا العلم إلى فهم طبيعة الذكاء الإنساني عن طريق عمل برامج للحاسب الآلي قادرة على محاكاة السلوك الإنساني المتسم بالذكاء. وتعني قدرة برنامج الحاسب على حل مسألة ما، أو اتخاذ قرار في موقف ما، بناء على وصف لهذا الموقف. إن البرنامج نفسه يجد الطريقة التي يجب أن تتبع لحل المسألة، أو للتوصل إلى القرار بالرجوع إلى العديد من العمليات الاستدلالية المتنوعة التي غذي بها البرنامج، ويعد هذا نقطة تحول هامة تتعدى ما هو معروف باسم «تقنية المعلومات» التي تتم فيها العملية الاستدلالية عن طريق الإنسان، وتنحصر أهم أسباب الاستخدام في سرعته الفائقة.

تطور الذكاء الاصطناعي

من أقدم ألواح الطين المكتشفة في بلاد الشام مروراً بنظام الحساب لدى الفراعنة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في مصر وأبجدية الحضارة الفينيقية وصولا إلى وضع نظام الفاصلة العشرية عام ١٤٩٢ ميلادي، مرَّت تطورات عديدة رسمت طريقاً واحداً هو «الطريق نحو الكمبيوتر». لقد كانت كل التطورات العلمية التاريخية تقود نحو جهاز واحد سيختزل ويدمج ويفعل كل ما حققه البشر علميا في اختراع واحد، وعرف هذا الجهاز في أولى مراحل تكوينه محطات تطوير متعاقبة لا تزال مستمرة، وأخرجت لنا هذه التطورات جهازاً سريعاً جدّاً في معالجة المعلومات تصل فيه سرعة نقل المعلومات إلى حدود سرعة الضوء (٣٠٠ ألف كلم/ ثانية)، بينما تنحصر هذه السرعة في أعصاب دماغ الإنسان عند حدود ٥أمتار/ ثانية. وعندما نراجع تاريخ تطور الكمبيوتر نلاحظ أن محطات التطور تحدد وفق الأجهزة التي تمَّ اختراعها، وكل جيل من أجيال الكمبيوتر يتميز بتقدم تكنولوجي أساسي أدى إلى تغييرات جدية في الطريقة التي تعمل بها الكمبيوترات، مما أتاح التوصل إلى أجهزة أسرع وأصغر وأقل تكلفة وأفضل من ناحيتي الفعالية والاعتمادية، فكيف مرَّ هذا الجهاز في مراحل تطوره المختلفة وكيف يمكن قراءة تاريخ الكمبيوتر الحديث:

- الجيل الأول (١٩٤٠ - ١٩٥٦م): استخدم العلماء في أول أجهزة الكمبيوتر «الصمامات المفرغة من الهواء» لنقل المعلومات والمجالات المغناطيسية وسيلة لتخزين المعلومات، وفي نهاية ثلاثينيات القرن الماضي حمل العالم «هوارد ايكين» اقتراحاً إلى مدير شركة IBM « توماس واطسون » في شأن جهاز كمبيوتر، فوفر له تمويلاً للمشروع بقيمة مليون دولار، وبحلول عام ١٩٤٣م كان الجهاز قد صنع فعلا وأطلق عليه اسم «هارفارد - م. ك ١»، وكان طول هذا الجهاز ١٦.٨ مترا وارتفاعه ٢.٥ متر. وفي الوقت نفسه كانت أسرار صناعة الكمبيوتر تتسلل إلى الصناعة العسكرية في بريطانيا التي كانت على وشك السقوط أمام الآلة العسكرية الألمانية، فقد بنى علماء عسكريون بريطانيون أول كمبيوتر هناك لفك شفرة الاتصالات العسكرية الألمانية، وقد احتوى على ٢٠٠٠ صمام وكان يقرأ ٥٠٠٠ حرف في الثانية، وقد أتاح هذا الكمبيوتر الذي تسربت أسراره من الولايات المتحدة إلى بريطانيا تحقيق تقدم على الألمان. ومن جهة أخرى يعتبر العالم المجري «فون نويمان» المرجع الأول في بناء أجهزة الكمبيوتر المعاصرة وتشغيلها لأنه وضع الأبحاث التي شكلت أسس علم الكمبيوتر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحديث، وعلى أساس أبحاث نويمان بنيت أهم أجهزة الكمبيوتر الأولى في العالم، لكن الإعلام الأمريكي في تلك المرحلة نسب الفضل في صناعة أجهزة الكمبيوتر إلى علماء آخرين. وفي الاتحاد السوفييتي بنيت أول الأجهزة اعتماداً على الصمامات المفرغة أيضا، وفي ١٩٥٦م وضعت الأسس التي قامت عليها عشرة أجهزة كمبيوتر من هذا النوع بالحسابات المطلوبة لإطلاق المركبة الفضائية السوفيتية «سبوتنيك».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- الجيل الثاني (١٩٥٦ - ١٩٦٣م): الترانزيستور الذي وضعت أسسه عام ١٩٤٧م حل محل «الصمام المفرغ من الهواء» وتولى مهمة نقل المعلومات، وقد تأخر بدء استخدامه في الكمبيوتر من ١٩٥٦ إلى ١٩٦٣م ظنا من البعض أن كفاءته ليست عالية، وعندما دخل الترانزيستور أول الأجهزة تبين أنه ثورة في عالم السرعة، فقد عجل في العمليات الحسابية التي يستطيع الكمبيوتر القيام بها في الثانية الواحدة، وبات الجهاز أصغر وأقل استهلاكا للكهرباء وبالتالي انخفضت تكلفته وأسعار مبيعاته عن الأجهزة التي صنعت في الجيل الأول. ورغم أن الحرارة الصادرة عن الترانزيستور كانت عالية وأدت إلى أضرار داخلية في الأجهزة إلا أنها كانت أقل من الحرارة التي سببها «الصمام المفرغ من الهواء». وقد استمر هذا الجيل من الأجهزة في الاعتماد على البطاقات المثقوبة التي كانت وسيلة إدخال المعلومات والحصول على النتائج، وقد استخدمت أجهزة هذا الجيل من الكمبيوترات في المفاعلات النووية وحققت نتائج كبيرة.

- الجيل الثالث (١٩٦٤ - ١٩٧١م): كان تطوير الدوائر الكهربائية ودمجها في الكمبيوتر المنعطف الأساسي للوصول إلى الجيل الثالث من أجهزة الكمبيوتر، وما تمّ فعله عمليا هو وضع ترانزستورات صغيرة على رقائق سيليكون أطلق عليها اسم «أشباه الموصلات»، وقد أدت هذه التغييرات إلى إضافة مزيد من السرعة على نشاط الكمبيوتر وفعاليته في معالجة المعلومات، وبدلا من استخدام البطاقات التي سادت في الجيل الثالث من الكمبيوترات اعتمد المستخدمون في الجيل الثالث على لوحة المفاتيح والشاشات وأنظمة التشغيل التي أتاحت تشغيل أكثر من برنامج تطبيقي واحد وإدارتها مركزيا بوساطة برنامج واحد مسؤول عن الذاكرة، وبهذا فقد بدأت أجهزة الكمبيوتر بالوصول إلى فئة أكبر من المستخدمين لأنها باتت أقل تكلفة وأصغر حجما.

- الجيل الرابع (١٩٧١ إلى اليوم): المعالج الصغير فتح الطريق للجيل الرابع من الكمبيوترات حين أصبح ممكنا وضع آلاف الدوائر الكهربائية المدمجة على رقاقة سيليكون واحدة، والمكونات التي كانت تتطلب مساحة غرفة كبيرة لم تعد تحتاج إلى أكثر من مساحة بطاقة معايدة، وكان معالج شركة إنتل (شيب - ٤٠٠٤)، الذي تمّ تطويره عام ١٩٧١م البداية لأنه استطاع حمل وحدة المعالجة المركزية والذاكرة وإدارة إدخال وإخراج المعلومات على رقاقة واحدة، وفي عام ١٩٨١م قدمت IBM أول جهاز للمستخدمين المنزليين، وعام ١٩٨٤م قدمت Apple أول جهاز ماكنتوش، ومع مزيد من القوة للكمبيوترات بات ممكناً وصلها ببعضها بوساطة الكابلات، مما شكل أولى الخطوات نحو الإنترنت، وفي هذه المرحلة تمّ تطوير الماوس.

- الجيل الخامس: مستقبل الذكاء الاصطناعي حاليا يتم التركيز في أجهزة الكمبيوتر الجديدة على الذكاء الاصطناعي، أي كيف يمكن أن يتصرف الكمبيوتر من تلقائه ليتخذ قرارات نيابة عن البشر، كأن يصلح أعطاله بنفسه ويراقب الأعمال في الشركات ويخرج بالقرارات المناسبة، ويترافق هذا مع تطوير برمجيات للتعامل مع الكمبيوتر البديل عن الإنسان، مثل التعرف على الصوت والتخاطب الطبيعي بين الكمبيوتر والإنسان، وللوصول إلى هذه النتائج وغيرها تمّ تطوير تقنيات جديدة حاليا مثل «الحوسبة الكمية» و«تكنولوجيا النانو» البالغة الصغر، ويعتبر البعض أن الجيل الخامس من أجهزة الكمبيوتر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سيكون هدفه الاستغناء عن البشر في عدد متزايد من المهمات اليومية والقرارات التي تحتاج إلى سرعة في الاستجابة وحكمة ودقة فائقتين.

الذكاء الاصطناعي يحاكي مشاعر البشر

البحث عن ماهية الذكاء شغل الفلاسفة قبل أكثر من ألفي عام، فقد حاولوا فهم كيف تتم رؤية الأشياء، وكيف يتم التعلم، والتذكر والتعليل، ومع حلول استخدام الكمبيوتر في خمسينيات القرن الماضي تحولت هذه البحوث إلى أنظمة تجريبية واقعية. وعلى الرغم من أن علماء النفس لم يتمكنوا من تحديد تعريف جامع شامل لمفهوم الذكاء الطبيعي أو البشري، إلا أنه يمكن تعريف الذكاء الاصطناعي أو التوصل إلى مفهوم خاص حوله وهو أنه علم حديث من أحدث علوم الحاسب الآلي، وينتمي هذا العلم إلى الجيل الحديث من أجيال الحاسب الآلي ويهدف إلى أن يقوم الحاسب بمحاكاة عمليات الذكاء التي تتم داخل العقل البشري، بحيث تصبح لدى الحاسب المقدرة على حل المشكلات واتخاذ القرارات بأسلوب منطقي ومرتب وبطريقة تفكير العقل البشري نفسها.

والأمر الذي يستوجب التوقف عنده طويلا هو محاولة إكساب هذا الإنسان الآلي بعضاً من الأحاسيس والمشاعر البشرية، وفكرة زرع بعض المشاعر والأحاسيس داخل الإنسان الآلي، من منطلق أنه لم يكن ينقص صناعة الإنسان الآلي غير المشاعر، وقد سبقت أفلام الخيال العلمي في طرح هذه الفرضية البعيدة عن الواقع، وكعادتها حولتها إلى واقع ملموس، وقد تناول أحدها قصة وضع طفل آلي وسط عائلة من البشر، وجعله يكتسب نوعا من المشاعر بالتدرج وفق برنامج علمي خيالي، وتصل القصة إلى نجاح هذا البرنامج إذ أخذ الطفل الصناعي يحب أبويه الافتراضيين إلى حد يصدق المشاهد له أنه حب حقيقي.

وعلى الرغم من أن القصة تنطوي على كثير من المبالغة والتي تصل إلى حدّ غير مقبول أحياناً، إلا أنها تلفت النظر إلى الطبيعة البشرية في هذا العصر، حيث تنهال التساؤلات على العقول، فهل يصبح الإنسان آلة في داخله؟.. وهل تكتسب ذواتنا طبائع الآلات كما اعتادت أجسامنا التعامل معها؟.. وبالأحرى هل يدرك الإنسان ما هو فيه من اتجاه للميكنة البشرية؟.. لاشك أن التطور الهائل الموجود في العالم اليوم والمظاهر التقنية والحضارة الرقمية، كل ذلك لاشك أنه تغلغل في حياة الناس في كل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المجتمعات بحيث أصبح ضرورة لاغنى عنها على الإطلاق، كما لا يمكن إغفال ما لهذه الحضارة من فوائد ومميزات. ولكن ما أودّ الإشارة إليه هنا ونحن ننعم بهذه الحضارة أنها ليست خالصة الفوائد من دون وجود العيوب والمؤثرات السلبية، ولعلّ القارئ هنا يتخيل أن المؤثرات تعني المضار الصحية التي تسببها الأجهزة والمصانع والمواد المستخدمة في الصناعات المختلفة وما إلى ذلك، والحقيقة أنه على الرغم من أهمية تلك المؤثرات بالنسبة لحياة الفرد إلا أن هناك مؤثرات أخرى قد لا يدركها الإنسان مباشرة، ولكنها تعتبر أكثر أهمية وأشد أثراً على الحياة العامة والخاصة بالإنسان على حد سواء.

مخاوف وشكوك

كان الحديث عن الإنسان الآلي وتطوره مجرد مثال للتدخل في الخلقة البشرية، حيث إن هناك أمثلة كثيرة على تلك المحاكاة والتقليد، ولنأخذ مثالاً على ذلك الأبحاث التي بدأت تؤتي ثمارها في مجال الأعضاء التعويضية الصناعية في جسم الإنسان، لقد بدا قريبا لنا أن نرى جسم الإنسان يشتمل على أعضاء صناعية، مثل الكبد والقلب الصناعي وأخيراً المخ الصناعي، إلا أن النظر إلى العملية في حد ذاتها شيء مخيف، وهذا ما يجعل تلك العمليات المتعلقة بالمخ وكل ما يعتبره العلماء انتصاراً يلقى المعارضة من قبل المنتصرين للأخلاقيات والأعراف، كما تثير هذه العمليات الكثير من القضايا مثل ما إذا كانت هذه الآلات التي تثبت في المخ سوف تعالج فقط الأمراض وتتغلب على العيوب الموجودة في المخ الطبيعي، أم أنها سوف تنطوي على تأثيرات أخرى على طباع وسلوك ووعي الإنسان المعالَج؟.. وعلى ذلك كانت هناك كثير من القضايا التي أثيرت لمجرد ذكر إمكانية العبث بمخ الإنسان، ذلك العضو الذي يحمل هوية المخلوق وذاكرته وعاداته وكل ما اكتسب من خبرة. وللتذكير: أليس هذا ما نراه في أفلام الخيال العلمي حيث يحتوي جسم الرجل على آلة أو جهاز ما لفائدة ما؟!.. ألم يصبح من غير العقل أن نطلق عليه خيالا علميا بعد الآن؟!.

جهاز الكمبيوتر يفكر

ولا يجب أن يعتقد القارئ أن هذه المحاولات جديدة على العالم أو أنها وليدة هذه الأيام فقط وإنما هي موجودة منذ فترة ليست بالبعيدة، حيث يمكن القول إنها بدأت مع بزوغ فجر الحاسبات الآلية تلك العقول الإلكترونية التي كان تصميمها في الأساس محاولة لابتكار عقول تحاكي العقل البشري أو على الأقل تقوم ببعض وظائفه،

ولعلَّ من أشهـر المواجهات التي كانت تعقد بـين العقل البشري والعقـل الإلكتروني هي تلك المباريـات على لعبـة الشطرنج والتي كانت تقـام لها مسابقات سنوية، وقد بدأت مثل هـذه المسابقات في طرح سؤال مهم ألا وهو: هل يمكن لجهاز الكمبيوتر أن يفكر؟.. والحقيقـة أن مباريات الشطرنج بدأت منذ منتصف القـرن الماضي وبالتحديد في عام ١٩٤٥م عندما استخـدم «آلان تونرج» لعبة الشطرنج علـى الكمبيوتر كمثـل لقدرات ذلك العقل الصناعـي، أو ما اصطلح عليه فيمـا بعد تحت مسمـى ذكاء الكمبيوتر أو الـذكاء الاصطناعي، وبعد ذلـك قام آلان بتصميم أول برنامـج للعبة الشطرنج على الكمبيوتر وبعد ذلك توالت المحاولات، وكما توالت الجولات بين العقل الاصطناعي وبين عقل الإنسان حيث استمرت إلى الآن، حيث كان مـن أشهر المتصارعين البرنامج الشهير والـذي صممته شركـة مايكروسوفت تحت اسـم « DEEP BLUE » وكان الخصـم البشـري هـو السوفييتي كاسبـاروف. أما المفاجـأة فكانـت انتصـار الكمبيوتر على اللاعب كاسباروف في أول مباراة من نوعها، ولكن بعد ذلك استرد العقل البشري التاج في هذه اللعبة، ولكن المعركـة استمرت سجالاً بين الطرفين.

الـذكاء الاصطناعـي محـل الـذكاء الطبيعي

البشـر هم التجسيـد الوحيد الحقيقي للذكاء الواعي على هذا الكوكب إضافة إلى بعضـ الحيوانات القليلـة التي تشترك مع البشر في بعض سمـات الذكاء مثل القردة، وإذا أردنا أن نجعل أجهـزة الكمبيوتر أكثر ذكاء فمـن الأفضـل أن نتطلـع إلى مملكة الحيوانات، ونحـن على الرغم من معرفتنا الكبيرة عن المخ ما زلنا نجهل الطريقة التي يعمل بها أو يؤدي بها وظائفه. في عام ١٩٤٩م اكتشف العالم النفسي «دونالد هيب» اكتشافاً كبيراً حيث قدم مبدأً عاماً للتعلم بسيط جدّاً ولكنه للأسف غير معروف للكثيرين، حيث توصل إلى أن توصيلات إدخال المعلومات إلى الخلية العصبيـة متصلة بتوصيلات خروج البيانات من الخلايـا العصبية الأخرى في الشبكة العصبية، وتقوم هذه الخلية بإرسال الإشـارة التي تحفز الخلايا الأخرى عندما يتجاوز إجمالي المداخل قيمة الحد الأدنى، وتأخذ الإشارة التي ترسلها الخلية العصبية شكل انفجار عشوائي من النبضات، ويؤدي ذلك إلى سلـوك معقد للشبكة برمتها، وهو سلـوك معقد ومن الصعـب تحليله، وحتى اليوم مـازال الإنسـان يحتـاج إلى محاكاة شبكات صغيرة جـدّاً لاكتشاف ما يمكن أن يكون عليـه سلوكها. إن أهـم ميزة في المخ

البشري والتي لا تقتصر على كونها شبكات عصبية هائلة هي التعلم، والسؤال هو ما هذا الذي يحدث داخل هذا العقل لكي تحدث عملية التعلم؟.. وبدأ العالم بعد ذلك ينمي فكرة إحلال الذكاء الصناعي محل الذكاء الطبيعي أو البشري إلى أن وصل العالم إلى وقت يحل فيه الكمبيوتر محل الإنسان، من أجل الإنجاز العلمي تارة ومن أجل الترفيه والانتصارات العلمية فقط تارة أخرى.

الذكاء الاصطناعي والمعرفة المحققة

يختزل الذكاء الاصطناعي إلى أداء معين يتوجب على الحاسب الإلكتروني تحقيقه سواء بالتنفيذ الفعلي عن طريق إصدار الأوامر إلى أجهزة مرتبطة بالحاسب تقوم بالعمل المطلوب مباشرة، أو برسم الخطط النظرية، وتحتاج هذه الفعاليات إلى كم من المعارف والمعلومات يتوجب تحديدها بشكل مسبق، إن عدة تساؤلات تطرح في هذا السياق، فأولاً وقبل كل شيء لابد من التدقيق في نوعية المعارف الضرورية لمهمة من المهام، أهي معارف من طابع خاص، أم أن لها طابع العمومية، وحتى لو كانت المعارف المطلوبة من النوع الشمولي، فما هي تلك المعارف على أية حال وهل هناك جزء منها ذو أهمية أكبر من الأجزاء الأخرى ضمن إطار المسألة المطروحة.

لا يمكن أن تقدم المعارف اللازمة إلى الحاسب في هيئتها الأولية المجردة، إذ يلزم إبداع طرائق ملائمة لتمثيلها وتلقينها من ثم للحاسب، وعلينا ألا ننسى هنا أن الدماغ الإنساني ينمذج الحقائق قبل التعامل معها، ونسوق المثال البسيط التالي: لعبة تجري بين لاعبين يستخدم كل لاعب نوعاً واحداً من الأحجار، وما يهمنا هنا التمثيل في الحاسب فقط، نقلب الرقعة الفعلية إلى جدول يتكون من تسعة أسطر ونصطلح على وضع العدد واحد في الخانة التي يحتلها حجر للاعب الأول وعلى وضع العدد اثنين في الخانة التي يحتلها حجر للاعب الثاني وأخيراً نضع صفراً في الخانة الفارغة، وبصورة أعم تحتاج بعض المعارف عملية دغم ضمن منظومة من الإجراءات بينما تبرهن معارف أخرى على اتساق كبير مع طرائق التمثيل المتبعة في الحاسب. إن المنطق الصوري يثبت أنه الأجود لتمثيل المعارف في حالات خاصة، هذا إلا أن إمكانات التمثيل لا عد لها ولا حصر.

إن المعلومات كمية قابلة للقياس وهي وقود عملية المعرفة، لكنها ليست تلك العملية فالمعرفة تتحدد أولا وقبل كل شيء بظاهرة الشعور بالشعور غير القابلة للنمذجة والتي يفترق الذكاءان الطبيعي

والاصطناعي، عندها نعود إلى الجانب الكمي من عملية المعرفة، فبعد تحديد نوعية المعارف وخصائصها وسماتها، يطرح نفسه وبقوة التساؤل الخاص بالكمية: كم يجب أن نوفر من هذه المعلومات ؟.. أربعين حقيقة، أربعمئة، ولربما أربعة آلاف، وهل كل هذه الحقائق لازمة؟.. لا يستطيع حسم هذا الأمر حتى الإنسان ذاته، وهل تغطي عشر طرائق معظم الحالات؟.. إن الجنوح هنا هو نحو الزيادة بصورة عامة، لعلّ هناك حقيقة أو حقيقتان أو لا نهاية من الحقائق، إن مواجهتنا مشكلة معقدة من المنظور المنطقي قد تصور لنا أن التعقيد المطروح لا حدود له. إن مثل هذا التصور صعب النمذجة بدوره، الحق نقول إنه في إطار المهمات الواقعية لا تبرز الحاجة إلا لعدد محدد من الحقائق.. إن التقويم النظري لأية مهمة من تلك المهمات يتمخض ولا شك عن عدد غير منته من الحقائق التي يستوجبها تنفيذ المهمة.

على أية حال لابد من تحديد مسبق وحاسم لكمية المعارف المطلوبة، إذ إن ذلك التحديد يلعب دوراً كبيراً في تعيين مصادر المعارف والمعلومات قيد البحث، يجب ألا تزعجنا الكمية الكبيرة من المعلومات الضرورية لوظيفة يطلب من الحاسب الإلكتروني إنجازها، ذلك أن تحديد هذه الكمية الكبيرة أفضل ولاشك من إبقاء الأمر مفتوحاً للتقديرات المستمرة وفق تقدم العمل.

إن تعلم أي موضوع ينطوي على استجرار ومراكمة كمية من المعارف سواء كبرت تلك الكمية أم صغرت، ويختلف الحاسب الإلكتروني عن الإنسان في هذا السياق، فبينما يبادر الإنسان إلى تجميع المعلومات المطلوبة ويربطها بافتراضات وتصورات قد لا تكون موجودة أصلا، فإن الحاسب على النقيض من ذلك ينتظر المعلومات المرسلة إليه في صيغة معينة ولا يسعى إليها، ويرتبط إبداع أية نظرية بمنظومة معرفية ونهج في التفكير، إننا لا نستطيع تصور مجتمع من الحاسبات الإلكترونية يفرز منظومة من المعارف أو نهجاً معيناً كنهج المركزية الكونية عند بطليموس أو اللامركزية عند كوبر نيكوس، فهل يعقل أن يبني مجتمع الحاسبات في المستقبل البعيد النهج الصنعوي في الفكر، أي الفكر المستند إلى موضوعية تفيد بأن كل شيء قد صنع بشكل منظم لأن الحاسبات نفسها مصنوعة؟.. لكن ذلك يفترض إمكان شعور الحاسبات بشعورها وهو أمر مستحيل من حيث المبدأ.

المراجع

١- الذكاء الاصطناعي، د بدر أحمد، مجلة المهندس العربي، العدد ١٥٣، حزيران ٢٠٠٧م.
٢- الذكاء الاصطناعي في ظل الفائض المعلوماتي، وهدان وهدان، مجلة جيش الشعب، العدد ١٩٦٧، آذار ٢٠٠٧م.
٣- الذكاء البشري والصناعي.. الحضارة والإنسان بين عالمين، محمد علي سرحان، مجلة المرأة العربية السورية، العدد ٤٦٥، آب ٢٠٠٥م.
٤- هل ينافس الذكاء الاصطناعي العقل البشري، محمد شاهين، ملحق مجلة - جريدة الجزيرة السعودية، العدد ٨٠، ١١/ ٥/ ٢٠٠٤م.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الدبلوماسية في الشرق القديم

محمد الدنيا *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تعود أقدم الوثائق المعروفة حول وجود علاقات دولية إلى الشرق الأدنى القديم، بما فيه مصر، حيث تشكلت الدول الأولى منذ الألفية الرابعة قبل الميلاد تقريباً. يمكن أن نميز إذن، من خلال مختلف مصادر هذه المنطقة، نحو ٣٠٠٠ سنة من تطور العلاقات الدبلوماسية، الموثقة كثيراً أو قليلاً، ولو أن بعض الفترات، في أماكن كثيرة، بقيت غامضة وغير معروفة.

---

* مترجم سوري.

العمل الفني، الفنانة منى المقداد.

في الواقع، ما هو معروف عن العلاقات الدبلوماسية في الشرق الأدنى القديم مجزأ، ولا يتيح سوى عدد محدود من مجموع الوثائق أن نفهم بشكل جيد نسبياً الممارسات الدبلوماسية، على مدى بضعة عقود موزعة على فترات تمتد على أكثر من ألفي سنة في مجالات جغرافية متباينة الاتساع. هنالك في الحقيقة فترات زمنية طويلة لم يوجد حولها توثيق وافر، أو هي غير موثقة البتة إلا لمراحل قصيرة أعطت مع ذلك وثائق كثيرة. لكن ذلك لا يحول دون تمييز الخطوط العريضة لتطور العلاقات الدبلوماسية، الذي سار وفق تطور تاريخ المنطقة السياسي، الذي بات معروفاً الآن في ملامحه العامة.

فترة الدول القديمة

العلاقات الدبلوماسية قديمة قدم المجتمعات البشرية التي تميزت بتنظيم سياسي. بدأت دول الشرق الأدنى الأولى تتشكل خلال الألفية الرابعة قبل الميلاد، لكننا لا نعرف شيئاً عن العلاقات الدولية في هذه الفترة لعدم وجود وثائق.

ظهرت الوثائق الأولى حول العلاقات الدبلوماسية إبان المرحلة الأخيرة من فترات حكم السلالات القديمة في وادي الرافدين (٢٦٠٠ - ٢٣٤٠ق.م). جاءت من «لكش» السومرية. أما أقدم معاهدة سلام معروفة فهي تلك التي عقدت بين «إنتمينا» Entemena، ملك هذه المدينة الدولة، و«لوكال- كينيش- دودو» Lugal- Kinishe- dudu، ملك «أرك». وقد شكلت النزاعات الحربية المتتالية بين هذه المدينة وجارتها، مملكة «أوما» Umma، بين ٢٦٠٠ و٢٣٥٠ق.م، الحجم الأكبر من ملفات الوثائق. ولكن قلما أشارت الوثائق المتعلقة بهذه الحروب إلى الممارسات الدبلوماسية، مقتصرة في أغلب الأحيان على ذكر المراحل العسكرية وحدها. توضح أيضاً أنه كانت هنالك تنافسات دائمة بين مدن الجنوب الرافديني، وهو ما نستشفه كذلك من خلال الحكايات الملحمية المتعلقة بملوك «أرك» في بدايات الفترة القديمة (« لوكالبندا» Lugalbanda، و«إنمركار» Enmerkar و«جلجامش»)، التي ربما كانت تروي أحداثاً كانت قد وقعت بالفعل. تشير أيضاً إلى نزاعات بين هذه المدينة ومنافستيها «كيش» و«أراتا» Aratta. يبدو أن مدينة «كيش» تبوأت مكانة مهيمنة في بعض الأوقات: تدخّل ملكها «ميسالم» Misalim، نحو ٢٦٠٠ق.م، في التحكيم من أجل فض نزاع بين «لكش» و«أوما»، وكان ملوك مدن أخرى قد خلعوا على أنفسهم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لقب «ملك كيش» للتدليل على تفوقهم على الملوك الآخرين.

كانت «إيبلا» في «سورية»، الموقعَ الذي أعطى المجموعة الأكثر تجانساً بين الأرشيفات الدبلوماسية لهذه الفترة. كان لملوكها علاقات مع ملوك مجاورين، خصوصاً ملكي «ماري» و«ناكار» Nagar القويين، بل أيضاً مع ملوك مناطق أبعد، مثل ملك «كيش» في بلاد الرافدين و«هامازي» Hamazi في «إيران» الغربية. أعطت تنقيبات «إيبلا» أقدم نموذج عن معاهدة سلام محررة، وشواهد على تحالفات بالزواج بين الملوك المحليين وبعض حلفائهم.

الإمبراطوريات الأولى

تمكنت دول من جنوب بلاد الرافدين بالتدريج من فرض هيمنتها على نحو أكثر فأكثر دواماً على جيرانها، كدولة «أرك» في ظل حكم «إنشاكوشانا» Enshakushana، ودولة «أوما» بشكل خاص في عهد «لوكال – زاجيسي» Lugal-zagesi. اكتمل هذا التطور بشكل لامع مع «سرجون الأكادي»، الذي أنشأ عام ٢٣٤٠ ق.م الإمبراطورية الأولى، التي ضمت المدن- الدول كلها التي كانت موجودة من قبل حتى حدود «سورية» الشرقية. العلاقات الدبلوماسية خلال هذه الفترة غير معروفة جيداً. ولكن، عثر على لوح سجلت عليه معاهدة عقدت بين «نارام- سين» Naram- Sîn ملك «أكاد» (حفيد «سرجون») وملك «أوان» Awan (في الجنوب الغربي الإيراني)، الذي كان تابعاً له. دام هذا الوضع من الهيمنة الكاملة حتى النصف الثاني من القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد، عندما انهارت هذه الإمبراطورية. بعد ذلك ببضعة عقود، كانت الهيمنة لملوك سلالة «أور» الثالثة، الذين أسسوا بدورهم إمبراطورية سيطرت على بلاد الرافدين. كانت لهؤلاء الملوك علاقات مع الممالك المجاورة، وكانت لديهم سفارات بشكل منتظم، وكانوا يرسلون مبعوثين خاصين. كان يتولى أمور الشؤون الدبلوماسية لديهم موظف رفيع المرتبة يدعى «سوكال. ماه» Sukkal. Mah. واكبت نشاطاتِهم العسكريةَ باتجاه الهضبة الإيرانية سياسة زواجية قامت على تزويج بناتهم من ملوك هذه المنطقة (ملك «أنشان» Anshan عاصمة «عيلام» القديمة، وملك «زبشالي» Zabshali غرب «إيران») بحيث يبقون في أحضانهم. لكن إمبراطوريتهم انتهت بالتفتت ثم اختفت أخيراً، وبدأت حينذاك فترة طويلة دون وجود إمبراطورية مهيمنة، تحت حكم السلالات الأمورية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الألفية الثانية:

توازن القوى

الألفية الثانية فترة تميزت بتوازن نسبي بين القوى: لم تتمكن أية مملكة في الشرق الأدنى القديم من التفوق على جيرانها بصورة متواصلة. مع ذلك، شهدت المنطقة بالتدريج تشكُّل كيانات سياسية متنامية القوة والاستقرار هيمنت على المشهد الدولي وفرضت سيطرتها على عدد من الدول التي أضحت تابعة لها ولكن أخذ عددها يتضاءل. كانت هذه الدول التابعة موضع تنافسات كثيرة بين ممالك مهيمنة، أفضت أحياناً إلى نزاعات مفتوحة.

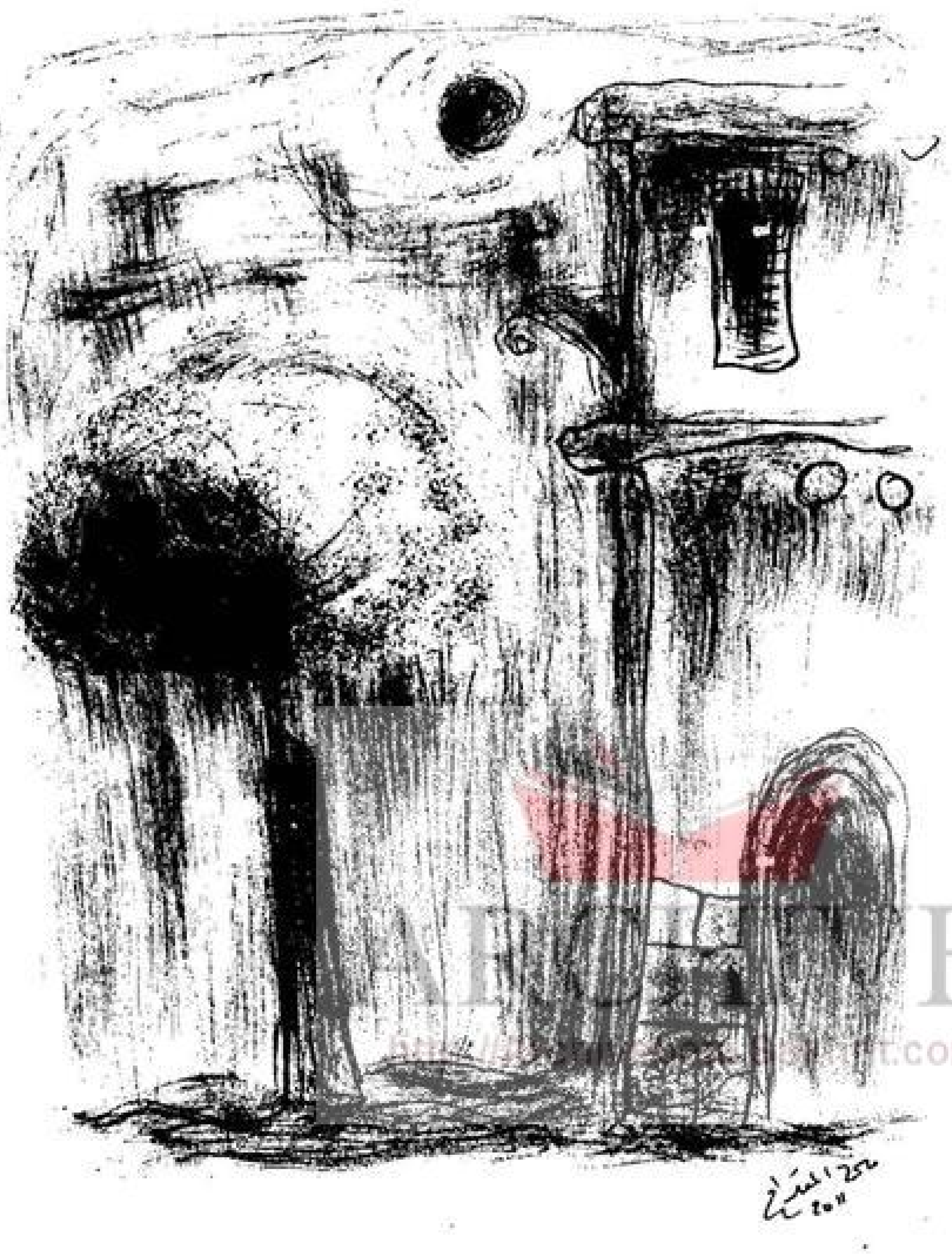

كان النصف الأول من هذه الألفية فترةَ الممالك الأمورية (٢٠٠٤ - ١٥٩٥ق. م)، التي شكلت نوعاً من اللغة العامية المشتركة ذات الممارسات السياسية المتشابهة من البحر الأبيض المتوسط حتى سفوح جبال «زغاروس». تعاقبت في السيطرة على القسم الأدنى من بلاد الرافدين و«سورية» عدة ممالك: أولاً مملكة «إيسن» و«لارسا» بعد «أور»، ولكن هيمنت عليه أخيراً مملكة «بابل» في عهد «حمورابي» (١٧٩٢- ١٧٥٠ق. م) وورثته، بينما فشلت «عيلام» في توطيد سيطرتها على منطقة الرافدين. أما في «سورية»، فإن مملكة «يمحاض» («حلب») هي التي كانت مسيطرة، حيث أفادت من

زوال مجاورتيها مملكتي «ماري» و«قطنة» (منافستها الأقوى) خلال القرنين الثامن عشر والسابع عشر. الممارسات الدبلوماسية في هذه الفترة موثقة من خلال المجموعة الاستثنائية للمحفوظات الملكية لمملكة «ماري»، التي أرّخت للنصف الأول من القرن الثامن عشر (مراسلات دبلوماسية، واتفاقات سياسية، وحكايات تاريخية)، فضلاً عن مجموعة محفوظات أقل أهمية (من «تل ليلان» - شمال شرق سورية/، «تل الرماح» - غرب «الموصل» في «العراق»/، «كولتبه» - في «تركيا» اليوم/، وغيرها).

تميزت نهاية الفترة الأمورية بدمار مملكتيها الرئيسيتين تحت ضربات «الحثيين»، الذين أعادوا، لصالحهم، توحيد ممالك «الأناضول» الشرقية خلال العقود الأخيرة من القرن السابع عشر. في الوقت نفسه، أسس «الحوريون» كيانات سياسية تزايدت قوةً، وبلغت أوجها مع تأسيس مملكة «الميتاني». أخيراً، تضاف إلى هؤلاء «مصر» التي قضت أسرتُها الثامنة عشرة على سيطرة «الهكسوس»، الغزاة الذين جاؤوا إليها من الشرق الأدنى قبل بضعة عقود، قبل أن تغدو إمبراطوريةً في «المشرق»، قبالة «الميتاني». نحن إذاً إزاء عصر جديد، مع ممالك أكبر وأقوى، وأكثر تنوعاً ثقافياً بشكل خاص، ومع أفق جغرافي واسع. أصبحت غالبية الممالك القديمة من العصر الأموري تابعة لهؤلاء الملوك، باستثناء «بابل»، التي بقيت مملكة هامة تحت حكم «الكاسيين» Kassites (١٥٩٥- ١١٥٥ق. م). اعتبر ملوك هذه الممالك المسيطرة أنفسَهم «ملوكاً كباراً»، متساوين فيما بينهم. ونحو منتصف القرن الرابع عشر، حلت «آشورية» محل «الميتاني» في هذه المجموعة. أمكن أن ينظر إلى «عيلام» أيضاً على أنها واحدة من الممالك الكبيرة خلال هذه الفترة، في القرنين الثالث عشر والثاني عشر على الأقل. الممارسات الدبلوماسية في هذه الفترة معروفة بفضل مجموعات وثائق ذات أهمية استثنائية: مجموعة «حتوشة/ حتوزا» (Boğazköi)، عاصمة «الحثيين» (رسائل، واتفاقات دبلوماسية، وحوليات تاريخية)؛ ورسائل «تل العمارنة» في «مصر» (مراسلات دولية للفرعونين «أمنحوتب الثالث» و«أخناتون»)؛ والمحفوظات الملكية في «أوغاريت»، المملكة السورية التي خضعت على التوالي لـ«المصريين» و«الحثيين». تعتبر هذه الفترة إذاً الفترة الأغزر في مصادر التوثيق والتنوع الجغرافي على صعيد العلاقات الدبلوماسية.

إمبراطوريات الألفية الأولى

انتهت فترة «الملوك الكبار» حوالي ١٢٠٠ ق.م، عندما حدثت تغيرات سياسية كبيرة بشكل خاص مع الهجرات المتعاقبة لـ «شعوب البحر» و«الآراميين»، وانهيار قوة الممالك المسيطرة، وظهور عدة ممالك صغيرة في «سورية» و«المشرق» وفي «الأناضول»، التي لم تعد تحت هيمنة مملكة أخرى.

كانت «آشورية» الوحيدة التي احتفظت بين الممالك الكبرى بقدرة واستقرار سياسي كاف لبناء إمبراطورية ابتداءً من نهاية القرن العاشر. وفي غضون أكثر من قرنين بقليل، فرضت هذه الدولة سيطرتها على ممالك الشرق الأدنى التي ظهرت في مواجهتها. تمكنت «بابل»، و«أورارتو Urartu» و«عيلام» و«مصر» فقط من أن تفكر بمنافستها، غير أنها هزمت كلها في النهاية. شهدت هذه الفترةُ بدايةَ عصر الإمبراطوريات الكبرى المهيمنة في الشرق الأدنى. من هذا المنطلق، لم تسع «آشورية» إلى تطوير علاقات دبلوماسية متقدمة جدّاً، إذ كان هدفها السيطرة على الممالك الأخرى لا عقد تحالفات معها. كانت العلاقات مع الممالك الأخرى غير متكافئة إذاً في أغلب الأحيان. علاقات «الآشوريين» الخارجية، خصوصاً اتصالاتهم مع تابعيهم، معروفة من خلال محفوظات العواصم الآشورية (« كلخ»، و«دور شروكين»، و«نينوى» بشكل خاص)، إضافة إلى مصادر خارجية في بعض الأحيان.

بين عامي ٦١٤ و٦٠٩ ق.م، هُزمت «آشورية» بنتيجة التحالف بين «البابليين» و« الميديين»، لكن «البابليين» لم يفلحوا في جعل إمبراطوريتهم تستمر قرناً، بينما بقيت حقيقة قوة «ميديا» (شمال غرب «إيران ») غير معروفة جيداً. كان «الفرس الأخمينيون »، بقيادة «قورش» الثاني، و« قمبيز» و«داريوس» الأول هم الذين بنوا في النهاية إمبراطورية مستمرة، تجاوزت في ضخامتها كثيراً إمبراطوريتي «آشورية» و«بابل ». لم يسمح «الأخمينيون» هم أيضاً لأية مملكة أخرى أن تضاهيهم. وسقطت هذه الإمبراطورية بين ٣٣٣ و٣٣٠ق.م تحت ضربات جيش «الإسكندر الكبير»، الذي تبين أنه لم يتمكن من السيطرة على الإرث الأخميني لصالحه، فتقاسمه جنرالاته عقب وفاته عام ٣٢٣ق.م: كانت تلك بداية العصر الهليني الذي اقتسمت خلاله ممالك عدة متنافسة منطقةَ البحر المتوسط الشرقي والشرق الأدنى.

ممارسات دبلوماسية

الممارسات المختلفة التي كانت مطبقة

في العلاقات الدبلوماسية في الشرق الأدنى القديم معروفة بشكل رئيسي من خلال المحفوظات الملكية من الألفية الثانية قبل الميلاد، وقد جاءت أساساً من أربعة مواقع أركيولوجية، «ماري»، و«حتوشة»، و«تل العمارنة» و«أوغاريت»، وأكملتها مصادر أقل عدداً من الألفية التي سبقتها، «لكش»، و«إيبلا»، ومن الألفية التي تلتها، خصوصاً «نينوى». نستشف تجانساً نسبياً واستمرارية في هذه الممارسات. إلا أن ما سنذكره يعني الألفية الثانية أولاً، نظراً للمصادر وللسياق الدولي الأنسب لنمو العلاقات الدبلوماسية.

أسرة كبيرة

غالباً ما يشار إلى ملوك الألفية الثانية على أنهم أسرة كبيرة. الملوك هم «آباءٌ» («أبو «abu بالأكادية) الخاضعين لحكمهم، الذين يعتبرون أنفسهم «أبناءَهم» (māru). في حالة الملوك من المرتبة نفسها (إذا كانوا ملوكاً كباراً، أو في حال التبعية للملك نفسه أو لملك من المرتبة نفسها)، يعتبرون أنفسهم «إخوة» (ahu). تميزت العلاقة بين عاهل وتابع أيضاً باستخدام عبارتي «سيد» (bēlu) و«خادم» ((w)ardu). يدل المجاز الأسري بوضوح على نوع العلاقات التي كان ينبغي أن تكون موجودة، على الأقل في الحالة المثلى، بين هؤلاء الملوك: المودة واجبة فيما بينهم، يتوجب على الأب أن يحمي ابنه، ولكن يتوجب على هذا الأخير أن يطيعه بالمقابل، وأن يحترمه، وأن لا يخونه، وأن يقدم له جزية بانتظام؛ وينبغي على المتساوين أن يتصرفوا بحيث يكونون دائماً على قدم المساواة، وهذا ما يستدعي غالباً وجود علاقات معاملة بالمثل فيما بينهم، مع مبدأ إعطاء وإعطاء مقابل. وبالتدريج، حصل الملوك الذين ليس فوقهم سيد أعلى (ملك دولةٍ مهيمنة)، على موقع مستقل خاص بهم، واتخذوا في النصف الثاني من الألفية الثانية لقب «ملك كبير» šarru rābu، وشكلوا نوعاً من «النادي» المغلق جداً، الذي يختار من يقدر على دخوله، وفقاً لنجاحاته السياسية: هذا ما أفلح فيه «آشور أوباليت الأول» Assur-uballit (حوالي ١٣٦٥- ١٣٣٠ ق.م) ملك «آشورية» بعد أن قهر مملكة «الميتاني» وأخذ مكانها، ولكن ليس «تارندارادوا» Tarundaradu ملك «أرزاوا» Arzawa خلال الفترة نفسها، والذي لم يتمكن من فرض نفسه في مواجهة «الحثيين». كان كل واحد من الملوك يسعى إلى اعتراف نظرائه.

وكلاء الدبلوماسية: الرُسُل

الوكلاء الذين يتيحون العلاقات بين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

البلاطات الملكيــة هم الرسُل (mār šipri بالأكاديــة)، المفوضون مــن القصر الملكي. كانــوا يستعينــون أحياناً بتجــار يسافرون للقيــام بأعمالهم الخاصــة. إنهم أصحاب المقامات الرفيعة في المملكة، الذين غالباً ما كان يرافقهــم موظفون كبار أو خدم. هؤلاء الرسل هم ممثلــو الدبلوماسية الرئيسيون: ينقلــون الرسائــل، والهدايا التــي يرسلها ملكُهم، ولكن يمكن أيضاً أن يطلب منهم أن يفاوضــوا، من أجل عقد اتفــاق سياسي أو عقد قران قادم (حالات زواج) بين بلاطات ملكيــة. كانــت استقلاليتهم مختلفــة وفقاً للظــروف: بعضهم حاملــو رسائل وحسب، وآخــرون يكلفون بمهمة ويمكنهم عندئذ أن يفاوضــوا، بينما يتمتع قســم آخر بسلطات كاملة (أقرباء للملــك غالباً). كان كل شيء يتعلق بالثقة التي يوحون بها لسيدهم.

كان هؤلاء الرسل يسافرون على الأقدام، أو علــى حمير، أو في عربــات، أو أيضاً في مراكب. كانوا يُستقبلــون حين وصولهم في بــلاط الأجانب الملكي، ويقيمــون في أبنية مخصصة للضيوف، ونادراً في القصر نفسه. كانــت محادثاتهم اليومية موضــع اهتمام. وكان يمكنهــم بعد ذلك حضور لقاءات لدى الملك، الذي يستقبلهم، فيقدمون له الهدايا التــي أرسلها له ملكهم. كانت هذه اللقاءات عامة، يستطيع الموفدون الأجانب حضورها (حتــى لو كانوا أعداءً لذاك الذي يستمعون إليــه). غالبــاً مــا كان يلزم تنظيــم أسئلة بروتوكولية بين مختلــف الضيوف، علماً أن هذه الأسئلة تؤخذ على محمل الجد إلى حدّ كبــير، وكان يمكن أن تسبــب وقوع أحداث. أمد الزيارة يحدده المُضيف: أمكن أن يبقى بعضــ الرسل عدة أشهــر، أو سنة، أو حتى سنتــين في بعض الحالات الواردة في رسائل «تــل العمارنة». وبشكل عام، يرافق الضيفَ الذي يعود إلى بلده رسولٌ من البلد المضيف، يتوجــه معه إلى بلاطه الملكي، ليتأكد من أن رحلته قــد انقضت على ما يــرام ويضمن وصول المعلومات كما هي.

لم يكــن هناك أبداً سفــير موجود بشكل دائــم في بــلاط ملكي أجنبــي. إلا أنه كان يمكن لبعض الشخصيات من ذوي المقامات الرفيعــة أن يتخصصــوا في العلاقات مع بــلاط معيّن تكــون لهــم فيــه ممارسات ومعارف. مثال هــذه النوع من الشخصيات هو المصري «ماني» Mane، الذي كان يزور قصر «توشراتا» Tushratta ملك «الميتاني» عدة مــرات في زمن «العمارنة». كان هنالك إذاً اختصاصيون في العلاقات الدولية. كان هؤلاء يتمتعــون نظريــاً بالحصانة، وحين يتعرض أحدهم للمضايقات أو يقتل بتحريض

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من الملك فإن ذلك كان يثير غضب واستنكار الملوك الآخرين. عثر على نسختين من جواز مرور خاصتين بهؤلاء الرسل في «ماري» وفي «تل العمارنة». وإذا مرّ هؤلاء الرسل بالبلاطات الملكية ولم يتسن لهم الحصول على لقاءات، فإنه كان يتوجب عليها مع ذلك أن تستضيفهم: كانوا يسمونهم في «ماري» «رسل عابرون».

من أجل إمكان وجود علاقات صحيحة بين الملوك، كان على هؤلاء أن يتواصلوا، وهو ما كانوا يفعلونه من خلال رسائل محررة، أمكن العثور على العديد منها في مواقع أثرية مختلفة. كانت هذه الرسائل تحرر بشكل عام بالأكادية لمنطقة بابل، اللغة الدولية ابتداءً من مطلع الألفية الثانية، وكانت تقدم بشكل بسيط جداً في البداية، مع عنوان استهلالي يسمي المرسِل والمرسَل إليه (وفقاً لصيغة شائعة بالأكادية ana X qibī-ma umma Y-ma: «إلى، فلان،، (المرسل إليه) أقول: هكذا (يتكلم) Y (المرسِل)». وخلال النصف الثاني من الألفية الثانية، انطوت هذه الرسائل الدبلوماسية على تحيات متقدمة جداً يتمنى فيها ملك كبير السعادةَ والازدهار لأحد نظرائه وأهل بيته، وإذا ما كان الملك من التابعين لدولة مهيمنة، فإنه يذكّر سيدَه كم هو خاضعٌ له (كأن يكتب عبارة «أسجد عند قدميك سبع مرات وسبعاً أخرى»).

تبادل الهدايا

غالباً ما كان مرسَلو الملوك الذاهبون إلى بلاط ملكي أجنبي يحملون هدايا إلى مضيفهم. كان يمكن لسيد المملكة المهيمنة أن يطلب من تابعه جزيةً، منتظمة أو في الوقت الذي يريد. تكون العلاقة حينذاك غير متناظرة. ولكن في حال وجود علاقة بين ملكين متساويين، فإنه ينبغي أن تكون العلاقة متناظرة: إذا ما تلقى أحدهما هدية فيجب عليه أن يرد بمثلها، من القيمة ذاتها. كان ذلك نظام الهدية والهدية المقابلة المماثلة (šūbultum et šūrubtum من الفترة الأمورية). هذه الأيديولوجية تلخصها رسالةٌ عثر عليها في «ماري» يعبر فيها ملك «قطنة» Qatna عن استيائه من نظيره ملك «إيكالاتوم» Ekallatum لأن هذا الأخير لم يرسل له هدايا بذات قيمة تلك التي كان قد أرسلها له في وقت سابق. ويشرح ملك «قطنة» أن لا أحد يتحدث عادة في هذه الأشياء، ولكن في هذه الحالة يكاد الأمر يكون ازدراءً وإذا ما عرف الملوك الآخرون به فقد يخمنون بأن ملك «قطنة» خرج مضْعفاً من هذا التبادل غير المتكافئ. إذاً، المسألة مسألة هيبة، ينظر إليها بجدية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بالغة. كانت هذه الخصومات حول هذه الإرساليات شائعة في فترة «العمارنة».

كانت هذه المنافع المتبادلة متوافقة غالباً مع تلك الموجودة في التجارة الدولية: كانت «عيلام» في فترة «الأموريين» تصدّر قصدير الهضبة الإيرانية، بينما كان ملك «مصر» يرسل ذهب «النوبة» ويرسل ملك «ألاشيا» Alashiya («قبرص» دون شك) النحاس. كانت هذه المعادن المرغوبة جداً موضع مساومات حقيقية في رسائل «العمارنة»، وكان الملوك يفاوضون بقوة كي ترسَل لهم، ويبدو أن ذلك يدل على وجود شيء من التبعية إزاء هذه التبادلات. عثر أيضاً على منتجات مصنّعة: آنية، وحلي، وأدوات زينة، وعروش، وعربات.... كان يمكن أن تكون الهدايا الدبلوماسية أيضاً أعمالاً فنية، وحيوانات غير مألوفة وأحصنة مميزة.

وفي حالات محددة، كانوا يرسلون حتى أشخاصاً إلى البلاطات الملكية الأخرى. كان يمكن أن يُطلب من الملك التابع أن يرسل خدماً إلى بلاط سيده، كجزية. أرسل «رمسيس» الثاني أحدَ أطبائه إلى بلاط «حتوشيلي» الثالث Hattushili الحثي. وفي زمن «العمارنة»، أرسل «توشراتا» Tushratta ملك «الميتاني» تمثالاً للإلاهة «عشتار» من «نينوى» إلى «مصر»، ربما للاهتمام بالفرعون «أمنحوتب» الثالث. ولكن في هذه الأحوال هي عبارة عن خدمات متبادلة بين بلاطات ملكية متحالفة (مترابطة بزيجات بين الأسر الملكية) وليس تبادلات وفقاً لمبدأ هدية وهدية مقابلة.

المعاهدات الدولية

في أوقات خاصة، كان يمكن للدول أن تحرر معاهدات دولية، متغيرة التسمية (مثلاً، باللغة الأكادية: niš ili، riksu، māmītu أو أيضاً adê في العصور الآشوري الحديث؛ وlingaiš وišhiul باللغة الحثية...). كانت هذه المعاهدات تعقب فترةً من الحرب، بهدف إعلان انتهائها. لم تكن هذه الاتفاقات مكتوبة بالضرورة، غير أنها أصبحت كذلك في وقت مبكر إلى حد ما: يعود تاريخ أقدم معاهدة مكتوبة معروفة إلى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد، بين مدينة «إيبلا» ومدينة «أبارسال» Abarsal. كشف عن معاهدات أخرى عديدة في «ماري» و«تل ليلان» و«كلتبه» بالنسبة للفترة الأمورية، و«ألالاخ» و«أوغاريت» بالنسبة للفترة التالية، غير أن أغنى المواقع هي «حتوشة» العاصمة الحثية و«نينوى» العاصمة الآشورية.

مع ذلك، لم يكن بالضرورة أن تكون هناك نسخة مكتوبة عقب اتفاق دبلوماسي. ما كان مهماً هو التزام الطرفين بالقسَم، الذي يشهد عليه الآلهة. وخلال الفترة الأمورية، كان هذا القسم يتعزز بطقوس: التضحية

بحيوان أو أكثر تعقبها وليمة إذا كان طرفا المعاهدة موجودين معاً، أو «لمس الرَّقبة» (lipit napištim) إذا استحال أن يكون مؤدّيا القسم حاضرين معاً. لم يعرف أي طقس من هذا القبيل بخصوص الفترات الأخرى. من المعروف مع ذلك أن «الحثيين» كانوا يولون اهتماماً أكبر لألواح المعاهدات، التي كانوا يودعونها في أماكن محددة، خصوصاً معابد الآلهة ضامني الاتفاق. كانوا أيضاً يكتبون معاهدات على ألواح معدنية، وقد عثر على أحدها في عاصمتهم. ويبدو أن المعاهدات كانت تُلزم بشكل عام المتعاقدين وحدهم وليس ورثتهم في الحكم، الذين كان ينبغي عليهم أن يجددوا الاتفاق بعد ارتقائهم العرش؛ إلا أن «الحثيين» كانوا يعتبرون أن المعاهدات تُلزم هؤلاء الورثة.

كانت نصوص المعاهدات تتضمن بشكل عام تقديماً يحرره المتعاقدون، ومختلف بنود الاتفاق، ولائحة بأسماء للآلهة الضامنين للاتفاق، ولعنات احتمالاً يصبونها على من يخل ببنود العقد. كان «الحثيون» يضيفون إلى ذلك جزءاً تاريخياً يروي الوضع الذي أفضى إلى المعاهدة. كانت البنود تتعلق عموماً بشروط السلام بين المتعاقدين (تأمين حرية مرور الأشخاص بين الممالك، وإعادة سجناء إلى وطنهم، وطرد لاجئين سياسيين احتمالاً)، أو بتحالف (وفق الصيغة المكررة: «أن يكون المتعاقدان صديقين للصديق وعدوين للعدو» بالنسبة لكل منهما). التراتب بين الملوك هو موضع إلزام في هذه البنود: تكون البنود متناظرة إذا كان الملكان المتعاقدان متساويين في المرتبة، وغير متكافئة إذا كان الاتفاق معقوداً بين سيد وتابعه. إذن، تنظِّم معاهداتُ التبعية (المعروفة بشكل خاص في الدائرة الحثية والآشورية) شروطَ خضوع مملكة لأخرى: استحالةُ أن يتبع ملكٌ تابعٌ سياسةً خارجية مستقلة، ودفعُ جزية، ودعمُ السيد عسكرياً إذا طلب هذا منه ذلك، وأحياناً قبولُ وجود حاميات على أرض مملكته. ووجدت في حالة معاهدات مدينة «آشور» التجارية في القرن التاسع عشر بنود تتعلق بالنشاط التجاري (ضرائب متوجبة الدفع، وسلامة التجار).

التحالفات الزواجية

كانت الزيجات بين الأسر الملكية ممارسةً دبلوماسية شائعة جداً في تاريخ الشرق الأدنى القديم، تؤكدها محفوظات «إيبلا» لكنها موثقة بشكل خاص في الألفية الثانية. كانت وسيلةً فعالة لإيجاد أو لتعميق الروابط بين أسرتين ملكيتين. كان الملوك متعددي الزوجات، ويمكنهم أن يعقدوا زواجاً مع عدة بنات أو أخوات لملوك آخرين. المرأة هي التي تترك بلاطها في كل الأحوال لتقيم في بلاط

زوجها. كان يمكن أن تتم الزيجات بين ملوك من المرتبة نفسها (زواج تماثل) أو بين ملوك من مراتب مختلفة، عندما يكون السيد هو الذي يعد بتزويج تابعه امرأةً (زواج للأدنى) أو عندما يعِد تابعٌ بتزويج سيده امرأةً (زواج للأعلى). تنضم الزوجة عندئذ إلى حريم زوجها. كان كبار الملوك يسعون بشكل عام إلى أن تكون لبناتهم مراتب عالية في البلاط الذي يذهبن إليه، وغالباً ما كانوا يفرضون أن تصبح زوجةً رئيسية كي تستطيع احتمالاً أن تلعب دوراً سياسياً. كان على كل ملك من حيث المبدأ أن تكون لديه مثل هذه المحاولة، إلا أن فراعنة «مصر» في العصر البرونزي الحديث كانوا يرفضون تزويج بناتهم للآخرين، ولو كانوا من المرتبة نفسها، ولكن كانوا يقبلون الزواج بأميرة أجنبية.

التزاوج بين الأسر الملكية معروف من خلال وثائق عثر عليها في «ماري» و«تل العمارنة» و«حتوشة» فيما يخص الزيجات بين ملوك من المرتبة نفسها. كان ينبغي في البداية التفاوض من أجل الزواج القادم، بالمراسلة ومن خلال الرسل- السفراء الأكفأ. كان على هؤلاء أن يفاوضوا حول المهر، وأن يروا الفتاة، وأن يتأكدوا من أنها جميلة. كان يمكن أن يكون المهر (nidditum باللغة البابلية القديمة، الذي تقدمه أسرة العروس للعريس) موضع مفاوضات قوية، وكان يجب أن يكون هناك مهر مقابل (terhatum باللغة البابلية القديمة، يقدمه العريس إلى أسرة العروس). عثر على لوائح مهور ومهور مقابلة في «ماري» و«تل العمارنة». ما إن تنتهي هذه الإجراءات حتى تغادر الأميرة بلاطها الأصلي نهائياً لتلحق ببلاط زوجها القادم. ترافقها في رحلتها حاشية وممثلون من بلدها وآخرون من البلاط الذاهبة إليه. تقام احتفالات الزواج حال وصولها بشكل عام. وكان يمكنها أن تراسل ذويها في بلدها الأصلي وأن تلتقي بمبعوثين منه. وكانت أسرتها تنتظر منها بشكل خاص أن تنجب لزوجها أطفالاً (الأفضل أن يكونوا ذكوراً).

مراجع البحث

1- J.-M. Durand, Documents épistolaires du palais de Mari, Tome I, Paris, 1997

2- W. L. Moran, Les lettres d'El Amarna, Paris, 1987.

3- S. Lackenbacher, Textes akkadiens d'Ugarit, Paris, 2002

4- B. Lion, «La circulation des animaux exotiques dans le Proche-Orient antique», dans D. Charpin et F. Joannès (dir.), op. cit., p. 357365- ; H. Limet, «Les animaux enjeux involontaires de la politique (au Proche-Orient ancien) », dans L. Bodson (dir.), Les

animaux exotiques dans les relations internationales: espèces, fonctions, significations, Liège, 1998, p. 3352-

5- B. Lafont, «Relations internationales, alliances et diplomatie au temps des rois de Mari », p. 263276-

6- B. Lafont, «Les filles du roi de Mari », dans J.-M. Durand (dir.), La Femme dans le Proche-Orient antique, Compte rendu de la 33e Rencontre assyriologique internationale, Paris, 1987, p. 113123- ; un cas atypique, celui de deux filles de Zimri-Lim épousant un même roi et finissant ennemies est exposé dans V. Verardi, « Mariage et politique à l>époque paléo-babylonienne, le cas des épouses de Hâyâ-Sumû », dans Cahiers d>Orient ancien 2, 20002001-, p. 2332-

7- J.-M. Durand, Archives royales de Mari XXVI/1, Paris, 1988

8- «Diplomatie», dans F. Joannès (dir.), Dictionnaire de la civilisation mésopotamienne, Paris, 2001, p. 235239-.

9- 2010, Encyclopædia Universalis France S.A.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التعريف بكتاب:

جولات مهندس جغرافي في حلب (١٨٣١ - ١٨٣٢)

عبد الله حجار*

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إنـــه كتاب جديد حقّقه وأصدره الباحثان حسين المدرس وأوليفيه سالمون حول نص مخطوط غير معروف للمهندس الجغرافي كميل كالييه فيه وصف لمدينـــة حلب ومبانيها التاريخية في الفترة التي غـــزا فيها إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا المصري سورية، والدور الذي قام به المؤلف في إقناع المصريين بالانسحـــاب من سوريـــة والذي أدّى إلى منحه وســـام الافتخار العثماني من السلطان عبد المجيد العام ١٨٤٢م.

---

* باحث في التراث العلمي العربي.

العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

زادت صفحات الكتاب القيّم جداً في معلوماته الدقيقة عن الوضع العمراني لمدينة حلب في بداية الثلاثينيات من القرن التاسع عشر على ٢٠٠ صفحة. وقد أغنت هذه المعلومات والرسوم والصور النادرة القديمة والصور المقارنة الحديثة والتي زاد عددها على المئة صورة أضافها الباحث الفنان الدكتور حسين إلى الكتاب، وهو يذكرنا بقاموس لاروس الذي يعتبر أن النص من دون صور مثل هيكل عظمي دون جسد. وقد صدر الكتاب عن دار المدرس بالتعاون مع دار «شعاع للطباعة والنشر» التي تهتم بنشر الكتب التراثية عن حلب بشكل خاص.

وما أثر في بشكل خاص اهداء المحققين الكتاب للدكتور محمود حريتاني ولي باعتبارنا «محبّي حلب اللذين لا يتعبان». لقد عرف الصديقان المحقّقان أنه لن يقدّر أهمية معلومات الكتاب حقّ قدرها أحد مثل تقديرنا لها، فشكراً لهما من القلب على التعريف بخفايا حلب في العام (١٨٣١ -١٨٣٢م) من نص غير معروف من قبل.

لذلك رأيت من واجبي التعريف بالباحث وبالكتاب إلى قرّاء العربية نظراً لأهمية ذلك في بدايات التخطيط العمراني وحتى قبل صدور مخطط يونغ التنظيمي لمدينة حلب العام ١٨٩٩م. ويحتاج الكتاب في الواقع بكامله إلى الترجمة إلى العربية. وكل الشكر للصديقين الدكتورين حسين المدرّس وأوليفيه سالمون، صديقَي تراث حلب، على تعريفنا على هذا الوصف وهو كنز دفين من كنوز حلب التي تكشف بين الحين والآخر عن مزيد من مفاتنها التي لا تُحصى.

المهندس الجغرافي كميل كالييه:

ولد كميل كالييه العام ١٨٠٤م واتجه نحو الحياة العسكرية ودخل مدرسة البوليتكنيك ثم مدرسة المهندسين الجغرافيين، وعمل العام ١٨٢٨م في قسم خريطة فرنسا في الأشغال العامة وأصبح عضواً في الجمعية الجغرافية العام ١٨٣٠م قبل إرساله في مهمة إلى الشرق لمدّة أربع سنوات عاد بعدها إلى فرنسا ومنح لقب فارس في جوقة الشرف العام ١٨٣٥م والمدالية الذهبية للجمعية الجغرافية العام ١٨٣٦م وأصبح سكرتيرها العام في ١٨٣٦م. ثم وضع تحت تصرّف وزارة الخارجية الفرنسية التي أرسلته في مهمة حمامة سلام إلى مصر وسورية لوضع حدّ للحرب الدائرة بين العثمانيين والمصريين. كذلك كلّف في ما بعد بمهمة في الجزائر، وعيّن العام ١٨٧٠م قائدا أعلى للدفاع عن أسوار باريس التي حاصرها الألمان. وأحيل إلى التقاعد بناء على طلبه العام ١٨٧٨م

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

وتوفي في باريس في ١٢ كانون الثاني العام ١٨٨٩م.

ويعلمنا المحققان أن أرملة كالييه عهدت بالمخطوط إلى أحد علماء الآثار الذي عهدت أرملته به بدورها إلى المكتبة الوطنية في باريس وقد حمل عنوان «ذكرى من سورية» وتألف من ٢١٩ ورقة بأبعاد ٣١ × ٢١ سم أغناها المحققان بالحواشي والصور الرائعة قديمها وحديثها. ونوّه تييرّي بواسيير مدير المعهد الفرنسي في الشرق الأدنى بحلب في تقديمه للكتاب إلى أهمية النص على قصره في وصف حالة حلب في فترة سياسية غير مستقرة تعرضت لها بدخول الجيوش المصرية العام ١٨٣٢م والموهبة الأدبية التي يتمتع بها كالييه وهو الفنّي الاختصاصي في رسم المخططات والخرائط.

مهمة كالييه في الشرق:

أرسل كالييه مع زميل جغرافي (توفي بعد وصوله حلب بأيام ويدعى ستاماتي) في مهمة اقتفاء أثر خط سير الحملات الصليبية إلى أنطاكية والقدس. وكان المطلوب منه دراسة جغرافية المنطقة غير المعروفة جيدا في آسيا الصغرى وسورية وبترا والعربية مع الإجابة على أسئلة محددة مطلوبة من الجمعية الجغرافية (باربييه دو بروكاج) وعن قلعة سمعان العمودي وسواها.. وخلال عودته قدّم كالييه إلى الجمعية الجغرافية العام ١٨٣٥م خريطة لسورية الجنوبية وفلسطين بمقياس ١/١٠٠٠٠٠ ما أهّله لاستلام المدالية الذهبية للجمعية الجغرافية العام ١٨٣٦م. وكان من هواياته اهتمامه بجمع نماذج من أنواع الصخور والنباتات والحشرات إضافة إلى بعض الكتابات..

حوّلت مهمة كالييه إثر احتلال إبراهيم باشا سورية العام ١٨٣٢م إلى مهمة تقديم معلومات عن الأحداث في سورية وإقناع محمد علي بإيقاف الحرب ضد العثمانيين وقبول التحكيم والتفاوض لإحلال السلام على أسس متينة. من أجل ذلك حضر كالييه مرة أخرى إلى الاسكندرونة ووصل حلب في ٢٦ حزيران ١٨٣٩م لمقابلة إبراهيم باشا الذي انتصر في معركة نصيبين ضد العثمانيين، وانضم إليه ليقنعه بعدم التقدم أكثر والتوقّف في مرعش. وبقي في حلب شهر آب ونزل في ٢ أيلول لمقابلة محمد علي في مصر. لكنّ تدخّل الجيوش البريطانية في سورية العام ١٨٤٠م جعل الجيوش المصرية تنسحب. وقد منح كالييه وسام «نيشان الافتخار» من قبل السلطان عبد المجيد في كانون الأول ١٨٤٢م لقاء سعيه في إحلال السلم. وقد ظل كالييه نشيطا خلال الحرب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بين روسيا والعثمانيين في الخمسينيات من القرن التاسع عشر.

كاليه وجولاته في حلب:

وصل كاليه حلب في أيلول ١٨٣١م وأقام في خان الطاف إلى الغرب من كنيسة الشيباني وأمام دير الرهبان الفرنسيسكان. توفي زميله ساماتي بعد عدة أيام من وصوله إلى حلب وحزن كثيراً لذلك. وبنهاية تشرين الثاني رحل إلى أنطاكية وأضنة وكبادوكيا، وعاد في نهاية العام إلى حلب ليبقى فيها حوالي ثلاثة أشهر قام خلالها بجولاته (نزهاته) ودراساته الجدّية عن حلب، سافر بعدها إلى لبنان وقبرص وصور وفلسطين .ثم إلى فرنسا في كانون الأول ١٨٣٤م.

لم ينشر كاليه مخططاً عن حلب إثر جولاته (نزهاته) الأربع التي قام بها في أنحاء المدينة القديمة والأسوار وما حولها، لأنه قدّم ملاحظاته عن هذه المباني إثر كل جولة بأسلوب أدبي وشاعري راقٍ وصف فيه ما رآه وما أحسّ به. وكانت كل نزهة تبدأ من خان الطاف وتنتهي إليه، وكانت النزهة الأولى حول أسوار المدينة والثانية في شرق وشمال حلب والثالثة اختصّت بالمباني الهامة في المدينة القديمة والرابعة زار فيها الضاحية الجنوبية من حلب، من دون أن ينسى التعرّض لزلزال حلب المدمر العام ١٨٢٢م وأحوال «القرباط» والمجانين ووصف وصول قافلة من بغداد وسوى ذلك بأسلوب

شعري يظهر موهبة أدبية عالية لدى كاتب استوعب سحر الشرق وعبّر عنه بإبداع.

والواقع أنه يجب أن نذكر أن أقدم مخطّط يُظهر طبوغرافية حلب قام برسمه كارستن نيبورCarsten Niebuhr (١٧٣٣- ١٨١٥م) طبوغرافي في البعثة العلمية التي أرسلها ملك الدانمرك فريدريك الخامس لدراسة منطقة «العربية». وقد رسمه خلال إقامته بحلب (قبل العام ١٧٩٤م) في طريقه إلى الجزيرة العربية وأعطى نسخة منه إلى صديقه الدكتور باتريك راسل (١٧٢٧ - ١٨٠٥م) الذي كان يقيم آنئذ في حلب والذي نشره في الطبعة المعدّلة لكتابه «تاريخ حلب الطبيعي» الذي صدرت منه طبعة ثانية العام ١٧٩٤م. ولم ينشر مخطط نيبور إلاّ العام ١٨٣٧م.

ويبدو أن كالييه لم يطلع على مخطط نيبور، لكنه بالتأكيد شاهد مخطّط قنصل فرنسا بحلب جان باتيست روسّو المنظّم العام ١٨١١م والذي دقّقه وأكمله العام ١٨١٨م قبل إرساله إلى جان- دونيز باربييه دو بوكاج Jean - Denis Barbié Du Bocage الذي طبعه العام ١٨٢٥م ونشره تحت عنوان «وصف مدينة حلب» صفحة ١٩٤ - ٢١٧ و«ملاحظة على الخريطة العامة لباشليك بغداد وأورفة وحلب وعلى مخطط روسّو عن حلب» صفحة ٢١٨ - ٢٤٤ في «حصاد الأسفار والذكريات» إصدار وطبع الجمعية الجغرافية، الجزء الثاني، العام ١٨٢٥م.

ويبدو أنه بسبب اطلاع كالييه على مخطط روسو وملاحظات دوبوكاج التفصيلية عليه لم يشأ، وهو الطبوغرافي المحنّك والخبير، أن يرسم أو يضيف شيئاً جديداً على المخطّط، واكتفى بالوصف الرائع للمباني والبيئة المشاهدة والإنسان المقيم مستعينا بأسلوبه الأدبي وموهبته المبدعة خلال نزهاته الشاعرية بين أحياء حلب العتيقة ومبانيها الخالدة وسكانها الطيّبين.

تألفت المخطوطة من ستة فصول تحدّث الفصل الأول عن تكوين حلب وتسمياتها بين حلب وحلبون وبيريا وحلب الشهباء وحديث النزهة الأولى عن خان الطاف وخان الشيباني ودير الرهبان الفرنسيسكان وبيت دوريغيلو (صولا) والبيمارستان النوري وجامع البهرمية (شارع عمر أفندي) وزلزال العام ١٨٢٢م وباب أنطاكية والسور وباب الجنائن والتكية المولوية وباب الفرج وقسطل السلطان وباب النصر(باب مار جرجس) وباب الحديد والباب الأحمر وباب النيرب وباب المقام وباب قنسرين قرب السجن والخندق وحول البلدة .

يتكلم الفصل الثاني من الكتاب عن الدبّاغات والجسر على نهر القويق والبساتين وطبيعة ومزروعات المنطقة وعن «القرياط» فيها وعن حيّ الكتّاب ومقابر المسلمين والنواعير والسمك في القويق وفي الفرات ووصف البساتين وقناة وصل الساجور وقناة حلب والمغاير والشيخ أبو بكر وجبل العضام وقلعة الشيخ يبرق ومدافن اليهود والمسيحيين وجبل النهر والحي اليهودي في بحسيتا ومدخل «المدينة» والخانات وخاصة مكان إقامة إرسالية اللعازريين والكبوشيين وقنصلية فرنسا القديمة مع وصف الأسواق والمقاهي وقره كوز عيواظ والرواة (جمع راوي) في المقاهي.

ومع الفصل الثالث يتابع المؤلف نزهاته واصفا خان الجمرك الهام وعمل الجمركي ودير الكرمليت والجامع الكبير(سيّدنا زكريا) والقصر والسرايا وجامع العادلية العثماني الجميل. ويرصّع الفصل بصور جميلة ملتقطة من بداية القرن العشرين ونصفه الأول لمئذنة الجامع الكبير وحلب وجامع العادلية مع صور حديثة للمقارنة.

ونتابع مع الفصل الرابع الجولة في القسم الجنوبي من حلب منطلقاً كالعادة من خان الطاف الذي يقيم فيه مروراً بمصبنة قبل وصوله إلى باب قنسرين. ويذكر أن سبع مصابن تكفي حاجة المدينة والضواحي وقرى الجوار، وكان هناك مقهى غير بعيد عن باب قنسرين يرتاده جنود حامية الباب. ويمر بكروم الفستق والكلاسة وجبل الشيخ محسّن (ويسميه الإفرنج إيزوليتيIsoletti) الذي يبدع المؤلف في وصف مشهد مدينة حلب منه عند المغيب. ويذكر المغاير وصانعي الحبال وعمال معامل النسيج، ويذكر الشالات والكشمير والسجاد العجمي والتركي الذي ليس له مثيل في المصانع الأوروبية، ويعقّب قائلا: «يبدو أن هذه الموهبة في إنتاج الفروق والتفاصيل الناعمة في شفافية الألوان بانسجام كبير هي إحساس غريزي لدى شعوب الشرق». ويذكر القنباز للرجل والفستان للمرأة المصنوعين من الحرير الطبيعي الذي يجلب غالباً من أنطاكية، ويزيّن الكتاب صورة شراء شرانق الحرير في أنطاكية من بداية القرن العشرين. وقد تناقص إنتاج البضائع والثياب الفاخرة والمطرّزة بخيوط الذهب والفضة مع فقر السكان. وتتابع الجولة مرورا بساحة بزة وقلعة الشريف وباب المقام ليعود إلى خان الطاف مروراً بجامع العادلية.

في الفصل الخامس يبدي الكاتب دهشته من خلو حلب من المعالم الأثرية القديمة، ويذكرها المؤرخ سترابون باعتبارها

بلـدة صغيرة غير ذات أهميـة بالمقارنة مع أنطاكية وأفاميا واللاذقية، ولا تقدم المدينة للرحالة بقايا رومانية أو بيزنطية هامة -ثل القسطنطينيـة، وتعتبر بموقعها على طرف الصحراء مثل مرفأ لهذا البحر من الرمال، تأتيها القوافل الكبيرة مـن البصرة وبغداد وفي أسواقهـا الشهـيرة بين أسـواق الشرق تُتَبـادل سلع الهند وإيـران وتركيا وأوروبة. ويصف المؤلف مسيرة قافلة وكيفية دفاعها عن نفسها في حال مهاجمتها من البدو، كما يصف سعاة البريد على جمالهم ومشاهدته أحـد السعـاة القادم من بغـداد إلى حلب، ويذكر كذلك الحَمَام الزاجل الذي يستخدم في نقـل الرسائـل الصغـيرة وفي المسافات القصيرة.

وكرّس الفصـل السادس والأخير من الكتـاب لسكان حلـب بمختلـف أطيافهم مـن مسلمـين ومسيحيين ويهـود ولتواجد الإرساليـات الكاثوليكيـة في حلـب منـذ العـام ١٦٢٥ (اللعازريـون في خان البنادقة والكبوشيون في خان أبـرك والكرمليون في خان الجمرك والرهبـان الفرنسيسكان في خان الشيبـاني). ويتعرّض إلى ثورة الشعب التـي استمـرت ١٠١ يوم في عهـد الوالي خورشيد العـام ١٨١٩م ويذكر زلزال العام ١٨٢٢م ومـا أحدثـاه من دمـار في شوارع ومبـاني حلب. ويذكر أن عـدد سكان حلب العام ١٨٣٢م هو ٧٥٠٠٠ نسمة منهم ٥٠٠٠٠ مسلمـون موزعون بـين إنكشارية وأشراف (السيّـدا) و٢٥٠٠٠ مسيحيـون يقطنون في «الجديـدة» (ربمـا الرقم مبالغ بـه) منهم ٢٣٠٠٠ كاثوليـك (١١٠٠٠ روم كاثوليـك و٦٤٠٠ أرمـن كاثوليـك و٤٠٠٠ سريـان كاثوليـك و١٧٠٠ موارنة) و٢٠٠٠ أرثوذكس (منهم ١٥٠٠ أرمن أرثوذكس و١٠٠ نساطرة، ونسـي كاليه أن يذكر الـروم الأرثوذكس). وكان القنصل الفرنسي شوفالييه دارفيو قد قـدّر عدد سكان حلـب في العام ١٦٨٣م ب ٢٨٥٠٠٠ نسمة (٢٥٠٠٠٠ مسلم و٢٥٠٠٠ - ٣٠٠٠٠ مسيحـي) ويذكر تقرير لليسوعيين أن طاعون العام ١٧١٩م أباد ١٢٠٠٠٠ نسمة من سكان حلب. وقد تراجع عدد السكان بين التاريخين المذكوريـن (١٦٨٣ و١٨٣٢م) إلى الربع تقريباً بسبب انحدار التجارة والأوبئة والأمراضـ المعدية والحـروب والزلازل. ويذكـر كالييه أن عـدد اليهود في حلب في أيامـه حوالي ٢٠٠٠ عائلـة يسكن معظمهم في محلة بحسيتـا حيث كنيسهم، وقلّة منهم عائلات غنية مثل عائلـة بيجوتو التي مثّل أفرادهـا معظـم قناصل الـدول الأجنبية بحلب، واحتكارهم مهنة الصرافة وحذقهم في عقـد الصفقات التجاريـة. وذكر بعض

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التقاليد الخاصة في زواج اليهود وتأكدهم من بتولية العروس يوم الزواج.

والطريف أن كالييه يذكر أنه: «في الكنائس الكاثوليكية بحلب يقدّمون صلوات القدّاس كلّ بلغته الأصلية، اليونانية أو السريانية أو الأرمنية، لكنّ الإنجيل كان يقرأ بالعربية كي يفهم المؤمنون مضمون القراءات المقدسة، وهذا معقول». ويتساءل بدوره ألا يمكن تبنّي شيئاً مماثلاً في الكنيسة اللاتينية في أوروبة؟ (حيث يقدّم القداس لدى الكاثوليك باللاتينية وهي لغة بائدة لا يتكلّمها أحد).

والواقع أنه تمّ إنجاز كبير مع مقرّرات المجمع الفاتيكاني الثاني العام ١٩٦٤م حيث سُمح لكل طائفة كاثوليكية في العالم أن تتلو صلواتها في القداس بلغاتها الأصلية الفرنسية أو الإنكليزية أو الألمانية أو الإيطالية أو الإسبانية أو العربية.. كي تفهم جماهير المؤمنين معنى الصلوات والابتهالات، ولا مانع من استعمال بعض التراتيل الدينية الشهيرة باللغة اللاتينية أو اللغات الطقسية الأخرى. وهذا ما يتم حاليا لدى الطوائف المسيحية بحلب على اختلافها.

وأضاف المحققان ملاحق لفصول الكتاب ضمت رسائل وثائقية وجّهها كميل كالييه إلى الجمعية الجغرافية وإلى جوزيف -فرانسوا ميشو وإلى والده إضافة إلى ترجمة براءة وسام الافتخار الذي منحه إياها السلطان عبد المجيد.

إذن، الكتاب بحق دعوة لاكتشاف المباني التاريخية في حلب ضمن الأسوار وما حولها من خلال جولات مفيدة للسائح المعاصر. وهو بفصوله وصوره الجميلة المضافة والتي أضفت بعداً جمالياً للوصف الشاعري بأدبه الراقي يعتبر لبنة هامة تضاف إلى بنيان التعريف بذاكرة حلب في مختلف مراحلها التاريخية، والذي يقوم الصديقان الباحثان الدكتور حسين المدرس والدكتور أوليفيه سالمون بتقديمه إلى المكتبة العربية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الخليفة عمر بن عبد العزيز ودوره في نشر علوم الطب

د. محمد ياسر زكّور *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تفخر محافظة إدلب في شمال سورية بأن تضم بين حناياها ضريح خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه- في قرية دير شرقي التي تبعد عن مدينة إدلب حوالي أربعين كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي قرب معـرة النعمان. وإلى جانب ما يعرف عن هذا الخليفة من العدل الذي شمل البـلاد، يعود الفضل في نشر علـم الطب إليه؛ وذلك من خلال إخراجه أول كتـاب في الطب تُرجـم إلى العربية، إضافة إلى نشر العلـوم كافة حين نقل التدريس من الإسكندرية إلى أنطاكية وحران.

---

* باحث سوري في تاريخ العلوم.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

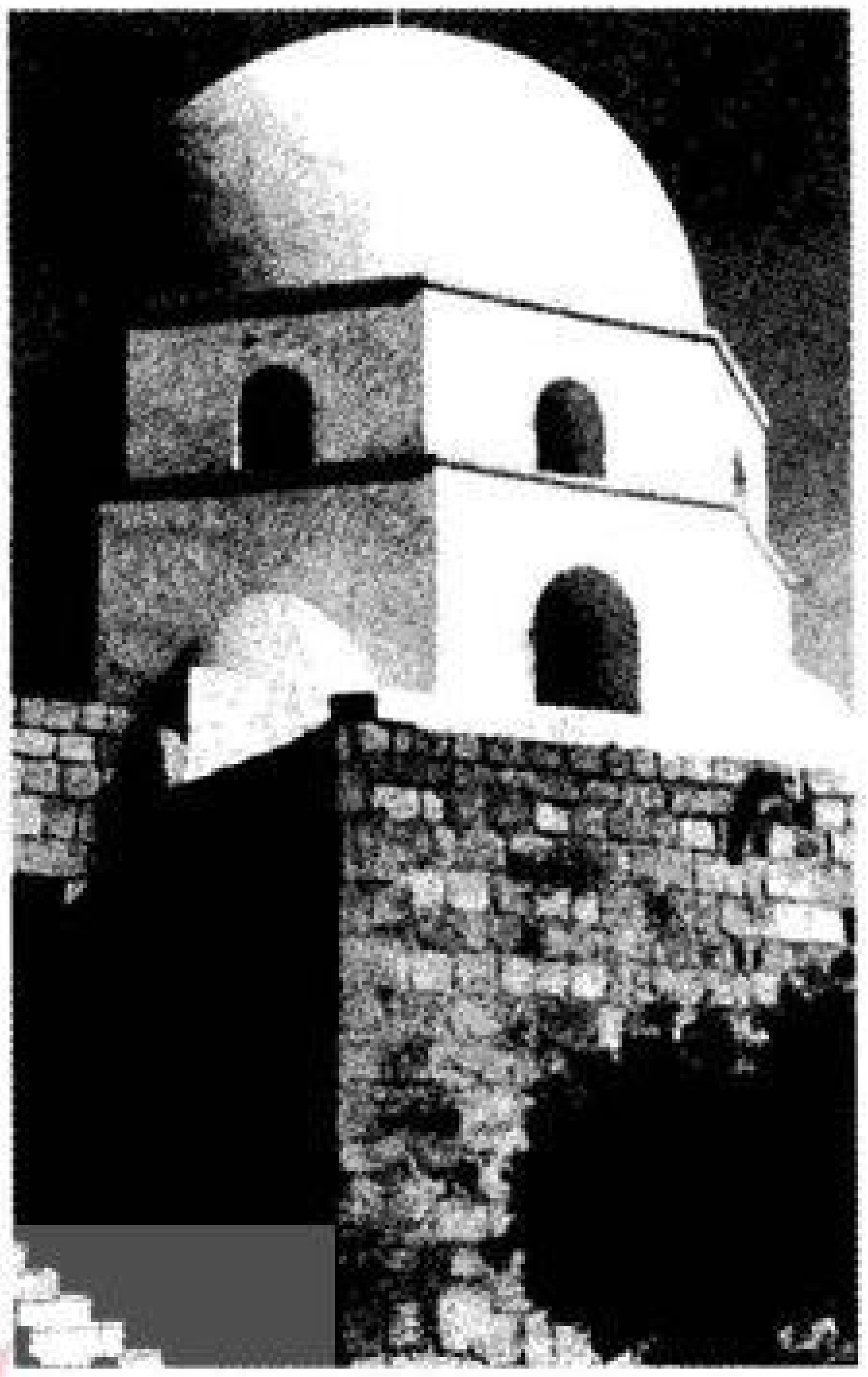

صورة رقم (١)

صورة رقم (٢)

قصة الكتاب

الكتاب بالأصل هو كناش[1] في الطب من ثلاثين مقالة باللغة السريانية، وهو كناش فاضل من أفضل الكنانيش القديمة، كتبه أهرُن القس من أهل الإسكندرية الذي كان في صدر الدولة العباسية.

ترجم الكتاب إلى العربية ماسَرجويه البصري الذي كان في عهد الخليفة مروان بن الحكم (٦٤- ٦٥هـ) وكان أول من اهتم بالطب، فقد أمر الطبيب ماسرجويه البصري (ماسَرجيس)- الذي كان معاصراً له- بترجمة الكتاب من السريانية إلى العربية، فترجمه وزاد عليه مقالتين. وثمة رواية أخرى للقفطي (ت٦٤٦هـ) في «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» تقول: إن ماسرجويه البصري تولى لعمر بن عبد العزيز ترجمة كتاب أهرن القس في الطب، بيد أن الرواية الأولى هي الأصح وهي رواية ابن جلجل؛ سليمان بن حسان سنة ٣٧٧هـ، والتي أوردها القفطي أيضاً.

أما قصة نشر الكتاب من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز سنة (٩٩/هـ/٧١٧م): فلما وجد هذا الكتاب في خزانته- وهو أوّل كتاب في الطب نُقل إلى العربية- أمر بإخراجه وبثّه في أيدي الناس لينتفعوا به بعد استخارة لأربعين يوماً، ويعتبر ابن

جلجل أوّل من دوّن هذا الفضل للخليفة عمر بن عبد العزيز من خلال النص الذي تلقاه سنة ٣٥٩هـ شفاهاً من «محمد بن عمر بن عبد العزيز» في مسجد القرموني؛ نسبة إلى قرمونة مدينة بالأندلس في الشرق من إشبيلية- وهو من أحفاد عيسى بن مزاحم الذي كان مولى للخليفة عمر بن عبد العزيز- ومحمد بن عمر بن عبد العزيز يعرف بابن القوطية (توفي ٣٦٧هـ) من أهل قرطبة، وأصله من إشبيلية، ثم انتقل إلى الأندلس وأنسل بها، ومنه عرف أبناؤه وأحفاده هذا الخبر، وعن ابن جلجل نقله المؤرخون وأثبتوا أنه مصدره.

وهذا نص ما أورده سليمان بن حسان الأندلسي المعروف بابن جلجل في كتابه «طبقات الأطباء والحكماء» الذي ألّفه سنة ٣٧٧هـ، وذلك في معرض ترجمته لماسرجويه، حيث يقول: «ماسَرجويه كان يهودي المذهب سريانياً، وهو تولى في الدولة المروانية تفسير كتاب أهرُن بن أعين القس إلى العربية، ووجده عمر بن عبد العزيز في خزائن الكتب، فأمر بإخراجه ووضعه في مُصَلاّه، فاستخار الله في إخراجه إلى المسلمين للانتفاع به، فلما تمَّ له في ذلك أربعون صباحاً أخرجه إلى الناس وبثّه في أيديهم. حدّثني أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بهذه الحكاية في مسجد القرموني سنة تسع وخمسين وثلاثمائة».

وقد اهتم العلماء والمشتغلون بتاريخ العلوم بهذا النص، لأهميته في تاريخ العلم، ولدلالته على قدم الترجمة، ووجود خزائن للكتب في صدر الدولة الإسلامية.

نقل التدريس من الإسكندرية إلى

أنطاكية وحران

لم ينته فضل الخليفة عمر بن عبد العزيز عند إخراج كتاب الطب وبثه في أيدي الناس، لا بل طال فضله أيضاً بأن نقل التدريس من مدرسة الإسكندرية إلى أنطاكية وحران وتفرق في البلاد، وفي مدرسة الإسكندرية هذه كان الطبيب العالم عبد الملك بن أبجر الكناني (كان حياً سنة ٩٩هـ) المتولي التدريس في هذه المدرسة في عصرها الأخير قبل الفتح الإسلامي سنة (١٩هـ) وكان في أول عهده يقوم بتدريس الطب فيها على أساس ملخصات كتب جالينوس، وابن أبجر كان عالماً نحريراً وكان في أيام بني مروان، وكان مسيحياً وأسلم على يد عمر بن عبد العزيز وهو أمير قبل الخلافة، ثم أصبح طبيبه عندما تولى الخلافة من سنة (٩٩- ١٠١هـ)

وعن ابن أبجر هذا أخذ مريانوس الراهب علم الكيمياء الذي أخذه عنه بدوره خالد بن يزيد بن معاوية.

إن هذا النص المهمّ عن انتقال التدريس من مدرسة الإسكندرية إلى أنطاكية وحران وتفرقه في البلاد، والذي كان بفضل الخليفة عمر بن عبد العزيز- ذكره الفارابي (المتوفى سنة ٣٣٩هـ) والمسعودي (المتوفى سنة ٣٤٥هـ)، ثم ابن أبي أصيبعة وابن فضل الله العمري وغيرهم. ومن المخطوطات النادرة التي وجد فيها هذا النص أيضاً هو للطبيب علي بن رضوان (٣٨٨-٤٦٠هـ) وهو بعنوان «النافع في تعليم صناعة الطب»- ولعله أوّل كتاب في تعليم الطب عند العرب، نسخة شستربتي، حيث ورد في معرض حديثه عن مدرسة الإسكندرية ما نصه:

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

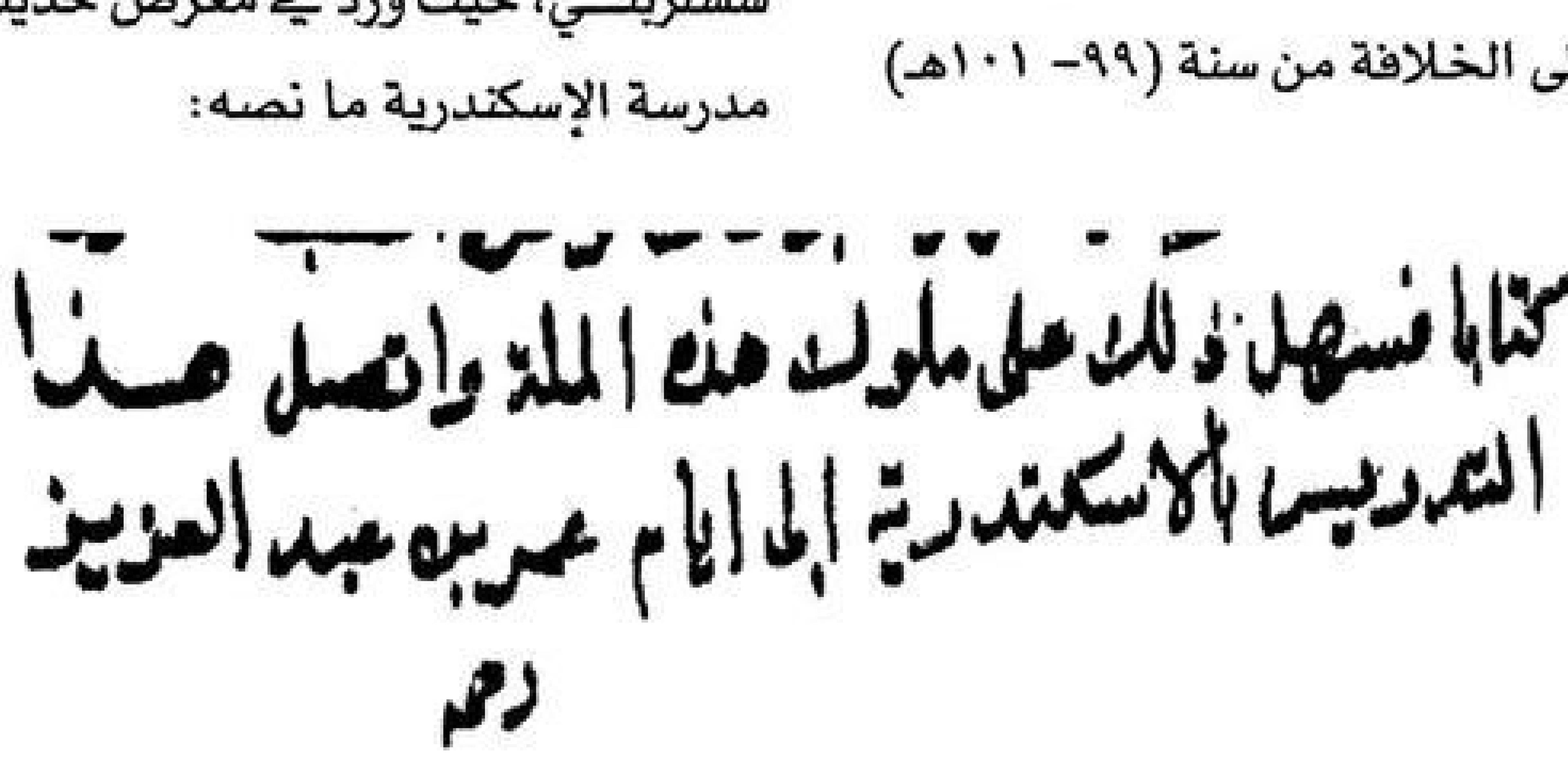
كتابا فسهل ذلك على ملوك هذه الملة واتصل هذا
التدريس بالاسكندرية إلى أيام عمر بن عبد العزيز
رحمه

صورة رقم (٣) مخطوط شستربتي ٥٠١٩ الورقة ٢٢/ظ

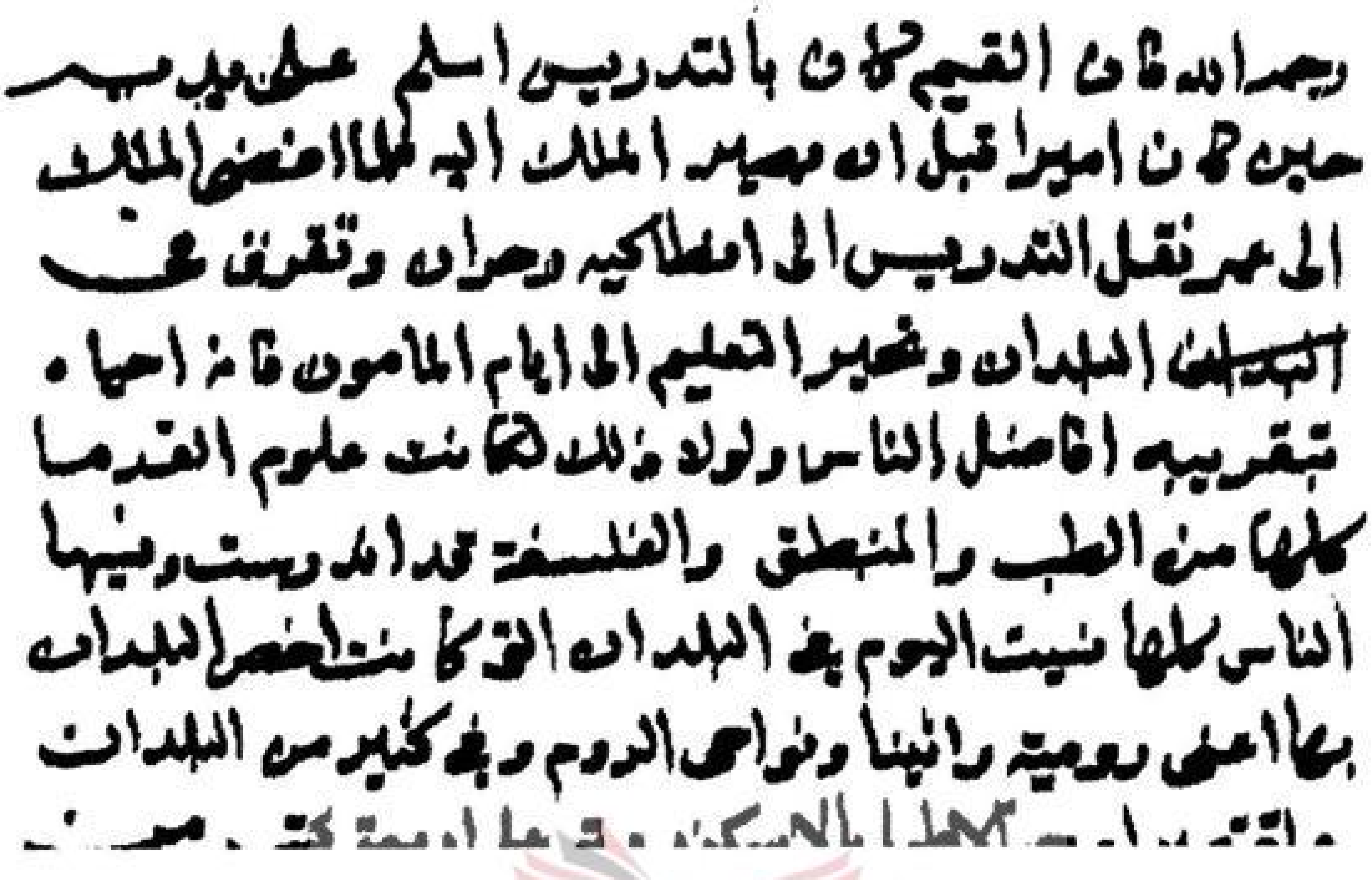
رحمه الله فان القيم كان بالتدريس اسلم على يديه
حين كان اميرا قبل ان يصير الملك اليه فلما افضى الملك
الى عمر نقل التدريس الى انطاكيه وحران وتفرق في
البلدان البلدان وتحير التعليم الى ايام المامون فانه احياه
بتقريبه افاضل الناس ولولا ذلك لكانت علوم القدما
كلها من الطب والمنطق والفلسفة قد اندرست وفيها
الناس كلها نسيت اليوم في البلدان التي كانت اخص البلدان
بها اعني رومية واثينا ونواحي الروم وفي كثير من البلدان

صورة رقم (٤) تتمة النص في الورقة ٢٣/و

«... واتصل هذا التدريس بالإسكندرية إلى أيام عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- فإن القيّم كان بالتدريس أسلم على يديه حين كان أميراً قبل أن يصير الملك إليه، فلما أفضى الملك إلى عمر نقل التدريس إلى أنطاكية وحران وتفرق في البلدان، وتحير التعليم إلى أيام المأمون فإنه أحياه بتقريبه أفاضل الناس، ولولا ذلك لكانت علوم القدماء كلها من الطب والمنطق والفلسفة قد اندرست وفيها الناس كلها نسيت اليوم في البلدان التي كانت أخص البلدان بها- أعني رومية وأثينا ونواحي الروم وفي كثير من البلدان...».

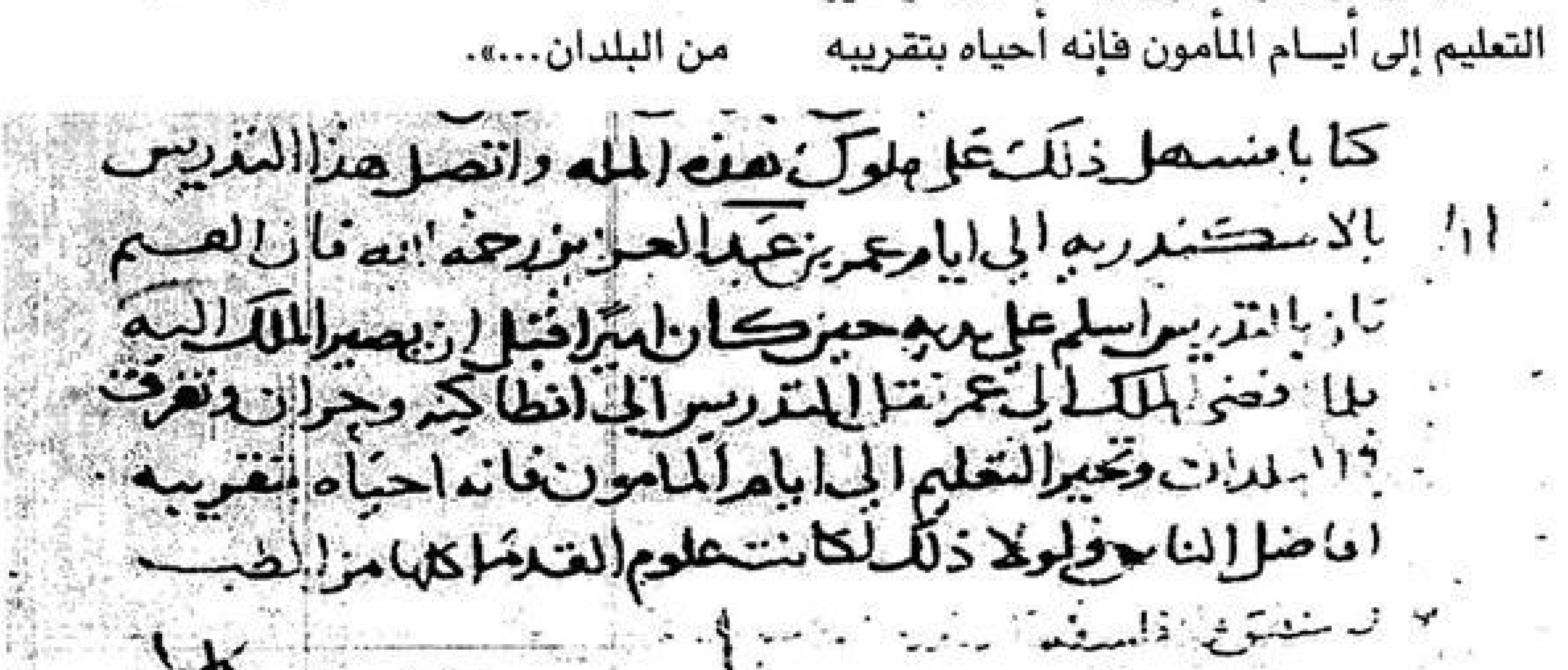
واتصل هذا التدريس
بالاسكندرية الى ايام عمر بن عبد العزيز رحمه الله فان القيم
كان بالتدريس اسلم على يديه حين كان اميرا قبل ان يصير الملك اليه
فلما افضى الملك الى عمر نقل التدريس الى انطاكية وحران وتفرق
في البلدان وتحير التعليم الى ايام المامون فانه احياه بتقريبه
افاضل الناس ولولا ذلك لكانت علوم القدما كلها من الطب

صورة رقم (٥) مخطوط شستربتي ٤٠٢٦ الورقة ٧/ظ

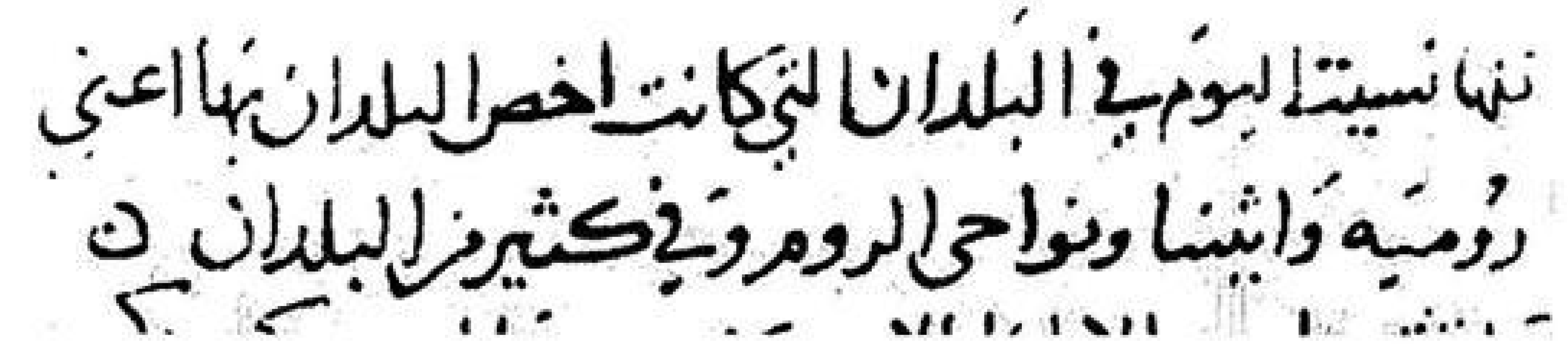
نها نسبتنا اليوم في البلدان التي كانت اخص البلدان بها اعني
رومية واثينا ونواحي الروم وفي كثير من البلدان

صورة رقم (٦) تتمة النص في الورقة ٨/و

وهكذا نرى هذا الفضل للخليفة عمر بن عبد العزيز بالإضافة إلى عدله الذي ملأ الكون- على قلة الفترة التي أفضى الملك فيها إليه- فإن فضله على البشرية أيضاً من خلال نشره لأول كتاب في الطب نقل إلى العربية، ونشر تدريس العلوم كافة في أنحاء البلاد. ومحافظة إدلب بسورية تفخر بأن يرقد ضريحه الشريف بين حناياها، هذا الضريح الذي زاره القائد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٤هـ إثر عودته من معركة حطين.

صورة رقم (٧) مدخل الضريح

صورة رقم (٨) ضريح الخليفة عمر بن عبد العزيز وزوجته وخادمه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش

١- كناش: الأوراق تجعل كالدفتر تقيد فيها الفوائد والشوارد.

المصادر والمراجع

١- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة- بيروت، ١٩٦٥م. ص: ١٧١، ٢٣٢، ٦٠٤.

٢- ابن جلجل، سليمان بن حسان: طبقات الأطباء والحكماء، ألفه سنة ٢٧٧هـ، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٥٥م. ص٥٩، ٦١.

٣- ابن رضوان: مخطوط النافع في صناعة الطب، شستربتي ٥٠١٩ الورقة ٢٢/ ظ ٢٣/ و. ونسخة شستربتي ٤٠٢٦ الورقة ٧/ظ، ٨/و.

٤- القفطـــي، الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن القاضي الأشـرف يوسف القفطي المتوفى سنة ٦٤٦هـ: كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء، مكتبة المتنبي- القاهرة. ص ٢١٣.

٥- النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب: الفهرست، دار الكتب العلمية- بيروت ٢٠٠٢م. ص ٤٦٦.

٦- حميدان، زهير: أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق ١٩٩٥م. ج١ ص٢٨،٤٠، ١٧٨، ج٢ ص ٩٧.

٧- الزركلي، خير الدين: الأعلام، الطبعة الرابعة عشرة ١٩٩٩م، دار العلم للملايين بيروت. ج٦ ص٣١١.

٨- شحادة، محمد كمال: تاريخ التعليم الطبي في البلاد العربية، معهد التراث بجامعة حلب، ٢٠٠٠م. ص١٨.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كمال الدين بن العديم

شاعر حلب الأيوبية ومؤرخها ووزيرها الأشهر

د. أحمد فوزي الهيب ✲

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عمـر بن أحمد بـن هبة الله بن محمد، من أبناء ابـن أبي جرادة عامر بـن ربيعة العقيلـيّ صاحب الإمام علـي بن أبي طالـب -رضي الله عنه- المنعوت بالصاحـب[١] كمال الدين، والمعروف بابن العـديم العقيليّ الحلبي المـؤرخ الأديب الكاتب البليغ[٢]. ولد بحلب سنة ٥٨٨هـ في بيت مشهور، نجد فيـه الأدباء والشعراء والفقهاء والعُبّاد والزُّهّاد والقضاة[٣]. وأخذ من علماء حلـب ودمشق وبغـداد الأدب والفقه والحديث، ونظم الشعـر، وأنشأ النثر،

✲ باحث وأستاذ جامعي.

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

وهو في كل هذا، كاسمه، كمالُ كلِّ فضيلة[٤]، فقد كان عديم النظير فضلاً ونبلاً وذكاءً ودهاءً ومنظرًا ورواء وجلالة ومهابة[٥]، وترسّل إلى الخليفة والملوك مرارًا كثيرة، وكان له الوجاهة العظيمة عندهم، وهو مع ذلك كثير التواضع ليّن الجانب حسن الملتقى والبشر بسائر الناس[٦]. أرسله الملك الناصر يوسف[٧] إلى الخليفة، فأُكرم إكرامًا كثيرًا، حتى قيل له: نحن نعظم الرسل لأجل مرسليها، ونحن نعظّم مرسلَك لأجلك[٨].

لم يُشغل ابن العديم عن التأليف على الرغم من حياته الحافلة بالسفارات والتنقل والأعمال الكثيرة، فقد كان إذا سافر ركب في محفة تحمله بين بغلين يجلس فيها ويكتب[٩]، لذلك خلف كتباً عديدة جليلة، أعظمها كتاب «بغية الطلب في تاريخ حلب» الذي توفي وبعضُهُ مُسَوَّدة، ولو كمل تبييضه كان أربعين مجلداً[١٠]، واختصر ابن العديم كتابه الكبير هذا في كتاب زُبدة الحَلَب في تاريخ حلب[١١]، وله أيضاً كتاب «الأخبار المستفادة في ذكر بني أبي جرادة» وكتاب «الإنصاف والتحرّي في دفع الظلم والتَّجَرِّي عن أبي العلاء المعري» وكتاب «تذكرة ابن العديم» وغيرها[١٢].

❁ ❁ ❁

وفضلًا عن ذلك كان ابن العديم شاعرًا مطبوعًا صادقًا، وهو موضوع بحثنا هذا، ونلمس ذلك مما وصل إلينا من شعره في كتب التراجم والتاريخ، ولو وصل إلينا ديوانه كاملًا لكان الحكم أدق وأشمل، ولا شك في أنه قال في أغراض الشعر جميعًا، فحلَّق إلى حيث أقرانه من شعراء العصر[١٣]، إن لم نقل قد فاق الكثيرين منهم.

❁ ❁ ❁

ومن أغراض الشعر لديه الفخر، وشعر الفخر في هذا العصر قليل إذا ما قيس بغيره من الأغراض الشعرية، كما أن شعراءه قليلون في هذا العصر أيضًا، وربما نستطيع أن نعلل ذلك بانعدام دوافع الفخر ودواعيه عند الكثير من الشعراء آنذاك، ولكنها مع ذلك كانت موجودة عند ابن العديم، لأنه من أسرة رفيعة غنية ذات نسب أصيل، وكان محدثًا حافظًا ومؤرخًا صادقًا وفقيهًا مفتيًا ومنشئًا بليغًا، كما أن شعره الموجود في ثنايا المخطوطات والمطبوعات يدل على شاعريته، ولعلَّ قلة ما بين أيدينا من فخره راجع إلى ضياع ديوانه، وربما كان قد حوى فخرًا كثيرًا.

والإنسان حتى يفخر لا بد له من أن يشعر بعظمته وعراقة أصله وحاجة المجتمع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إليه واستغنائه عنه، ومن ثم يستطيع أن يسبك هذه العاطفة، إن كان قادرًا، في قصائد يبدو منها ما لديه من الفضل والعلا والكرامة والأنفة والترفع، وهذا ما كان يملكه ابن العديم، مما جعله الشاعر الوحيد الذي تفرد بين شعراء حلب الأيوبية بالفخر عامة، وبفخره بأسرته خاصة، وقد اتّسم فخره بالصدق والواقعية، فلم نر فيه سيفًا ولا دماء، لأن أجداده لم يكونوا من رجال السيف والحرب، وإنما كانوا قضاة أتقياء وخطباء فصحاء وكتّاب بلغاء، كما افتخر بعفوه عمن أساء إليه، وبكرمه وسيره على خطى آبائه من بني عامر أصحاب العلا والخير والعقل الراجح والحكمة البالغة والقضاء العادل النزيه والفصاحة في الخطابة والوعظ والبلاغة في الكتابة والإنشاء والعلم الغزير،، قال[14]:

سألزم نفسي الصفح عن كل من جنى
عليَّ وأعفو حسبةً وتكرُّما
وأجعل مالي دون عرضي وقايةً
ولو لم يغادر ذاك عندي درهما
وأسلك آثار الأُلى اكتسبوا العلا
وحازوا خلال الخير ممن تقدما
أولئك قومي المنعمون ذوو النهى
بنو عامر فاسأل بهم كي تَعْلما
إذا ما دُعوا عند النوائب إن دجتْ
أناروا بكشف الخطب ما كان أظلما
وإن جلسوا في مجلس الحكم خِلْتَهم
بدورَ ظلام والخلائقَ أنجُما
وإن همُ ترقَّوا منبرًا لخطابة
فأفصح من يومًا بوعظٍ تكلما
وإن أخذوا أقلامهم لكتابة
فأحسن من وشّى الطروس ونمنما[15]
بأقوالهم قد أُوضِح الدرُّ واغتدى
بأحكامهم عِلْمُ الشريعة مُحْكما
دعاؤهم يجلو الشدائد إنْ عرَتْ
ويُنزلُ قطْرَ الماء من أُفق السما

إنه فخر هادئ اتسم بالتدفق والحرارة والصدق، مع أننا لا نسمع فيه صليل سيوف ولا صهيل خيول، لأنه فخر صاحب بيان لا سنان، ولأن أجداده لم يشتهروا بمعاركهم وحروبهم، وإنَّما بعلومهم وتقاهم وعدلهم وصلاحهم، كما ذكرنا من قبل، ثم افتخر بكرمه وعبّر عنه بحوار جميل بينه وبين امرأته التي لامته على مبالغته في جوده التي ستفقره، فزجرها، كما فعل حاتم الطائي وغيره من قبل، وأعلمها أنه رأى أن خيار الناس أكرمهم، وقد دعاه إلى ذلك أصله الكريم وأسرته المتصلة بعامر بن ربيعة العقيلي صاحب الإمام علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- التي سنت له ذلك، وكذلك

رأى أيضاً أن قيمته لا ترتبط بالثروة، لأنها عَرَض زائل، ولكنها ترتبط بفضائله وعلمه وعزته[١٦]:

وقائلةٍ يا بنَ العديم إلى متى
تجود بما تحوي ستصبح مُعْدَما
فقلت لها: عني إليك[١٧] فإنني
رأيتُ خيار الناس من كان مُنعِما
أبى اللؤمَ لي أصلٌ كريمٌ وأسرةٌ
عقيليّةٌ سنّوا الندى والتكرّما
وما ضرّني إنْ كنتُ ربَّ فضائلٍ
وعلمٍ عزيزَ النفسِ حرًا مُعظَّمَا
إذا عدمَتْ كفايَ مالاً وثروةً
وقدْ صنْتُ نفسي أنْ أذلَّ وأُحرَما
(ولمْ أبتذلْ في خدمةِ العلمِ مُهجتي
لأخْدُمَ مَنْ لاقيْتُ لكنْ لأُخدَمَا)

والبيت الأخير من قصيدة شهيرة للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني[١٨]، مطلعها[١٩]:

يقولون لي فيك انقباض وإنما
رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما

وفخره هذا يذكر بفخر مواطنه الأمير أبي فراس الحمداني إذ يقول[٢٠]:

وما حاجتي بالمالِ أبغي وُفُورَهُ
إذا لم أفِرْ[٢١] عرضي فلا وَفَرَ الوفْرُ

❁ ❁ ❁

كما نجد أيضًا لديه قصائد إخوانية أرسلها إلى أصدقائه في الأمصار وفي حلب عندما كان مسافرًا عنها، وهي أشعار تصور الشعور الإنساني النبيل النابع من أعماق النفس البشرية البعيد عن التكسب والمنفعة، تدفع إليه العاطفة الصادقة بين الأصدقاء من أرباب الأدب، وترجع في أصلها إلى الرسائل الشعرية المتبادلة بين الشعراء، وكان أغلبهم في حلب زمن الأيوبيين من الكتاب والعلماء. ومن شعر الإخوانيات ما كتبه ابن العديم إلى نور الدين بن سعيد[٢٢] مثنيًا على شعره مطمئنًا له بأنه سيفي بوعده قريبًا، وهو إرسال أنموذج من خطه الجميل كان قد طلبه منه، وقد كان خطُّه يُضرب به المثل، وقد صدق ابن المُرَصّص[٢٣] عندما قال في وصفه[٢٤]:

خطٌّ كَمِثْلِ السحْرِ يَخْـ
ـتَلِبُ القلوبَ ويستميلُ
مثلُ النجومِ الزاهرا
تِ يُرى وليسَ لهُ وصولُ

ولمّا يزل خطُّهُ الجميل حتى يومنا هذا موجودًا يشهد على ذلك حول محراب المدرسة الحَلَوِيَّة الواقعة جوار جامع بني أمية من جهته الغربية. وقد عبّر عن ذلك بكل آيات التواضع والرقة والبساطة وبالصدق الذي نشعر بدفئه ونداوته بوضوح، إذ خاطبه بأنه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أحسن الشعراء وأوحدهم والغنيُّ عن شهادته في ذلك، ثم أخبره بوصول أبيات حلوة منه علَّمَتْهُ نظم الشعر لجمالها وبلاغتها، واستجزته وعده، فأجابه بأنه ذاكر لذلك، والحرُّ لا يُخلف ما وعد به، وهو لم ينسه، ولكنه لم يجد الورق الصقيل الذي يستطيع عليه أن يجوِّد خطه، وطمأنه بأنه سيسرع في وفاء ما وعد به، وأنه سيرسله إليه في حلة الكمال مثل كمال بدر منتصف الشهر، بأحرفه المُجوَّدة التي تشبه الوجه الجميل الوردي دار به العِذَار[٢٥] فزاده جمالًا.

إنه كمال التواضع الصادق اللافت للنظر، وخاصة إذا تذكرنا أنه من وزير إلى شاعر أندلسي غريب، قال[٢٦]:

يا أحسن الناس نظمًا غيرَ مفتقرٍ
إلى شهادة مثلي مع توحّدِهِ
فقد أتتْ منك أبياتٌ تعلّمني
نظمَ القريض الذي يحلو لمُنشده

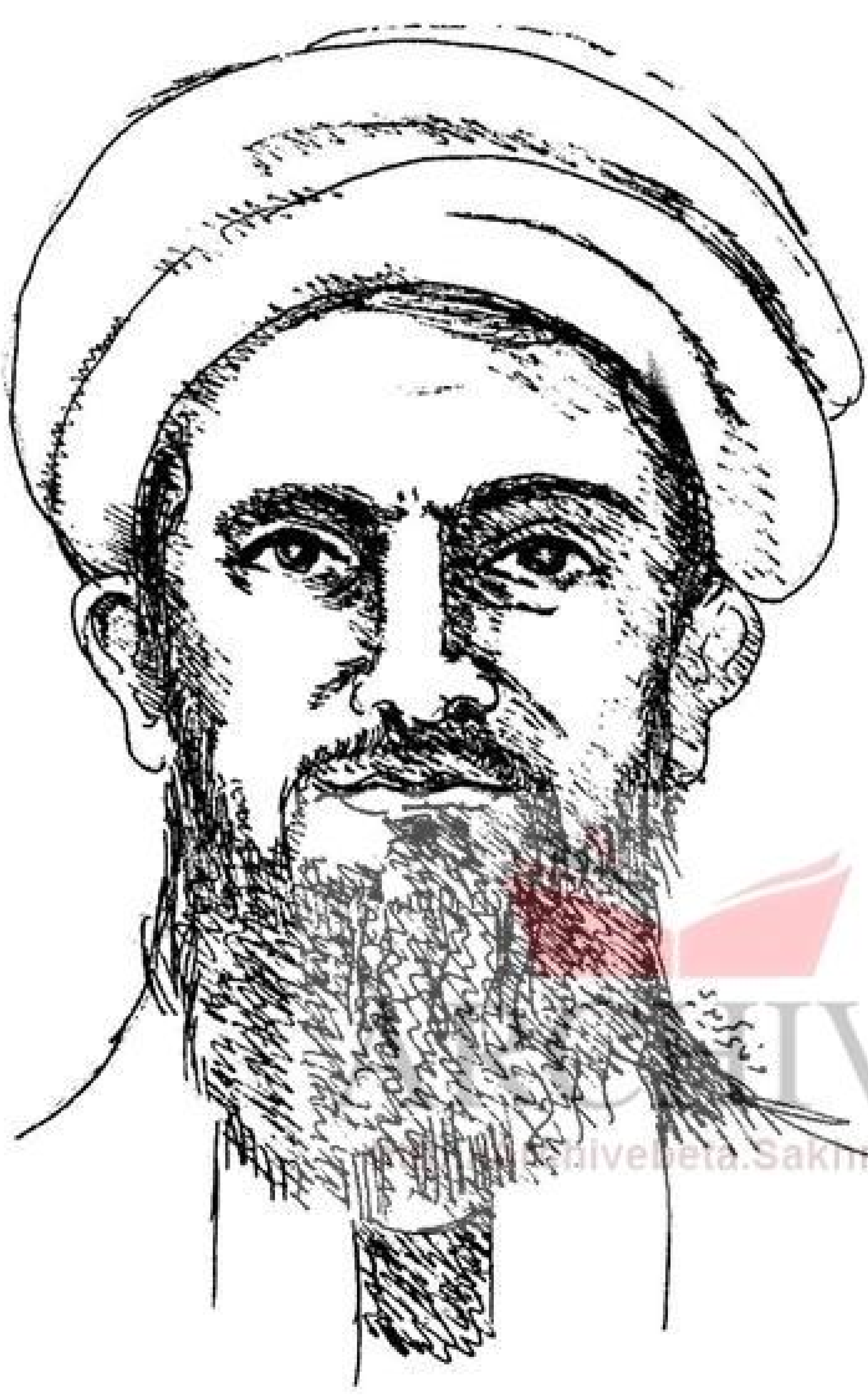

أرسلتَها تقتضيني ما وعدتُ به
والحُرُّ حاشاهُ من إخلاف موعده
وما نسيتُ ولكن عاقني ورَقٌ
يُجيد خطّي فآتيه بأجوده
وسوف أسرع فيه الآن مجتهدًا
حتى يوافيك بدرًا في مُجَلَّده
بأحرُفٍ حسُنَتْ كالوجه دار به
مثلَ الحواشي عذارٌ في مورَّده

وأرسل إليه أمين الدين ياقوت(٢٧) من الموصل يسترفده خطَّهُ ويمدحه، فأجابه ابن العديم بقصيدة رقيقة موّارة بالحب والود، أشاد فيها بجودة أبياته التي كان قد أرسلها إليه من قبل، وبطربه لمحاسنها التي جعلته يختال اختيال النشوان، كما أثنى على رقتها وصفائها وما فيها من ضروب الإبداع والبلاغة، مما جعلها تحاكي بنثرها ونظمها الرياض والبساتين، وتتفوق بما فيها من شعر على الحطيئة والعنبري، وبما فيها من نثر على إمام الكتّاب ورائدهم عبد الحميد الكاتب الذي صيرته عبدًا، كما جعلت البدر، بعدما بث فيه الحياة، يهيم بها حتى ذوى وصار دقيقًا ضعيفًا مثل أبيه الهلال، ثم صوّر تأثيرها عليه إذ شفته مما كان فيه من مرض فغدا سليمًا معافى بعد قراءتها، وتساءل متعجبًا: كيف لا تكون كذلك وهي نسيم الصبا الذي يشفي العليل بما فيها من روح وريحان، وتمنى لو تكررت، ثم ختم أبياته بالدعاء بالسلامة والعافية الدائمة لياقوت وبالثناء الجميل عليه، قال(٢٨):

يا من أبحتُ حمى قلبي مودتَهُ
ومن جعلتُ له أحشايَ أوطانا
أرسلتَ نحوي أبياتًا طربتُ بها
والفضل للمبتدي بالفضل إحسانا
فرحتُ أختال عُجْبًا من محاسنها
كشاربٍ ظل بالصهباء نشوانا
رقَتْ وراقتْ فجاءت وهْي لابسة
من البلاغة والترصيع ألوانا
حكَتْ بمنثورها والنظم إذْ جُمعا
بأحرف حَسُنتْ روضًا وبستانا
جرَتْ على جَرْوَلٍ(٢٩) أثوابَ زينتها
إذ أصبحت وهْي تكسو الحسن حسّانا(٣٠)
أضحت تغبّر وجه العَنْبَرِيِّ فما
بنو اللَّقِيطة من ذُهْلِ بن شيبانا(٣١)
يمسي لها ابنُ هلال(٣٢) حين ينظرها
يحكي أباه بما عاناه نقصانا
كذاك أيضًا لها عبدُ الحميد(٣٣) غدا
عبدًا يجرُّ من التقصير أردانا
أتتْ وعبدك مغمور بعلته
فغادرَتْهُ صحيحًا خير ما كانا
وكيف لا تدفع الأسقام عن جسدي
وهي الصَّبا حملت روحًا وريحانا
فما على طيفها لو عاد يطرقنا
فربما زار أحيانًا وأحيانا
فاسلم وأنت أمين الدين وأحسن من
وشّى الطروس بمنظوم ومن زانا
ولا تخطّتْ إليك الحادثاتُ ولا
حلّتْ بربعك يا أعلى الورى شانا

ولاشك في أن اللافت للنظر فيها وضوح عنصر الثقافة متمثلًا بذكر أعلام كبار في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الشعر والنثر، ويعود هذا إلى أن المخاطَب (ياقوت) عالم مثقف، شأنهُ شأن المخاطِب (ابن العديم)، فضلًا عن أن الثقافة كانت قد غدت آنذاك عنصرًا مهمًا ضروريًا جدًا في تكوين الشاعر حتى يوصف بالإجادة، كما يلفت النظر أيضًا أن ابن العديم قد وصف نفسه بالعبودية لياقوت إذ قال (عبدك) على سبيل التواضع، إنه تواضع العلماء الكبار الذي لا يزيدهم إلا علوًّا ورفعة.

وشبيه بما تقدم ما كتبه ابن العديم من أبيات على ديوان أيدمر التركي الأصل[٣٤] الذي قدمه له في إحدى زياراته إلى مصر ليتصفحه، وهي[٣٥]:

وكنت أظن الترْكَ تختصُّ أعينٌ
لهم إن رنَتْ[٣٦] بالسحر منها وأجفان
إلى أن أتاني من بديع قريضهم
قوافٍ هي السحر الحلال وديوان
فأيقنت أن السحر أجمعه لهم
يقرُّ لهم هاروتُ[٣٧] فيه وسَحْبان[٣٨]

إنها الفصاحة والبساطة والشعور الرقيق والكياسة التي جعلت ابن العديم يزيد على إعجابه بعيون الأتراك إعجابَهُ بأشعارهم التي وصفها بأنها السحر الحلال، وبذلك جمعوا السحر كله بين أيديهم، سحر الجمال وسحر البيان. وهكذا كانت الإخوانيات صورة شعرية لجانب مهم من جوانب الحياة الاجتماعية في ذلك العصر، بدا فيها الشعور النبيل وإشراقة الحياة وإنسانية الإنسان وعلاقة الود بين الأصحاب. وعلى الرغم مما وجدناه في إخوانياته من تواضع من شخصه، ومن تعظيم لمن يخاطبه، فمن اللافت للنظر أننا لم نعثر له على مدح للملوك الأيوبيين على قربه منهم وتبجيلهم له، وكذلك لم نجد له مدحًا لغيرهم، فلا ندري سبب ذلك على سبيل الجزم، هل هو ضياع هذا المدح مع ما ضاع من شعره؟ أم أنه لم يستسغ المدح فلم يقل فيه؟ وخاصة أنه كان هو نفسه مُمدّحًا، مدحه الشعراء مثل ابن المرصص، ولكننا مع ذلك نرجح السبب الأول.

* * *

وإذا كان شعر ابن العديم في إخوانياته على هذه الحال من الرقة والصدق فإنه مع الأبناء أرق وأصدق، ونستطيع أن نسمي شعره هذا بالأبويّات، وهو غرض شعري أقرب إلى القلب من الإخوانيات وأصدق، وهل ثمة مشاعر أصدق من مشاعر الأب تجاه أبنائه، ويبدو أن هذه الرسائل الشعرية بين الشعراء وأبنائهم أو آبائهم غدت مظهرًا معروفًا في شعر ذلك العصر، إذ إن ظهور أسر ورثت الأدب كابرًا عن كابر كان أمرًا

معروفًا بكثرة، ولعلَّ هذا التطور الجديد كان عاملًا من عوامل ازدهار المطارحات الوجدانية بين أفراد الأسرة نفسها(٣٩)، فابن العديم سافر إلى مصر، وكان كثير السفر لطبيعة وظيفته، فاشتد به الشوق إلى ابنه مجد الدين فكتب إليه معبرًا عن عاطفة الأبوة الحانية التي فجّرها البعد والفراق، فهو، وإن غاب عن بصره، قريب جدًّا، يسكن سويداء قلبه المحب، ثم شكا من آلام الشوق والبين وشُحِّ الطيف الذي امتنع عن المجيء إليه في الأحلام ومن انقطاع الرسائل، وسكون ريح الشمال التي تأتي من حلب ريًا بشذا الابن الحبيب، وختم أبياته بتحياته إليه وإخباره بسأمه من الترحال ورغبته في أن يلقي عصاه ثم بشوقه إلى لقائه الذي غدا كلَّ المنى لديه(٤٠):

هذا كتابي إلى من غاب عن نظري
وشخصُه في سويدا القلب والبصرِ
ولا يمنُّ بطيف منه يتركني(٤١)
عند المنام ويأتيني على قدر
ولا كتاب له يأتي فأسمع من
أنبائه عنه فيه أطيبَ الخبر
حتى الشمال التي تسري على حلب
ضنَّتْ عليَّ فلم تخطر ولم تسر
أخمّنُه بتحيّاتي وأخبره
أني سئمت من الترحال والسفر
وليس لي أربٌ في غير رؤيته
وذاك عندي أقصى السُؤل والوطر

إنها رسالة رشيقة لطيفة رقيقة صادقة، فيها العاطفة الأبوية ساميةً صافيةً زاخرة بالعواطف الجيّاشة، ملؤها الحنين والحب، موارةٌ بالشوق والحنين والأرق، متلهفة إلى رسالة أو خبر، حتى إنه اشتاق النسيم، لعله يُحمِّلُهُ تحياته ويخبره عن سأمه من البعد والسفر، بيد أن النسيم كان ضنينًا.

* * *

ومن أغراض الشعر التي قال فيها ابن العديم أيضًا التغزل، وقد كان تغزله عفيفًا في زمن شاع فيه التغزل الماجن شيوعًا كبيرًا، ولا يخدش هذه العفة وصفه لرضاب حبيبته، أو حبيبه، المعسول والخد الأحمر والقوام المياس والعين الفاترة ثم خلوته معها طوال الليل الذي أمضياه في عناق طويل امتد حتى الصباح، لأنه كان في ظلال من التقى والعفاف، وختم أبياته بأن أحلى الحب هو الحب العفيف، وأحلى الوصل هو الوصل الصافي الذي يسمو عن الدنايا، وهذا إذا كان يشبه إلى حدٍّ ما الحب العذري، فإنه يخالفه بالوصف المادي لمحاسن المحبوب من رضاب ووجنة وقوام وعيون وعناق، وبالتالي نستطيع القول: إنه نوع من أنواع التجديد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بالمزج أو الجمع بين نوعي الحب العذري والحسي، قال[42]:

وأهيفَ معسولِ المراشف خلتُهُ
وفي وجنتيه للمدامة عاصرُ
يُسيلُ إلى فيه اللذيذ مدامةً
رحيقًا وقد مرت عليه الأعاصر
فيسكر منه عند ذاك قوامُه
فيهتزُّ تيهًا والعيونُ فواترُ
كأنَ أميرَ النوم يهوى جفونه
إذا همَّ رفعًا خالفته المحاجر
خلوتُ به من بعدما نام أهله
وقد غارت الجوزاء والليل ساتر
فوسدتُه كفي وبات مُعانقي
إلى أن بدا ضوءٌ من الصبح سافر
فقام يجرَ البُرد منه على تقىً
وقمتُ ولم تُحْلَلْ لإثمٍ مآزر
كذلك أحلى الحب ما كان فرجُه
عفيفًا ووصلٌ لم تُشِنْهُ الجرائرُ

❁ ❁ ❁

وأما رثاؤه فلم أجد منه سوى رثائه لحلب عندما عاد إليها بعد أن انسحب منها هولاكو وزبانيته من المغول، وقد تركوها خرائب وحرائق ودماء وأشلاء ومشوهين ويتامى وأرامل، فتفطر قلبه ألمًا واشتكى من الدهر الذي يهدم ما يبنيه الإنسان، ومهما أراد الإنسان منه الإنصاف فلا يجد سوى الظلم، ثم وصف جيش المغول بعدده وعُدَّته بالكثرة، وشبّهه بالغيوم الممتدة المتراكمة الداكنة، وبأمواج البحار الهائجة، ثم وصف تدميره للمدارس والمساجد وتدنيسه لمصاحفها، وكيف سُبيت النساء وأُهنَّ بعد عزٍّ، واستغثن بالصديق فلا مغيث، وشكون إلى العدو فلا راحم، ثم التفت إلى حلب وسألها عن ربوعها التي أقفرت بعد ما كانت في أبهى صور العمران، فضاع من لسانها الجواب، وسألها أيضًا عن مصير أهلها الصيد وأين كان منهم الرحيل؟ ثم شكا آلامه التي تضجُّ وتئن بين أضلاعه، كما اشتكى من عيشه الذي صار ذميمًا بعد ما كان كريمًا، وبكى على الأهل والأصحاب في كل منزل كانوا فيه بدموع ساخنة، وسأل عنهم في كل مكان من الممكن أن يصيروا إليه ولكن لا من مجيب، قال[43]:

هو الدهر ما تبنيه كفّاكَ يَهْدِمُ
وإن رمْتَ إنصافاً لديه فتُظلَمُ
غداةَ أتاها للمنية بغتةً
من المُغل جيشٌ كالسحاب عرمرم
أتوها كأمواج البحار زواخرًا
ببيض وسمر والقتام مُخيِّم

وقد درستْ تلك المدارسُ وارتمتْ
مصاحفُها فوق الثرى وهْي ضُخَّم
وكل مهاةٍ قد أُهينتْ سبيَّةَ
وقد طالما كانت تُعزُّ وتُكرَم
تنادي إلى من لا يجيب نداءها
وتشكو إلى من لا يرقُّ ويرحم
فيا حلبا أنّى ربوعك أقفرتْ
وأعيتْ جواباً فهْي لا تتكلم
وأين شموس كنّ بالأمس طُلَّعًا
فأين استقلّوا بالرِّكاب ويمّموا
فها أنا ذو وجدٍ يجنُّ بأضلعي
عليك وعيشي في البلاد يُذمّم
أنوح على أهليك في كل منزل
وأبكي الدجى شوقًا وأسأل عنهم

إنها زفرات ودموع صادقة من قلب تفطّر ألمًا بعد أن أضاع الوطن والأهل والأحبة، مما يجعلنا نعتقد أنها كانت طويلة جدًّا تناسب ما في قلب صاحبها من آلام وأحزان، ولكن يد الأيام أضاعتها، ولم تبق منها إلا أقلها.

❁ ❁ ❁

وثمة أشعار لابن العديم في الحكمة، فعندما زار آثار سامراء[44] أصاخ السمع، فإذا بها تقول:كنا أحياء مثلكم وحللنا قبلكم هذه الحياة، ثم ارتحلنا عنها تاركين ما فيها كله، وأنتم على خطانا سائرون، فاعتبروا يا أولي الألباب[45]:

نزلنا سُرَّ مَنْ را[46] فازدهتنا
محاسنُها الدوارس إذ نزلنا
وخاطبَنا لسانُ الحال منها
حللنا قبلكم ثم ارتحلنا

وكذلك رأى أن من البديهي أن تقود المقدمات إلى النتائج، فبياض الأفق يعني قرب انتهاء الليل، وازدهار النبات يعني اقتراب يبسه، لذلك فالشيب إنما هو نذير الموت، قال[47]:

أليس بياض الأفق في الليل مؤذِنًا
بآخر عمر الليل إذ هو أسفرا
كذاك سواد النبت بقرب يبسه
إذا ما بدا وسط الرياض منوّرا

إنها حكمة ذاتية بسيطة استمدها من تأملاته في الحياة، لا نحس عندما نقرؤها أنها تكثيف لتجربة أو تلخيص لنظرة بصيرة أو تلوين في التعبير، أو أثر من آثار الخصوبة النفسية أو الثورة الداخلية أو هذا القلق العنيف الذي يمرّ به الشاعر، ثم يحاول أن تكون صياغته له صياغة هادئة حكيمة.

❁ ❁ ❁

كما تركت الحروب الفرنجية (المسماة بالصليبية) والمغولية - وقد شهد ابن العديم

فصلا من فصولها - أثرها على شعره الغزلي فجعله معركة تحول فيها الحاجب قوسًا والنظرة سهمًا وكبد المحب هدفًا، قال[٤٨]:

حَنَتْ لي قَوْسَيْ حاجبيْها وفوَّقَتْ
إلى كبدي مِنْ مقلةِ العينِ أسْهُما

* * *

وبعدُ، فقد عُني ابن العديم بصوره ومحسناته، ولكنه لم يتكلف تكلف كثير من شعراء عصره، كما اتسم شعره برقة الألفاظ وعذوبتها وببساطة التراكيب وسلاستها ورقة القوافي وجودة اختيار الأوزان، إلى جانب طبع أصيل وعاطفة صادقة وإحساس عميق، كما كان الشاعر الوحيد بين شعراء حلب الأيوبية الذي افتخر بنسبه العربي، وذلك لأن الملوك وجلّ ولاة الأمر كانوا من غير العرب، وكذلك كان كثير من الشعراء، ولكنهم - أي الملوك والشعراء- على الرغم من أصولهم الأعجمية قد ارتضوا العربية لغةً عن طواعية عبروا بها في كثير من الأحيان عمَّا كان يجول في قلوبهم من مشاعر وفي عقولهم من أفكار، فغدوا عربًا لسانًا وجنانا.

الهوامش

١- أي الوزير.

٢- الدر المنتخب (مخطوط) ٢/١٠٦.

٣- معجم الأدباء ١٦/٥.

٤- المصدر السابق، ١٦/٣٧.

٥- إعلام النبلاء، ٤/٤٩٠ .

٦- الدر المنتخب (مخطوط) ٢/١٠٦.

٧- آخر الملوك الأيوبيين في حلب، صار ملكا عليها من عام ٦٣٤ حتى ٦٥٨هـ، وهو ابن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي.

٨- ذيل مرآة الزمان، ١/٥١٠.

٩- فوات الوفيات، ٢/٢٠١.

١٠- الدر المنتخب (مخطوط) ٢/١٠٦. وبغية الطلب أكبر الكتب التي أرّخت لحلب. طُبع بتحقيق سهيل زكار في دمشق؟؟

١١- طبع؟؟

١٢- يُنظر معجم الأدباء ١٦/٤٥.

١٣- زبدة الحلب ١/٣١ (المقدمة).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١٤- معجم الأدباء ٥٤/١٦.

١٥- الطروس: ج طرس، الصحيفة. نمنم: زخرف.

١٦- معجم الأدباء ٥٢/١٦.

١٧- دعيني.

١٨- القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني كان فقيهًا أديبًا شاعرًا، له ديوان شعر، وله كتاب «الوساطة بين المتنبي وخصومه» ت ٣٦٦هـ (وفيات الأعيان٣-٢٧٨)

١٩- يتيمة الدهر، ٣/٤.

٢٠- ديوان أبي فراس، ٢١٢/٢.

٢١- أحفظ عرضي في الشتم.

٢٢- علي بن موسى (٦١٠- ٦٧٣هـ) الأديب العالم، مغربي الأصل، جال في البلاد، وأقام بحلب مدة جمع وصنف، ثم توفي في دمشق. له مؤلفات قيمة معروفة. (فوات الوفيات، ١٧٨/٢).

٢٣- يوسف بن عبد العزيز (...- ٦٣٨هـ) من فضلاء الفسطاط وجلة شعرائها انتقل إلى حلب وتوفي فيها. (المغرب/ قسم مصر ٢٩٣/٢٧٩/١).

٢٤- المغرب: ١١١/٤.

٢٥- جانب اللحية.

٢٦- فوات الوفيات، ١٠٢/٢.

٢٧- ياقوت بن عبد الله الموصلي الكاتب، نشأ في الموصل، وكان خطه في نهاية الحسن، فذاع صيته في الآفاق وقصده الناس. (وفيات الأعيان، ١٧٠/٥).

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٢٨- معجم الأدباء، ٤٩/٥.

٢٩- الحطيئة جرول بن أوس (...- ٣٠هـ) شاعر مخضرم شهير فحل، أسلم ثم ارتد ثم أسلم، كان هجاء سؤولا ملحفا، له ديوان مطبوع. (فوات الوفيات، ١٩٢/١).

٣٠- حسان بن ثابت الأنصاري (... - ٥٤هـ) شاعر مخضرم من شعراء الدعوة الإسلامية، عمر طويلا، وتوفي زمن معاوية. (خزانة الأدب البغدادي، ٢١١/١).

٣١- قريط بن أنيف العنبري شاعر إسلامي، أغار عليه أناس فأخذوا له ثلاثين بعيرًا، فاستنجد بقومه فلم ينجدوه، فاستنجد بمازن تميم فأنجدوه، فقال أبياتا قصد منها إثارة قومه، أولها:

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي

بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

(حماسة أبي تمام ٢/١.)

٣٢- يقصد البدر.

٣٣- عبد الحميد بن يحيى (...- ١٣٢هـ) الكاتب البليغ الشهير، أول من أطال الرسائل وأعطاها صفات مميزة أخذها عنه المترسلون، كان كاتب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وقتل معه في مصر. (وفيات الأعيان، ٢٢٨/٣).

٣٤- أيدمر المحيوي (...- ٦٧٤هـ) فخر الترك عتيق محيي الدين محمد بن محمد بن سعيد، شاعر أديب مطبوع في العصر الأيوبي. (فوات الوفيات، ١/١٤٠).

٣٥- النجوم الزاهرة، ٧/٢١٠.

٣٦- أدامت النظر.

٣٧- هاروت وماروت قيل: إنهما ملكان نزلا الأرض ليوضحا للناس مضار السحر، وقيل غير ذلك. (الجامع لأحكام القرآن، ٢/٥٤).

٣٨- سحبان بن زفر بن إياس الوائلي (... - ٥٤هـ) خطيب مخضرم، أسلم زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- ولم يجتمع به، ويضرب به المثل في البيان. (خزانة الأدب للبغدادي، ٤/٣٤٧).

٣٩- أدب الدول المتتابعة، ٥٧٣.

٤٠- فوات الوفيات، ٢/١٠٢.

٤١- يأتي ليلا.

٤٢- معجم الأدباء، ١٥/٥١.

٤٣- إعلام النبلاء، ٢/٣١٣.

٤٤- سامراء: مدينة بين بغداد وتكريت على شرق دجلة اتخذها المعتصم بن هارون الرشيد عاصمة له. (معجم البلدان: سامراء).

٤٥- ذيل مرآة الزمان، ١/٥١١.

٤٦- أي مدينة سامراء.

٤٧- معجم الأدباء، ٥/٥٦.

٤٨- معجم الأدباء، ٥/٥٢.

المصادر والمراجع

- أدب الدول المتتابعة. عمر موسى باشا. دار الفكر. لبنان ١٩٦٧م.
- إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء. محمد راغب الطباخ. المطبعة العلمية. حلب ١٣٤٣هـ.
- بغية الطلب في تاريخ حلب. ابن العديم. تح سهيل زكار. دمشق ١٩٨٨م.
- الجامع لأحكام القرآن القرطبي. دار الكاتب العربي. مصر ١٩٦٧م.
- حماسة أبي تمام. أبو تمام. مصر ١٩١٣م.
- خزانة الأدب. البغدادي. مطبعة بولاق. مصر ١٢٩٩هـ.
- الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب. ابن خطيب الناصرية. المكتبة الوقفية. حلب.
- ديوان أبي فراس. ت: سامي الدهان. المطبعة الكاثوليكية. بيروت ١٩٤٤م.
- ذيل مرآة الزمان اليونيني. مجلس دائرة المعارف العثمانية. حيدراباد ١٩٥٤م.
- زبدة الحلب ابن العديم. تح سامي الدهان. المعهد الفرنسي للدراسات العربية. دمشق ١٩٥١م.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

- فوات الوفيات. محمد بن شاكر الكتبي. تح محي الدين عبد الحميد. مكتبة النهضة المصرية. مصر ١٩٥١م.
- معجم الأدباء. ياقوت الحموي. مطبوعات دار المأمون. مصر ١٩٣٦م.
- معجم البلدان. ياقوت الحموي. دار إحياء التراث العربي. بيروت ١٩٧٩م.
- المغرب- قسم مصر. ابن سعيد. تح حسن وضيف وكاشف. مصر ١٩٥٣م.
- النجوم الزاهرة. ابن تغري بردى. دار الكتب المصرية. القاهرة ١٩٢٩م.
- وفيات الأعيان. ابن خلكان. تح إحسان عباس. دار صادر. بيروت ١٩٦٨م.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مسرح مدينة فيليبو بوليس Philipopolis (شهبا) في جنوب سورية

د. خليل المقداد *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهب الله عزّ وجل سورية طبيعةً جميلةً وموقعاً استراتيجياً وشعباً متحضراً مما جعلها من أوائل دول العالم تطوراً حضارياً وغنىً عمرانياً وتنظيمياً دفعها لأن تكون من أغنى دول العالم في بناء المسارح. وحقيقة الأمر أن نسبة المسارح التي بنيت في مدن بلاد الشام وأريافها هي الأكثر في العالم القديم قاطبةً، ومن بين حوالي ١٥٠ مسرحاً أثرياً معروفا حتى الآن في العالم يوجد منها ٥٠ مسرحاً في المنطقة. وهذا الأمر لا ينطبق على المسارح

---

* باحث في الآثار والتراث القديم.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

فقط وإنّما ينطبق على جميع الأبنية الأثرية من قصور وحمامات وكنائس وقلاع ومعابد ومدن مجملة بالشوارع المعمدة وغيرها.

أما المسارح بحد ذاتها تنظيمياً وعمرانياً ووظيفياً فهي عبارة عن المعيار الثقافي لأي شعب من شعوب العالم، لذلك قال أحد الحكماء قديماً في هذا الموضوع: (أعطني مسرحاً أعطك شعباً مثقفاً ومتحضراً).

وفي هذا الصدد كانت تبنى المسارح في سورية في المدن الصغرى والكبرى بحيث تمتلك المدن الكبرى أكثر من مسرح منها مسرح نصف دائري صغير كمقر للاجتماعات كان يعرف باسم قاعة طرب (أوديون Odion) كما هو الحال في مدن قنوات والسويداء وعمان في جنوب سورية ومدينة دورا أوروبس السورية (الصالحية) على الفرات الأوسط، أو مسرح نصف دائري (تياتر Théâtre) بأحجام وسعات كبيرة ومتوسطة منها على سبيل المثال المسارح التي بنيت في مدن: أنطاكيا (أكثر من مسرح) اللاذقية - جبلة - عمريت - أفاميا - النبي مند (سيروس) الصالحية (دورا أوروبوس) تدمر - دمشق (أكثر من مسرح) قنوات - سيع - سحر - شهبا - بصرى (أكثر من مسرح) - درعا - الحمة - الأشعري - السويداء (أكثر من مسرح). ثم لدينا المسرح الدائري والذي يعرف باسم (انفتياتر Inphthéâtre) أو (ستاد Stade) والتي تمَّ الكشف عن بعضها في كلٍ من مدن بصرى وعمريت.

والمتبصر في دراسة الإرث الحضاري العالمي يجد أن الإغريق نقلوا الحضارة والتنظيم المعماري من الشرق وبالتحديد من بلاد الشام أو سورية الكبرى واعتمدوه ونقلوه بدورهم إلى الرومان، والأمثلة على ذلك كثيرة. ولو استعرضنا المسارح بأصنافها المعروفة في العالم الإغريقي والهلينستي والروماني وقارناها مع المسارح العربية نجدها جميعاً تتوافق مع بعضها البعض جزئياً وتختلف عن بعضها الأخر كلياً مما يدل على انتفاء الصفة الإقليمية أو الهوية العرقية والقومية لأي مبنى من المباني الأثرية والأمثلة على ذلك كثيرة.

وقد ألقينا الضوء على قسم منها في سورية مثل مسرح بصرى[١] ومسرح درعا[٢] ومسرح جبلة[٣] ومسرح أفاميا[٤] لوجدنا أن كل مسرح كان مدرسةً بحد ذاته للهندسة العمرانية للمسارح. وفي هذا البحث سوف نتناول واحداً منها والذي يعتبر المسرح الأثري الأخير الذي بني في العالم القديم في مدينة (فيليبو بوليس Philipopolis - شهبا) مسقط رأس الإمبراطور العربي السوري فيليب بين أعوام ٢٤٤ - ٢٤٩م.

وتنطوي هذه الدراسة ضمن إطار دراسة عامة وشاملة للمسارح السورية والعالمية تمَّ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إنجاز العديد منها سابقاً[٥] وسوف نكمل المشوار بالتتابع بإذن الله. والغاية من ذلك التعرف على أجمل وأضخم الأبنية الأثرية التي خلفها لنا أجدادنا القدامى والتي مازالت أنموذجاً يحتذى حتى الوقت الحاضر، ومن جهة أخرى إجراء مقارنات هندسية وتنظيمية الغاية منها التوصل إلى مدى رقي وتفوق الحضارة في سورية.

ويعتبر مسرح فيليبو بوليس Philipopolis من المسارح الهامة في العالم وأحد المسارح الأحسن تنظيماً والمحافظة على بنيانها وله موقعه المميز بين المسارح الأثرية السورية لما يتميز به من طابع وصفات هندسية تقليدية أصيلة.[٦]

ويوجد المسرح وسط مدينة قديمة تعتبر من أكثر المدن تنظيماً وعمراناً وسكناً في منطقة حوران، وقد جاء ذكرها عند جميع الرحالة وعلماء الآثار منذ القرن الثامن عشر والتاسع عشر[٧] على أنها المدينة الأكثر غنىً ومحافظةً على آثارها القديمة والتي مازالت ماثلة حتى الوقت الحاضر بوضعها الأساسي منذ تاريخ البناء، وزاد في قوة هذه الأبنية عمليات الترميم والصيانة التي قامت بها المديرية العامة للآثار والمتاحف السورية منذ بداية عهد الاستقلال في منتصف القرن العشرين السابق.[٨]

وجاء موقع المسرح متناسباً مع المخطط التنظيمي البكر منذ التأسيس من قبل الإمبراطور فيليب ابن المدينة حيث يخترق المدينة شارعان رئيسان الكاردو اتجاه شرق/غرب والدوكومانوس شمال/جنوب حيث يبدأ كل واحدٍ منها وينتهي في مدخل كبير وجميل يرتكز على قوس مركزي وأقواس جانبية محاطةً بالأبراج التحصينية التي تشكل جزءاً من أسوار المدينة التي تحيط بكامل الحيز التنظيمي.

وبالقرب من تقاطع الشارعين عند المصلبة (الترابيل) بنيت الحمامات المركزية للمدينة ويجاورها منزل الإمبراطور، وإلى الغرب قليلاً وبالتحديد على بعد ٢٠٠ متر وعلى حافة الشارع من الجهة الشمالية بني معبد المدينة الرئيس الضخم حيث تتقدمه الاعمدة الشاهقة، ويقابله من الجنوب المبنى التذكاري الذي بني على شرف والد الإمبراطور وعائلته العربية (فيليبيوم)، ويحده مباشرةً من الجنوب مسرح المدينة الذي بني على حافة المرتفع الصخري الغربي من موقع المدينة.

وبالتأكيد فقد كانت رغبة الإمبراطور أن يكون مسقط رأسه عبارة عن مدينة نموذجية تضاهي ما تمَّ بناؤه من قبل بعض الأباطرة العرب الذين سبقوه مثل مدينة الإمبراطور هادريان (فيلا هادريانا) بالقرب من مدينة روما العاصمة، ومدينة لبدا الكبرى مسقط

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

رأس الإمبراطور سبتيموس سيفريوس في شمال أفريقيا.

والأمر الملفت للنظر ليس المنهجية التنظيمية للمدينة وأبنيتها الشاهقة والضخمة؛ وإنما إعادة إحياء وبناء المسرح من جديد حيث كان هذا المسرح هو الأخير في العالم، ولاسيما أن دور المسرح الوظيفي لم يعد يتناسب مع عقلية ومفاهيم الناس الأيديولوجية بعد حوالي قرنين من الزمن تخللهما الصراع بين معتنقي الديانات الوثنية القديمة ومعتنقي الديانة المسيحية الجديدة التي كان الإمبراطور فيليب من أوائل المسؤولين الكبار في إمبراطورية المؤيدين والمتحمسين لها.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والشيء الآخر والأهم في الأمر لم يقتصر على ذلك وإنما أعادت تطبيق المفاهيم الميثولوجية العربية واليونانية والرومانية القديمة والتي نفذت بأجمل صورها فوق الرسوم الجدارية (الفريسكات) واللوحات الفسيفسائية التي زينت معظم مباني المدينة وعلى رأسها منزل الإمبراطور وكذلك الحمامات المركزية والمعبد الرئيس.

وفي اعتقادي أن الأمر لم يكن القصد من ورائه إحياء ذلك التراث التقليدي القديم أو الإيمان بمفاهيمه بقدر ما هي تعبيرٌ تزييني أراد الإمبراطور أن ينفذه المهندسون والفنانون بأبهى حلية حيث كانت لهم الخبرة والذوق الفني الرفيع والتي جعلت من المدينة مدرسة لهذه الفنون، كما أن هؤلاء لم يكن لديهم في تلك الآونة الممارسة أو البدء في ممارسة وتطبيق المناهج التي كانت تتوافق مع العقيدة الجديدة والتي أصبحت لاحقاً تتوافق مع أيديولوجيتها التي جاء بها الدين النصراني الجديد.

الركيزة الهندسية لبناء المسرح:

بني المسرح كلياً على أرضية بازلتية ذات صخور صلبة أخذت بالانحدار التدريجي من الجهة الشمالية أسفل منزل عائلة فيليبيوم نحو الجنوب وبشكلٍ حاد، لذلك تناسب الأمر تأسيسياً مع مخطط وبناء المسرح بحيث استند في أرضيته على هذا الانحدار الطبيعي وفرض في الوقت نفسه أن يكون محور المسرح اتجاه شمال جنوب كما هو الحال في بعض مسارح المدن المجاورة مثل مسرح بصرى ومسرح درعا، ولكن المخالف في الأمر أن أقسام المسرح الرئيسة وهي المدرج أو أماكن المتفرجين (الكافيئا) ومبنى المنصة جاء بشكلٍ عكسي، وقد جاء ذلك مخالفاً لقانون العمارة الذي كان يطبق على كامل أراضي الإمبراطورية والذي عرف باسم قانون فيتروف (Dearchitectura) الذي كان يرتكز على التوافقيات الطبيعية بحيث تبنى مقاعد المتفرجين بموجب شمس الظهيرة مع التوافق العام للتنظيم العمراني للمدينة.

والشيء الأخر الذي فرضه الموقع هو تحديد حجم المسرح وسعته والذي تناسب بالمحصلة مع عدد سكان المدينة والقرى المجاورة لها، يضاف لذلك أن الأمر استدعى للحصول على ذلك نحتاً للصخر الطبيعي السفلي في بعض المواقع من أجل تخفيف مستوى أرضية ساحة الأوركسترا لخلق تناسب يُوفق بين أرضية مبنى المنصة وأرضية المدرج، إضافة لإيجاد ساحة أوركسترا مناسبة للمبنى.

ولا بد من التذكير بأن هذا الإجراء وللضرورة في الإسراع في تنفيذ البناء ليتم إنجازه بوقتٍ يتوجب أن يتزامن مع إنجاز المباني الضخمة الأخرى للمدينة بحيث يتوافق وقت تدشين كل مبنى مع التدشين العام للمدينة لذلك ظهرت بعض السلبيات البسيطة في المبنى يمكن تلخيصها في تخفيض ارتفاع المسرح واقتصاره على طبقتين بدلاً من ثلاث طبقات ورواق علوي وكذلك بناء المداخل بشكل جعلها أقل انخفاضاً من الارتفاعات المطلوبة مع ضرورة إيجاد ركائز مصطنعة من أجل بناء القسم العلوي من مقاعد المتفرجين التي ارتكزت بدورها على قاعدة مقببة تتبع في تدرجها المنحدر الطبيعي بشكل أدى وبكل ذكاء من قبل المهندسين إلى تلاشي أي أخطاء أو انزلاقات ناتجة عن ثقل كتلة البناء وتوافقها بالترابط مع مبنى المنصة.

الخصوصيات الهندسية لبناء المسرح:

شمل بناء المسرح كل العناصر المعمارية المطبقة على بناء المسرح المبني من القاعدة إلى القمة كنموذج لذلك مسرح بصرى القريب ومسرح مارسيليوس في العاصمة

روما. وعلى هذا الأساس جاء بناء مقاعد المتفرجين بشكلٍ شاقولي، كما أن جميع عناصر البناء جاءت مصطنعة، وقد فرض هذا الواقع أن تكون جميع الأبعاد في بناء المسرح مقلصة بشكلٍ ملحوظ مما جعله من المسارح المتوسطة في العالم بحيث جاء قطر المسرح ٤٢،٢٠م والامتداد الجانبي ٣٤،٣٥ م، بينما إذا قيس بالمسارح الكبرى في سورية مثل مسرح سيروس ومسرح أفاميا ١٤٠م وكل من مسارح بصرى وجبلة التي تجاوزت أقطارها المئة متر فيكون من المسارح الصغرى، إلا أنه يتماثل مع الكثير من مسارح العالم في هذا الحجم.

المدرج/ مقاعد المتفرجين (الكافيئا):

على الرغم من الوضعية السيئة التي كانت عليها الأقسام العليا من هذا القسم، إلا أنه قد تمَّ ترميمها بعنايةٍ فائقة من قبل ورش الترميم في المديرية العامة للآثار والمتاحف السورية. وترتكز جميع العناصر المعمارية في هذا القسم على أروقة وقباب وقبوات وممرات سفلية أهمها الرواق النصف دائري المقبب، وجميعها جاءت مفرغة ومبنية من الحجارة البازلتية الصلبة على شكل مداميك ارتكزت على قاعدة صخرية قاسية بما فيها الرواق النصف دائري (امبولاكر ambulacre) المحضون بوساطة جدارين سميكين متحدي المركز ويفتح على المدرج بوساطة سبعة أبواب.

وتتقسم هذه الأبواب إلى مجموعتين أثنتين منها يقعان بالمجاورة مع الممرات الفاصلة بين مبنى المدرج والمنصة (بريزنكسيونprecintion) وتميزت هذه الأبواب العالية والبالغة ارتفاعاتها بشكلٍ متوسط ٤،٤٠م وبعرضها البالغ ٢،٦م، ويفتح كل واحد منها على ممر داخلي بعرض ٢،٨٥ م. وتقود هذه الممرات تجاه الرواق الحزامي الداخلي (امبولاكر ambulacre).

أما المجموعة الثانية من الأبواب والبالغ عددها خمسة أبواب فتتوزع في القسم المركزي من المدرج، إلا أنها أصغر حجماً من الأبواب الجانبية بحيث يبلغ عرض الواحد منها ١،٧٠م وتغلق من الأعلى بساكن مكون من بلاطةٍ واحدة. وجميع هذه الأبواب تفتح على الرواق الداخلي (امبولاكر ambulacre) البالغ عرضه ثلاثة أمتار وينتهي من الأعلى بتقبب أفقي كما هو حال الأدراج المرتكزة عليه، إلا أن سطحه فمتعدد الارتفاعات التي تتدرج بين ٣م إلى ٨م، أما الأرضية فجاءت مبلطة ببلاط حجري مسطح ومنحوت بشكل جيد وأملس، أما الجدران الحاضنة فجاءت سميكة جدّاً تفوق في سماكتها الحد المطلوب حيث تبلغ سماكتها في بعض المواقع ١،٧٠م، وفي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مواقع أخرى المترين أو أكثر وحسب السماكة المطلوبة.

مقاعد المتفرجين (الكافيئا):

حافظ المسرح على قسم كبير من مقاعد المتفرجين ثم أعيد ترميم القسم الآخر منها وبذلك أصبح المسرح بوضعية شبه كاملة بما يخص هذا القسم من المدرج الذي يأخذ الشكل النصف دائري تقريباً. أما القسم السفلي (Maenianum inférieur) فمازال على الوضعية الأساسية حيث يحتضنه ممران أحدهما من الشرق والآخر من الغرب ويطلان على ساحة الأوركسترا، ويتكون هذا القسم من عشر درجات، وقد تمَّ نحت وتنفيذ منهج المقاعد بشكل يتطابق كليّاً مع المنهج المطبق في مسرح بصرى بحيث تأخذ الدرجة امتداداً أمامياً بمسافة متوسطة تبلغ ٧٥سم، وعند المقدمة يحصل تجويف تراجعي بمقدار ٢٠سم من أجل سهولة وضع الأقدام وعدم إزعاج الجالس في الطبقة السفلى لمقاعد المتفرجين.

وتمتلك مقدمة الدرجة نتوء بسماكة ١٠سم، أما الارتفاع فيبلغ ٤٥سم، وكل درجة ترتكز في مقدمتها على الدرج الأسفل منها بينما المؤخرة فترتكز على تأسيس متدرج يتناسب مع التجويفات السفلية للممرات والأروقة والأدراج وغيرها بشكل يجعل من مبنى المدرج كتلة معمارية واحدة متماسكة بشكلٍ جيد. وبالطبع فإن المهندس الذي خطط للمسرح أخذ مخطط مسرح بصرى منذ البداية كقاعة لهذا البناء، وهذا الأمر أدى إلى تسهيل العمل على البنائين وتنفيذ البناء بشكلٍ متقن ودقيق، وكلما كانت تواجههم معضلة يذهبون إلى بصرى ليروا كيفية التنفيذ والعودة لتطبيقها ولكن بتقليص المقاييس وبشكلٍ دائم إلى النصف.

وينقسم القسم السفلي من المدرج (Maenianum inférieur) إلى أربعة أجزاء (cunei) بوساطة ثلاثة أدراج شعاعية بعرض كل واحد ٦٠سم، وارتفاع كل درجتين يتساوى مع ارتفاع درجة جلوس بدقةٍ متناهية بحيث يصبح الارتفاع ٢٣سم والعمق ٣٠سم كحد متوسط لكل درجة صعود أو نزول. وبالمحصلة تكون كتلة البناء واحدة مكونة من درجة جلوس ودرجتين من الدرج الشعاعي، وبالترتيب يتم التعشيق بين المقاعد العليا والسفلى والمجاورة بطريقة الترابط والتجاور بالتعشيق.

وهذا المنهج لم يجعل من المجموع المتكامل ارتفاعاً متعامداً مع أطراف المقاعد وإنما تشكل مع بعضها البعض زوايا منفرجة، ولكن مع محافظتها على الارتفاع العمودي مع محور المسرح ومع النسج الذي يسير باستدارة متقنة تشكل مقاعد المتفرجين أو بمعنى آخر المتدرج ليبلغ الشكل النصف

دائري بدقة متناهية تقريباً. وبذلك يكون الخط الملامس لمقدمة المنصة أو بمعنى آخر مقدمة ساحة الأوركسترا يكون بشكل متواز أو متطابق كلياً مع قطر المسرح، ولو أجرينا حساباً دقيقاً للامتداد الكلي للطبقة السفلى من المدرج فيبلغ الطول الكامل للمدرجات العشرة المخصصة لجلوس المتفرجين ٢٢٥م، مما يجعلها تستوعب وبشكل مريح ٥٦٠ متفرجاً يجلسون بارتياح بحيث يحصل كل متفرج على مسافة ٤٠سم.

الممرات الواقعة بين طبقات الكافيئا (بريزنكسيون precintion):

نفذت في المسرح العديد من الممرات الجانبية والداخلية والممرات التي تفصل أقسام المدرج عن بعضها البعض لتسهيل عملية الحركة والمرور للمتفرجين للوصول إلى أماكنهم من دون أي ازدحام أو إرباك، وهذا ما شاهدناه في مسرح بصرى، والممر الرئيس والمفصلي بينها هو الممر الأوسط (بريزنكسيون precintion médiane) الذي يفصل بين قسمي الكافيئا وينتهي عند المخرج الثالث للمدرج، كما يعتبر صلة الوصل بين الرواق الحزامي الداخلي (امبولاكر ambulacre) بوساطة المداخل التي تفتح على المدرج والذي يوفر بدوره سهولة وصول وخروج المتفرجين من المسرح، وللفصل بين الممر والمقاعد الأخيرة للمتفرجين من الطبقة السفلى نفذ حاجز على شكل درابزين (balteus) بارتفاع المتر تقريباً وعرض القاعدة السفلية ٦٠سم؛ منها ٤٠سم للجلوس و٢٠سم كمسند، وتمت الاستفادة منه ليشكل طبقة مقاعد على شكل الكنبة على نفس المنهج المطبق في مسرح بصرى.

الطبقة العليا لمقاعد المتفرجين (Maenianum supérieuz):

تمَّ بناء الطبقة الثانية من مقاعد المتفرجين على نفس منهج الطبقة السفلى حيث بلغ عدد درجاتها عشرة صفوف على الأرجح بارتفاع كل صف ٤٦سم وعرض القاعدة ٦٠م. وقد قسمت هذه الطبقة إلى ستة أقسام (cunei) بوساطة خمسة أدراج شعاعية كما هو حال الطبقة السفلى، وقد بلغ الطول الكلي لهذه المدرجات ٤٥٠م، ولو حسبنا أنَّ كلَّ متفرج يحتاج إلى ٤٠سم فيكون استيعابها ١١٢٥ متفرجاً، وبذلك يستوعب المسرح بشكل مريح عدداً من المتفرجين يبلغ حوالي ألفي متفرج مع الأخذ بعين الاعتبار وجود أو تركيب مقاعد في ساحة الأوركسترا وعدد من الواقفين في الممرات، ناهيك عن الأشخاص الموجودين في أقسام مبنى المنصة.

ساحة الأوركسترا (orchestre):

يقع هذا الحيز المكاني بين مبنى

المنصة والمدرج، وتكون على شكل نصف دائري، ويتفرع من مقدمتها الموازية لمبنى المنصة رواقان جانبيان paradoi يقعان تحت أماكن التحكيم ويشكلان مع مقدمة الساحة القطر الكامل للمسرح حيث يتمركز مركز الدائرة في منتصف هذا المحور، أما الامتداد المحوري لساحة الأوركسترا فلم يتجاور الثمانية أمتار، بينما يكون قطر الساحة ١١م.

وقد جاءت أرضية الساحة بشكلٍ مسطح إلا أن تبليطها قد تلاشى كليًا ولم يبق منه أي أثر مما يجعل من الصعوبة بمكان تصور الوضعية الأساسية للتبليط، وهذا ما جعل الباحث يقع في حيرة بين التصور في تبليطها بلوحاتٍ فسيفسائية حيث كانت المدينة من أغنى مدن العالم في ذلك أم ببلاط حجري والمدينة غنيةٌ أيضاً بهذه المادة كغنى المنطقة الواقعة فيها مع استبعاد تبليطها بالرخام لعدم العثور على أي قطعةٍ منها خاصةً أنه قد أجري العديد من الأسبار في الموقع لمعرفة ذلك.

الأروقة الجانبية (pradoi):

جاءت هذه الأروقة السفلية على شكل امتداد لساحة الأوركسترا تحت أماكن المتفرجين لتكون معابر وممرات رئيسة تقود إلى الأروقة الداخلية ومن ثم إلى جميع أقسام المسرح لتسهيل حركة المتفرجين، وقد بنيت على شكل أروقة مقببة إلا أنها لا تفتح مباشرةً على الخارج حيث جاءت مغلقة في الصدور كما هو الأمر في مسرح بصرى؛ بمعنى أنها تتقاطع مع المداخل المؤدية إلى الرواق الداخلي (امبولاكر ambulacre)، وعند نقطة هذا التلاقي يتشكل مستطيل أبعاده ٢،٤٠×٢،٨٠م ينتهي بتقبب على شكل قبة هامة وجميلة ذات تقبب مسطح نفذ على شكل مداميك تنتهي عند المركز بحجر مربع يعرف باسم حجر عقد القبة. ويبلغ طول كل رواق من الأروقة ١٣،٨٠م منها ٩،٤م مسقوف والقسم الباقي الموازي لخشبة المسرح والمشرف على ساحة الأوركسترا مكشوف.

مبنى المنصة (la scéne):

جاء بناء المنصة على شكل مستطيل يمتد بين الشمال الغربي والشمال الشرقي، وكانت القاعدة الأساسية للبناء ترتكز على ركائز مفرغة بالأبواب والأقواس التي نفذت بين مقدمة منصة التمثيل وواجهتها (pulpitum et sa façade) والكواليس

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والمداخل الجانبية. وقد جاءت خشبة المسرح متطابقةً كلياً مع قطر ساحة الأوركسترا مع امتداد أمامي للخشبة بلغ حوالي الخمسة أمتار، كما نفذ في أسفلها قبو ليكون مقرّاً للملقنين (hyposcaenium) بارتفاع ١،٣٥م، وبذلك يبلغ ارتفاع خشبة المسرح عن أرضية ساحة الأوركسترا حوالي المتر والنصف تتقدمها الواجهة الأمامية المزينة بالمحاريب (proscaenium).

أما جدار المنصة فقد بني بضخامة كبيرة بلغت المترين، كما ارتكز الجدار وتفرعاته على تأسيسات سفلية أعرض منه استقرت فوق الصخر الطبيعي، وقد بنيت جميع عناصره من الحجر المنتظم والمنحوت بطريقةٍ فائقة الدقة ومن دون إدخال أي مادة لاصقة للبناء أو مادة من مواد المونة المعمارية (الملاط). وكبرهان أكيد على قوة البناء الارتفاع الشاهق للجدران الذي بلغ حوالي العشرة أمتار فوق خشبة المسرح، وقد نفذ في الجدار خمسة أبواب شاهقة ثلاثة منها في مواجهة المدرج وهي الباب الملكي الأوسط (valvae hospitales) واثنان جانبيان (valvae regia)، وجميعها تعلوها أقواس مقنطرة وسواكف على عرض المدخل بحيث يكون الساكف أطول من عرض الباب من أجل المتانة وعدم الانزلاق.

الملحقات المعمارية في بناء المسرح:

لدينا العديد من التفاصيل والملحقات الملتصقة في بناء المسرح ولكن لضيق البحث وعدم الاستفاضة نكتفي بالإشارة إليها تاركين المجال للباحثين الآخرين في تناولها بالتفصيل أو تناولها في أبحاثٍ أُخرى. ومن هذه الملحقات أقفاص الأدراج الحاضنة إلى مبنى الكواليس والتي تحتضن الأدراج المؤدية إلى الأقسام العليا من مبنى المنصة والمرتبطة مع مبنى المدرج، وقد نفذت في الزوايا الواقعة بين الأمبولاكر والبوستسكانيون والباراسكانيوم وجدار المنصة البولبيتيوم.

وقد جاءت أقفاص الأدراج باشكال رباعية تقرباً بمقاييس متشابهة لكلا الاثنين وهي الشرقي ٢،٦٥×٢،٥٩م، والغربي ٢،٦٤×٢،٥٧م إلا أن محاورها لا تتطابق بالضبط مع رواق الكواليس، كما أن سماكات الجدران تختلف بين قفصٍ وآخر، وقد تمَّ تسقيف هذه الأبراج بعرائض من البلاط الحجري الذي صف بشكلٍ متقن بحيث جاء سطح كل فص وكأنه بلاطة واحدة وبالالتصاق ومن دون أي فراغاتٍ تذكر.

ثم هناك الرواق الواقع خلف المنصة والذي كان يقوم بدور مبنى الكواليس (postscaenium) والذي جاء على شكل رواق بطول ٣٧،٣٠م بمحور شرق/غرب ويتصل شمالاً مع الرواق الداخلي (امبولاكر ambulacre) ومع منصة التمثيل (pulpitum) ومن الجنوب يشرف على الخارج بوساطة أربعة أبواب، ومن الغرب زود بنيشانات (محاريب) صممت داخل سماكة الجدار الخارجي.

والشيء المهم في البناء والذي لا بد من ذكره ودراسته دراسةً مفصلة هو موضوع القباب والقبوات والأقواس والقناطر والعقود الذي نفذ في العديد من أقسام المدرج، وقد جاءت جميع هذه العناصر بأشكال ومقاييس متعددة تتناسب حسب موقعها من البناء وحسب دورها الهام في مواقع التمفصل والتلاقي والانحرافات أو الاستدارات وغيرها من المهام المتعددة والموكلة إليها وخاصةً مهمات التحميل والتخفيف من ثقل البناء بشكلٍ كلي وكامل.

ومن هذه القباب على سبيل المثال القباب ذات القناطر أو القباب المقنطرة أو قباب التحديد أو قباب الأطراف والنهايات. وقد قمنا في دراسة هذه الأمور وبشكلٍ هندسي ومعماري مفصل أثناء دراسة مسرح بصرى لذلك يمكن الرجوع إليها لفهم أهميتها ومن ثم عمل مقارنة بين كلا البناءين لبلوغ الهدف في معرفة البراعة لدى البناءين.

الخصوصيات التي تميز بها المسرح:

١ - يعتبر المسرح من أفضل المسارح محافظة على بنائه بعد مسرح بصرى في جنوب سورية، لذلك أصبح من المسارح الأكثر إثارة للانتباه، وكما كانت مدينة فيليبوبولس (شهبا) مسقط رأس الإمبراطور العربي فيليب مدرسة للفنون وخاصة لفن الفسيفساء أصبح مسرح بصرى مدرسة لفن الهندسة المعمارية، لذلك تمخض عنه وليده الابن مسرح شهبا لما تميز به من المشابه والارتباط، ومن هنا أصبح من بين الأبنية النادرة التي استطاعت الاحتفاظ بكامل عناصرها تقريباً. وزاد في أهمية المسرح التزاوج بينه وبين النسيج العمراني للمدينة الذي ينتمي إلى التنظيم السوري في منتصف القرن الثالث للميلاد.

٢ - أصبح المسرح أنموذجاً للمسرح المتكامل على الرغم من تأخر بنائه عن مسارح المنطقة بحدود قرنين من الزمن،

ولهذا أصبح في بنائه المتواضع أنموذجاً تقليدياً محلياً مخالفاً للاعتبارات التقليدية التي عرفتها الكثير من المسارح اليونانية والهلينستية والرومانية على الرغم من الانحدار الصخري الذي أسس عليه إلا أنه جاء مبنياً على قاعدة منبسطة نفذ عليها كامل البناء بسبب التهيئة النحتية للصخر.

٣- جاء المسرح على شكل كتلة معمارية اقتربت كلياً من الشكل النصف دائري لبناء قوي ومرتفع ويحوي بين جنباته الكافيئا (أماكن جلوس المتفرجين) والجدران المستقيمة التي تحتضن الأروقة والأدراج التي تخفف من حجم وسماكة هذه الجدران وتعطي للمسرح خلخلة للتهوية والإضاءة وتوافر الخدمات واختراق المسرح من الداخل والخارج ومن كل الاتجاهات بوساطة ممرات مقببة وأدراج مجهزة لتكون منافذ سهلة ومباشرة وتفتح على كامل الاتجاهات والأقسام.

٤- افتقر البناء كلياً لعناصر الزينة من أعمدة ومكرنشات، إلا أنه كان غنياً بالأقواس والمداخل التي بنيت في منتهى الإتقان. ويعزى ذلك إلى الأهمية الكبرى التي حظيت بها المدينة في إشهار اسم ولقب الإمبراطور.

٥- ينتمي مخطط المسرح إلى أعلى مراتب الكمال المعماري ويتجلى ذلك في عملية الترابط بين المنصة الممتدة بشكل مستطيل مع كسوتها العظيمة والجميلة والكافيئا (أماكن جلوس المتفرجين) بأقسامها المتواضعة التي جاءت على شكل مخروطي يستمر بشكل مقوس ويتوجها الرواق العلوي. وهذه العناصر مجتمعة تشكل عملاً موحداً تتصل بجدران الاحتضان الجانبية والتي تشكل جزءاً من كل عنصر، ومجموع العمل ينتهي مرتفعاً بمجموعه بمستوى الارتفاع نفسه.

٦- جاءت الأدراج الشعاعية والممرّات الفاصلة والأروقة الداخلية والجانبية تتشابه في توزيعها وتقسيمها بحيث تشمل كامل أقسام المدرج بشكل متساوٍ وبدقة متناهية لتسهل عملية المرور، لذلك تجاوزت الممرات والمداخل والأدراج الداخلية في أعدادها الكثير من مسارح العالم.

٧- جاء العرض موفقاً في بناء الأروقة الجانبية وتسلسلها الطابقي من الأسفل والأعلى وفي الوسط خلف أماكن التحكيم مكونة مناطق ارتكاز والتحام وصلة وصل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بين مبنى الكافيئا والمنصة، كما توافقت الأروقة الجانبية مع ردهات الاستقبال والاستراحات الجانبية، وتمّ الربط بينها وبين المبنى المجاور (فيليبو). كما جاء الربط بين واجهة المنصة وخشبة المسرح والكواليس بطريقة فنية رائعة بحيث تمّ استغلال الزوايا لتكون أقفاص الأدراج لكلا المجموعتين.

٨- ظهرت خصوصية المسرح بعدم تراجع المنصة على حساب الكافيئا وإنما أخذت المنصة حجمها الطبيعي كما أخذت الكافيئا امتدادها الطبيعي وكل عنصر أخذ مكانه وحجمه وموقعه بدقة وإتقان.

٩- تميز المسرح بوجود ابتكارات في تنوع الهندسة المسرحية التي جاءت من إنتاج محلي تجلى في الاهتمام بالزخرفة على الحجر البازلتي القاسي والمكلف، وكذلك الاهتمام في التنظيم والتركيب من الداخل والخارج وإعطائها ما يلزمها من أجل إخراجها بمظهر لائق وعلى رأسها المظهر الجمالي للرؤية العامة للكافيئا.

١٠- تميز المسرح بعدم وجود فواصل بين الكافيئا والمنصة وحركة الجمهور؛ وهذا يعني أنه كان للمسرح استعمالات أخرى إضافة إلى العروض المسرحية بين حين وآخر، ومما يؤكد ذلك اتساع ساحة الأوركسترا وشكلها واتصالها مع المنصة ومع الأروقة الجانبية مما يدعو للظن بأن المسرح كان يقوم بدور قاعة الطرب بشكل مؤقت أو موسمي وتتم في داخله الاجتماعات الشعبية الموسعة.

١١- ومن خصوصيات المسرح المظهر الجمالي على الرغم من افتقاره لجمالية الديكور مع الاعتقاد بأن المسرح وخاصةً واجهة المنصة كانت مكسية بألواح تزيينية ومنها الصفائح الرخامية التي كانت تتبع المنهج المطبق في المسارح العملاقة في العالم وخاصة الإكساءات الرخامية وتزيينها بالأعمدة ومختلف عناصرها التي جاءت على النمط الكورنثي. وزاد في جمال المنصة أيضاً إحياء الواجهة نفسها بالمنحنيات والبروزات والتقسيمات والتعرجات وتزيينها بالمحاريب وتزويدها بالتماثيل المتعددة والتي تميزت بها منطقة حوران طيلة حياتها القديمة.

١٢ - ولا بد من الإشارة إلى توافر الرؤية الجيدة والإصغاءات العالية وتوفير وسائل إيصال الصوت وتأمين خدمات الممثلين وأماكن إيواء الجمهور في أماكن تؤويهم في حالات الطوارئ والعوامل الجوية. وفي الختام لابد من التذكير بأن المسرح بني في منطقة من أغنى مناطق العالم بالمسارح.

الهوامش

١- خليل المقداد -مسرح بصرى الأثري- سورية. دار عكرمة. دمشق ٢٠٠٠م.

٢- خليل المقداد -درعا مدينة المدائن- دار عكرمة- دمشق ١٩٩٨م.

٣- خليل المقداد -مسرح جبلة الأثري-مجلة الباحثون- العدد ١كانون الأول، ٢٠٠٨م.

٤- خليل المقداد - المقارنة بين مسرح جبلة (سورية) ومسرح صبراتة (ليبيا) مجلة المعرفة - وزارة الثقافة - العدد ٥٥٥ - ٢٠٠٩م.

٥- خليل المقداد -مسرح أفاميا- مجلة الباحثون -عدد حزيران، ٢٠١١م.

٦- خليل المقداد - المسارح في جنوب سورية - الحوليات الأثرية العربية السورية ١٩٨٧م، ص١٢٩- ١٣٧.

7- Conpel. p. Et Frezouls ed. Le theatre de Philippopolis en Arabie .Paris 1956

BRUNNOW R.E.et DOMASZEWSKI A.VON. Die Provincia Arabia, Strasbourg 1904-1909.et 1909 3 vol.

BUTLER H.C. Ancient Architecture in Syria Southern. Syria Section A.

Part 4. P. 2151909 .273- Lexden 1914.

R. Dussaud et F. Macler, Voyage Archeologique au Safa et dansle Djebel Druze, Paris 1901.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٨- أدمون فريزول -المسارح السورية- الحوليات ال سورية - ١٩٥٢م- ص٤٦ - ١٠٠.

المصادر

١- سليم عادل عبد الحق: مسرح بصرى والقلعة - الحوليات الأثرية السورية - ١٩٦٤م، ص٥ - ٢٢.

٢- خليل المقداد: مسرح بصرى الأثري - سورية. دار عكرمة. دمشق،٢٠٠١م.

٣- خليل المقداد: المسارح في جنوب سورية. الحوليات الأثرية العربية السورية. العدد٤١ عام ١٩٨٧م. ص ١٢٩ - ١٣٧.

4- R. Dussaud et F. Macler, Voyage Archeologique au Safa et dans le Djebel Druze, Paris 1901.

5- BRUNNOW R.E.et DOMASZEWSKI A.VON. Die Provincia Arabia ,

6- Strasbourg 19041909-.et 1909 3 vol.

7- BUTLER H.C Ancient Architecture in Syria Southern. Syria Section A . Part 4. P. 2151909 .273- Lexden 1914.

8- Arthur. h.j. Roma theater. temples. Princeton. Princeton university ,press. 1959.

9- Ballu. a. Le theatre et le forum de Timgad. Paris. 1902 .

10- Bernardi. Ferrero. d. oc. Teatri classici in Asia minore. u. vols. Rome. 19661974-.

11- Breve .h and Gruben. g. Greek temples. theater and shrines. London. Thames and Hadson 1977.

12- Caputo. g. Traversari sculture del teatro di Leptis Magna. Rome. 1976.

13- Caputo. g. Il teatro di Sabratha e l,architectura teatrale Africana. Rome 1959.

14- Conpel. p. Et Frezouls ed. Le theatre de Philippopolis en Arabie .Paris 1956.

15- Douglas .r. Periode style for the theatre. London. 1980.

16- Mukdad. kh. Le theatre antique de Bosra (Syrie) Damas 2001.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التجليات الأسطورية لصورة الشجرة في الشعر السوري الحديث

د. خالد زغريت ✽

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يمكننا أن نطلق تعريفات وتوصيفات لا تحصى للشعر. ولاسيما أنه قد اتسق الكثير من النقاد والشعراء مع إعادة الشعر إلى مفهومات سحرية غرائبية عصية على التوصيف، وفي ذلك إعطاء الشعر هالة تكسب العاملين في نسج أشعته صفات فوق البشرية مثل صفات العبقرية والنبوة وقوة الخلق، وكل ذلك ينسجم مع ذاتية الشعراء ونفسياتهم التي تهيئ لهم أنهم من ذوي خلق الكون والإنسانية، والجمال، أو من أمهر صناعه في الأرض وتلك

✽ أديب وناقد سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

حال بذاتها شاعرية، ومهما يكن من شأن تعريف الشعر فهو مقرون بالجمال والحلم والخيال والعواطف الرقيقة والتصوير الموحي، ويمكننا أن نقول: الشعر هو هذا النسيج، أمّا الشعرية فهي براعة غزله وفرادة تشكيله ومهارة صناعة صوره، ولما كان الشعر خلقاً جمالياً فإن ارتباطه بنماذج التكوين الأسطوري شديد الوضوح والتعتيد في الآن معاً، فهو من جنس مادته التكوينية، لكنها في إعادة تكوينها تتبع أساليب مختلفة ومتشابكة مما يمنح القوة في استمرار بناء الجمال الذي يتجدد، ولا ينقطع عن المايزة لما سبقه، وقد كثر استعمال الأنماط الأسطورية التكوينية في الشعر العربي الحديث، وعانت صوره كثيراً من غموض الرمز وجمال التجلي الشعري لجنوحه إلى البناء الثقافي الصناعي لا التكوين الفني الجمالي، وسوف نقف في هذه الدراسة عند تجليات الأنماط الأسطورية للشجرة في الشعر السوري الحديث بوصفها إحدى نماذج التكوين الأسطوري المعروفة لدى الأمم المختلفة في انتمائها المكاني والزماني والثقافي، كونها مشتركاً ثقافياً بين الشعوب المختلفة، وذلك خلال دراسة نماذج لصوره عند أجيال شعرية مختلفة عنيت بتوظيف أسطورة الشجرة ورموزها، فقد كانت الشجرة رمزاً لا ينضب نبعه في إلهام الشاعر إيحاءات ودلالات وصوراً، تسري به إلى أفق الروح، والجمال والحلم والحياة، لكن صورة الشجرة في الشعر الحديث شأنها شأن أي رمز طغى عليه الاستهلاك الجمالي والفني كما طغى على توظيفه، ولم يغادر الشعراء فيه من متردم إلا بشق الأنفس، ولاسيما مَن استسهلوا بناء الصورة وتعاملوا معها تعاملهم مع الشعارات المؤدلجة، فقد قلّب أدونيس استعمالاتها على كلّ أوجه التأويل والرمز والصوفية مروراً بالسوريالية، والشكلية حيث تكون الكلمة صوتاً ورسماً جماليين قابلين للقراءة بكل اتجاه، فهي نبع تكوين وخلق لا تنتهي تشكيلاته، فالشجرة بوصفها جزءاً من صورة الطبيعة هي المعلم الأول وروح الكون، فيقول في قصائده الأولى معبراً عن هذا المعنى:[١]

«وسمعت الغصون وهي تتلو قوانينها فخشعت ولبست الطبيعة»

يتوحّد أدونيس بالطبيعة بوصفها أمّاً مولدة لكينونة خلق يوازي كينونة الخلق الشعري، وهي رؤية شعرية تتمحور حول تغوّل الذات وتوحّش الأنا فيها، ويقرّ أدونيس ذلك في مقطع شعري بعنوان «وحدة[٢]»:

«وحّد بي الكونُ فأجفانه
تلبس أجفاني

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وَحّد بي الكون بحريتي

فأينا يبتكر الثاني»

ولا تكون هذه الرؤية من بنات الحداثة الفكرية، بل هي بنت هجينة لتضخم الذات الذي تعود صورته في الشعر العربي إلى أوائل الجاهليين الذي تميّزوا بتغوّل الذات في سياق نزعة سمو عدواني[٣]، وهي نظرة فلسفية ليست مقصورة على الشعر العربي، إذ نجدها صورة شائعة في الفلسفات الشرقية التي قامت عليها الأساطير والخرافات، وقد بقيت صورتها الأولى متمركزة حول تضخم البطولة التي تضاهي البطولة الإلهية الوثنية، أما صورتها الثانية فشكلت المقومات الأساسية للرومانسية، حيث التعلّق بالطبيعة كان ينشأ من اعتبار الآلهة قوى طبيعة تسكن أرواحها في عناصر الطبيعة وصورها، كما تصور أشعار «الفيدا» وهو مذهب ديني خلاصته روحانية طوطمية تؤمن بأن الأرواح تسكن الطبيعة، وهذا ما جعل الهنود القدماء أول مجسدي العشق الصوفي للطبيعة، فتعلّقوا بها، واندمجوا بعناصرها، وعدوها المعلم الأول، وروح الكون[٤]، وهذا يجعلنا نتساءل عما تضمره الذات الشعرية من نكوص مشاعي مخالف لدعوات الحداثة العقلية جمالياً وفنياً وفكرياً، وإذا كان التحديث مختلطاً إلى هذا الحد بالذاكرة الخرافية البدائية لمفهومات الوجود عند أكبر منظري الحداثة، فكيف بمَن يمتلك موهبة ريادته، ثمة صور لا تحصى هجّنت جمالية صورة الشجرة في الميثولوجية الثقافية، وارتخت لبريق مس بنيتها المعرفية من دون الفطنة إلى أن الشعرية لا تأخذ قوتها المباشرة من قوة المعنى المعرفي لأنها الفرادة الجمالية المدهشة للمعنى المعرفي لا سرده بسياق أدنى قوة تعبيرية من جمالية المعرفية، وثمة نص شعري مطوّل يكاد يقتصر على الشجرة هو مجموع ما انطوى عليه ديوان «من سيرة الشجرة» لآصف عبد الله، يسبر فيه مباشرة مختلف معاني النمط الميثولوجي للشجرة، فيبدأ بتعيين خلودها، ثم ينتقل من إحساسه بدهشة أسطورتها إلى أسطرة ذاتها ليجعلها تصارعها فتجزي إليها النصائح:

«أيتها الشَجرة يا ابنة الأبدية..

فلتعلُ قامتُك، ولتنحنِ سماءُ تأخذُ يَدكِ إلى قصورِ الضَوء!

أتوحَدُ مع وحدتك».[٥]

فإذا كانت الشجرة الخالدة بنت الأبدية التي عبرت الأزمنة من الأزل إلى الأبد، تنتظر أن ندعوها لترفع قامتها، فأين تكمن قوة خلودها، إن الشاعر سرعان ما استلب الشجرة دلالات خلودها وقواها الأبدية،

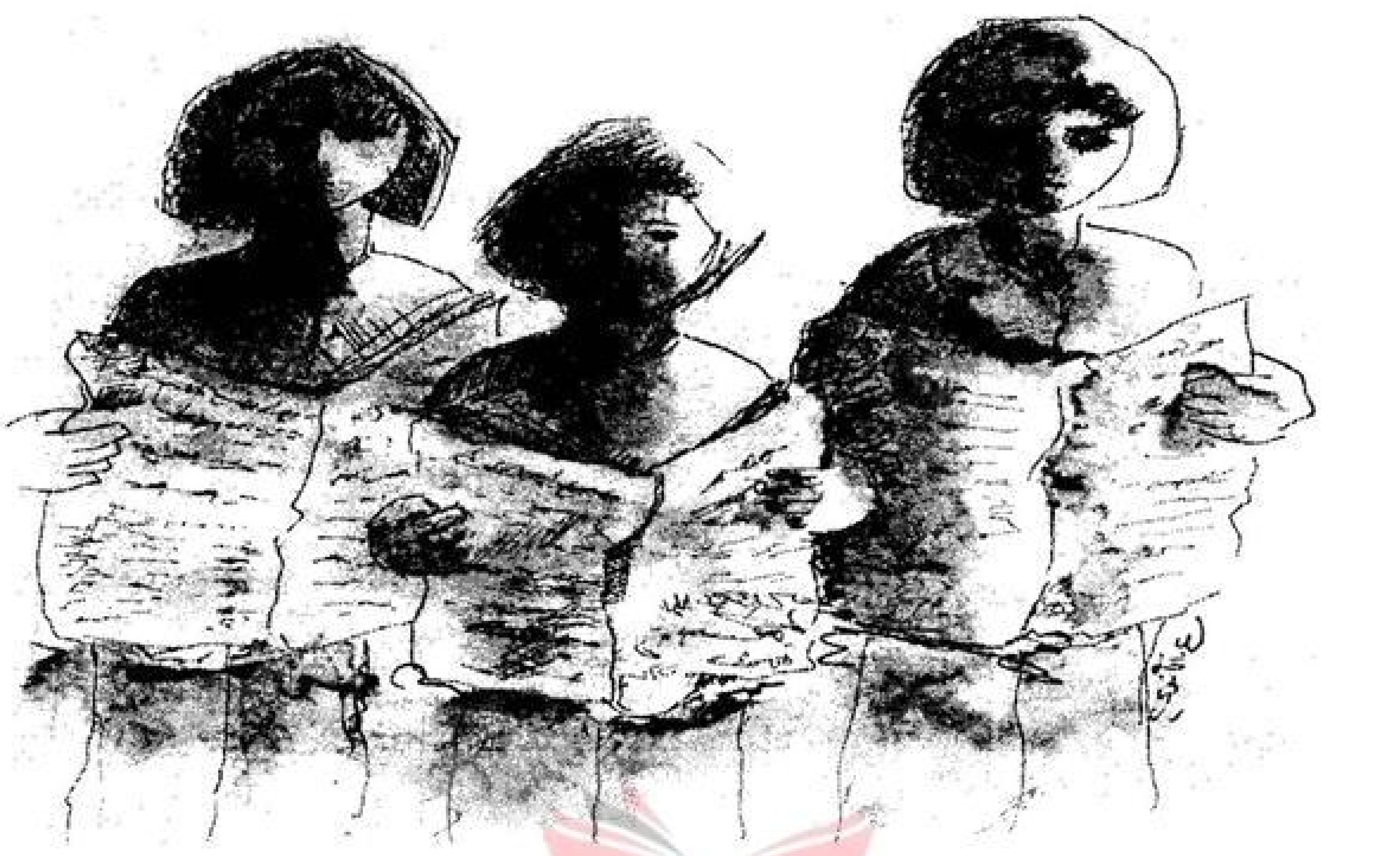

ليطفو عليها ذاته التي يجعلها تسمو على الشجرة بكل ما وصفها من قوة الخلود والأسطرة، وهذا إسقاط نفسي معاكس لظاهر مدح الشجرة بوصفها رمز الحياة الخالدة والتجدد، إذ يدمر الشاعر قواها عندما يغوّل ذاته ليجعلها أكثر حكمة ودراية بالحياة والخلود، وهذا في المستوى المعرفي الذي شكّل أساس النص إذ قام على قوة المعنى لا قوة الشعرية، فإذا كانت الشجرة ابنة الأبدية بتعبير آصف عبد الله، فإن القصيدة تجليات تاريخها الجمالي، وذاكرة محاكاتها التي تكاد أن تضيء بزيتها، فالشعر سراج جمالها اللغوي، ومشكاة أسطورتها الوجودية، ولم تكن الشجرة في القصيدة منذ ولد العالم أجمل بالشعر، أو بتعبير آخر منذ حاول الشعراء في فجر ولادة الكلمة أن يعيدوا تكوين الوجود شعرياً ليهبوه آلاء الجمال فيخلصوه من صفة الواقعة التي تتكرر، ليجعلوه كوناً يتجدد، وكانت الشجرة صورته في التجدد والجمال والخلق، وقد شاع توظيف الشجرة في القصيدة العربية منذ تكونها الأول، فنجد شاعرة عربية مغرقة في القدم تستعير الشجرة شعرياً لتمثيل حياة الإنسان وتشبيه العلائق الأسرية بعلائق أغصانها، تقول صفية الباهلية(٦):

عِشنا جَميعاً كَغُصنَي بانَةٍ سمقا
حيناً عَلى خير ما تنمى له الشجرُ

حتى إذا قيلَ قد طالَت فُروعهما
وَطاب قنواهما وَاستُنضرَ الثمرُ
أخنى على واحدٍ ريبُ الزمانِ وما
يُبقي الزمانُ على شيءٍ ولايذرُ

وإذا كانت هذه الشاعرة بفطرة عفوية جرحت لصمت الزمان لتزفر حسراتها من خلال سقوط أحد الأغصان من شجرة وجودها، مشبهة نمو الحياة بنعم ماء الشجر ونمائه، فإن الشاعر آصف عبد الله يجسد فصول وجوده من خلال الشجرة التي تتجلى فيها صورة وجوده وحياته وتكونات حياته، ويعيد الفكرة ذاتها التي كشفت الشاعرة الجاهلة عنها: أي وحدة ماء الحياة، فهو يضيء بأمواج خضرتها ويثمر من مائها أزلاً جميلاً، ويحضن ذاته تحت لحائها ليخلو إلى أمومته في لحظة القلق، بل يتوحد الشاعر بها فيصبح نسغ الشجر نسغه:

«شجرةً ليست كالأشجار.. أقول: السّلامُ
عَليْكِ يوم كُنْتِ، ويومَ لم تموتي،
ويوم أورقتِ مِنَ الطّين!
وأشهَدُ أنّكِ العشيقةُ، وأني العاشق..
تهبُّ عصافيري حولكِ كفراشٍ جَذَبَتْهُ أمواجُ
مِنَ الضّياء؛
تغطّيكِ بالزّقزقاتِ ثم تمتزج بأغصانكِ
كأنين اللّذة الأولى،
تنوئين بهذه الثّمار الّتي تفنى في طينكِ
لتكون قيامتُكِ مهرجان الماء الأبدي!
سأحفظ اسمَكِ في نسغي بعيداً عن الزّبدِ،
وأبني خرافتي تحت لحاء جذعكِ»[٧]

يكشف هذا النص عن اقتداء الشعر بالشجرة في تكوين الذات جمالياً، ولكن هذا الربط بين الشجرة، والذات البشرية ليس اقتداءً جمالياً وحسب، بل اقتداء بالتكوين الأسطوري للوجود، وتجليات أنماطه الأولية في الذاكرة، فالشجرة عصيان ثقافي أسطوري في الوعي الجمالي، وذلك لعمق دلالاتها الأسطورية، واحتلالها حيزاً واسعاً من مساحة ذاكرة الشاعر العربي الذي تشرّب بتراثها الجمالي والأسطوري، فورثت مخيلته، وثمة عامل ذاتي سيكولوجي يتعلق بطبيعة الإبداع الشعري الذي يتجلى في جملة القرائن التي تربط بين القصيدة والشجرة التي وجد الشاعر في فضاء دلالاتها على الخصوبة اقتراناً طبيعياً، فالشجرة أسطورة الخصب في أساس نشأتها، ورمز تكويني للإبداع في أساس وجودها الوظيفي الثقافي،

ولابد في هذا السياق من الوقوف سريعاً عند المكونات المعرفية التراثية للشجرة التي نسبها المؤرخون إلى جملة أساطير أهمها شجرة (عشتار المقدسة إلهة الخصب)، وثمة تحديد في هذه النسبة يكمن في صورة النخلة بوصفها الرمز الرئيس للشجرة في التراث العربي، والشاعر لا يخرج على هذه الخصوصية حتى في حديثه العام عن الشجرة:

«أشهدُ ألاّ شجرة في هذا المدى إلاّك ولا عشيق
يلوب في الظلّ إلاّي!
هي الرّيحُ تهزُّ سريرَك، فتهتزّ أغصاني،
واسّاقطُ فيكِ رطبَ حبٍ، وزقزقات طيور بَنَتْ
أعشاشَها في أعالي مقامك! أشهدُ ألاّ شجرة
سواك وليس سواي في سمتك،
تمتدّين في هذه الهاجرة إلى آخر الحلم»[8].

تتجلى في هذه الصورة للشجرة عناصر تشير إلى النخلة، من ذلك اتخاذ الشجرة قناعاً فنياً للأنثى، ورمزاً حيوياً لتجلياتها المعنوية والجمالية، ويضاف إلى هذه القرينة، توظيف الشاعر ألفاظاً اقترنت بالحديث عن النخلة ولاسيما في القرآن الكريم، من مثل: هزّي، تساقط، رطب، وهي ألفاظ تبني تناصاً مع الآية الكريمة: **(وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً)**[9]. فالنخلة في الأساس الأسطوري رمزاً أنثوياً وهي في حضورها تستدرج ترسبات ميثولوجية، فقد قال الباحثون: «إن (فينيكس) كلمة تعني نوعاً من النخيل ينمو على شواطئ فلسطين، وهناك علاقة بين النخيل وتوالي الولادة والاستمرار أو معنى (الفينيق)؛ إذ يرون أن طائر (الفينيق) هو طائر النخيل، ولذلك كثر النخل في بلاد (فينيقيا/ بلاد كنعان)، واكتسب مكانة مقدسة تواصلت جيلاً بعد جيل»[10]. وتحكي أساطير بعلبك «أن طائراً يسمى فينيق، أو النخل، أو النخيل كان يحج إلى (هلوبوليس)، أو بعلبك فيموت، ثم يعاود الحياة من جديد. وورد في الأساطير أن الإله (أبولو) ولد تحت نخلة، وكذلك ولد (بنتون)»[11]. ويضيف هذا السياق مجرى آخر للعلاقات العضوية بين شجرة آصف عبد الله والنخلة الأسطورية، تتمظهر في حضور الفينيق طائر النخل:

«أيّ اسم أخلعه على أبوابك أيّة أنثى
تنتظرني في عطش القصيدة
أيّة أنثى أنتظرها على قارعة اللهفة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ساكمل الوهم أقول لها، أنا من ضلعكِ هتافُ الولادة

أنا من رطبكِ نواةٌ تتخلّق في اختبار

الفينيق!!»[12]

يربط الشاعر في هذا المقتطع بين الرطب، الخل، والفينيق، طائره، والأنوثة رمزها، والولادة دلالاته، محققاً في الصورة ضفافاً جمالية لجريان ماء أسطورة النخل، وهو يلح على إثبات هذه الترسبات الأسطورية في أكثر من موطن في شعره، محركاً نصه على تناص أسطوري يعكس تجربته الشعرية والوجدانية:

لابدَّ مِن ريحٍ تهزُّ جذعها!!

كأنّي أرى ماء الأساطير حولي،

وأرى أنّي أسعى في الهبوب، ما بين باب الجمر

وباب الريح!!»[13].

ويلتقي الشعراء كثيراً عند تقاطع لدلالات جمالية الشجرة مع أسطورة التفاحة التي شكلت مفهوم الخلق على الأرض الذي بدأ بعصيان حب المعرفة وإغوائها، ونجد الشاعر سعد الدين كليب يبني عالم هذا الخلق في سياق وجد صوفي يجنح إلى قوة المعرفة في الشعر وشعرية تعريفها في سرد حكائي يتخذ من صياغة النفري الصوفية تناصه المباشر[14]:

أوقفني.. كان يبوحُ،

لكأنَّ امرأة تتدلّى من سقف الروحْ!

تتمدّد فوق سريري ثمّ تذوبُ فلا أبتلَ

برائحة التفاحِ

ولا أصحو من جسدي المذبوحْ

لكأني مَن يتدلّى يتمدّد ثمّ يذوبُ كأني

أخبطُ في حَلكِ أبيضَ داجٍ

أسقط من أعلايَ على حجر مجروحْ

أوقفني.. كانت رائحة التفاح

تسيل من الكلماتِ وكنت أحسّ بطعم الروحْ!

يعيد سعد الدين كليب أسطرة وجوده في صورته الحسية العابقة برائحة خصوبة الجسد، والروحية المحلقة بأجنحة الضوء على وقع سرد صوفي في منجز التوهج الإبداعي، وهذا ما قيّد الذاكرة بالجنوح إلى متعة النص الصوفي في أكثر من التحليق في إعادة بنائه الشعري في نص سعد الدين كليب على الرغم من كثرة الإضاءات الإبداعية لعالم الروح والحواس التي صاغها في تشكيلات جمالية براقة، فضلاً عن مؤثر الوجد الصوفي السابح في مخيلة جمالية أثيرة بوهجها، لكن سطوة النص النفري

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

بقيت المناخ الأكثر استبداداً في تذوّق صورة الشعرية المتغلغلة في عوالم نمط أسطوري تكويني. ونرى الشاعر الحديث يسعى إلى بناء أسطورة التكوين الوجودي شعرياً، فنجده يتوق إلى انعتاق تحرري، يجسد صورة حيوية لسياق الخلق والتجدد من خلال قناع الأنثى، كما يذهب جودت حسن في تجريد صورة المرأة الخالدة إلى تفاح أكيد موارياً أنساغ أسطورة التكوين في خطوط لوحته غير أن الشاعر يطلق العنان لشهوة الانفجار على ضفاف حرمة الأنوثة ليبددها ويحولها إلى مأوى لنفسه المضطربة ونبعاً لإرواء متعه مخرجاً روح الأنوثة من جسد المرأة في استجابة مباشرة لنزعة التشويه والخدش التي تضطرم في أعماق كبته، يقول جودت حسن[١٥]:

نامي في سريري أيّتها الأنثى الخالدة
محيطاً من العريدة ونهراً من الفسق
وكوني أصابعي التي خدشتْ ضفةَ الحياء
وشجرَ التفاحِ الأكيدَ..!

إن العلاقة بين الأسطورة والشجرة والقصيدة دائماً تأخذ شكل سمو التكوين والتجلي الإبداعي، وهذا ما يدفع الشعر إلى العصيان الثقافي والجمالي في الذاكرة الأسطورية التي يحوّلها إلى مطية فنية بلاغية جديدة في تكوين الصورة الشعرية الحديثة، وهي استبدال حيوي لعناصر الصورة التقليدية، فالشجرة عند الشاعر تستأثر بمكوناتها الأسطورية من خلال توجيه الشاعر قصيدته نحو فطرتها التكوينية التي ترتقي مع الشجرة في حكاية ألق الوجود ووهج سرده الشعري، فالشجرة بتعبير مرام المصري وجود طوباوي للأنثى وصورتها الظل في الطبيعة، وهي نبع لإلهام شكلاني لبناء هيكل صورة شعرية تقوم على إيماض اللمعة الشعرية فهي وسائل تقنية خارجية لبناء الشعرية، تقول مرام المصري[١٦]:

«أنا أعتذر، لأني من حيث لم أنتبه
هبت نسائمي على أغصانك، فأوقعت الزهرة
الوحيدة التي تبرعمت».

ويكشف لنا تعدد أسيقة أسطورة الشجرة عن أصالة دلالاتها، وعمق جذورها في وجدان الشعوب، إضافة إلى سمو فكرتها التكوينية. وقد تجددت صورة هذه الأسطورة بتجدد حقب التاريخ وأمكنته، فتظهر لنا في

هذا السياق نخلة «نجران» التي عبدها بعض العرب، كما نجد أن المسيح ولد تحت النخلة، وكانت منحنية، وأشار قوم من المفسرين إلى أنها قديمة العهد تعود إلى أكثر من ألفي سنة[١٧]. وإذا كان الوقوف على (الأطلال) في الشعر الجاهلي ظاهرة من تجلي التقديس الوجداني لها على الأقل، فإن وقوف الشاعر (مطيع بن إياس) على نخلتي حلوان، باكياً أحزانه، مجروحاً بالفراق، هو امتداد حر لذلك التجلي[١٨]. ونستدل من هذا الحديث على أن الشجرة ركيزة ثقافية، رمزية، جمالية في ذاكرة الشاعر الحديث، وهي في تكوينها نموذج الإبداع الشعري في قصيدته، وصورته، لذلك توقف في قصائده عندها، ليظهر بنيتها الدلالية والجمالية وعلائقه الوجدانية بصورتها، فهي تعود إلى أسطورة الغرانيق الأولى[١٩] لتحيي ذاكرة الصراع العقلي بين الثابت والمتحول في صيرورة الوجود، ثم تفرد أجنحتها على معنى فنتازيا للعقيدة في ذاكرتها البدائية، وبعد ذلك توغل الصورة في عوالم التكوين الجمالي للذات الشاعرة والوجود الشاعري، يقول محمد وليد المصري[٢٠]:

«أحلى الغرانيق التي ندّتْ بيبيس القلبِ،
واحتفلتْ بأعراس القصيدْ..
وسعتْ إلى شجرٍ كثيفٍ في دمي.. تؤوي عصافيري..،
وتنبعُ بين نبضي والوريدْ.. تهدي البنفسج
من فتيتِ المسكِ، موّال التجلّي،
والمساء حمامة القبلاتِ، سال هديلها في الكأسِ،
فاشتعلت شفاهيَ، واشتهت سرياً..، يؤبّد رعشة،
ويفيضُ في نبع المغني»

يوظف محمد وليد المصري صورة الشجرة في هذا المقطع بوصفها ملهماً تكوينياً جمالياً ذا بناء درامي تخيّلي، وهذا ما جعلها تدفع الشعر إلى أن يبني من جديد أسطورة الإخصاب، وذلك «وفق عملية ربط جدلي بين الأسطورة القديمة أسطورة الإخصاب وبين أسطورة الشجرة المقدسة سواء في النص القصصي التاريخ ي أو في الجداريات الآثارية، وهي واضحة كما رأينا في قصيدة محمد وليد المصري، إذ فجّر في شجرته قدرة عجيبة على إخصاب الحياة، وبنائها، فضلاً عن تشكيل تدفق الوجود عبر الماء أسطورة تكوين الحياة الأزلية، وذلك سر إلهي من أسرار تلك الشجرة المقدسة»[٢١]، فالشاعر يرسم مشهداً تشكيلياً للخصب

والجمال والحياة، بلغة فطرية تتغذى بالنشأة الأسطورية الأولى، فتتجلى الصورة الشعرية بتمظهر الذاكـرة الأسطوريّة في لغة الشعر واضحةً منبسطة بإمارتها المحددة لماهيتها، بـدءاً من إعـادة بنـاء الميثولوجيا القديمة ومفرداتها الكونيـة في الخلق، والإخصاب، وانتهاء بالمنـاخ الأسطوري السحري الغيبي الذي فرد جناحيه علـى المخيلة التي تعيد صياغة صورة أسطورة الشجرة المقدسة عبر تجليات عناصر أسطورة (الغرانيق) وتجلت بمعجم لغـوي دلالي روحي جمالي خصوبي تؤسسه ألفاظ المقطع «ندّت، القلب، أعراس، شجر، تؤدي، تنبع، نبضي، الوريد، التجلي، القبلات، يؤبّد، رعشة، يفيض، نبع».

ويعمل هذا المعجم بتداخله الدلالي على تفجير لغة أسطوريـة هي من أسس التخيل الشعري وجماليات صورته.

خاتمة:

لقد تحولـت الشجرة في الشعر السوري الحديـث عبر معجم لغـة الشجر إلى جسدٍ أسطوريٍّ للوحة تعكس التكوين الوجودي، حيث الشعر يستحضر الأسطورة بوصفها فنّه الذي يقوى به، ويتّصـل بجماليّته التعبيريّة والتأثيريّـة، وهـذا الاستحضـار هو حالة طقوسيّـة أكيدة تستعيـد بحضورها معنى الميثة الأوليّة، حيث الطقوسيّة تكون مدماكاً رئيسيـاً في حياة لغة الشعـر الهائمة ذاتياً بالطقوسيّة؛ وفق هـذه الصورة تكوّن اللغة عبر ذاكرتها الأسطورية فضاء نمط الشجرة المقدسة في الشعر السوري الحديث، وتحوّله أفقاً لاستعادة نمطه في أشكال مختلفة تؤسس معرفة جماليـة إبداعية، متصلـة ببؤرتها التراثيـة الأولى، على مـا في هذا الشعر من صوريـة تحديثية توهم بالانقطاع الظاهري عن التراث، أو هكذا يعتقد البعض.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهوامش

١- الآثار الكاملة، أدونيس، ط١، دار العودة، بيروت، لبنان، ١٩٧١م، ج٢، ص١٠٦.

٢- الآثار الكاملة، أدونيس، ج١، ص٤٦.

٣- ينظـر: بحث المدرسة الرومانسية، التقاء أم تقابل مـع الفلسفة الهندية، أهرامات السراب، خالد زغريت، ط١، دار المعارف، حمص، سورية، ١٩٩٧م، ص١١٠، وقصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة: د.زكي نجيب محمـود، ط٥، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ج٣، ص٤. ومجلة ثقافة الهند، المجلد ٤١، عدد٤،

نيودلهي، الهند، ١٩٩٠م، ص١٩٧.

٤- ينظر: أهرامات السراب، ص١١٠.

٥- من سيرة الشجرة، آصف عبد الله، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، بدمشق، ١٩٩٩م، ص١٩.

٦- شاعرة جاهلية، قديمة، لايعرف تاريخ ولادتها، أو وفاتها، انظر: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، محمد أمين بن فضل الله بن محب المحبي الحموي الدمشقي، طبع بعناية مصطفى وهبة، القاهرة، ١٨٦٩م، ص٦٣٢.

٧- من سيرة الشجرة، ص٢٤.

٨- من سيرة الشجرة، ص٢٠.

٩- القرآن الكريم (سورة مريم:٢٥).

١٠- دراسات في الشرق الأدنى القديم، بيومي مهران، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ١٩٩٧م، ص١٢٠.

١١- موسوعة الفولكلور، شوقي عبد الحكيم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥م، ص٦٦٦.

١٢- مراثي الغزالة، آصف عبد الله، منشورات اتحاد الكتّاب العرب بدمشق، ٢٠٠١م، ٧٤.

١٣- مراثي الغزالة، ص٨٨.

١٤- مواقف.. ومخاطبات، سعد الدين كليب، ملحق الثورة الثقافي، دمشق، ٢٨-٩-٢٠١٠م.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١٥- ديوان الذاكرة التي عرّتها الرّيح، جودت حسن، منشورات اتحاد الكتّاب العرب بدمشق، سورية، ٢٠٠٠م، ص٨٩.

١٦- مرام المصري، كرزة حمراء على بلاط أبيض، تونس، دار تبر الزمان، ١٩٩٧م، ص٨٦.

١٧- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، الثعالبي، دار المعارف، ١٩٨٥م، ص٣٠٦.

١٨- الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، دار الثقافة، بيروت، لبنان، د ت، ج١٣، ص٢٧٢. ويقول الشاعر:

أسعداني يا نخلتي حلوان

وارثيا لي في ريب هذا الزمان

واعلما أن ريبه لم يزل

يفرق بين الألاف والجيران

ولعمري لو ذقتما ألم الفرقة

أبكاكما كما أبكاني

كم رمتني به صروف الليالي

من فروق الأحباب والخلان

١٩- والغرانيق: جمع غرنوق، وهو طير أبيض طويل العنق. قال ابن الأنباري: «الغرانيق: الذكور من الطير، واحدها غِرْنَوْق وغِرْنَيْق، سمي به لبياضه، وقيل هو الكُرْكيّ، وكانوا يزعمون أن الأصنام تقرّبهم من الله عز وجل، وتشفع لهم إليه، فشبهت بالطيور التي تعلو وترتفع في السماء». لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، (د ت)، مادة.

٢٠- ديوان سماء لأسئلةٍ مفتوحة، محمد وليد المصري، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، سورية، ١٩٩٩م، ص١٢.

٢١- الكشف عن الشجرة المقدسة، ريادة وإبداع في الميثولوجيا العراقية، عبد الرزاق صالح، جريدة (الزمان)، العدد ١٨٨٨، لندن، ١٧/٨/٢٠٠٤م، ص١٠.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حوار العدد

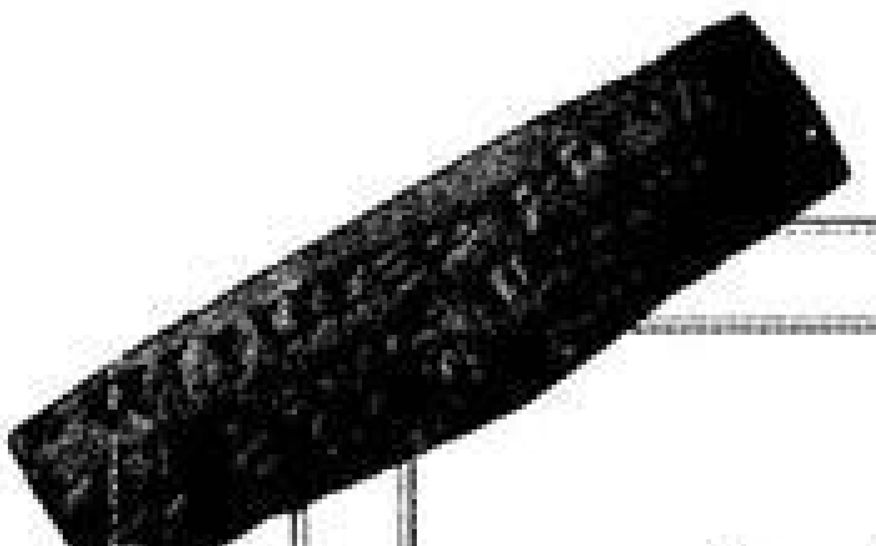

محمد توفيق البجيرمي:
درَّس وترجم ومثَّل

إعداد: عادل أبو شنب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذا رجل استثنائي، في كل شيء، حتى في محل سكنه ورقم هاتفه، لكنني استطعت أن أعرفهما، وأنقل صورة عنه، هو الفلسطيني الذي ناضل حتى نال الدكتوراه بالأدب الإنكليزي، وقدَّم وهو يَدرُس ويدرِّس برامج إذاعية وتلفزيونية، بعضها مستمر إلى اليوم، وهو الذي مثل في مسلسل «البخلاء» التلفزيوني شخصية لا تنسى.

إنه الدكتور في الأدب الإنكليزي، الفلسطيني، ابن القرية قرب حيفا، محمد توفيق البجيرمي، صاحب البرنامج التلفزيوني الشهير «طرائف من

٥٥ أديب وقاص سوري

العالم»، وهو الممثل في مسلسلات مأخوذة من كتب التراث.

وإنه ليسرني أن أحاور حامل الدكتوراه الذي درّس وأذاع ومثّل.

❁ ❁ ❁

دكتوراه وبكالوريوس

كان السؤال الأول هو سؤالي التقليدي:

- المولد والنشأة والدراسة؟

• ولدت في قرية فلسطينية اسمها «إجزم»، وتقع قرب حيفا، وكانت نشأتي ودراستي الأولى في القرية المذكورة، لكن أسرتي اضطرت إلى النزوح عنها إلى بغداد، حيث تابعت دراستي الإعدادية والثانوية فيها.

- لم تقل لي متى ولدت؟

• ولدت عام ١٩٣٨م، وكان عمري عشر سنوات عندما نزحنا عن القرية وجئنا إلى العراق. وتنفس قبل أن يكمل.

درست دراستي العليا في بغداد، ونلت شهادة الدكتوراه في الأدب الإنكليزي من جامعتها، ثم نلت بكالوريوس بمرتبة الشرف في الأدب الإنكليزي أيضاً، وكنت قد بلغت الثانية والثلاثين من عمري.

في جامعة بريطانية

- أعرف أنك درست في انكلترا أيضاً؟

• نعم، درست في جامعة «داشيفيلد» في انكلترا، ونلت شهادة ماجستير في الأدب الإغريقي، وكنت قد انتقلت إلى دمشق. كما نلت شهادة دكتوراه في الأدب الإنكليزي بعد ذلك بمدة طويلة.

- أعرف أنك كنت مبعوثاً ضمن بعثة إلى هناك؟

• لا أحب أن أتذكر تلك الفترة، فقد عشت هناك فترة صعبة.

عمله كمدرس الإنكليزية

- متى جئت إلى سورية؟

• عام ١٩٦٤م وقد أقمت في دمشق.

- ماذا فعلت في دمشق؟

• عملت في التدريس.

- أين درست؟

• درست في المعهد العالي الصناعي (أصبح فيما بعد كلية الهندسة الكهربائية والميكانيكية) اللغة الإنكليزية، ثم عملت بشكل حر مترجماً من الإنكليزية إلى العربية وبالعكس، كما لم أتخل عن تدريس اللغة الإنكليزية التي صرت ضليعاً فيها.

كانت هذه رحلة مولده ونشأته ودراسته وتدريسه، لكن هدف الحوار كان بالإضافة إلى هذه سؤاله عن شهرته في عالم التلفزيون خاصة، قلت:

- فهمنا كل شيء عن حياتك ونشأتك ودراستك، لكننا نريد أن نعرف شيئاً عن

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

شهرتك خاصة في عالم التلفزيون.

ابتسم وقال:

• قصتي مع التلفزيون قصة ظريفة، إن ملامح وجهي استهوت مخرجاً تلفزيونياً، فعهد إليّ ببطولة مسلسل من ٣٠ حلقة، مأخوذ عن «البخلاء» للجاحظ، وهكذا دخلت عالماً لم أكن أحلم به هو عالم التلفزيون، قبلت، ويبدو أنني أجدت، بدليل أن المشاهدين أعجبوا بالشخصية التي مثلتها، وقد أصبحت، بعد الحلقات الثلاثين، مشهوراً، وكان الناس يشيرون إليّ في الطريق، ويقتربون مني ويحدثونني، وأقول لك الحق، لقد أفرحني نجاحي.

طرائف من العالم

- هل هذا النجاح دفعك إلى أن تبقى مع الشاشة الصغيرة، في برنامجك الشهير «طرائف من العالم»؟

• إن برنامجي هذا الذي دعوته «طرائف من العالم» مستمر حتى اليوم، وفيه أنتقي طرائف من العالم، أترجمها، وأصوغها في جمل رشيقة خفيفة الدم، وكذا أحبتها الجماهير، حتى صارت مادة مستمرة، وإن البرنامج يقدم حتى اليوم، بعد أن تقاعدت، لكن هذا البرنامج نسخة مطورة لبرنامج قديم كنت أقدمه في تلفزيون بغداد بعنوان «نافذة من العالم» وربما كان ظهوري في البخلاء هو الذي نبّه الناس إليّ وإليه.

- متى بدأت ببرنامجك «طرائف من العالم» من التلفزيون السوري؟

• منذ عام ١٩٦٦م، لكن الناس انتبهوا إليه بعد ظهوري في «البخلاء»، وقد تركته فترة ثم عدت أقدمه منذ عام ١٩٨٠م حتى اليوم.

وقلت معلقاً:

- أي إنك مضيت في إعداده وتقديمه ٣٣ سنة مستمرة حتى اليوم؟

وقال مبتسماً:

• هذا من فضل ربي.

دور أندلسي

- أعرف أنك مثلت دورًا أندلسياً مشهورًا في مسلسلات عديدة، احك لي عن هذا التمثيل؟

• نعم، مثلت ٩٠ حلقة في ثلاثة مسلسلات أندلسية لحساب التلفزيون السوري.

- كم كانت مدة الحلقة الواحدة؟

• ثلاثين دقيقة.

قلت ضاحكاً:

- يعني أنك ظهرت في ٤٥ ساعة في هذه المسلسلات الثلاثة؟

• نعم، فقد ظهرت بدور ابن عبد ربه في كتابه «العقد الفريد».

- متى كان ذلك؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

• في أعوام متلاحقة هي أعوام ١٩٩٥ و٩٦ و٩٧، وقد جلب لي هذا الظهور شهرة إضافية، لأنني ظهرت بثياب أندلسية، ولكنة أندلسية، ضمن جو أندلسي بديع.

بعد التقاعد

ووجهت إليه سؤالاً بعد أن عرفت أنه أحيل إلى التقاعد من وظيفته كأستاذ للغة العربية.

- ماذا تفعل الآن؟

• أقدم برنامجي «طرائف من العالم» كل مساء خميس من تلفزيون دمشق.

- فقط؟

وقال مبتسماً:

• أدرس اللغة الإنكليزية والشعر والأدب المقارن.

- أما زلت إلى اليوم، أي بعد التقاعد تدرّس؟

• درست الأدب الإنكليزي في جامعة دمشق، وبعض الجامعات الخاصة، وأشرفت على أطروحتي ماجستير وناقشت أربع أطروحات في الأدب الإنكليزي، وكنت أحرر الأخبار في الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون، ألا يكفي هذا، ألا يجب أن أرتاح؟

- أبصم لك بالعشرة، لقد عملت درّست وأذعت ومثّلت وترجمت.. لكنك كفلسطيني نشيط. أنت قدها.

وضحك وقال:

• ما قلت شيئاً، أنا قدها والحمد لله.

وأردت أن أودعه، وعند الباب قال كمن تذكر:

• اسمع، لقد نسيت شيئاً هاماً.

- ماذا نسيت؟

• لقد ترجمت حوالي دزينة من الكتب، اكتب هذه أيضاً.

- كم عدد الكتب التي ترجمتها؟

• ١٣ كتاباً، وأنا أمضي الآن في ترجمة كتب أخرى.

علقت:

- أنت رجل يملأ وقته بالعمل، وهذه صفة يجب أن نذكرها، ربما «بالبنط العريض».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وضحك وضحكت، وتمَّ هذا الحوار الاستثنائي مع رجل استثنائي.

كنت أتمنى أن أرى الكتب التي ترجمها باعتباري أهتم بهذا الجانب الثقافي، لكنني كنت قد ودعته، فخجلت أن أعود وأستأنف الحوار الذي كنت قد فرغت منه، وهكذا أضعت جزءاً أعتبره هاماً من حواري مع الدكتور محمد توفيق البجيرمي. شيء واحد حزّ في نفسي هو أنني لم أعرف نوعية الكتب التي ترجمها، أهي علمية أم اقتصادية أم أدبية أم سياسية، وإن كنت أخمن أنها كتب سياسية.

وبعد محاولات عدّة بالهاتف، حادثته، فذكر شيئاً من الكتب التي ترجمها وهي: كتاب «حافظ الأسد والصراع على الشرق الأوسط» لباتريك سيل، وكتاب «القوة الناعمة»، وكتاب «كيف تمسك بالزمام»، وكتاب «غطرسة القوة»، وكتاب «الحياة السرية» لريتشارد نيكسون، وكتاب «السيدة الوزيرة» لمارجريت أولبرايت. ونسي البقية.

❁ ❁ ❁

لقطات من حياة

د. محمد توفيق البجيرمي

• ولد عام ١٩٣٨م في قرية «اجزم» قرب حيفا، وبذلك يكون قد بلغ الثالثة والسبعين من عمره، مد الله له فيه.

• كان في بغداد وجاء إلى دمشق عام ١٩٦٤م.

• نال دكتوراه في الأدب الإنكليزي وماجستير في الأدب الإغريقي، من جامعة عربية، ثم من جامعة بريطانية.

• قدم برنامجاً تلفزيونياً من تلفزيون دمشق باسم «طرائف من العالم»، ومثّل دوراً هاماً في «بخلاء» الجاحظ، وظهر في سلسلة مؤلفة من ٩٠ حلقة. مأخوذة من العقد الفريد.

• عمل في اختصاصه ونجح.

• ترجم ويترجم عدداً كبيراً من الكتب من الإنكليزية إلى العربية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

متابعات

صفحات من النشاط الثقافي

○ أحمد الحسين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مارتقلا معلم أثري وتاريخي:

تعد مغارة القديسة تقلا واحدة من المدافن الرومانية المحفورة في الصخر والمنتشرة بكثرة في منطقة حي مارتقلا في مدينة اللاذقية. وهو واحد من بين أهم المعالم الأثرية الدينية والتاريخية التي تزخر بها سورية.

وتأتـي أهمية هذا المعلم من كونه المكان الذي التجأت إليه القديسة تقلا

○ أديب وباحث في التراث العربي (سورية)

أثناء عبورهـا في اللاذقية باتجاه دمشق – معلولا هرباً من وجـه اضطهاد والديها في مدينة إيقونة تركيا بسبب إيمانها المسيحي، حيث مكثت في هـذا الموقع الذي عثر عليه بعض المزارعين في منطقة مار تقلا في اللاذقية عام ١٨٤٩م.

وتضم مغارة القديسة تقلا في باطنها مقابر ومدافن قديمة، وتعتبر من أهم المعالم الأثرية الدينية والتاريخية في سورية ومن المدافن الرومانية المحفورة في الصخر والمنتشرة بكثرة في منطقة مار تقلا من اللاذقية وهو عبارة عن غرفة واسعة محفورة في كتلة الصخر الرملي الذي يشكل الأساس الجيولوجي لمدينة اللاذقية.

وبيّن مدير آثار اللاذقية أن اللافت للانتباه أنه للمرة الأولى نجد أن مدفنا عائليا يعود إلى الفترة الرومانية يضم معالم كنيسة غير مكتملة حفرت وسط بهو المدفن وهـي صغيرة الحجم أبعادها.. عمق ٢٦٠ سم طول ٢٤٠ سم عرض ١٥٠ سم يؤدي إليها درج محفور بالصخر مؤلف من تسع درجات وفي جدارها الشمالي هيكل وعند أسفل جدارها الشرقي توجد معالم لبركة دائرية الشكل معمرة بمدماك من الحجارة الصغيرة ربما هي جرن المعمودية وسطحها مغطى بخمسة ألواح حجرية مستطيلة الشكل غير مشذبة طول الواحدة متر تقريباً وعرضها نصف متر، ونتيجة الاكتشافات الأخيرة في المغارة يبدو أن مسيحيي اللاذقية في القرن الأول الميلادي قد أقاموا صلوات واجتماعات ليتورجية وربما معموديات في هذه المغاور. (١)

وفاة المؤرخ كمال صليبي:

توفي في بيروت عن عمر ناهز الثمانين عاماً المؤرخ اللبناني «كمال الصليبي» أحد أبرز المؤرخين العرب الذين كتبوا عن تاريخ لبنان والمنطقة العربية والديانات بعد حياة علمية امتدت لأكثر من خمسين عاماً احتل فيها موقعاً متميزاً بين المؤرخين العرب.

برحيل الصليبي تبقى مؤلفاته وأبحاثه التي أثارت جدلاً واسعاً بين أوساط المؤرخين والتوراتيين، لإثارتها أسئلة غير مألوفة، وإطلاقها نظريات وآراء جديدة حول جغرافيات وشخصيات التوراة منها السيد المسيح حيث جاءت معظم أبحاثه مخالفة للسائد والمعروف، على الرغم من أنها لم تأت

من فراغ إذ إنها كانت نتاجاً لمنهجيات مختلفة حيث استعمل أدوات وطرقاً تختلف عن تلك التي اعتادت المدرسة التاريخية الفرنسية استخدامها لفهم التاريخ ودراسة حركته وكانت مسيطرة على المشهد التأريخي.

ولد كمال الصليبي في مايو ١٩٢٩م ببلدة بحمدون في جبل لبنان ببيروت لأبوين مسيحيين بروتستانتيين وتخرج من الجامعة الأمريكية بعد حصوله على بكالوريوس في التاريخ والعلوم السياسية ثم انتقل إلى لندن ليحصل على دكتوراه في تاريخ الشرق الأوسط من دائرة دراسات الشرق الأوسط هناك بعنوان «المؤرخون الموارنة وتاريخ لبنان في القرون الوسطى» بإشراف برنارد لويس.

وقد كانت الجامعة الأمريكية ببيروت نعت وفاة الصليبي الذي رأس دائرة التاريخ وعلم الآثار بها لمدة طويلة وتقاعد في ١٩٩٤م ثم أصبح أستاذاً فخرياً بها في أواخر أيامه.. وبعد تقاعده أسس الصليبي المعهد الملكي للدراسات الدينية في عمان في الأردن، وعمل مديرا له نحو عشر سنوات، وله العديد من الأعمال باللغتين العربية والإنجليزية التي ترجمها بنفسه أو أشرف على ترجمتها ومن كتبه (حرب داوود- خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل- تاريخ لبنان الحديث)، وقد أثارت كتبه ومؤلفاته كما أسلفنا العديد من العواصف الفكرية، ففي الوقت الذي تعد فيه كتبه عن تاريخ لبنان مرجعاً لا غنى عنه للدارسين، فإن كتبه عن التوراة التي أعاد فيها قراءتها جغرافياً وثقافياً أثارت عواصف فكرية استدعت هجوماً عنيفاً عليه من مفكري وعلماء التوراة، وأوضح الصليبي أن سوء تأويل نصوص التوراة ناتج عن ضعف الترجمات الموجودة لها الآن ويتعرض في كتابه إلى تناقضات روايات العهد القديم.

ولم يكن الصليبي مؤرخاً فحسب بل عرف عنه شغفه بالأدب والموسيقي، وهو ما ظهر جلياً في أعماله التي اتسمت بلغة رشيقة وخاصة سيرته الذاتية «طائر على سنديانة».[٢]

رحيل خيري شلبي:

توفي الكاتب المصري خيري شلبي عن ٧٣ عاما إثر إصابته بأزمة قلبية حادة في منزله بالقاهرة، تاركاً تراثاً هائلاً من الأعمال الأدبية تميزت بالخبرة الشعبية.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولد الراحل عام ١٩٣٨م بقرية شباس عمير بمحافظة كفر الشيخ، ولم يتلق تعليماً جامعياً فحصل على شهادة من معهد المعلمين ثم عمل في مهن كثيرة منها «بائع سريح» ممن يتنقلون ببضائعهم في الشوارع وهي خبرة حياتية ميزته في كثير من أعماله. التي استندت إلى هذه التجربة ومنها: رواية (وكالة عطية) التي نال عنها جائزة نجيب محفوظ من الجامعة الأمريكية بالقاهرة عام ٢٠٠٣م وتحولت إلى مسلسل تلفزيوني، ومن أعماله الأخرى التي وجدت طريقها إلى السينما والتلفزيون رواية (الوتد) التي تحولت إلى مسلسل تلفزيوني بالعنوان نفسه كما تحولت قصته القصيرة (سارق الفرح) إلى فيلم بالاسم نفسه.

وينتمي الأديب الراحل إلى جيل الستينيات من أدباء مصر، وكان غزير الإنتاج فزاد عدد أعماله على ٧٥ كتاباً تضم روايات وقصصاً قصيرة ومسرحيات ودراسات في الأدب الشعبي وأدب الرحلات، ومن أعماله: السنيورة، والأوباش، وعدل المسامير، وثلاثية الأمالي، وزهرة الخشخاش، ونسف الأدمغة، ورحلات الطرشجي الحلوجي، وصحراء المماليك.

وكان شلبي أوّل من اكتشف قرار النيابة في قضية كتاب (في الشعر الجاهلي) لطه حسين إذ عثر عليه في مكتبة متخصصة في الكتب القديمة، وكان القرار عبارة عن كراسة تضم قرار محمد نور رئيس النيابة الذي حقق مع طه حسين واختفى القرار بعدها إلى أن قام شلبي بتحقيقه وأصدر كتابه (محاكمة طه حسين) عام ١٩٦٩م وهو أول ما نشر له.

وكان شلبي رئيساً للجنة القصة بالمجلس الأعلى للثقافة ورئيسا لتحرير سلسلة (مكتبة الدراسات الشعبية) بالهيئة العامة لقصور الثقافة في مصر، وقد نال جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام ٢٠٠٥م.

وفي الراحل شلبي قال الروائي المصري جمال الغيطاني: خسارتي فيه متعددة المستويات، فقد كان صديقاً مقرباً من نفسي منذ خمسين عاما، وقد التقينا للمرة الأولى عام ١٩٦٠م بالأزهر، وأضاف برحيل شلبي فقدت الرواية العربية واحداً من أروع الحكائين الذين عرفتهم، كذلك فقد التراث

المصري ذاكرته الشعبية.

أما الأديب يوسف القعيد فقال: إن أهم ما يميز تجربة شلبي هو اهتمامه بالكتابة عن الهوامش البشرية، وأحزمة البؤس التي تحيط بالمدن ولا تستطيع أن تكون جزءاً منها، وسعيه من أجل إيصال صوتهم إلى من يهمه الأمر. وقد صنع ذلك بمفردات بسيطة نبعت من قراءاته المتنوعة في شبابه للملاحم والسير الشعبية، التي استفاد منها وطوعها في الروايات التي كتبها.

واعتبر الأديب بهاء طاهر أن خيري شلبي يمتاز بالإنسانية وقدرته على النفاذ إلى قلب من يحدثه على الفور، وحتى حينما ينفعل كان موضوعياً في خصومته مع الآخرين.(٢)

صندوق آفاق يمنح جوائزه:

أعلن الصندوق العربي للثقافة والفنون (آفاق) تخصيص ٣٥ فرداً ومؤسسة بمنح الدورة الأولى للعام ٢٠١١م، التي خصصت لفئات الأدب والفنون الأدائية والفنون البصرية، موزعة بين لبنان، مصر، فلسطين، سورية، العراق، المغرب، تونس، الجزائر، السودان، الكويت، فرنسا، ألمانيا والولايات المتحدة.

ومن ضمن الفائزين في فرع الأدب جاء: منصور إدريس محمد (السودان)، بعمله الروائي «آخر السلاطين» والذي يستلهم خلاله تاريخ منطقة دارفور في فترة ما بعد انتهاء المرحلة التركية وبداية الحكم الإنجليزي المصري، متتبعاً شخصية السلطان علي دينار «سلطان دارفور» صعوداً وهبوطاً كمحرك ودافع أساسي لنمو وتطور الرواية.

وفازت جمعية البيت للثقافة والفنون «الجزائر» لاستكمال مشروع «زهر الآداب» لترجمة مختارات أدبية لكتّاب وشعراء من دول مختلفة، بهدف فتح معابر نحو فضاءات أدبية عالمية والتقرب منها من خلال الترجمة.

ومن مصر فاز سامح محمود الجباس عن عمله الروائي الملحمي «بورتو سعيد»، والذي يوثق تاريخ مدينة بورسعيد بدءاً من العام ١٩٥٦م وحتى اليوم، ويبرز تأثير التغيرات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية على مواطني المدينة، تشكل شخصية البمبوطي الذي يعيش في الميناء ويقوم بخدمة السفن المارة في القناة وترشيد السائحين أو بيع

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

البضائع للبحارة محوراً أساسياً في الرواية، وتنتهي بنبوءة غرق المدينة واختفائها تماماً كما تنبأت الدراسات العالمية بسبب التغييرات المناخية.

وفاز من المغرب يوسف الريحاني عن كتاب «كرسي هزاز- يوسف قل (شذرتان رقميتان)»، وهو ترجمة مدققة ومصححة للمرة الأولى باللغة العربية لعملين قصيرين للكاتب الأيرلندي صموئيل بيكيت، من شأنهما المساهمة في التبادل الثقافي والفني مع الأدب العالمي.

ومن العراق فاز حسن بلاسم، عن مجموعته القصصية «أغنية الماعز» والتي تتناول الهم العراقي خلال عقود الديكتاتورية وفترة الاحتلال بأسلوب الكوميديا السوداء والفانتازيا.، وشاكر لعيبي لدراسته «العمارة السريالية: دراسة معمارية وجمالية في عمارة التطاوين ومطماطة وجبل نفوسة»، ومن فلسطين «مايا أبو الحيات»، عن عملها الروائي «رواية بلا عنوان»، وهي رواية عن حياة امرأتين، قابلة يونانية تسكن القدس وابنة أحد رجال منظمة التحرير الفلسطينية سكنت الأردن ثم انتقلت إلى فلسطين.

وفاز من لبنان هلال شومان عن «مجموعة قصص قصيرة مع معادل بصري»، وبريء خليل من سورية عن مجموعة نصوص شعرية للأطفال بعنوان «نصوص وجدتها في الغسالة».

وفاز صوت النسوة - المجموعة النسوية اللبنانية، عن «بنات طارق: قبيلة من النسويات العربيات»، ويجمع الكتاب وللمرة الأولى خمس عشرة مشاركة أدبية لنساء عربيات من لبنان والمهجر، يُعدن فيه إنتاج معرفة بديلة عن النساء العربيات، ويصلن من خلاله عملهن ومعرفتهن الحاضرة بالماضي غير المعلن عن وجوده، كما ينتج معرفة عربية بديلة تعيد رواية النسوة في المنطقة العربية من خلال العمل على استحضار عناصر تاريخية أو خاصة منسية، ويوثق لأوّل مرة الخطاب النسوي المهمش وينقله من الدوائر الأكاديمية إلى قلب المجتمع.

وفاز وسيم أحمد المغربي (مصر)، عن «حدوتة بحر» وهي ورشة لكتابة القصة القصيرة تستهدف خمسة عشر شابا تتراوح أعمارهم ما بين ١٨ و٣٠ عاماً.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفازت الروائية السورية عبير إسبر عن رواية «بدع الورد»، والمسرحي السوري عبد الله الكفري عن نص مسرحي بعنوان: «عتبة الألم لدى السيدة غادة»، حنان درقاوي (المغرب)، عن رواية «الحارة المجاورة»، وترصد خلالها التحولات الاجتماعية في المغرب خلال سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي من خلال قصة عزيزة التي هاجر والداها من الراشيدية في واحة تافيلالت ليستقرا في ازرو في وبعدها في الصويرة.(٤)

«المهاجر الثقافية» تكرم بعض المبدعين:

أعلنت الأمانة العامة لجائزة المهاجر العالمية للفكر والآداب والفنون التي تشرف عليها جريدة «المهاجر» العالمية أسماء الفائزين بجوائزها في دورة ٢٠١١م والتي شملت فروع الفنون، الشعر، القصة، الصحافة، البحث العلمي، المؤلف الشاب.

وقررت الأمانة العامة للجائزة منح جائزة الفنون للسوبرانو المغربية سميرة القادري عن ألبومها الذي شاركت به: «من جبال عرفات إلى جبال البشرات»، وهو عمل فني يضم أشعاراً وأناشيد صوفية كتبها شعراء موركسيون بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م، وقبل الطرد النهائي من الجزيرة الإيبرية سنة ١٦٠٩م.

كما قررت منح جائزة الشعر للشاعر والباحث والمترجم محمد حلمي الريشة لـ مسيرته الشعرية خصوصاً والأدبية عموماً، حيث يعود سبب اختياره لكونه أحد الأعلام الشعرية العربية حيث ساهم منذ ما يزيد على ثلاثة عقود بأعماله الشعرية، في رسم خريطة الحداثة الشعرية العربية وأنجز أربع عشرة مجموعة شعرية منذ العام ١٩٨٠م، وقد صدرت أعماله الشعرية في ثلاثة مجلدات، كذلك ثمانية كتب في المقالات، والمعاجم، والأنطولوجيات، والبحث، والقراءات، والحوارات، والرؤى، وأنجز أيضاً ثلاثة كتب في ترجمة مختارات معاصرة من الشعر العالمي، كذلك يعمل على ثلاثة مشاريع ترجمات شعرية أخرى، وهو يستحق فعلاً لقب «الناسك الشعري» الذي لقّب به، حيث سخّر جلّ سنوات حياته للعمل الشعري والأدبي، ولم يزل.

ومنحت اللجنة جائزة القصة مناصفة بين القاص والباحث والمترجم المغربي محمد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سعيد الريحاني، عن مجموعته القصصية «٢٠١١م عام الثورة» التي اعتمدت كما باقي مجاميعه القصصية الأخرى على أساليب ومقومات فنية رصينة، أضفى عليها بلاغته وأسلوبه الساخر لموضوع المجموعة الذي يساير التغيرات الحالية في العالم العربي، كما وقفت الأمانة العامة على مشاريعه القصصية الرائدة التي أشرف عليها، منها ترجمته لخمسين «٥٠» قاصة وقاصاً مغربياً إلى اللغة الإنجليزية ضمن أنطولوجيا «الحاءات الثلاث: مختارات من القصة المغربية الجديدة» وهو مشروع ثلاثي الأجزاء صدر له في نسخته الورقية العربية على ثلاث سنوات: «أنطولوجيا الحلم المغربي» سنة ٢٠٠٦م، «أنطولوجيا الحب» سنة ٢٠٠٧م، و«أنطولوجيا الحرية» سنة ٢٠٠٨م، وهو المشروع الذي اختيرت منه بعض نصوصه المترجمة ضمن «صوت الأجيال: أنطولوجيا القصة الأفريقية المعاصرة» التي أصدرتها جامعة أوليف هارفيه بولاية شيكاغو الأمريكية صيف ٢٠١٠م. وارتأت اللجنة أن تمنحه الجائزة لمخطوطه المشارك به ولإصداراته القصصية التي اعتمد فيها أسلوباً ساخراً خاصاً ميزه عن بقية المشاركات المقدمة للجائزة، والتي تقاسمها مع الشاعر والقاص الدانمركي نيلس هاو الذي حاول من خلال كتاباته القصصية بداية من مجموعة «حين أصير أعمى»، و«جغرافيا الروح»، ومجموعة «عناصر» إلى مجاميع أخرى، بإرساء أسس إبداعية مكبلة بسلاسل الأبجديتين العربية واللاتينية، في فلسفة تحتويه بهمومها الوجودية التي ظل ينشدها عبر العالم، كالحب والشوق، ودعوته في أعماله القصصية كما الشعرية إلى التسامح، والإعلاء من قيمة الثقافة.

وقررت الأمانة العامة منح هذه الجائزة لهذا العام لصحيفة «نيويورك تايمز»، تقديراً لها لما قدمته للإعلام الحر عبر العالم، وتتويجاً لمسارها الإعلامي لما يزيد عن ستة عقود من الريادة الصحفية عبر العالم، توجتها بأكثر من ٩٥ جائزة بوليتزر، وجوائز أخرى.

وقررت الأمانة العامة منح جائزة البحث العلمي للباحث المصري في جامعة القاهرة الدكتور عماد علي عبد اللطيف علي، عن بحثه المقدم للجائزة «البلاغة

الأبويـة في الخطـاب السياسـي العربي، دراسـة في استعارة «كبـير العائلة المصرية» في خطب «السـادات» اعترافاً بأحقية هذا البحـث عن بقية البحـوث المشاركة بها في الجائزة، لكتابته العلمية الرصينة، المعتمدة علـى التجديـد، ثم لقيمـة الأستـاذ على المستوى العلمي الأكاديمي الدولي، من خلال حضوره البارز محاضراً فطناً، وكاتباً رصيناً، وفائزاً في أرقى المسابقات الدولية والعربية الخاصة بالنقد والبلاغة العربية. كما قررت منح جائزة الشباب للقاص والناقد المصري الدكتـور علاء عبد المنعم إبراهيم غنيم عن بحثه «جماليـات السرد في القصة التراثية، أخبار الطُفيليين نموذجًا»، نظراً لما امتاز به البحث من توثيق علمي دقيق للتراث الأدبي العربـي الذي تناولـه بالدرس والتحليل، وأيضاً لقيمة الباحـث الشاب على مستوى القصة القصيرة والبحث العربيين.(٥)

بغداد تنعي نحاتها محمد غني حكمت:

نعت الأوساط الثقافية والفنية العراقية شيخ النحاتين العراقيين الفنان محمد غني حكمـت الذي وافـاه الأجـل في العاصمة الأردنيـة عمان عـن عمر ناهـز الثمانين عاماً.

ويعـد النحات حكمت مـن أبرز نحاتي العـراق والوطن العربي وأغزرهـم إنتاجاً، وقد نالت منحوتاتـه اهتماماً عالمياً بعد أن توزعت أعداد منهـا في العديد من البلدان لاسيمـا للتميز الكبير الـذي أبدعه والذي أظهـر التأثّـر الواضـح بالفـنّ السومري، وبالآثـار البابليـة، وبالـتراث الآشـوري، وبالحقبـة العباسيـة. وهو الـذي عبّر عن نفسه، في مقدمة كتابه الصادر عام ١٩٩٤م بالقول (من المحتمـل أن أكون نسخة أخرى لروح نحات سومري، أو بابلي، أو آشوري، أو عباسي، كان يحب بلده).

ولـد محمـد غنـي حكمـت في محلـة الانباريـين ببغداد عـام ١٩٢٩م، وتخرج من معهد الفنون الجميلـة عام ١٩٥٣م، حصل على دبلـوم النحت مـن أكاديميـة الفنون الجميلة في روما عـام ١٩٥٩م، حصل على دبلوم الميداليـات من مدرسة الزكا في روما أيضاً عام ١٩٥٧م، حصل على الاختصاص في صب البرونزفلورنسا عام ١٩٦١م.

وساهم في اغلب المعارض الوطنية داخل

العراق وخارجه وحصل على جائزة أحسن نحات من مؤسسة كولبنكيان عام ١٩٦٤م، له مجموعة من التماثيل والنصب والجداريات في ساحات ومباني العاصمة بغداد منها تمثال شهرزاد وشهريار، علي بابا والأربعين حرامي، حمورابي، جدارية مدينة الطب ونصب السندباد البحري في مدخل فندق الرشيد والمتنبي وبساط الريح والخليفة أبو جعفر المنصور والجنية والصياد، إضافة إلى أعمال أخرى لا تحصى، منها ١٤ لوحة جدارية في إحدى كنائس بغداد تمثل درب الآلام للسيد المسيح، كما أنجز حكمت في ثمانينيات القرن الماضي إحدى بوابات منظمة اليونيسيف في باريس وثلاث بوابات خشبية لكنيسة «تيستا دي ليبرا» في روما ليكون بذلك أوّل نحات عربي مسلم ينحت أبواب كنائس في العالم، فضلاً عن إنجازه جدارية الثورة العربية الكبرى في عمان وأعمال مختلفة في البحرين تتضمن خمسة أبواب لمسجد قديم وتماثيل كبيرة ونوافير، كما ساعد حكمت في عمل نُصب الحرية الذي كان من تصميم أستاذه النحات العراقي المعروف جواد سليم الذي وافاه الأجل في سن الثانية والأربعين قبل اكتمال هذا العمل الذي يرمز إلى مسيرة الشعب العراقي من زمن الاحتلال البريطاني إلى العهد الملكي ثم الجمهوري، وتمَّ إنجاز نصب الحرية خلال عامين في فلورنسا في إيطاليا وهو بطول ٥٠ متراً ويضم ٢٥ شخصية بالإضافة إلى الثور والحصان، ويعد أحد أكبر الأنصاب في العالم، ونُقل إلى بغداد عام ١٩٦١ في طائرة خاصة آنذاك.

وحول مسيرة حياته الاجتماعية والفنية قال الفنان الراحل: إنه لم يمارس السياسة، وإن كل أعماله الفنية تؤرخ العراق وتجعل كل عراقي فخوراً بانتسابه لهذا البلد وفخوراً بأنه ابن حضارة وادي الرافدين واعتبر هذا هدفاً يستحق العناء ويدفع العراقي للاعتزاز بهويته وتاريخه، وعندي الكثير من المواضيع أتمنى أن أعود وأنفذها بمادة الحجر العراقي والبرونز العراقي. وأوضح أن كتابه الأخير يتحدث عن أعماله الخاصة بالأبواب التي قام بنحتها في جميع أنحاء العالم ومن أبرزها باب اليونسكو في باريس ومجموعها ٧٠ باباً منتشرة في كل أنحاء العالم وهي متميزة ومطلوبة اليوم في

كل جامعات العالم وخاصة كليات الهندسة نظراً لارتباط العمارة بالأبواب.

يذكر أن حكمت قدم آخر أربعة أعمال نحتية له إلى أمانة بغداد سيتم نصبها في مواقع متميزة في العاصمة بغداد الأول نصب (بغداد) وهو عبارة عن فتاة جميلة تجلس على كرسي بالزي العربي القديم بارتفاع (٣) أمتار تعتلي قاعدة بارتفاع (١٠.٥) عشرة أمتار ونصف المتر ليصل ارتفاع العمل بالكامل لـ(١٣.٥) ثلاثة عشر متراً ونصف المتر ويقع في ساحة الأندلس، كما أقام أوائل العام الحالي معرضاً في غاليري بنك القاهرة . عمان تحت مسمى (فنان من الجيل الجميل) وضم المعرض أكثر من ٤٠ عملا من البرونز، مختلفة الأحجام والمواضيع.[٦]

أوبرا مسقط:

افتتحت سلطنة عمان في عاصمتها مسقط دار الأوبرا السلطانية التي تعد أوّل صرح من نوعه في منطقة الخليج وتحفة معمارية تربط بين الثقافة الإسلامية والموسيقى الكلاسيكية، حيث صمم بناؤها وفق طراز القلاع العمانية.

وقال مدير مشروع دار الأوبرا المهندس حامد بن عبدالله الغزالي: إن «هذا المشروع يعتبر فريداً من نوعه على مستوى منطقة الشرق الأوسط وربما في العالم من ناحية المواصفات والتقنية العالية في مجال بناء المسارح الغنائية ونقاء الارتداد الصوتي». وأشار إلى أن دار الأوبرا السلطانية مثال للنهوض بالفكر والأدب العماني والاهتمام بروائع الفنون العالمية وهي خطوة لبناء إنسان يجمع كل العطاءات.

وأوضح أن دار الأوبرا العمانية تعتمد على المعايير العالمية في مجال تقنيات الصوت كما أن مقاعد الجلوس في قاعة المسرح ستكون قابلة للتعديل وفقا لنوعية العرض سواء كان أوبرا أو مسرحية أو حفلا موسيقيا.، مضيفاً إنه يمكن تحريك خشبة المسرح وفقا لعدد أفراد الأوركسترا وفي حال تقديم عروض موسيقية يتم تعديل المقاعد ليتسع المسرح لنحو ١١٠٠ شخص كحد أقصى، ويمتلك المسرح برجاً علوياً بارتفاع ٣٢ مترا لتسهيل التشكيلات المسرحية إضافة إلى ذلك سيتم استخدام مجموعة من أدوات التقنية الصوتية التي تساعد على امتصاص

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الارتدادات لتحقيق نقاوة عالية.

يذكر أن موسم افتتاح الأوبرا ضم عروضاً موسيقية مشهورة من بينها: جياكومو بوتشيني أوبرا توراندوت بعنوان «قوة الحب» وبلاسيدو دومينجو «قصة عشق للموسيقى لا تنسى». (٧)

باريس تستقبل معرض المغرب وأوروبة:

نظم مجلس الجالية المغربية في باريس معرضاً بعنوان: المغرب وأوروبة ستة قرون في نظر الآخر، بغية تسليط الضوء على الصلات التاريخية والثقافية بين المغرب وأوروبة، حسب رأي الجهات المنظمة للمعرض، وذلك في رابع محطة له بعد محطات الرباط، وبروكسيل، وأنفرس ببلجيكا.

وضم هذا المعرض الذي يندرج في إطار اتفاق الشراكة الموقع بين المغرب والاتحاد الأوروبي ٢٠٠٨م، الذي حدد شروط التعاون الاقتصادي والاجتماعي، والثقافي بين الطرفين.. حوالي ٦٠٠ قطعة فنية (لوحات تشكيلية، ووثائق قديمة، وصور فوتوغرافية..)، في سبعة محاور تبرز تطور العلاقات التاريخية بين أوروبة والمغرب منذ القرن ١٦ إلى يومنا هذا.

وتعد هذه الوثائق، التي لم يسبق عرض أغلبها بفرنسا، شاهداً تاريخياً على تطور العلاقات الدبلوماسية والثقافية بين المغرب وعدد من الدول الأوروبية، لاسيما منها، فرنسا، والبرتغال، وإسبانيا، وإيطاليا، وإنجلترا، وألمانيا، وبلجيكا، وهولندا.. كما تبرز هذه المحاور تاريخ العلاقات بين المغرب وأوروبة، وأهمية المخيال سواء بالنسبة للأوروبيين، الذين كانوا على اتصال مع المغرب، أو بالنسبة لأذهان المغاربة تجاه أوروبة.

وتهدف هذه التظاهرة الفنية إلى تفكيك الصور النمطية المتداولة، وإرساء مفهوم جديد للعلاقات التاريخية عبر تمتيع الجمهور العريض بمظاهر تنوع وغنى المبادلات بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، ورافق هذه التظاهرة إقامة ندوة حول راهن العلاقات الفرنسية المغربية شارك بها مجموعة من ذوي الاختصاص في المجالات السياسة، والاقتصادية والثقافية في كلا البلدين.(٨)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

محمية الإنسان القديم:

تعتبر منطقة الجلف الكبير الواقعة في أقصى نقطة بجنوب مصر الغربي، قرب حدود مصر والسودان وليبيا، متحفاً طبيعياً لما تضمه كهوفها من آلاف الرسوم لأشخاص يسبحون وحيوانات كالزرافة والغزال والأسود،

وتقع منطقة «الجلف الكبير» على مساحة ٧٧٧٠ كيلومتر من الحجر الجيرى والحجر الرملي ترتفع ٣٠٠ متر عن الصحراء المحيطة بها، يتخللها أودية، أبرزها (وادي طلح)، و(وادي عبد المالك)، و(وادي حمرا)، وقد أخذ الأخير اسمه من لون رماله، كما وصفها محمد رمضان أحد منظمي رحلات السفاري، مضيفاً إن منطقة الجلف الكبير أعلنت محمية عام ٢٠٠٧، وتضم هذه المحمية تراثاً ثقافياً وبيئياً وطبيعة فريدة ذات أهمية دولية متميزة كجبل العوينات الذي يمتد بين مصر وليبيا والسودان بمساحة ٨٠٠ كيلومتر مربع وارتفاع ١٩٤٣ متراً، كما تضم منطقة «السلكا» الزجاجية ذو الصخور الخضراء البلورية.. بالإضافة إلى وادي «صورة» و«كف المستكاوى» والذي يحتوى على أكثر من ألفي صورة من النقوش ورسوم الإنسان الأول، وكذلك وادي «عبد الملك» ووادي «بخت» ووادي «حمرة» والعديد من الآثار الفرعونية ورسومات ما قبل التاريخ.

وأكد أحمد سلامة مسؤول محميات المنطقة الغربية بمصر، أن هذه المنطقة من أجمل مناظر الصحراء الغربية على الإطلاق بصخورها الخضراء البلورية، وأضاف إنها تكونت من صدمة نيزكية ضربت منطقة تسمى «جرة الحنش» قبل ٢٧ مليون سنة، وحينما اصطدم النيزك بالرمال خلق درجة حرارة مرتفعة جداً حولت الرمال إلى سليكا، وبدراسة هذا المركب الأخضر تبين وجود عناصر كيميائية لا وجود لها في الحقول النيزكية المعروفة، في ظاهرة نادرة الحدوث بالعالم كله، ويبدي سلامة أسفه لأن أغلب صخور المنطقة سرقت من قبل الطامعين والمغامرين، لهذا لم يتبقّ منها غير قطع صغيرة متناثرة.

وتعدُّ هذه المنطقة غنية بالتراث الإنساني الذي يشمل ما قبل الدولة الفرعونية القديمة حيث هناك آلاف الرسومات على عشرات الكهوف بالمنطقة تتحدث عن المنطقة عندما

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

كانت تنتمـي إلى مناخ مختلف حيث شهدت عصراً مطيراً ما أدى لوجود حشائش وأشجار وبحيرات، ولهذا وجد في العديد في الكهوف رسومات لأشخاص يسبحون في كهف سمي عقب ذلك كهـف السابحين، عندما اكتشفه المغامر المجـري الكونت لاسزلو ألماسي، إلى جانب عدة آلاف مـن رسومات بدائية على الصخـور، وأخرى محفـورة؛ ويستأثر وادي كركور طلـح، في جبل العوينـات، بأكثر من أربعة آلاف من هـذه الرسومات والنقوش، التي يصـور جانب كبير منها أنواعاً مختلفة من الأغنـام والماشيـة، وكان الاعتقاد لدى رجال قبيلـة (الجوران) إحدى القبائل التي سكنت المـكان، في العشرينيـات من القرن العشرين، أن تلـك الأعمال الفنية من صنع الجـان، لأن أي منهـم لم يشاهد أغلب هذه الكائنات في حياته.(٩)

معرض الكتاب الدولي في موسكو:

بمشاركـة ١٢٣٠ دار نشـر من ٤٥ بلداً، احتضـن مركز المعارضـ الروسي فعاليات معرضـ موسكو للكتـاب في دورته الرابعة والعشرين.

واحتوى المعرض على أكثر من ٢٠٠ ألف عنوان جديد في عشـرات اللغات، وأقيمت في إطار نشاطاته الموازية قرابة ٥٠٠ فعالية ثقافيـة، وفنية، وشهد لقـاءات مع الكتاب وطاولات مستديرة ومنتديات، وعرض نتائج مسابقة كتاب العام.

تجـدر الإشـارة إلى أن المعرض الدولي للكتاب في موسكو تقليد قديم اعتاد الاتحاد السوفيتـي مـن خلالـه عرضـ إنجازاته على صعيد الكتابـة والنشر، حيث انطلقت فعاليـات المعرض الدولي للكتاب في موسكو لأول مرة عام ١٩٧٧م وكان ينظم مرة واحدة كل عامين حتـى ١٩٩٧م حيث اتخذ طابعا سنويا.

وقـد حضر إلى المعرض ضيوف عالميون كالكاتب البرازيلي باولـو كويليو والفرنسي برنـار فيربـير وغيرهـم مـن روّاد الرواية المعاصـرة.. وكانـت إيطاليـا ضيف شرف المعرض حيث وقع الاختيار عليها هذا العام حسب تقاليد إدارة المعرض.(١٠)

تشارلز ايكنز في ٢٠٠ عام:

تستضيـف مدينـة نيويورك بـدءاً من سبتمبر الماضي ولغاية شباط القادم الكاتب الفيكتـوري الكبـير تشارلـز ديكنز (١٨١٢

- ١٨٧٠م)، في معرض يسلط الضوء على مخطوطات ووثائق خاصة به، بمناسبة مرور ٢٠٠ عام على ولادته.

وتقوم مكتبة ومتحف مورجان في المدينة الأمريكية بتخصيص المعرض الذي يحمل عنوان «تشارلز ديكنز في ٢٠٠ عام» من أجل التركيز على علاقة روايات الكاتب بمختلف الأنشطة والإسهامات الفنية والمسرحية والخيرية. ويلقي المعرض، أيضاً، الضوء على الرسائل والمخطوطات الأصلية التي خطها يراع ديكنز، وتشكل مجموعة ضخمة، ذات أهمية لها في الولايات المتحدة الأمريكية، خصوصاً إذا عرفنا أن الجزء الأكبر من مخطوطات مؤلف «أوليفر تويست» موجودة في موطنه الأصلي بريطانيا.

وتعرض على الجمهور المخطوطات الخاصة بالرواية الأخيرة التي كتبها تشارلز ديكنز في عام ١٨٦٥م، وهي «صديقنا المشترك»، التي تعود ملكيتها إلى مكتبة مورجان، حيث يكون بمستطاع زوّار المعرض التعرف، من خلالها، على عملية الخلق الفني أثناء كتابتها.

وتكشف الرسوم الأصلية لكتبه، ورسائله الشخصية جوانب أخرى من حياة ديكنز، مثل علاقته بالفنانين الذين ساهموا من خلال رسومهم في كتبه، ورحلاته، أو التزامه الاجتماعي، حيث عُرف عنه اهتمامه الشديد بموضوعات مثل الفقر والدعارة.

وإلى جانب ذلك، سوف تسنح الفرصة لرواد المعرض الاطلاع على المسوّدة الأصلية لرواية «أنشودة عيد الميلاد» التي كتبها ديكنز في عام ١٨٤٣م، والتي تعد من أكثر أعماله الروائية شعبية وانتشاراً.

ويتضمن البرنامج الذي يرافق افتتاح معرض «تشارلز ديكنز في ٢٠٠ عام»، المكرّس للإرث الأدبي الخاص بالروائي العالمي، معارض للكتب، والصور، والرسوم الكاريكاتيرية، وعرض الأفلام، والمحاضرات، والقراءات، والنشاطات الأسرية.

وفي عام ٢٠١٢م سوف يحتفل العالم بمناسبة مرور ٢٠٠ عام على ميلاد الكاتب الإنكليزي تشارلز ديكنز، مؤلف الروايات الشهيرة، التي تستعين بها السينما والتلفزيون بصورة دائمة، وحتى الآن، مثل روايات «ديفيد كوبرفيلد»، و«الآمال الكبيرة»، و«قصة مدينتين»، وسواها.[١١]

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لوحة لغويا تخفي لوحة أخرى:

عُثر تحت إحدى روائع غويا على لوحة مخفية أخرى رسمها الفنان الإسباني. وظهرت اللوحة الأولى باستخدام تكنولوجيا جديدة لأوّل مرة منذ رسم غويا لوحة أخرى فوقها لأسباب سياسية على ما يبدو.

وكان أمناء متحف ريكس في أمستردام يعلمون بوجود شيء ما تحت لوحة غويا المتقنة التي أنجزها عام ١٨٢٣م، وهي بور تريه دون رامون ساتويه، أحد قضاة محكمة مدريد العليا وقتذاك، ولكنها كانت باهتة بحيث لم يتمكنوا من فك رموز التفاصيل فيما بقي تحديد معالم الصورة الكاملة متعذرا.

ولكن تكنولوجيا جديدة تستخدم الأشعة السينية ذات القوة الاستثنائية أتاحت رؤية اللوحة الخفية كاملة لأول مرة. ويُعتقد أنها صورة قائد عسكري فرنسي أو حتى جوزيف بونابرت، شقيق نابليون الذي جلس لفترة قصيرة على عرش إسبانيا. وأصبح ممكناً الآن رؤية كل تفاصيل اللوحة، من عمل الفرشاة إلى النياشين التي يسطرها صاحب الصورة على بدلته العسكرية.

وقال الباحث يوريس دك الذي ساهم في تطوير التكنولوجيا: إنها أي التكنولوجسا أتاحت لفريقه أن يكشف عن لوحة للرسام غويا لم يرها أحد من قبل.

وكانت هذه التكنولوجيا جُربت لأوَّل مرة قبل عامين على لوحة للرسام فان كوخ عندما كشفت عن بور تريه لم تكن معروفة من قبل رسمها لفلاحة ثم رسم فوقها لوحته «رقعة العشب» التي أنجزها عام ١٨٨٧م، مضيفاً أن النياشين التي يرتديها الجنرال في لوحة غويا الخفية ترتبط بنظام للشارات والأنواط استحدثه جوزيف بونابرت شقيق نابليون خلال عهده القصير في حكم إسبانيا من ١٨٠٨ إلى ١٨١٣م. والأرجح أن تاريخ البور تريه يعود إلى الفترة الواقعة بين ١٨٠٩ و١٨١٢م. ولكن امتلاك لوحة ترتبط بنابليون بعد انسحاب جيوشه من إسبانيا كان مجازفة. وقال الباحث دك أن غويا ساير الفترتين، فترة وقوع إسبانيا تحت السيطرة الفرنسية وفترة عودتها إلى ملوكها. وبعد عام ١٨٢٠م كان من شأن لوحة كهذه أن تسبب مشاكل للفنان. وفي هذا الوقت يعتقد الباحثون أن غويا قرر إخفاءها برسم لوحة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أخرى فوقها وهي بور تريه القاضي ساتويه التي يعود تاريخها إلى عام ١٨٢٣م.

وفي السياق ذاته يؤكد قول خبراء أن هناك إمكانات هائلة للكشف عن أعمال فنية لأن كثيراً من الفنانين كانوا يعيدون استخدام القماشة نفسها، عادة للاقتصاد في النفقات أو لإخفاء عمل سابق لم يكونوا راضين عنه.

وكان الفنان فرانسيسكو دي غويا (١٧٤٦-١٨٢٨م) أنجز خلال حروب نابليون روائع مثل «كوارث الحرب» وهي من أعمال الحفر ردّ فيها غويا على فظائع الجيش الفرنسي المحتل.[١٢]

إحالات

١- وكالة الأنباء العربية السورية «سانا»	WWW.SANA.ORG.
٢- وكالة أنباء الشرق الأوسط	WWW.MENA.ORG.EG.
٣- موقع بي بي سي	WWW.BBC.CO.UK/ARABIC.
٤- شبكة المعلومات العربية المحيط	WWW.MOHEET.COM.
٥- موقع العرب أونلاين	WWW.ARABONLINE.CO.
٦- موقع البوابة	WWW.ALBAWABA.COM.
٧- موقع ميدل ايست أن لاين	WWW.MIDDLE-EAST0ONLINE.CO.
٨- وكالة الأنباء العمانية	WWW.OMANNEWS.GOV.OM/ONA
٩- موقع نسيج	WWW.NASEEJ.COM.
١٠- وكالة أنباء موسكو/ نوفوش	WWW.AR.RIAN.RU
١١- موقع إيلاف	WWW.ELAPH.COM
١٢- وكالة رويترز	WWW.REUTERS.COM.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كتاب الشهر

الفكر الديني والمجتمع

عرض وتقديم: محمد سليمان حسن ٥

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الكتاب في ماهيته، مثار إشكالية، بداية بعنوانه، وانتهاء بما احتواه في متنه. ولعلَّ إشكالية الكتاب تكمن في أن المؤلف يقدم رؤيته وفق ثنائية غير قابلة لا للتماهي ولا التجاور ولا التحايث. فهي إشكالية أقطاب أضداد بالمعنى المنطقي الأرسطي. فالعقلانية ترى الفكر الديني بوصفه بنية معرفية قابلة للحوار والنقاش والانتقاد، متجاوزة حيثيات المقدس بوصفه خارج النقد. والدين يرى نفسه برؤية معرفية تسليمية خارج نطاق نقد المقدس، بوصف المقدس مسلمة بديهية، كما هي بديهيات فيثاغورث. والمجتمع برأي المؤلف يقع ضمن رؤية المجتمع المؤطر برؤية مسبقة، حتى ليقال لنا المجتمع الديني وليس المجتمع المتدين وشتان بين الأمرين.

٥ باحث سوري.

في الأحوال كافة، -الكتاب مثار التقديم جدير بالتقديم لأهميته بما هو مقولة معرفية إجرائية، تثير المفاهيم والاستنتاجات. الكتاب بعنوان «الفكر الديني والمجتمع.. حجب للفكر أم للرؤية» والمؤلف هو الباحث الأستاذ الدكتور إسماعيل مروة. الكتاب صادر عن دار الشرق للطباعة والنشر بدمشق للعام ٢٠١١. ويقع في /١٦٦/ صفحة من القطع الوسط. نقدم عرضاً له بما يتسق والمعطيات المعرفية للكتاب.

• • •

الأيديولوجية الدينية.. هزيمة مجتمعية..

يعاني الواقع الإسلامي والعربي من أزمات عدة. يتفق حولها ويختلف. البعض يراها في المسلمين، وآخر في الإسلام، البعض يراها لأسباب خارجية، وآخر داخلية. والغاية من كل ذلك، إضعاف الأمة والهيمنة عليها، وتحقيق المصالح.. الأزمة في الفكر الإسلامي لا تنحصر في المسلمين، والإسلام فقط، بل تتجاوزه إلى المسيحية أيضاً، بصفتها فكراً شرقياً.. والأزمة تتمثل في أدلجة الدين، فظهور الأحزاب الدينية. وزاد في الأمر دخول المال الديني والأيديولوجي في الصراع. واستغلت الأزمات الاقتصادية والبطالة في المجتمعات الإسلامية، مما أدى إلى تأثير مضاعف شمل: المذاهب الأيديولوجية، والخطاب الديني، والمرأة، وانحسار التعليم..

ألسنة الخطباء والحور العين..

أكثروا من الزواج، لأن زوجاتكم في الحياة الدنيا، هن في الآخرة. ولكم ما تشاؤون من الحور العين، إن كنت من المؤمنين. لك ما تشتهي من ملذات الطعام. حتى الخمر مباح في الآخرة.. هذا ما تفوه به أحدهم في مجلس عزاء على ما يروي المؤلف. لا أعلم ما الذي دفعه إلى اختصار الإسلام بذلك أو بتلك الشهوة. أهكذا يتم وعظ الناس، وتربية الإنسان، أبهذه الصورة نقدم المولى سبحانه وتعالى إلى العامة؟!.

د. حسون: المشكلة في الإسلام السياسي..

إن ما دار بين المفتي العام للجمهورية العربية السورية أحمد بدر الدين حسون والوفد الأمريكي، كان مثار نقاش واختلاف لأئمة علماء الدين المسلمين في سورية. بين موافق ورافض، بين من قرأ الأمر قراءة مشوهة، وبين من قرأ النص بروية واستفهام. ولعلَّ المشكلة ليست في الإسلام، فهو واضح وجلي، بل في الإسلام السياسي الذي يرى الدين في خدمة السياسة ليس إلا.. ولعلَّ هذا ليس بجديد فمنذ الإصلاح النهضوي التنويري العربي، حاول مفكرو الإسلام إظهار جوهر الإسلام، فكانت طروحات الأفغاني ومحمد عبده ومحب الدين الخطيب. ولعلَّ المعاناة الأولى تكمن في تاريخ الفكر الإسلامي الناشئ عن فكرة خطيرة ألا وهي

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

غيـاب الاجتهاد. وارتبـاط المؤسسة الدينية بالسياسة، وصـارت حياتنا الفقهية تدور في دوائـر مغلقـة ومفرغة غير قابلـة للتجدّد. وصارت مهمة المفتي في الديار الإسلامية أن يجلس على كرسي صامت لا يخرج عنه صوت إلا إذا أراد الحاكـم ذلـك. فمن محمد عبده إلى مفتينا بدر الدين حسون لم نجد علامات أدركـت مهمتها الحقيقيـة. إن العداء الذي يوجه سهامـه إلى الفكر المتنـور في الإسلام ناجم عـن الجهل بالإسلام سـواء من عامة النـاس أم مـن القائمين على أمـور الدين.. مجتمع بهذا التسطح كيف له أن يستقبل ثراءً فكرياً ومعالجات عميقة.

المفتي وثقافة الإنسان.

للأسرة عند المفتي مفهوم إنساني وروحي وعصبـي. مـن آدم عليه السلام إلى محمد عليه السـلام. والمفهـوم الروحي من خلال فكـرة الإيمان والحـب. والمفهـوم الإنساني غايـة. فالأنبيـاء رسل الإنسانيـة. فالديني يخضع للإنسـاني. والإلهي هـو البعيد عن التأويل والتفسير والرغائـب.. دعوة لتغليب الفهم المنظور للإلهي، بدلاً من الفهم الضيق للجماعة.

الحجاب الوافد..

الحجاب للمرأة المسلمـة بمفهومه العام مثـار جدل وحـوار في الشـرق والغرب على السـواء. وفي الشـرق تناولـت الآراء حـول الحجـاب إلى حـد التضاد، وبـين المسلمين

خلافـات عديدة في شرعية الحجاب النصية وفي حدوده.

هناك أسئلة مطروحة من المسلمين الذين التزموا الحجاب بمفهومه الواسع أو الضيق: هل يشكل الحجاب حاجزاً للمرأة؟ هل المرأة المحجبـة أكثر صونـاً؟ مـادور الهجمة على الإسلام بالارتداد إلى الحجاب؟

يستند مؤيدو الحجاب إلى النص القرآني. ويستنـد المجادلون إلى فهـم النص القرآني. وقد ورد الحجـاب في القرآن في نصين: (**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً**). وقوله تعالى: (**وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ**

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بُعُولَتِهِنَّ أَوْ..) وقد دار نقاش طويل حول معنى ذلك. مع أن الجواب جاء صريحاً في حديث للرسول الكريم يقول في ذلك: لأسماء بنت أبي بكر: «يا أسماء إن المرأة إذا بلغت سن المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وأشار إلى وجهه وكفيه» ثم ماذا بعد ذلك؟.

الإسلام وقتل المرتد؟!

الحدود في الشرع موضوع شائك للغاية.. والأمر يحتاج إلى اجتهاد وقراءة واقعية للنص والواقع. وفي حد المرتد مابيّنه الحديث الشريف: «عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يحل دم امرئ مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث، النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة». فهل يجب قتل المرتد؟ وما مفهوم الردة؟

الردة أمر عقيدي عقلي ضميري إيماني، وهو من أصعب الأحكام في الأديان. وقد جاء في اللغة: الارتداد الرجوع. أما القرآن الكريم فقد أورده بالقول: ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة «وفي سورة المائدة» **(مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)**.

أما مفتي الجمهورية الدكتور أحمد بدر الدين حسون فيقول بالنص: «أنا لا أقول بقتل المرتد، القتل حينما يتحول المرتد إلى داع للردة، أما حينما يرتد في نفسه ويبتعد ولا يكون داعياً لردة فما عليّ أن أقتله.. أعتقد أن المرتد يقتل إذا صار داعية للردة، فالمرتدون قوتلوا لأنهم بدؤوا يجعلون من الردة دعوة.. ولذا أنا أمنع التبشير في سورية لأنه يعتدي على حريتي..».

هل الأطفال أحرار في اختيار الدين؟!

تقتضي المهمة الاجتماعية التثقيفية التنويرية فتح ملف (الحرية الدينية للطفل) إيماناً بتعدد الآراء وضرورة الاختلاف، ومن خلال رؤية الدينين الإسلامي والمسيحي، ومن وجهة نظر قانونية، ووجهة نظر علمية.

جاءت اتفاقية الأمم المتحدة في أربع وخمسين مادة أكدت على حق الطفل في حرية الفكر والوجدان والدين وواجبات الوالدين، وعدم الإجهار بالدين إلا مما يلزم به القانون.

وقد أدلى السيد سماحة المفتي في سورية برأيه من قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (هذبوا أولادكم على ثلاث خصال: حب نبيكم وحب آل بيته وقراءة القرآن). فالطفل في الطفولة يقرأ، أما بعدها يفكر. أنا واحد ممّن يقولون بالحرية: إيّاكم ألاّ تحترموا حرية الطفل في الفكر والوجدان والدين، إيّاكم لأن كل دين يؤخذ بالإكراه أو يدخل بالإكراه يخرج بالهروب، فإن أبا يكره أولاده على الصلاة إن غاب عن البيت لن يُصلوا..».

الخطبة الدينية بين الجهل والتزمت..

المؤسسة الدينية دوماً مثار جدل. وأن ما

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ينقلـه الناس من اتهامات لهذا الدين أو ذاك لم تأت من فـراغ. لذلك لابد من الحديث في مرسل الخطاب الديني.. لم يبتل النص المقدس بشيء أقسى مـن السلطة الدينية الكهنوتية، التي سعـت لإضفـاء القداسة علـى بعض الشخصيات والتي منعت من النقد والانتقاد، مما أدى إلى ظهور الأحزاب والطوائف والملل والنحل، علماً أن الدينية العلمية رفضت مثل هذا التقديس.

هناك دعوات تتحدث عن تجديد الخطاب الديني، من دون جـدوى، لأن هذه الدعوات بقيـت في إطار قمة الهرم الديني، بعيدة عن الخطاب التجديدي الذي يلتزم الدين واتباعه قبـل أن يلتزم غيره.. وقـد ورد عن الرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم- عن أن الخطبة عظـة قصيرة ليس إلا، تكـون طريقاً للوعي الدينـي والحياتي. أما أسباب تحول الخطبة عن مسارها فهي: التأثـر الأيديولوجي لدى بعض الخطبـاء. الثقة الزائـدة بالنفس من دون دراية وعلم. البعد عن الأكاديمية العلمية الدينية. زيادة عدد المساجد التي تمارس فيها خطب الجمعة. تخريج المعاهد الشرعية لعدد من الخطباء الشباب الصغار في السن، الذين لم يكتسبوا المعرفة الدينية.. وبالتالي كان لابد من التصحيح.

القبيسيات.. ما هي؟.

سورية من الدول التـي ترفض الأحزاب الدينيـة، لكن المفاجأة عندمـا يعلن أحدهم عكس ذلك فيقـول: إن (القبيسيات) جمعية مرخصـة من الحكومـة، وتمارسـ عملها، وامتدت بأنشطتها على مساحة سورية كافة. وهي لا تقف عند حـدود الدرس الديني في المسجد، بل إلى الدعوة جهاراً في الشوارع. أما جواب مؤلفنا فـكان بالعودة إلى المفتي العام لسوريـة ليخلص لنا بالتـالي: إن القبيسيات فئـة أساسهـا صحيح وفكرهـا سليم، لكنها استغلـت من جماعـات دينيـة، استثمروها لمصالحهـم ممـا أدى إلى نتائـج سلبية على صعيـد العقيـدة والمجتمع. لذلـك لابد من إعـادة رعاية وصقل هـذه الفئة للخروج من بعضـ السيطرة والقوقعـة التي تشدهن إلى أمور أقرب للخرافة منها للتعاليم الشرعية.

موقع الإسلام في صراع الحضارات.

يرتكـز المؤلف في بحثه هـذا على كتاب «موقع الإسلام في صراع الحضارات والنظام العالمي الجديـد» لمؤلفه «محمـد السماك». والـذي يرى فيـه المؤلـف أن كل الصراعات الدينيـة الكبرى في العالم، يشكل الإسلام أحد طرفيها. وهذا يعني أن غير المسلمين يرون في الإسلام مشكلة. والمسلمون يقولون إن الإسلام مستهدف. ويضيف المؤلـف وجود التقاعس الإسلامـي والمؤامرة الخارجيـة.. وهذا ما دفـع الغـرب إلى إما امتصاصـ الإسلام أو عزل الإسلام. ثم يتحـدث المؤلف عن الفكر الديني الإسلامي في صناعة القرار السياسي إسلامياً في الإسـلام وفي الديانات الأخرى.

لينتهي إلى أن الحضارة الغربية اليوم أسيرة المشروع الصهيوني القائم على إلغاء الآخر، لذلك استمرت النظرة العدائية للمسلمين.

موقع الإمام محمد مهدي شمس الدين في الإسلام والاجتهاد.

ولد الشيخ محمد مهدي شمس الدين في النجف الأشرف عام ١٩٣٦م وتلقى فيها علومه الدينية. قضى في العراق ٣٣عاماً شارك فيها في العمل الإسلامي والتربوي والاجتماعي وفي التدريس. عاد إلى لبنان ١٩٦٩م ليشارك مع الإمام موسى الصدر في الحركة السياسية. أسس الجمعية الخيرية الثقافية عام ١٩٧٦م. له مؤلفات كثيرة في الفقه والفلسفة والتاريخ والسياسة، يعد أحد أبرز الوجوه الفكرية العربية والإسلامية المعاصرة. ينطلق من شمولية دينية وعلمانية ويؤمن بالرأي الآخر كما يؤمن برأيه. ينطلق في طروحاته من القضايا التالية:

١- رفض اللبوس الطائفي للقضايا الاجتماعية والإنسانية.

٢- الوقوف أمام محاولات الاستدراج والثقة بالآخر.

٣- المرجعية والإيمان بمرجعيات الآخر على مبدأ الحوار.

٤- رفض المذهبية المتسمة بالانغلاق الفكري.

٥- جدل العلاقة بين الفقه والقراءات العامة.

البحث عن هوية ثقافية..

لايوجد في تاريخنا العربي والإسلامي أي مفكر أو فيلسوف بالمعنى التنظيري والتأسيسي. بل تحفل بالقراء الذين يمتلكون رؤية قرائية أو تأويلية.. منذ بدأت النهضة العربية مطلع القرن العشرين بدأت الدعوات لنهضة الأمة، وما من دعوتين اتفقتا على أمر واحد، ولهذا كان للتجاذب والصراع الأثر الكبير في لجم نهوض هذه الدعوات الفكرية.. ثم يتحفنا المؤلف بموت النزعة العلمانية وعدم نجاح التيار الديني وتحوله إلى مذهب وصراعات.. فنحن بما نحن عليه من تخلف اليوم ننحو إلى جاهلية جديدة.. فلننظر إلى ماضينا في ظرفه التاريخي ولنعش حاضرنا بعيداً عن هذا الماضي.

الفكر الديني عصبيات لا تنتهي..

جاءنا الإسلام وألغى العصبيات. وجاءت الدولة الإسلامية المدنية من إهاب الدين. وفصلت بين الدين والدولة، وحددت مرجعيات مستقلة. بعض الذين يستخفون بالمرجعيات الدينية استطاعت أن تحقق حضوراً نوعياً بعد تحالف بين السياسي والديني، لتبدأ نزاعات وعصبيات، والخاسر هو المواطن التابع روحياً ومادياً، دينياً وسياسياً. ورغم الإخفاقات لم نتعلم من فشلنا بل ذهب بعضنا إلى محاولة إقامة تحالف ذهني مشبوه بين هذه العصبيات الدينية لإدامة وجودها المؤسساتي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الثقافة العلميّة

رئيس التحرير

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شغل موضوع تعريف «الثقافة العلميّة» في السنوات الأخيرة مجموعة كبيرة من العلميين والمفكرين والباحثين العرب، بشكل ملحوظ لم نألفه من قبل، ربما يعود السبب إلى تزايد سرعة تطبيقات منجزات العلم والتقانة و«ثورة المعلومات» المتلاحقة، وكنموذج لما قرأناه، نورد بعض التعريفات الموجزة:

«إن أهم أهداف الثقافة العلميّة هو تبسيط العلوم ونشر حقائقها على نطاق جماهيري واسع». وجاء التعقيب على هذا التعريف ليشير إلى أن نشر الحقائق العلميّة المبسّطة ليس الهدف النهائي للثقافة العلمية، فالثقافة بمعناها الواسع هي محصلة العلوم والمعارف والفنون التي يسترشد بها الإنسان لاتخاذ مواقفه وطريقه في الحياة، ومن أهم أهداف الثقافة العلمية أن يتخذ الإنسان نفسه الطريق أو النهج العلمي لحَل مشاكله في الحياة اليومية، ويعني هذا أن يواكب تبسيط العلوم تفسير النهج الذي يتناول العلماء به مشاكلهم العلميّة، وكيف يصلون إلى حلّها، والثقافة العلمية تتيح لغير المتخصص فرصة الإلمام بالمنهج العلمي الذي لاغنى عنه لتقدم أي مجتمع، لا في حل المشاكل العلميّة، وإنّما لحلّ مشاكل الحياة العملية اليومية.

حتى يتم ذلك بشكل علمي وعملي لابد أن يكون الناس ملمّين بالمعلومة والمنهج معاً وليس بالمعلومة وحدها، وهذا يتطلب الاستعانة بوسائل نشر المعلومات، والثقافة العلمية.. مما أثار موضوع «من يتولى نشرها»؟! أهو العالم المتخصص الأكثر دراية من غيره بدقائق علمه والقادر على تبسيطه من دون تحريف أو قصور.. أم الإعلامي المتخصص في الاتصال الجماهيري، العارف بسبل تحقيق هذا الاتصال بفاعلية وسهولة وبساطة.

وبعيداً عن قضية نشر الثقافة العلمية، أيّاً كان تعريفها، عاد الحديث إلى التأكيد على أن الثقافة العلمية ليست بديلاً عن الفكر العلمي، الذي من دونه تصبح أيّة ثقافة علميّة بنياناً لم يكتمل بعد، هشّاً بلا أساس متين، لافتقاد الرابط بين الثقافة العلمية والفكر العلمي، ومجرد لهاث وراءكم يتزايد بحدّة من المعلومات العلميّة في عصر «الإنترنت» من دون أن يغيّر هذا شيئاً من أمرنا، ما بقي

العقل العربي مسرحاً للعديد من المتناقضات المتعايشة التي لا بد وأن تنفجر مخلّفة من المآسي ما نعلم اليوم إلى أي حدّ يكتوي بنارها الإنسان العربي..

المأزق الحضاري الذي نعيشه، في هذا الرأي، هو أن الحضارة الغربية حضارة متطورة، لا تكفّ عن الإبداع الذي يتخذ شكل السيل الجارف الذي يدهمنا ويغرقنا ونحن مستسلمون له صاغرون لا نملك من أمرنا شيئاً، وبكل أسف أن نسبة «الأميّة العلمية» بين المتعلمين في مجتمعنا العربي لا تقل كثيراً عن نسبة «الأميّة التقليدية»، والسؤال الذي يطرح نفسه أمام هذا الواقع: كيف وصلنا إلى هذا المستوى؟ وكيف يمكننا إصلاحه؟.. هناك من يعزو ذلك إلى نظامنا التعليمي وأسلوب التلقين الذي ما زال شائعاً في كل مستويات التعليم، الأمر الذي يقتل ملكات التعقّل والتفكير والتحليل والربط وحب الاستطلاع والحب الدائم للمعرفة، ومن ثم يفصل بين العلم والمعرفة، وبين العلم والثقافة وبين العلم والمجتمع، بل وبين العلم والعلم.

والرأي عندنا أن الثقافة العلميّة في عالم اليوم، تؤكد منهجاً في التفكير يقوم على المنهج العلمي (بالمعنى الأوسع لتعبير المنهج وليس مجرد التجريب والإحصاء) وهي مرتبطة أشد الارتباط بكلٍ من التفكير النقدي والوعي الموضوعي، وتحقيق هذا الوعي يحتاج إلى أبجدية علميّة «معلومات» وطريقة في التفكير، وموقف من الحياة، ولا شك أن الإنسان الذي يقترب من الاعتبارات والمفاهيم التي تتضمّنها الثقافة العلمية، يتأثر إلى حدّ كبير بمسار المجتمع من حوله، وهنا بيت القصيد؟!.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com